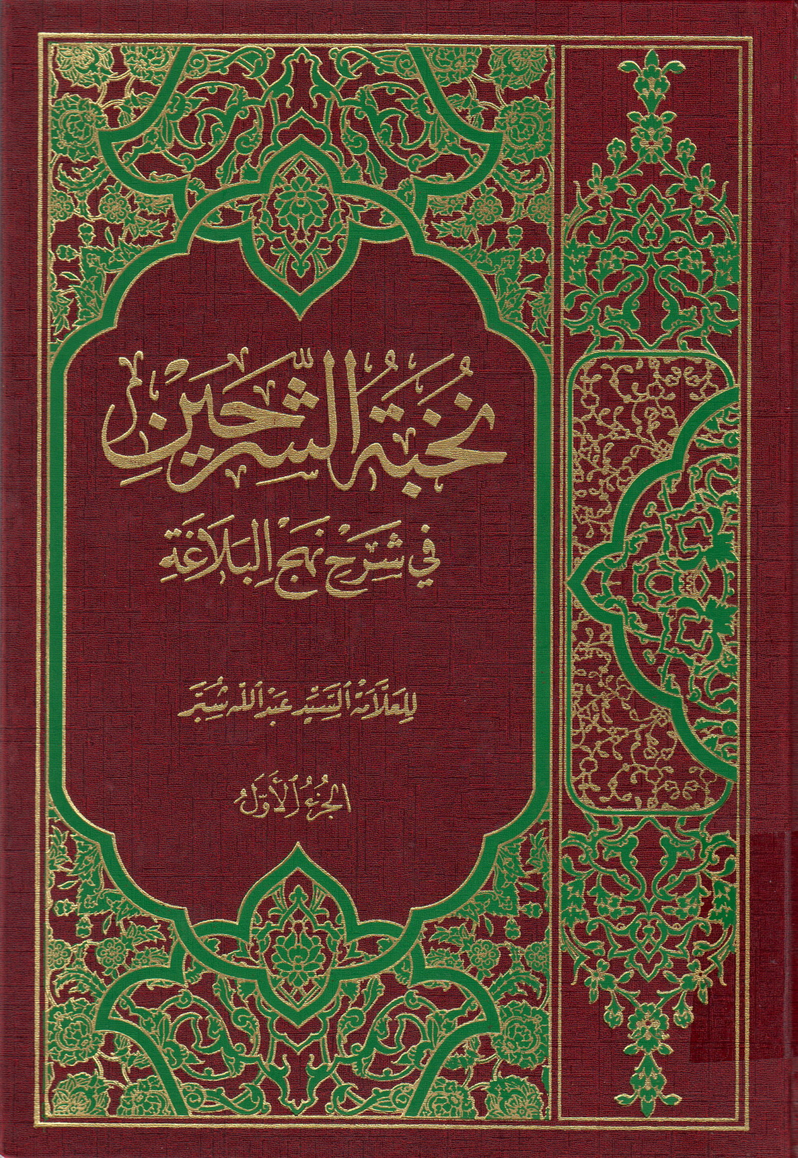


نخبة الشرحين
في شرح نهج البلاغة
للعلامة السيد عبد الله شبر
الجزء الأول


نخبة الشرحين
في شرح نهج البلاغة

نخبة الشرحين

(شرح نهج البلاغه)

للعلامة السيد عبدالله شبر (ره)

الناشر : انتشارات محبين
الكمية : ١٠٠٠ دوره (١-٤)
تاريخ الطبع :١٤٢٥ه/٢٠٠٤م
الطبعة :الأولى
الزينكغراف : مدين
المطبعة : النهضة
شابك ج ١ : ٩٦٤-٧١٠٣-٦٦-٢
شابك الدوره : ٩٦٤-٧١٠٣-٧٠-٠



انتشارات محبين للطباعة و النشر تلفون : ٧٧١٣٦٩٩

مراكز التوزيع : ايران / قم / سوق القدس / رقم ٩٢ / تلفون ٧٧٣٧٦١٩ / مكتبة المصطفى
ايران / قم / سوق القدس / رقم ٥٧ / تلفون ٧٧٤٢٣٤٦ / انتشارات انوار الهدى



في شرح نهج البلاغة



الجزء الأول

للعلامة السيد
عبد الله شبر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين أجمعين.

أمّا بعد:

فإنّ هذا الكتاب الجليل المسمّى بـ«نخبة الشرحين» للعلّامة المحقّق الجليل السيّد عبدالله بن محمّد رضا الحسيني شبر ﵀ من الكتب التي ليس لها نظير في الدقّة من جانب، ومن سلاسة البيان من جانب آخر، فهو يحتوي على خطب أمير المؤمنين ﵇، وعلى كتبه، وعلى قصار الحكم، لكنّه حين طبعه لم يسلم من العيوب، حيث وقع فيه من الأخطاء المطبعيّة، لكن ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه، على أنّ هذه هي الطبعة الأُولى له، فأسأل الله تعالى أن تتمّ هذه التصحيحات والنواقص في الطبعات اللاحقة إن شاء الله تعالى، كما أشكر من ساهم في إعداد هذا الكتاب وسعى في طبعه راجياً لهم دوام التوفيق بمحمّد وآله.

علي الحسيني شبرّ

قم المقدّسة

١٢/ جمادى الأُولى / ١٤٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه ربّ العالمين على نعمائه، والحمدُ من نعمائه، والشكر لخالق السماوات والأرضين على آلائه، والشكرُ من آلائه، والصلاة على سيّد رسله وأنبيائه، وآله الطاهرين المعصومين خيرةِ أُمنائه وحججه على أهل أرضه وسمائه.

أمّا بعد:

فيقول المذنب الجاني والأسير الفاني، أفقر الخلق إلى ربّه الغنيّ: عبداللّه بن محمّدرضا الحسينيّ، ختم اللّه لهما بالحسنى، ورزقهما خير الآخرة والأُولى: هذا تعليق لطيف، وشرح مختصر شريف، علّقته على «نهج البلاغة» غير ذي إيجاز مخلّ، ولا إطناب مملّ، يحلّ مشكلاته، ويفتح مغلقاته، وينبّه على جملة من نكاته، ويوضح غرائب فقراته، على طرز غريب، ونمط عجيب، تهشّ إليه النفوس السليمة، وتقبله العقول المستقيمة.

وقد عَولتُ فيه غالباً فيما يتعلّق بالتواريخ والقصص على شرح المحقّق الفريد ابن أبي‌الحديد، وفيما يتعلّق بالإعراب والنكات والدقاق على شرح العالم الربّاني ابن ميثم البحراني (قدّس سرّه)، وباللّه أستعين، إنّه خير موفّق ومعين.

ولنشرع في شرح خطبة الكتاب:

قال السيّد الشريف، ذو الحسبيْن، رضي الدين محمّد بن الحسين الموسويّ (قدّس اللّه روحه ونوّر ضريحه):

أمّا بعدَ حمدِ اللّه الّذي جعلَ الحمدَ ثمناً لنعمائه ومعاذاً من بلائه

[أمّا بعدَ حمدِ اللّه الّذي جعلَ الحمدَ ثمناً لنعمائه] مع كونه أيسر شيء مؤنة، وأخفّ على اللّسان كُلْفة، وقوله ثمناً إستعارة لطيفة، حيث إنّ الثمن مستلزم لرضا البائع به عوضاً عن مبيعه، والحمد مستلزم لرضا الحقّ سبحانه مقابل نعمه، فأَشْبَهَ الثمن واستعير له لفظه، وهذا ـ في الحقيقة ـ نعمة أُخرى تستدعي حمداً آخر، فكلّما قلتُ: لك الحمد وجب عليّ أن أقول: لك الحمد.

ورُوي أنّ اللّه أوحى إلى أيّوب إنّي رضيتُ الشكرَ مكافاةً من أوليائي.

[ومعاذاً من بلائه] لقوله تعالى: ﴿ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾[1] حيث توعَّدَ بالعذاب مَنْ كَفَرَ نعمتَهُ مع إرادته الحمدَ والشكرَ وأمره بهما فعُلم أنّهما من أسباب الخلاص من العذاب لاستلزامهما عدم سببه، وهو الكفران، فكان الحمد محلاً للعون به من البلاء.

(١) إبراهيم: ٧.

ووسيلاً إلى جنانه، وسبباً لزيادة إحسانه، والصلاة على رسوله نبيّ الرحمة، و إمام الأئمّة، وسراج الملّة، والمنتجبِ من طينة الكرم

[**ووسيلاً إلى جنانه**] لأنّ الحمد من أتمّ العبادات الّتي هي وسيلةٌ إلى الجنّة.

[**وسبباً لزيادة إحسانه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾[1]

[**والصلاة على رسوله نبيّ الرحمة**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين﴾[2] وإنّما كان رحمة لأنّه الهادي إلى سبيل الرشاد، والقائد إلى رضوان اللّه، ولأنّ شريعته ﷺ أسهل الشرائع وأخفّها، كما قال ﷺ: «بُعثت بالحنيفيّة السمحة السهلة»، ولأنّ اللّه يعفو عن عصاة أُمّته بشفاعته.

[**و إمام الأئمّة**] فإنّ النور المحمّدي أوّل المخلوقات، وقال ﷺ: «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين»، وقال ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة».

[**وسراج الملّة**] وفي نسخة [سراجِ الأُمّة] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً﴾[3].

وهذه استعارة لطيفة، فإنّ من خاصّيّة السراج إضاءة ما حوله واهتداء الخلق به في الظلمة، وقد اهتدى الخلق بأنوار علومه وحكمه، وخرجوا عن ظلمة الجهالة والكفر إلى أنوار الإيمان والمعارف.

[**والمنتجبِ من طينة الكرم**] كناية عن أصله، أي أنّ اللّه اصطفاه من

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الأحزاب: ٤٥ و ٤٦.

وسلالة المجد الأقدم، ومغرسِ الفخار المعرق، وفرعِ العلا المثمر المورقِ

أصل هو محلّ الكرم والشرف [**وسلالة المجد الأقدم**] إضافة السلالة إلى المجد على حذف مضاف، أي سلالة أهل المجد الأقدم، أو استعار لفظ المجد لأصله كأنّه خيل أنّ الأصل كلّه مجد، فأعطاه لفظة المجد وأضاف إليه بعد الإستعارة ووصف المجد بكونه أقدم لزيادته في الفضل على المحدث، بل على القديم.

[**ومغرسِ الفخار**] بكسر الفاء مصدر فاخر أو بفتحها مصدر فخر.

[**المعرق**] استعار لفظ المغرس الّذي هو حقيقة في الأرض لطبيعته وجبلّته، استعارةً على وجه الكناية عن شرفه وكماله، ووجه الشَبَه انّ طبيعته ﷺ محلّ لظهور الفخار عنها، كما أنّ الأرض الحرة محلّ لظهور النبات الطيّب الحسّ عنها، ووصفه بكونه معرقاً لزيادته على ماليس كذلك، وهو من قبيل ترشيح الاستعارة، فإنّه لما جعل الفخار مغرساً جعل له عرقاً.

[**وفرعِ العلا المثمر المورقِ**] استعار لفظ الفرع الّذي هو حقيقة في أغصان الشجرة المتفرّعة عن أصلها، لهﷺ من جهة ما هو فرع في الوجود عن آبائهم أهل العلوّ والشرف، أي بما هو من كمال الفرع، وهو كونه مثمراً مورقاً، وهو ترسيخ للاستعارة أيضاً، فإنّ الغصن الخالي عن الثمر والورق أو عن أحدهما، ناقص الكمال والحسن، وهي استعارة على سبيل الكناية عن شرفه بالنظر إلى شرف أصله وإضافة الفرع إلى العلا كإضافة لفظ السلالة إلى المجد. وصدق الأوصاف الأربعة، لما روي عنهﷺ قال: «لم يزل اللّه ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات لم يدنسني بدنس الجاهليّة» وهوﷺ من وُلد ابراهيم واسماعيل وكرمهما مشهور.

وعلى أهل بيتــه مـصــابيحِ الظلـمِ وعِصَمِ الأُمِ ومنار الـدين الواضـحة ومثاقيل الفضل الراجـحة صلّى اللّه عليـهم أجـمعين صلاة تكون أداءً لفضلهم ومكافأةً لعملهم

[**وعلى أهل بيته**] المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[1] واتّفقت الإماميّة أنّها خاصّة بعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

[**مصابيحِ الظلمِ**] استعارة لهم يكنّى بها عن كونهم مهتدَى بهم من ظلمات الجهل، كما يُهتدَى بالمصباح في الظلمة.

[**وعِصَمِ الأُمِ**] جمعُ عِصْمَة، وهو ما يُعتصَم به، أي مانعين لهم ـ بسبب هدايتهم لهم إلى النجاة ـ عن التورّط في الهلكة.

[**ومنار**] أي أعلام [**الدين**] جمع منارة، بفتح الميم، لكونهم عليهم السلام محال الأنوار [**الواضحة**] وهو نعتاً استعارة حسنة [**ومثاقيل**] وهي مقدار وزن الشيء جمع مثقال [**الفضل الراجحة**] والإضافة لاميّة، أي مثاقيل للفضل، أي إذا عيّر فضل غيرهم ونسب بعضه إلى بعض كانوا مثاقيل راجحة لذلك الفضل بغير رجحان بعضه على بعض بالنسبة إليها، أو بمعنى: من أي مثاقيل من الفضل مطبوعة ترجح على غيرها، ولفظ المثاقيل مستعار لهم عليهم السلام، ووجه الشبه كونهم عليهم السلام معياراً للخلق وموازين لهم كالمثاقيل، فإنّهم موازين الأعمال ومعيار الأحوال.

[**صلّى اللّه عليهم أجمعين صلاة تكون أداءً لفضلهم**] وفضائلهم النفسانيّة، وملكاتهم الخلقيّة، وعلومهم الربّانيّة، وأسرارهم الإلهيّة [**ومكافأةً**] بالهمز من كافيتهُ أي جازيتهُ [**لعملهم**] من عباداتهم البدنيّة،

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

وكفاء لطيب فرعهم وأصلهم ما أنار فجر ساطع، وخوى نجم طالع .

فإنّي كنتُ في عنفوان السنّ وغضاضة الغصن ابتدأتُ بتأليف كتاب في خصائص الأئمّة عليهم السلام، يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغتُ من الخصائص الّتي تخصّ أميرالمؤمنين عليّاً عليه السلام، وعاقت عن إتمام بقيّة الكتاب محاجزات الأيّام ومماطلات الزمان وكنتُ قد بوّبت ماخرج من ذلك أبواباً وفصّلته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمّن ما نقل عنه من الكلام

ومجاهداتهم المرضيّة [وكفاء] بالهمز والمدّ، أي نظيراً [لطيب فرعهم وأصلهم] الزاكي المطهّر، إشارة إلى أنّ هذه الأُمور هي جهة استحقاقالرحمة [ما أنار فجر] أي مدّة انارة فجر [ساطع، وخوى] أي سقط [نجم طالع].

[فإنّي كنتُ في عنفوان] أي: ابتداء [السنّ وغضاضة الغصن] كناية عن الشباب [ابتدأتُ بتأليف كتاب في خصائص الأئمّة عليهم السلام، يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم، حداني] أي بعثني [عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، ، وفرغتُ من الخصائص الّتي تخصّ أميرالمؤمنين عليّاً عليه السلام، وعاقت عن إتمام بقيّة الكتاب محاجزات الأيّام] أي: ممانعاتها، كأنّ الأيّام تدفعه عن العمل، وهو يدفعها.

[ومماطلات الزمان] مدافعاته [وكنتُ قد بوّبت ماخرج من ذلك أبواباً وفصّلته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمّن ما نقل عنه من الكلام

القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب، دون الخطب الطويلة، والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء ماشتمل عليه الفصل المقدّم ذكْرُهُ، معجَبين ببدائعه، ومتعجّبين من نواصعه، وسألوني عند ذلك أن ابتدىء بكتاب يحتوي على مختار كلام أميرالمؤمني عليه السلام في جميع فنونه ومتشعّبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وأدبعلماً إنّ ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربيّة، ويواقيت الكلم الدينيّة والدنياويّة

القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء ماشتمل عليه الفصل المقدّم ذكْرُهُ معجَبين] أي مكثرين عجب غيرهم **[ببدائعه]** بدايع الأشياء الحسنة المعجبة من أعجب فلان فهو معجب، والإسم العجب بالضمّ ولايكون ذلك إلّا في المستحسن.

[ومتعجّبين] من تعجّبت من كذا، والإسم العجب، وقد يكون في الشيء يستحسن ويستقبح ويتهوّل منه ويستغرب، والمراد هنا التهوّل والإستغراب **[من نواصعه]** ناصع كلّ شيء خالصه.

[وسألوني عند ذلك أن ابتدىء بكتاب يحتوي على مختار كلام أميرالمؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ومتشعّبات غصونه، من خطب وكتب ومواعظ وأدب] مفعول له **[إنّ ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربيّة، ويواقيت الكلم الدينيّة والدنياويّة]** استعارتان لطيفتان لهذين اللفظين من الحجرين المخصوصين للمعنيين الّذَيْن هما فصاحة الألفاظ العربيّة والحكمة الفاضلة الّتي يشتمل عليهما كلامه عليه السلام ووجه

ما لايوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مَشْرَع الفصاحة وموردَها ومنشأ البلاغةِ ومولدَها وعلى أمثلته حذا كلّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصرّوا، وتقدّم وتأخّروا، لأنّ كلامهُ عليه السلام الكلامُ الّذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة

المشابهة ماشتركا فيه من العزّة والنفاسة، كلٌّ بالنسبة إلى جنسه، فعزّة الحجرين بالنسبة إلى مطلق الأحجار وعِزَّة الألفاظ الفصيحة والحكم البالغة، بالنسبة إلى سائر الألفاظ والمعاني.

[**ما لايوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مَشْرَعَ الفصاحة وموردَها**] استعار هذين اللفظين الذَيْن هما حقيقة في النهر والعين ونحوهما له عليه السلام، ووجه المشابهة انّ الشريعة من الماء كما يردها العطشى للتروّي والإستقاء كذلك هو عليه السلام مرجع للخلق في استفادة الفصاحة ولو قال مصدرها وموردها لكان أبلغ، إذْ المشرع والمورد متقاربان.

[**ومنشأ البلاغةِ ومولدَها**] استعارة أيضاً تشبيهاً لذهنه عليه السلام بالامّ وتشبيهاً للفصاحة بالولد في الصدور عنه، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها.

[**وعلى أمثلته حذا**] أي اقتفى واتّبع [**كلّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصرّوا، وتقدّم وتأخّروا، لأنّ كلامَهُ عليه السلام الكلامُ الّذي عليه مسحة**] أي أثر [**من العلم الإلهي وفيه عبقة**] أي

من الكلام النبويّ فَأَجَبْتُهم إلى الإبتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومذخور الأجر، واعتمدتُ به أن أُبيّن عن عظم قدر أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة مضافة إلى المحاسن الدَّثِرَة والفضائل الجمّة، وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها من جميع السلف الأوّلين الّذين انّما يؤثر عنهم القليل النادر والشاذّ الشارد. فأمّا كلامه عليه السلام فهو

رائحة، مِنْ عَبَقَ به الطيّب: لَصَق.

[**من الكلام النبويّ**] قدّر العلم الإلهي كلّه حسناً وجمالاً، حتّى جعل في كلامه عليه السلام أثراً منه، وقدّر الكلام النبويّ لهيباً كالمسك الأذفر، حتّى جعل في كلامه عبقة منه، واستلزم ذلك تخيّل حاستي البصر والشّم للعقل، ليدرك بالأُولى المسحة من العلم الإلهي، وبالثانية العبقة من الكلام النبويّ، وهي استعارة على طريق الكناية، فكنّى بالمسحة عمّا أدركه العقل في كلامه من الحكمة المشار إليها في القرآن الكريم، والفصاحة كنّى عما أدركه من الأسلوب والطريقة الموجودة فيه مع الفصاحة والحكم في الكلام النبويّ، فكان العقل يبصر ويسمع بقوّة أثر العلم الإلهي فيه، ويشمّ رائحة الكلام النبويّ.

[**ومذخور الأجر، واعتمدتُ به أن أُبيّن عن عظم قدر أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة مضافة إلى المحاسن الدَّثِرَة**] أي الجمّة الكثيرة [**والفضائل الجمّة، وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها من جميع السلف الأوّلين الّذين انّما يؤثر**] أي يحكى ويُنقَل [**عنهم القليل النادر والشاذّ الشارد. فأمّا كلامه عليه السلام فهو**

البحر الّذي لايساجل الجم الّذي لايحافل وأردتُ أن يسوغ لي التَّمثُّل في الإفتخار به ﷺ بقول الفرزدق :

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعَتْنا يا جرير المجامعُ

البحر الّذي لايساجل] استعار لفظ البحر لكلامه وأشار إلى وجه المشابهة بقوله لايساجل، فإنّ المساجلة لمّا كانت هي المغالبة في السعي والجريّ، وكان كلامه أكثر جرياناً في كلام البلغاء من غيره، وكانت أوعية أذهانهم قد امتلأت من فيضه، لاجَرَمَ أشبه البحر الّذي لايغلبه بحر آخر في سقي ولا جري، أي لايقاوم في فصاحة ولا حكمة.

وكذلك قوله: [**الجم الّذي لايحافل**] استعارة للفظ المحافلة الّتي هي وصف من وصف الإنسان لكلامه، تشبيهاً له ﷺ بالرجل ذي المحفل الجمّ والجماعة الكبيرة الّتي لايمكن أن يكاثر بمثلها.

[**وأردتُ أن يسوغ لي التَّمثُّل**] مجاز في الإسناد، إنّ السوغ حقيقة في الشَّراب، فإسناده إلى التّمثُّل مجاز، ووجه العلاقة أنّ التَّمثُّل بما يريد إذا حسن بين الناس وساد كان ذلك لذيذاً عنده، فأشبه في لذاذته وجريانه بين الناس الماء الزلال في لذاذته وسهولة جريانه في الحلق، فَحَسُنَ إسناد لفظ السوغ إليه.

[**في الإفتخار به ﷺ بقول الفرزدق**] همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارميّ:

[**أُولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعَتْنا يا جرير المجامعُ**

ورأيت كــلامــه عليه السلام يـدور على أقـطاب ثلاثـة: أوّلهــا: الخطب والأوامـر. وثانيـهـا: الكتب والرسـائل. وثـالثـهـا: الحكـم والمواعظ. وأَجْمَعْتُ بتوفـيق اللّه تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثمّ محـاسن الكتب، ثمّ مـحـاسن الحكمة والأدب، مُفْرِداً لكلّ صنف من ذلك، ومفضّلاً فيه أوراقاً لتكون مقدّمة لاستدراك ما عساه يشذّ عنّي عاجلاً، ويقع إليّ آجلاً.

فإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار أو جوابِ كتاب أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء الّتي ذكرتها

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أوّلها: الخطب والأوامر. وثانيها: الكتب والرسائل. وثالثها: الحكم والمواعظ].

قال القطب الراوندي: سمعتُ بعض العلماء بالحجاز يقول: انّي وجدت بمصر مجموعاً من كلام عليّ عليه السلام في نيف وعشرين مجلّداً.

[وأَجْمَعْتُ] أي صَمَّمْتُ عزمي [بتوفيق اللّه تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثمّ محاسن الكتب، ثمّ محاسن الحكمة والأدب، مُفْرِداً لكلّ صنف من] أصناف [ذلك، ومفضّلاً فيه أوراقاً لتكون مقدّمة لاستدراك ما عساه يشذّ عنّي عاجلاً، ويقع إليّ آجلاً، فإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار] خطاب [أو جوابِ كتاب] والحوار: الخطاب والجواب [أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء الّتي ذكرتها

وقرّرت القاعدة عليها، نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدّها ملامحة لغرضه وربما جاء فيماأختارُهُ من ذلك فصولٌ غير متّسقة، ومحاسنُ كلامٍ غيرُ منتظمة، لأنّي اورد النكت واللّمع ولا أقصد التالي والنسق.

ومن عجائبه الّتي انفرد بها، وأمِنَ المشاركة فيها أنّ كلامه عليه‌السلام الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمّله المتأمّل وفكّر فيه المتفكّر وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممّن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشكّ في انّه كلام من لاحظّ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كَسْرِ بيت

وقرّرت القاعدة عليها، نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدّها ملامحة لغرضه] والأنحاء المقاصد والملامحة المشابهة. [وربما جاء فيماأختارُهُ من ذلك فصولٌ غير متّسقة، ومحاسنُ كلامٍ غيرُ منتظمة، لأنّي اورد النكت واللّمع ولا أقصد التالي والنسق.

ومن عجائبه الّتي انفرد بها، وأمِنَ المشاركة فيها أنّ كلامه عليه‌السلام الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمّله المتأمّل وفكّر فيه المتفكّر وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممّن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشكّ في انّه كلام من لاحظّ له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع في كَسْرِ بيت] يقال قبع القنفذ، أي أدخل رأسه في جلده، وكَسْرُ البيت الشقّة الّتي تلي الأرض منه، من حيث يشكر جانباه من اليمين

[أو انقطع في سفح جبل] لايَسْمَعَ إلاّ حسّه، ولا يَرى إلاّ نفسه ولايكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً سيفه فيقُطُّ الرقاب ويجدّل الأبطال ويعود به وهو يَنْطُفُ

والشمال، **[أو انقطع في سفح جبل]**، كما هو شأن الزهّاد المعرضين عن الدنيا.

والمقصود أنّ المفكّر في كلامه عليه السلام إذا فرض أنّه لم يعرف أنّه من كلامه أو كلام آخر مثله في جلالة القدر ونفوذ الأمر والخوض في غمرات الحروب وضرب الرقاب ونظام أُمور الخلق، وقد ملك المشرق والمغرب، لايعترضه شكّ أنّه كلام مخلصٍ مُعْرِضٍ عن غير اللّه بقلبه، غير مشغول بغيره، إذ الشكّ الّذي عساه يعترض لبعض القاصرين في أنّه ليس بكلامه إنّما ينشأ من معرفته بأنّه كلام شخص خائض في تدمير الدنيا وأحوالها، فتكون تلك المعرفة منشأً لعروض الشكّ في أنّ هذا كلام ليس كلام رجل بهذه الحال.

[لايَسْمَعَ إلاّ حسّه، ولا يَرى إلاّ نفسه] الضميران عائدان إلى «مَنْ»، أي لايَسْمَعُ هو إلاّ حسّ نفسه. .

[ولايكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً] أي مجرّداً **[سيفه]** استعارة حسنة في نسبة الإنغماس إلى الحرب، فإنّ الإنغماس حقيقة في الدخول في الماء وفي معناه، والحرب لمّا كانت في غمارها واختلاط المتحاربين فيها تشبه الماء المتراكم الجمّ، صحّ نسبة الإنغماس إليها، كما صحّ النسبة إليه.

[فيقُطُّ الرقاب] القطّ القطع عرضاً، والقدُّ القطع طولاً **[ويجدّل الأبطال]** جدله ألقاه على الجدالة، وهي الأرض **[ويعود به وهو يَنْطُفُ]**

دمـاً ويَقْطر مُهَجـاً، وهو مع تلك الحـال زاهدُ الزُّهّاد، وبَدَلُ الأبدال وهذه من فضائله العجيبة وخصاله اللّطيفة الّتي جمع بها بين الأضداد، وألّف بين الأشتات.

وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرجُ عَجَبَهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة فيها، وربّما جاء في أثناء هذا الإختيار

بالضمّ، أي يسيل [**دماً ويَقْطر مُهَجاً**] والمُهْجَة الدم، ويمكن أنْ يراد بها الروح مجازاً تشبيهاً للروح بالمائعات الخارجة من الإنسان كالدم ونحوه.

[**وهو مع تلك الحال زاهدُ الزُّهّاد، وبَدَلُ الأبدال**] الواو للحال، والأبدال قوم صالحون لاتخلو الأرض منهم واحداً بدل الآخر.

[**وهذه من فضائله العجيبة وخصاله اللّطيفة الّتي جمع بها بين الأضداد، وألّف بين الأشتات**] فإنّ الغالب على الشجعان أن يكونوا ذوي قلوب قاسية، وفتك وتمرّد وجبريّة، والغالب على أهل الزهد، ورفض الدنيا، وذوي الاشتغال بوعظ الناس وتخويف المعاد وتذكير الموت، أن يكونوا ذوي رقّة ولين وضعف قلب، فهاتان حالتان متضادّتان، وقد اجتمعا له عليه السلام. وأيضاً الغالب على ذوي الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوي أخلاق سبعيّة، وغرائز وحشيّة، والغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ أن يكونوا ذوي انقباض وعبس، وهو عليه السلام أشجع الناس وأعظمهم إراقة للدم، وأزهد الناس وأبعدهم عن ملاذ الدنيا، وأكثرهم وعظاً، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة، وألْطف العالم أخلاقاً، وأسفرهم وجهاً، وأكثرهم بشراً.

[**وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرجُ عَجَبَهم منها، وهي موضع للعبرة بها، و الفكرة فيها، و ربّما جاء في أثناء هذا الإختيار**] تضاعيفه

اللفظ المردّد، والمعنى المكرّر، والعذر في ذلك انّ روايات كلامه عليه السلام تختلف اختلافاً شديداً، فربما اتّفق الكلام المختار في رواية فَنُقِلَ على وجهه، ثمّ وُجِدَ بعد ذلك في رواية أُخرى موضوعاً غير وضعه الأوّل إمّا بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة، فيقتضي الحال أن يعاد استظهاراً للاختيار، وغَيْرَةً على عقائل الكلام.

وربما بَعُدَ العَهْدُ أيضاً بمااختير أوّلاً، فأعيد بعضه سهواً ونسياناً، لا قصداً واعتماداً.

وما أدّعي مع ذلك أنّني أحيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام حتّى لايشذّ عنّي منه شاذّ، ولا يندّ نادّ بل لاأبعد أن يكون القاصر عنّي فوق الواقع إليّ والحاصل في رِبْقَتي

واحدها ثَنَى كعدى وأعداء [اللفظ المردّد، والمعنى المكرّر، والعذر في ذلك انّ روايات كلامه عليه السلام تختلف اختلافاً شديداً، فربما اتّفق الكلام المختار في رواية فَنُقِلَ على وجهه، ثمّ وُجِدَ بعد ذلك في رواية أُخرى موضوعاً غير وضعه الأوّل إمّا بزيادة مختارة أو بلفظ أحسن عبارة، فيقتضي الحال أن يعاد استظهاراً للاختيار، وغَيْرَةً على عقائل الكلام] أي كرائمه وعقيلة الحي كريمته [وربما بعد العهد أيضاً بما اختير أوّلاً، فأعيد بعضه سهواً ونسياناً، لا قصداً واعتماداً.

وما أدّعي مع ذلك أنّني أحيط بأقطار] أي جوانب [جميع كلامه عليه السلام حتّى لايشذّ عنّي منه شاذّ، ولا يندّ نادّ] أي ينفرد منفرد [بل لاأبعد أن يكون القاصر عنّي فوق الواقع إليّ والحاصل في رِبْقَتي] الرِّبْقَة عروة الحبل، يُجعل

دون الخارج من يدي، وما عليّ إلاّ بذل الجهد وبلاغ الوسع، وعلى اللّه سبحانه نهج السبيل وإرشاد الدليل إن شاء اللّه.

ورأيتُ من بعد تسمية هذا الكتاب بـ«نهج البلاغة».

إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابها إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طلابها]

وفيه حاجة العالم والمتعلّم وبغية البليغ والزاهد، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه اللّه سبحانه

فيها رأس البهيمة [دون الخارج من يدي، وما عليّ إلاّ بذل الجهد وبلاغ الوسع، وعلى اللّه سبحانه نهج السبيل] أي ابانته وايضاحه [وإرشاد الدليل إن شاء اللّه.

ورأيتُ من بعد تسمية هذا الكتاب بـ«نهج البلاغة» استعارة لطيفة لهذا الكتاب، لأنّ النهج حقيقة في الطريق الواضحة المحسوسة، ووجه المشابهة انّ الطريق لمّا كانت محلّ الاشتغال بالمشي وقطع الأحيان المحسوسة من واحد إلى آخر كذلك الذهن ينتقل في هذا الكتاب من بعض لطائف البلاغة، وشعب الفصاحة إلى بعض انتقالاً سهلاً، فكذا صحّ استعارته له.

إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابها إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابها] بكسر الطاء أي الطَلب.

[و فيه حاجة العالم و المتعلّم وبغية] أي ما يبتغي [البليغ والزاهد، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه اللّه سبحانه

عن شبه الخلق ما هو بلال كلّ غلّة، وجلاء كلّ شبهة.

ومن اللّه سبحانه وتعالى أستمدّ التوفيق والعصمة، وأتنجّز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجَنان، قبل خطأ اللسان، ومن زلّة الكَلِم قبل زلّة القدم.

عن شبه الخلق ما هو بلال] بكسر الباء **[كلّ غلّة]** أي ما يبلّ به الصدى وشفاء كلّ غلّة **[وجلاء كلّ شبهة، ومن اللّه سبحانه وتعالى أستمدّ التوفيق والعصمة، وأتنجّز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجَنان، قبل خطأ اللسان]** فإنّ خطأ الجَنان أعظم وأفحش، فإنّ اعتقاد الكفر بالقلب أعظم من الكفر باللّسان.

[ومن زلّة الكَلِم قبل زلّة القدم] فإنّ العاثر يستقيل من عثرته، والزال بجسده ينهض من صرعته، والزلّة باللسان قد لاتستقال عثرتها، ولاينهض صريعها.

جراحات السّنان لها التئام ولا يَلْتام ما جرحَ اللّسان

[باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام
ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب
في المقامات المحصورة والمواقف المذكورة]

الحمدُ للّه الّذي لايَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القائلون

[باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام
ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب
في المقامات المحصورة والمواقف المذكورة]

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم عليه السلام:

[الحمدُ للّه الّذي لايَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القائلون] المِدْحَة: فِعْلَة، مِنَ المدح، والمدح والمديح: الثّناء الحسن، والأكثر على أنّ الحمد والمدح أخَوان، يقال: حَمَدْتُ زيداً على إنعامه وحَمَدْتُهُ على شجاعته ومدحته عليها. وقيل باختصاص الأوّل بالاختيار والثاني بالاضطرار. يقال: مدحت اللؤلؤة

. . . .

على صفائها لا حمدتها، والشكر أخصّ، إذ لايكون إلاّ على النعمة خاصّة، ولكن مورده أعمّ، إذ يكون باللسان وغيره، والحمد عندهم مختصّ باللسان. ويلزم أن يكون حمدُه تعالى ذاتُهُ مجازاً، مع انّه أحقّ الحقائق، فالأولى أن يقال: الحمد إظهار صفات المحمود قولاً أو فعلاً.

وقوله: لايبلغ مدحته القائلون، إشارة إلى تنزيهه تعالى عن اطلاع العقول البشريّة على كنه وصفه، لأنّ ذلك إنّما يمكن بالاطّلاع على كنه ذاته، ليستلزم معرفة مالها من صفات الجلال ونعوت الكمال، والعقول البشريّة قاصرة عن ذلك، وعاجزة عمّا هنالك. فسبحان من جعل العقول حيرَى في بيداء كبريائه ومعرفته، ولم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته.

ولذا قال ﷺ وهو سيّد العارفين: «سبحانك لاأُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقال باقر العلوم عليه السلام: «هل سمّي عالماً قادراً إلاّ لأنّه وهب العلم للعلماء، والقدرة للقادرين، فكلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه فهو مخلوق مصنوعٌ مثلكم، مردودٌ إليكم والباري تعالى واهب الحياة ومقدّر الموت، ولعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ للّه زبانيتين، لأنّها كمالها، فإنّها تتصوّر أنّ عدمها نقصان لمن لايكونان له، فهكذا سائر الخلق فيما يصفون به بارئهم. وفي التنزيل: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾[1] وقال:

---

(١) الصافّات: ١٨٠.　　(٤) الانعام: ٩١.

ولايُحْصي نَعْماءَهُ العادُّون، ولا يؤدّي حقّه المجتهدون،

﴿وما قدروا اللّه حقّ قدره﴾»[١].

وخصّ القائلين دون المادحين بالذكر لكونه أبلغ في التنزيه، لأنّ القائلين أعمّ من المادحين، وسلب مدح الأعم يستلزم سلب مدح الأخصّ من غير عكس.

[**ولايُحْصي نَعْماءَهُ العادُّون**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لاتحصوها﴾[٢]، ولعلّ الإفراد في الآية إشارة إلى أنّ العباد لايمكنهم عدّ نعمة واحدة من نعمه، والجمع هنا إشارة إلى أنّ أُصول نعمه لاتحصى لكثرتها، ولعلّ الإتيان بإنْ الشرطيّة في الآية، وفي كلامه عليه السلام بلفظ الخبر إشارة إلى أنّكم إن أردتم أن تعدّوا نعمةً له لم تقدروا على حصرها، وهنا أخبر عليه السلام أنّه قد أَنْعَمَ النَّظَر فعَلِمَ أَنَّ أحداً لايمكنه حصر نعمه تعالى.

[**ولا يؤدّي حقّه المجتهدون**] اذْ لمّا ثبت أنّ نِعَمَهُ لاتُحصى ثبتَ عدم تمكّن المُنْعَم عليه من مجازاتها وأداء حقّه فيها، لأنّ التوفيق لأداء حقّه نعمةٌ أُخرى منه يجب شكرها وهكذا، إذ كلّ ما نتعاطاه من أفعالنا الإختياريّة مستندٌ إلى جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وسائر أسباب حركاتنا، وهي بأسرها مستندة إلى جوده ومستفادةٌ من نعمته، وكذا ما يصدر عنّا من الشكر والحمد وسائر العبادات نعمة منه.

ورُوي أنّ هذا الخاطر خَطَرَ لداوود عليه السلام، وفي رواية لموسى عليه السلام فقال: ياربّ كيف أشكرك وأنا لاأستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نعمك. وفي

---

(٢) النحل: ١٨.

الّذي لايدركـه بُعد الـهمم، ولايَنالُهُ غَوْصُ الفِطَن، الّذي ليس لصفته حدٌّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود

رواية أُخرى: وشكري لـك نعمـةٌ أُخرى توجب عليّ الشكر لك. فأوحى اللّه إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني.

وفي خبرٍ آخر: إذا عَرَفْتَ أنّ النعم منّي رَضيتُ منك بذلك شكراً.

[**الّذي لايدركه بُعد الهمم**] أي الهمم البعيدة. والهمّة: العزم الحازم، وَبُعْدُها: تعلّقها بعَليّات الأُمور دون محقّراتها، أي لاتدركه النفوس ذوات الهمم البعيدة، وإن أَمْعَنَتْ في الطلب، وقدَّمَ الصفة للعناية بها.

[**ولايَنالُهُ غَوْصُ الفِطَن**] أي الفطن الغائصة، واستعار وصف الغوص هنا لتعمّق الأفهام الثاقبة في بحار صفات جلاله الّتي لا غاية لها ولا قرار، واعتبارات نعوت كماله الّتي لاتقف عند حدّ ولا نهاية.

[**الّذي ليس لصفته حدٌّ محدود**] أي ليس لما تعتبرُهُ عقولنا له من الصِّفات نهاية معقولة تكون حدّاً لها. أو المراد لا صفة له فيُحَدّ، فإنّ صفاته تعالى عين ذاته، ومرجْعها إلى أنّه لا صفة له ـ كما يأتي إن شاء اللّه ـ لينزّهه عن الكثرة، وإنّما هي نِسَبٌ وإضافات يُؤتَى بها للتعليم والتعلّم.

[**ولا نعت موجود**] أي ولا لمطلق ما يوصف به أيضاً نعت يجمعه وينحصر فيه.

[**ولا وقت معدود**] أي داخل في العدّ لتقدّسه تعالى عن إحاطة الزمان المتأخّر عنه بمراتب.

ولا أجلٌ ممدود. فَطَرَ الخلائق بقدرته، ونَشَرَ الرِّياحَ برحمته،

[**ولا أجل ممدود**] لكونه تعالى واجب الوجود، دائمهُ، والمراد نفي نسبة ذاته وما يلحقها إلى الكون في الزمان وإن تكون ذات أَجَلٍ تنتهي إليه فينقطع وجودها بانتهائه، وقد حصل في هذه الفقرات الأربع السجع المتوازي مع نوع من التجنيس.

[**فطر الخلائق بقدرته**] والفطر: الشَّقّ والإبداع، واستعير وصفه لإيجاد الخلق ملاحظةً لما يُتوهَّم من شَقٍّ ظلمة العدم بنور وجودهم. ثمّ إنّ الفطر مايكون شقّ إصلاح، كقوله تعالى: ﴿فاطر السماوات والأرض﴾(١) كذا يكون شقّ إفساد كقوله: ﴿إذا السماء انفطرت﴾(٢) و﴿هل ترى من فطور﴾(٣).

[**ونَشَرَ الرِّياحَ برحمته**] أي بَسَطَها، لكونها سبباً عظيماً لبقاء أنواع الحيوان والنبات وصلاح الأمزجة ونموّها، وأسنده إلى رحمته لشمولها هذا العالم، ومن آثارها حمل السحاب المترع بالماء على وفق الحكمة ليصيب الأرض الميتة، فينبت بها الزرع ويملأ الضرع كقوله تعالى: ﴿وهو الّذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾(٤) وقال: ﴿ومن آياته أنْ يرسل الرياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته﴾(٥) و قال: ﴿و أرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا

---

(١) وردت في سور متعدّدة منها: سورة فاطر: الآية ١، وسورة الزّمر: الآية٤٦.

(٢) الإنفطار: ١.

(٣) الملك: ٣.

(٤) الاعراف: ٥٧.

(٥) الروم: ٤٦.

ووتَّدَ بالصخور مَيَدان أرضه.

من السماء ماءً فأسقيناكموه﴾[١].

وقال: إنّ العرب تستعمل الريح في العذاب والرياح في الرحمة، وكذا في القرآن، قال تعالى: ﴿ريح صرصر﴾[٢] وقال: ﴿الريح العقيم﴾[٣].

[**ووتَّدَ بالصخور مَيَدان أرضه**] أي أرضه المائدة فقدّم الصفة لأنّ ذِكْرَها أهمّ لكونها سبباً في نصب الجبال، وهو كقوله: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾[٤]، وقوله: ﴿والجبال أوتاداً﴾[٥].

وإطلاق الأوتاد عليها إمّا على الاستعارة، والمقصود من جعلها كالأوتاد في الأرض أن يهتدى بها على طرقها، فلا يزيغ جهاتها المشتبهة بأهلها، ولا تميل بهم عن مقاصدهم، أو لأنّ الأرض كرة، وهذه الجبال جارية مجرى خشوبات وتصير راسيات في وجهها، فلو لم تكن هذه الجبال حتّى كانت الأرض كرة حقيقيّة خالية عنها، لكانت بحيث تتحرّك بالإستدارة بأدنى سبب، لأنّ الجرم البسيط المستدير يجب تحرّكه على نفسه، أمّا إذا حصلت هذه الجبال على سطحها وكلّ منها يتوجّه بطبعه وثقله العظيم نحو مركز العالَم فإنّه يجرى مجرى الوتد الّذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة.

---

(١) الحجر: ٢٢.

(٢) الحاقّة: ٦.

(٣) الذاريات: ٤١.

(٤) النحل: ١٥.

(٥) النبأ: ٧.

أوّل الدينِ معرفتُهُ، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده،

[أوّل الدينِ معرفتُهُ] لأنّ التقليد باطل، وأوّل الواجبات الدينيّة المعرفة، ولاينافي ذلك قولهم: إنّ أوّل الواجبات النظر أو القصد إلى النظر، لأنّهما إنّما وَجَبا بالعَرَض. قيل: إنّ المعرفة على مراتب:

أدناها: أن يَعرِفَ العبدُ أنّ لهُ صانعاً.

الثانية: أن يُصدّق بوجوده.

الثالثة: أن يترقّى بجذب العناية الإلهيّة إلى توحيده وتنزيهه عن الشركاء.

الرابعة: مرتبة الاخلاص له بالزّهد الحقيقي، وتنحيه كلّ ماسواه عن مستن الآثار.

الخامسة: مرتبة نفي الصفات عنه، وهي غاية العارف، وكلّ مرتبة من المراتب الأربع الاولى مبدء لما بعدها، وكلّ من الأربع الأخيرة كمال لما قبلها، وقد أشار إلى هذه المراتب بقوله:

[وكمال معرفته التصديق به] قيل: ينحل هذا القياس إلى قياسات تشبه قياس المساواة لعدم الشركة بين مقدمتي كلّ منها في تمام الأوسط فتحتاج في إنتاج كلّ منها إلى قياس آخر، والمطلوب من التركيب الأوّل وهو قوله: وكمال معرفته التصديق به.

[وكمال التصديق به توحيده] انّ كمال معرفته توحيده، ومن تركيب هذه النتيجة مع قوله:

وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه،

[**وكمال توحيده الإخلاص له**] انّ كمال معرفة الاخلاص له، ومن تركيب هذه مع قوله:

[**وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه**] انّ كمال معرفته نفي الصفات عنه، وهو المطلوب، فعلى هذا يحتمل أن يراد بالمعرفة الّتي هي أوّل الدين: [المعرفة] الناقصة التي هي أول متحصّل في النفس من مراتب المعرفة، وأن يريد بها [المعرفة] التامّة، إذ هي العلّة الأولى في التصوّر الاحتمالي للسالكين، وغاية من السلوك، وفي إطلاق الكمال تنبيهٌ على أنّ معرفته تعالى بكنه حقيقته غير ممكنة، لأنّها مقولة بالأشدّ والأضعف، فلم تكن ممكنة إلاّ بحسب رسوم ناقصة تركبت من سلوب واعتبارات إضافيّة تلزم معقوليّته تعالى، ولما لم تكن متناهية لم يمكن أن تقف المعرفة بحسبها عند حدّ، بل كانت متفاوتة بالزيادة والنقصان، والجلاء والخفاء، والمراد بنفي الصفات عنه نفي المعاني القديمة التي تثبتهاالأشاعرة وغيرهم له.

[**لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة**] فإنّ حال الصفة تشهد بحاجتها إلى الموصوف، وحال الموصوف يشهد باستغنائه عنها، والحالان يشهدان بمغايرتهما، لأنّ اختلاف اللوازم يدلّ على اختلاف الملزومات.

[**فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه**] لأنّ الموصوف يقارن الصفة،

ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمّنه، ومن قال على مَ؟ فقد أخلى منه. كائنٌ لا عن حدث،

والصفة تقارنه.

[**ومن قرنه فقد ثنّاه**] لأنّه أثبت قديمين وذلك محض التثنية.

[**ومن ثنّاه فقد جزّاه**] لأنّه إذا أطلق لفظ اللّه على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللّفظ وفائدته متجزّية كاطلاق الأسود على الذات الّتي جلّها سواد.

[**ومن جزّاه فقد جهله**] لأنّ الجهل اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به.

[**ومن أشار إليه فقد حدّه**] لأنّ كلّ مُشار إليه فهو محدود، لأنّ المشار إليه لابدّ أن يكون في جهة مخصوصة، وكلّما هو في جهة فله حدّ

[**ومن حدّه فقد عدّه**] أي جعله من الأشياء المحدثة، إذ كلّ محدود معدود في الذوات المحدثة.

[**ومن قال فيم فقد ضمّنه**] لأنّ من تصوّر انّه في شيء فقد جعله إمّا جسماً مشيراً في مكان، أو عرضاً أو سارياً في محلّ، والمكان متضمّن للمتمكّن، والمحلّ متضمّن للعرض.

[**ومن قال على مَ؟ فقد أخلى منه**] لأنّ من تصوّر انّه على العرش أو على الكرسي فقد أخلى منه غير ذلك الموضع، وانّما خصّ عليه السلام جهة العلوّ بالانكار لكونها هي المتوهّمة فيه تعالى دون غيرها.

[**كائن لا عن حدث**] يطلق الحدوث على الذاتي، وهو كون الشيء

موجودٌ لا عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء

من حيث هو هو، لايستحقّ من ذاته وجوداً ولا عدماً، وانّما يستحقّ أحدهما بأمر خارج عن ذاته، وهو معنى يلازم الإمكان، و(يطلق) على الحدوث الزماني وهو كون الوجود مسبوقاً بالعدم سبقاً زمانيّاً، وهو أخصّ من الامكان، ويقابله القدم بالمعنيين، ونزّهه ﷺ في هذه الفقرة عن الحدوث بالمعنى الأوّل، إذ كان تعالى واجب الوجود بذاته، ودلّ بالكائن على وجوده المجرّد عن الزمان وخرج الزمان عن مفهوم كان بالدليل العقليّ المانع من لحوق الزمان له، وكان هنا تامة.

[**موجود لا عن عدم**] إشارة إلى تقدّسه عن لحوق الحدوث له بالمعنى الثاني، وهذان الوصفان يستلزمان إثبات الأزليّة والقدم بمعنييه له تعالى.

[**مع كلّ شيء**] إحاطة وعلماً، كما قال تعالى: ﴿مايكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم﴾[1] وقال تعالى: ﴿وهو معهم﴾[2] ولقد أجاد من قال: كانت الأشياء وكان اللّه معها، وكان اللّه ولم يكن معه شيء.

[**لا بمقارنة**] لا على وجه المصاحبة في زمان أو مكان لتقدّسه تعالى عن الزمان والمكان.

[**وغير كلّ شيء**] ذاتاً ومفهوماً، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[3].

---

(١) المجادلة: ٧.

(٢) النساء: ١٠٨.

(٣) الشورى: ١١.

لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحّد إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده،

[**لا بمزايلة**] ولما كانت المزايلة وهي المفارقة إضافة لا تعقل إلّا بالقياس إلى مقارنة، وكان في وجوده تعالى وغيريّته للأشياء منزّهاً عن لحوق هاتين الإضافتين لاعتبار الزمان والمكان في مفهومهما، لاجرم نفاهما عن غيريّته للأشياء، كما نفى المقارنة عن معيّته لها، بل غيريّته للأشياء بذاته المقدّسة.

[**فاعل**] اختراعاً وإبداعاً وخَلقاً وإيجاداً [**لا بمعنى الحركات والآلة**] أي لا تدخل الحركة والآلة في فاعليّته لكونهما من خواصّ الأجسام، المنزّه قدسه عنها، ولأنّه لو وقف فعله على الآلة، لكان بدونها غير مستقلّ، فيكون ناقصاً بذاتيته مستكملاً بغيره، وهو محال.

[**بصير**] عالم بالمبصرات [**إذ لا منظور إليه من خلقه**] كما أنّه عالم إذ لا معلوم، فإطلاق لفظ البصر عليه مجاز، إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب، وأشار بـ«إذ» إلى اعتبار [**متوحّد**] متفرّد بالوحدانيّة لذاته أزلاً وأبداً [إذ] إشارة إلى اعتبار الأزل [**لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده**] لما ثبت من حدوث العالم فلا سكن في الأزل يقارنه، ولأنّه ليس من شأنه أن يكون له أنيس ينفرد عنه ويستوحش لفقده، إذ الاستيناس والتوحّش يتعلّقان بميل الطبع إلى الشيء ونفرته عنه، وهما من توابع المزاج، وقد ثبت تنزيهه تعالى عن الجسميّة والمزاج. وفي الفقرات الثلاثة تنبيه على عظمته تعالى، لانّ الأوهام البشريّة تحكم بحاجة الفاعل إلى الآلة، والبصير إلى وجود المبصر، والمتوحّد إلى أن يكون في مقابلة أنيس مثله انفرد عنه، فنزّه اللّه عن جميع ذلك.

أنشـأ الخَلق إنشـاءً، وابتـدأه ابتـداءً بلارويّة أجَالها ولا تَجـرِبةٍ استفادها ولا حركة أحدثها ولا هَمامَةِ نَفْسٍ اضطربَ فيها

ثمّ أشار ﷺ إلى كيفيّة نسبة إيجاد العالم وكيفيّة ذلك في معرض مدحه تعالى، فقال:

في خلق العالَم:

[**أنشـأ الخلق إنشـاءً، وابتـدأه ابتـداءً**] والمعروف ترادف الانشاء والابتداء، وقيل الانشاء: هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إليه، والابتداء: الإيجاد الّذي لم يقع من الموجد قبلُ.

[**بلارويّة**] أي فكرة [**أجَالها**] بالجيم أي ردّدها [**ولا تَجرِبةٍ استفادها**] لم يكن قد خلق من قبلُ أجساماً فحصلت له التجربة الّتي أعانته على خلق هذه الأجسام.

[**ولا حركة أحدثها**] ردٌّ على الكراميّة في قولهم إنّه إذا أراد أنْ يَخلقَ شيئاً مبايناً عنه، أَحدثَ في ذاته حادثاً يسمّى الإحداث، فوقع في ذلك الشيء المباين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً.

[**ولا هَمامَةِ نَفْسٍ اضطربَ فيها**] والهَمامَةَ الاهتمام بالأمور، وفيه ردٌّ على المجوس والسنويّة القائلين بالهمامة.

وبُرهان امتناع هذه الكيفيّات على علومه تعالى وأفعاله: أمّا الرّويّة والتجربة فلكونهما من خواصّ الإنسان وبواسطة آلات جسمانيّة تمتنع عليه تعالى، وكذا الحركة من عوارض الجسميّة. والهمّة عبارة عن الميل النفساني

أَحالَ الأشياء لأوقاتها ولأَمَ بين مختلفاتها وغرّز غرائزها وألزمها أشباحها

الجازم إلى فعل الشيء من التألّم والغم بسبب تصوّر فقده، وذلك في حقّه تعالى محال.

[**أحالَ**] بالحاء المهملة، أي حوّل ونقل [**الأشياء**] من حالٍ إلى آخر [**لأوقاتها**] اللام للتعليل، أي أدار كلّ ذي وقت إلى وقته، وربطه به دون ماقبله ومابعده من الأوقات، وكتبه في لوحه المحفوظ، وعلمه المبين، إذ كان كلّ وقت يستحقّ بحسب علم اللّه وحكمته أن يكون فيه ما ليس في غيره.

وقريب منه رواية: آجال بالجيم، وروي أجل، أي جعلها ذات آجال لاتتقدّم عليها ولاتتأخّر عنها.

[**ولأَمَ بين مختلفاتها**] أي جعل المختلفات ملتئمة كما قرن النفس الروحانيّة بالجسد الترابي، وجمع في الأمزجة بين العناصر الأربعة على اختلافها وتضادّها [**وغرّز**] بالتشديد [**غرائزها**] جمع غريزة، وهي الطبيعة، أي أنبتها فيها وركّزها، وغريزةُ كلّ شيءٍ طبيعتُهُ وخلُقُهُ وما جعل عليه من خاصّة أو لازم، كالتعجّب والضحك للانسان، والشجاعة للأسد، والجبن للأرنب، والمكر للثعلب.

[**وألزمها**] أي ألزم الغرائز [**أشباحها**] أي أشخاصها، لأنّ كلاً مطبوع على غريزةٍ لازمة، وكلّ طبيعة كليّة انّما توجد في شخص، ويجوز عود الضمير إلى الأشياء، والمعنى انّه تعالى لمّا غرز غرائز الأشياء ألزمها ـ بعد كونها كلّية ـ أشخاصها.

عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها ونهاياتها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

ورُوي أسناخها، والسِّنْخ الأصل، أي جعلها لازمة لأُصولها وهي طبائع الموجودات وماهياتها [**عالماً بها**] بالأشياء [**قبل ابتدائها**] وايجادها كعلمه بها بعد ايجادها [**محيطاً بحدودها**] أي أطرافها [**ونهاياتها، عارفاً بقرائنها**] جمع قرونه، وهي النفس [**وأحنائها**] أي جوانبها، جمع حنو، والثلاثة منصوبة على الحال، والعامل فيها قوله: وألزمها، إعمالاً للأقرب. والأحوال الثلاثة مفسّرة لمثلها عقيب الأفعال الثلاثة الأُول، إذ كانت صالحة لأن تكون أحوالاً عنها.

والمراد في القضيّة الاولى: إثبات الأفعال الأربعة له حال كونه عالماً بالأشياء قبل إيجادها كلّيِّها وجزئيّها.

وفي القضيّة الثانية: نسبة تلك الأفعال إليه حال احاطة علمه بحدودها وحقائقها المميّزة لبعضها عن بعض، وأنّ كُلاً منْتَه بحدّه واقف عنده، وهو نهايته وغايته، ويحتمل أن يريد بإنهائها انتهاء كلّ ممكن إلى سببه، وانتهاء للكلّ في سلسلة الحاجة إلى اللّه.

وفي القضيّة الثالثة: نسبة الأفعال إلى قدرته حال علمه بما يقترن بالاشياء من لوازمها وعوارضها، وعلمه بكلّ شيء يقترن بشيء آخر على وجه التركيب أو المجاورة، كاقتران بعض العناصر ببعض في أحيازها الطبيعيّة على ترتيبها الطبيعي، وعلمه بأحنائها وجوانبها الّتي بها تنتهي وتقارن غيرها.

ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشَقَّ الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّارُه، متراكماً زَخَّارُه، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها بردّه

[**ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء**] جمع جوّ، وهو الفضاء الواسع، وهذا كالتفصيل لخلق العالَم وابتدائه، وثمّ للتراخي في كلامه عليه السلام لا في المخلوقات، أي: ثمّ أقول الآن، أو للجمع المطلق بمعنى الواو. ويدلّ على انّ الفضاء الّذي هو الفراغ الذي تحصل فيه الأجسام خلقه اللّه ولم يكن من قبل، وانّه شيء كما عليه جَمْع مِن المحقّقين.

فمنهم: من جعله جسماً لطيفاً غير مشابه لهذه الأجسام.

ومنهم: من جعله مجرّداً.

[**وشَقَّ الأرجاء**] جَمْعُ رَجا مقصور، وهو الناحية. [**وسكائك الهواء**] جمع سُكاكة كذُؤابة وذوائب، وهو الفضاء مابين السماء والأض والهواء المكان الخالي. ويفهم منه انّه كان قبل وجود العالَم فضاء واسع، وهو الخلاء في عرف المتكلّمين، فأنشأ اللّه تعالى فيه أحياز أجسام العالَم وفتقها، أي شقّها وأعدّها لخلق الأجسام وتكوينها فيها.

[**فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّارُه**] أي منزاداً معظمه [**متراكماً زَخَّارُه**] أي ممتلي بعضه فوق بعض. [**حمله على متن الريح العاصفة**] فإنّها أسرع الأجسام حركة، ولذا أكّدها بوصف العصف تقريراً للسرعة التامّة [**والزعزع**] الشديدة الهبوب، وكذا [**القاصفة**] كأنّها تهلك الناس بشدّة هبوبها [**فأمرها بردّه**] أي بمنعه عن الهبوط، لانّ الماء ثقيل، ومن شأن الثقيل

وسلّطها على شدّه وقرنها إلى حدّه الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً آخر اعتقم مهبّها وأدامَ مُرَبَّها وأعصف مجراها

الهُوِيّ.

[**وسلّطها على شدّه**] أي على وثاقه، كأنّه سبحانه سلّط الريح على منعه من الهبوط، كأنّه قال شدّه بها وأوثقه، ومنعه من الحركة.

[**وقرنها إلى حدّه**] أي جعلها مكاناً له، أي جعل حدّ الماء المذكور وهو سطحه الأسفل مماساً لسطح الريح الّتي تحمله وتقلّه.

[**الهواء من تحتها فتيق**] إشارة إلى قبول القوابل المذكورة.

[**والماء من فوقها دفيق**] إشارة إلى ما يحمله أمر اللّه من الفيض المذكور، وتلقيه على تلك القوابل، والفتيق: المفتوق المنبسط، والدفيق: المدفوق.

[**ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً آخر**] لتمويج ذلك وتحريكه، فأرسلها و[**اعتقم مهبّها**] أي شدّ هبوبها وضبطه وأرسله بمقدار مخصوص على وفق الحكمة.

ورُوي: فَأَعقَمَ مَهَبَّها، أي جَعَل مجراها عقيماً لا نبت به يعوقها عن الجريان أو لشدّة جريانها، والريح العقيم: التي لاتلقح سحاباً ولا شجراً، وكذا كانت الريح المشار إليها، لأنّه سبحانه انّما خلقها لتمويج الماء فقط.

[**وأدامَ مُرَبَّها**] أي إقامتها وملازمتها لتحريك الماء، من أربّ بالمكان مثل أَلَبَّ به، أي لازمه. [**وأعصف مجراها**] فإنّ الريح إذا عصفت بالفضاء

وأبْعَدَ منشأها فأمرها بتصفيق الماء الزخّار وإثارة موج تلك البحار فمخضته مخض السّقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء تَرُدُّ أوّله على آخره وساجيه على مائره حتّى عَبَّ عُبابُه ورَمى بالزَّبَد رُكامُهُ فرفعه في هواء منفتق وجوّ منفتق فسوّى منه سبع سماوات

الّذي لا أجسام فيه كان عصفها شديداً لعدم المانع، وهذه الريح عصفت بذلك الماء الكثير العظيم عصفاً شديداً، كأنّها تعصف في فضاء لا ممانع لها فيه من الأجسام.

[**وأبْعَدَ منشأها**] أي مبتدا نشوها بحيث لايمكن الوقوف عليه وهو قدرته تعالى [**فأمرها بتصفيق**] ذلك [**الماء الزخّار**] الشديد الامتلاء [**وإثارة موج تلك البحار فمخضته مخض السّقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء**] الذي لا مانع فيه، فإنّها تكون شديدة، كما مرّ.

[**تَرُدُّ أوّله على آخره وساجيه**] ساكنه [**على مائره**] متحرّكه، والسّاجي الساكن، والمائر الذي يذهب ويجيء. [**حتّى عَبَّ عُبابُه**] أي علا معظمه وارتفع أعلاه [**ورَمى بالزَّبَد رُكامُهُ**] أي متراكمه [**فرفعه**] رفع اللّه تعالى ذلك الزَّبَد [**في هواء منفتق**] أي خلاء واسع [**وجوّ منفتق**] أي مفتوح واسع [**فسوّى منه سبع سماوات**] رفعها بغير عمد، وقد اشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان﴾[1].

والمراد بخار الماء بناء على انّ الزبد بخار الماء. قيل: ولاينافي ذلك ماعليه المتكلّمون في انّ الأجسام مؤلّفة من الأجزاء الّتي لاتتجزّأ لجواز

---

(١) فصّلت: ١١.

وجَعَلَ سُفلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفوفاً، وعُلْياهُنَّ سَقْفاً محفوظاً، وسَمْكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها، ولا دِسارٍ ينظهما، ثمّ زيّنها بزينةِ

أن يخلق اللّه أوّل الأجسام من تلك الجواهر، ثمّ يكون باقي الأجسام من الأجسام الأولى.

[**وجَعَلَ سُفلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفوفاً**] كالتفسير لقوله: ﴿فسوّى﴾[1] لأنّ التسوية عبارة عن التعديل والوضع والهيئة الّتي عليها السماوات بما فيهنّ كما شرحه واستعار لفظ الموج للسماء ملاحظةً للمشابهة بينهما في العلوّ واللون، ومكفوفاً أي ممنوعاً من السقوط.

[**وعُلْياهُنَّ سَقْفاً محفوظاً**] من الشياطين، فرُوي أنّ الشياطين كانت لاتُحْجَب عن السماوات، وكانوا يستخبرون أخبارها، فلمّا ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلمّا ولد محمّد صلى الله عليه وآله منعوا من السماوات كلّها، فما منهم أحد استَرَقَ السَّمع إلاّ رُميَ بشهاب، وذلك قوله: ﴿وحفظناها من كلّ شيطان رجيم إلاّ من استرق السَّمع فأَتْبَعَهُ شهابٌ مبين﴾[2].

[**وسَمْكاً مرفوعاً**] سَمْكُ البيت: سقفه. [**بغير عمد يدعمها**] يكون لها دعامة، تنبيه على عظمة قدرة اللّه وعلوّها عن الحاجة في مثل هذا البنيان، وقيامه بلا عمد، وتنزيه لها عن مماثلة القدرة البشريّة في حاجتها إلى ذلك.

[**ولا دِسارٍ**] واحد الدُّسُر، وهي: المسامير. [**ينظهما، ثمّ زيّنها بزينةِ**

---

(١) الآية السابقة.

(٢) الحجر: ١٧ـ١٨.

الكواكب وضياء الثَّواقِب وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فَلَكٍ دائر، وسَقْفٍ سائر، ورقيم مائر

الكواكب] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كلِّ شيطانٍ مارد﴾[1] **[وضياء الثَّواقِب]** سمّيت الشُّهب ثواقباً لأنّها تثقب بنورها الهواء.

[وأجرى فيها سراجاً مستطيراً] استعار لفظ السراج للشمس باعتبار اضائتها لهذا العالم كإضاءة السراج للبيت، والمستطير: المنتشر.

[وقمراً منيراً] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾[2] وربّما يقال: انّ الضياء المضيء بذاته، والنور المكتسب من غيره بناء على انّ نور القمر مستفاد من نور الشمس. **[في فَلَكٍ دائر، وسَقْفٍ سائر، ورقيم مائر]** استعارة أصليّة للفلك، تشبيهاً له باللّوحِ المرقوم فيه، ثمّ كثر استعماله في الفلك حتّى صار اسماً من أسمائه، قيل: ومجموع هذه الإستعارات تستلزم ملاحظة تشبيه هذا العالم بِأَسْرِهِ ببيتٍ واحد في غاية الحسن والزينة، فالسماء سقفه، وهو كقبّة خضراء نصبت على الأرض، وحجب ذلك السقف عن مردة الشياطين، كما تحمى غرفة البيت عن مَرَدَة اللّصوص، وزُيِّن بترصيع الكواكب الثاقبة، فهو كسقف من زمرّد رُصّع باللؤلؤ والمرجان، وجعل من جملتها كوكبين هما أعظم الكواكب جرماً

(١) الصافّات: ٦ـ ٧.

(٢) يونس: ٥، وربما يكون كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾، الفرقان: ٦١.

ثمّ فتق مابين السماوات العُلا

وأكثرها إشراقاً، وجعل أحدهما ضياء للنهار والآخر ضياء لليل، ثمّ جعل ذلك سقوفاً وطبقات أسكن في كلّ طبقة منها مَلأً من ملائكته وخَواصِّ ملكه، وجعل تلك السقوف متحرّكة بما فيها من الكواكب، كما أشار إليه بقوله عليه السلام: «في فلك دائر» إلى قوله: «مائر» وجعل حركاتها أسباباً معدّة لتلوّن الكائنات في هذا العالم ليكون أثره تعالى أبدع، وحكمت في خلقه أبلغ.

والضمير في قوله عليه السلام: «وزيّنها» يعود إلى السبع سماوات، وذلك لاينافي قوله تعالى: ﴿وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح﴾[1] فإنّ السماء الدنيا وإن لم يكن فيها إلاّ القمر، فإنّ سائر الكواكب أيضاً زينة لها في الأوهام البشريّة.

في خلق الملائكة:

وقوله: **[ثمّ فتق مابين السماوات العُلا]** لمّا أشار إلى تسوية السماوات، إشارةً جميلة، فكأنّه قدّر أوّلاً خَلْقَها كَرّةً واحدةً، كما عليه جملة من المفسّرين، لقوله تعالى: ﴿أوَ لَم يَرَ الّذين كفروا أنّ السماواتِ والأرضَ كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[2].

ثمّ أشار إلى تفصيلها وتَميُّز بعضها عن بعض، وأسكن كلّ واحدة

(١) فصّلت: ١٢.

(٢) الانبياء: ٣٠.

فَمَلأهُنَّ أطْواراً من ملائكته، منهم سجودٌ لايركعون، وركوعٌ لاينتصبون، وصافُّون لايَتَزايلون، ومُسَبِّحون لايَسْأمون،

منهنّ مَلأً من ملائكته، ثمّ إلى تفضيل الملائكة ومراتبهم، فقال:

[**فَمَلأهُنَّ أطْواراً من ملائكته**] على حالات مختلفة وأنواع متباينة.

[**منهم سجودٌ لايركعون**] لم يقم من سجوده ليركع.

[**وركوعٌ**] راكعون أبداً [**لاينتصبون**] قَطُّ من ركوعهم.

[**وصافُّون**] في الصلاة بين يدي خالقهم.

[**لايَتَزايلون، ومُسَبِّحون لايَسْأمون**] لايَمَلُّون التسبيح، وهؤلاء أهل العبادة، وأشار إلى تفاوت مراتبهم في العبادة والخضوع، لأنّ اللّه تعالى خصّ كلاً منهم بمرتبة معيّنة، وقيل: السجود مرتبة المقرّبين، والركوع مرتبة حَمَلة العرش، والصافّون مرتبة الحافّين من حول العرش، يقفون صفوفاً لأداء العبادة، كما حكى اللّه عنهم: ﴿وإنّا لنحن الصافّون وإنّا لنحن المسبّحون﴾[1].

وفي الخبر: انّ حول العرش سبعين ألف صفّ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صنف قد وضعوا الأيْمان على الشَّمائل ما منهم أحد إلاّ وهو يسبح.

والمسبّحون يحتمل أن يكونوا هم الصافّون لما مرّ، والواو وإن اقتضت المغايرة إلاّ أنّهم من حيث إنّهم صافّون غيرَ هم من حيث إنّهم

---

(١) الصافّات: ١٦٥ ـ ١٦٦.

لايَغْشاهُم نومُ العيون، ولا سَهْوُ العقول، ولا فَتْرَةُ الأبدان، ولا غَفْلَةُ النّسيان، ومنهم أُمناءُ على وَحْيِه، وألْسِنَةٌ إلى رُسُلِه، ومُخْتَلِفون بقضائه وأمرِه

مسبّحون.

[**لايَغْشاهُم نومُ العيون**] لأنّ النوم عبارة عن تعطيل الحواسّ الظاهرة عن أفعالها لعدم انصباب الروح النفساني إليها أو رجوعها بعد الكلال والضعف، والملائكة السماويّة منزّهون عن هذه الأسباب والآلات.

[**ولا سَهْوُ العقول**] لأنّ السَّهو: الغفلةُ عن الشيء مع بقاء صورته أو معناه في الخيال أوالذُّكْر بسبب اشتغال النفس، والتفاتها إلى بعض مهمّاتها.

[**ولا فَتْرَةُ الأبدان**] لأنَّ الفَتْرَة: وقوفُ الأعضاء البدنيّة عن العمل، وقصورها بسبب تحلُّل الأرواح البدنيّة، وضعفها ورجوعها للإستراحة.

[**ولا غَفْلَةُ النّسيان**] فإنّ النسيان: الغفلةُ عن الشيء مع انمحاء صورته أو معناه عن إحدى الخزانتين بالكلّية، ولذا يحتاج الناسي للشيء إلى تجشّم كسب جديد، وكُلْفَة في تحصيلِه، وجميع هذه الأُمور من لواحق الأجسام الحيوانيّة والملائكة منزّهون عنها.

ثمّ أشار عليه السلام إلى القسم الثاني من الملائكة وهم السفراء بين اللّه وبين خلقه بقوله:

[**ومنهم أُمناءُ على وَحْيِه، وألْسِنَةٌ إلى رُسُلِه، ومُخْتَلِفون بقضائه وأمرِه**] أي: يتعاقبون في أمره، والقضاء هنا الأمر المقضيّ، يقال: هذا قضاء اللّه، أي: مقضيّهُ، قال تعالى: ﴿جاعل الملائكة رُسُلاً أُولي أجنحة مثنى وثُلاث

ومنهمُ الحَفَظَةُ لعبادِهِ

ورُباع﴾(١) وقال تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلِّمَهُ اللّهُ إلاّ وَحْياً أو من وراء حجاب﴾ أو يرسل رسولاً﴾(٢)، قيل: ويشبه أن يكون هذا القسم داخلاً في الأقسام السابقة من الملائكة، وإنّما ذُكر ثانياً باعتبار وصف الأمانة على الوحي والرسالة، والإختلاف بالأمر إلى الأنبياء وغيرهم، لأنّ من جملة الملائكة المرسلين جبرئيل وهو من الملائكة المقرّبين.

[ومنهمُ الحَفَظَةُ لعبادِه]، كما قال تعالى: ﴿له معقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر اللّه﴾(٣) أي: يحفظونهم من الآفات الّتي تعرض لهم، ومنهم الحفظة على العباد بضبط الأعمال والأقوال من الطاعات والمعاصي، قال تعالى: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾(٤) وقال تعالى: ﴿كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون﴾(٥) وقال تعالى: ﴿مايَلْفِظُ من قولٍ إلاّ لديهِ رقيبٌ عتيد﴾(٦).

وعن ابن عبّاس: إنّ مع كلّ انسان مَلَكَيْن: أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، فإذا تكلّم الإنسان بحسنةٍ كتبها مَنْ على يمينه، وإذا تكلّم بسيّئة

---

(١) فاطر: ١.

(٢) الشورى: ٥١.

(٣) الرعد: ١١.

(٤) الانعام: ٦١.

(٥) الإنفطار: ١١ ـ ١٢.

(٦) ق: ١٨.

و السدنة لأبوابِ جنانه ومنهمُ الثابتةُ في الأرضين السُّفلى أقدامُهُم والمارقة من السَّماء العُلْيَا أعناقهم، والخارجةُ من الأقطار أركانُهُم، والمناسِبَةُ لقوائم العرشِ أكْنافُهُم

قال مَنْ على اليمين لمن على اليسار: انتظر لعلّه يتوب منها، فإن لم يتب كتبت عليه.

أقول: ولعلّ الحكمة أنّ المكلّف إذا علم بذلك كان أَزْجَرَ له عن القبائح.

[و] منهم [السدنة] جمع سادن، وهو: الخادم [**لأبوابِ جِنانه**] وهم خُزّان الجنّة.

[**ومنهمُ الثابتةُ في الأرضين السُّفلى أقدامُهُم والمارقة**] أي: الخارجة [**من السَّماء العُلْيا أعناقهم، والخارجةُ من الأقطار أركانُهُم، والمناسِبَةُ لقوائم العرشِ أكْنافُهُم**] شبّههم بقوائم العرش في استقرارهم وثباتهم عن التزايل من تحته أبداً إلى ماشاءاللّه، ولفظ الأكناف مجاز في القوى والقدرة الّتي بها حملت الملائكة جرم العرش، ووجه الشبه بقوائم العرش استقلالها بحمله كالقوائم، وهذه صفة حملة العرش، فرُوي انّ أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوعٌ لايرفعون طَرْفَهم، وهم أشدُّ خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشدّ خوفاً من أهل السماء السادسة وهكذا إلى السماء الدنيا.

وفي النبويّ: لاتتفكّروا في عظمة ربّكم، ولكن تفكّروا فيما خلق من الملائكة، فإنّ خلقاً منه يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله

ناكسةٌ دونه أبصارُهُم مُتَلَفِّعون تحته بأجنحتهم

وقدماه في الأرض السفلى. وقد مرق ورأسهُ من سبع سماوات، وإنّه ليتضاءل من عظمة اللّه حتّى يصير كأنّه الوصَع. والوصع: طائر صغير.

ورُوي: انّه تعالى لمّا خلق حملة العرش قال لهم: احملوا عرشي، فلم يطيقوا، فقال لهم: قولوا: لاحول ولاقوّة إلاّ باللّه، فلمّا قالوا ذلك استقل عرش ربّنا فنفذت أقدامهم في الأرض السابعة على متن الثرى، فلم تستقرّ، فكتب في قدم كلّ ملك منهم اسماً من أسمائه، فاستقرّت أقدامهم.

[ناكسةٌ دونه أبصارُهُم مُتَلَفِّعون] أي: متلحِّفون **[تحته بأجنحتهم]** والضميران في «دونه» و«تحته» راجعان إلى العرش.

وروي: انّ لكلّ ملك من حَمَلَة العرش ومن حوله أربعة أجنحة: أمّا جناحان فعلى وجهه، مخافة أن ينظر إلى العرش فينصعق، وأمّا جناحان فيهفو بهما، ليس لهم كلام إلاّ التسبيح والتحميد.

وكنّى عليه السلام بنكس أبصارهم: عن كمال خشيتهم للّه تعالى واعترافهم بقصور أبصار عقولهم عن إدراك ماوراء كمالاتهم المقدّرة لهم، وضعفها عمّا لاتَحْتَملُهُ من أنوار عظمة اللّه تعالى، وأنّ شعاع أبصار إدراكهم مُنْتَهٍ واقف دون حُجب عزّته.

ويحتمل أن يريد بلفظ الأجنحة قواهم وكمالاتهم الّتي يطيرون بها في بيداء جلال اللّه استعارةً، وزيادة الأجنحة كناية عن تفاوت مراتبهم في الكمال.

مـضـروبَةٌ بينهـم وبين مَنْ دونهـم حُجُب العِزَّة، وأسْتـار القُدْرة، لايتوهّمون ربّهم بالتصوير، ولا يُجْرون عليه صفاتَ المصنوعين

ولّما كان الطائر عند قبض جناحه كالمتلفّع أي: الملتحف به، احتُمِل أن يكون وصف التَّلَفُّع لهم استعارةً لقصور قواهم وقدرتهم المشبّه للأجنحة وقبضها عن التعلّق بمعلومات اللّه ومقدوراته.

وروي: أنّ للّه تعالى ملائكة حول العرش يسمّون المخلخلين، تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنّما تنفضهم الرياح من خشية اللّه تعالى، فيقول الربّ جلّ جلاله: ملائكتي ماالّذي يخيفكم؟ فيقولوا: ربّنا لو أنّ أهل الأرض اطّلعوا من عزّتك وعظمتك على مااطّلعنا عليه ما ساغوا طعاماً ولا شراباً، ولاانبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحراء يخورون كما يخور الثَّور.

[**مضروبَةٌ بينهم وبين مَنْ دونهم حُجُب العِزَّة وأسْتار القُدْرة**] إشارة إلى قصور القوى البشريّة عن ادراكهم، لتنزّههم عن الجسميّة والجهة، وقربهم من عزّة مبدعهم الأوّل، هذا حالهم، فكيف حال خالقهم جبّار الجبابرة، ومَلِك الدنيا والآخرة؟

[**لايتوهّمون ربّهم بالتصوير**] إشارة إلى تنزيههم عن الإدراكات الوهميّة والخياليّة في حقّ مبدعهم، إذ كان الوهم إنّما يتعلّق بالأمور المحسوسة ذات الصور والأحياز والمحال الجسمانيّة، المنزّه قدسه تعالى عنها، وهم مُبَرَّءون عن الأوهام والخيالات البشريّة.

وكذا قوله: [**ولا يُجْرون عليه صفات المصنوعين**] لعدم المناسبة والمماثلة

ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنواظر ثمّ جَمَعَ سبحانه مِن حَزْنِ الأرض وسَهْلِها وعَذْبِها وسبخها تُرْبَةً سَنَّها بالماء حتّى خَلَصَت ولاطها بالبلَّة حتّى لَزَبَت

بين الحقّ والخلق. أين التراب وربّ الأرباب، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

[**ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنواظر**] لأنّ كلّ ذلك إنّما يكون بقياس وهميّ ومحاكاة خياليّة بمصنوعاته المحتاجة إلى الأمكنة، وهم مُبَرَّءون عن الوهم والخيال.

و منها
في صفة خلق آدم عليه السلام

[**ثمّ جَمَعَ سبحانه مِن حَزْنِ الأرض**] وهو ما غلظ منها واستدرّ [**وسَهْلِها**] وهو ما لاَنَ [**وعَذْبِها**] ماطابَ منها واستعدّ للنبات والزرع [**وسبخها**] ما مَلَح منها [**تُرْبَةً سَنَّها**] أي: مَلَسَها وخلطها [**بالماء حتّى خَلَصَت**] فصار طيناً خالصاً [**ولاطها**] من لطت الحوض بالطين، أي: ملطته وطيّنته [**بالبلَّة**] بفتح الباء من البلل [**حتّى لَزَبَت**] بفتح الزاء، أي: التصقت وثبتت.

---

(١) الشورى: ١١.

فَجَبَل منها صورةً ذات أَحْناء ووصول وأعضاء وفُصُول أَجْمَدَها حتّى استمسكَتْ، وأَصْلَدَها حتّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدود، وأَجَلٍ معلوم ثمّ نَفَخَ فيها من روحه

[**فَجَبَل**] أي: خلَق [**منها صورةً ذات أَحْناء**] جوانب، جمع حِنْو. [**ووصولٍ**] جمع كثرة للوصل، وهي المفاصل، وجمع القلّة أوصال.

[**وأعضاء**] جمع عضو، بالكسر والضمّ، كاليد والرجل للحيوان. [**وفُصُول**] مفاصل [**أَجْمَدَها حتّى استمسكَتْ، وأَصْلَدَها**] أي جعلها صَلْداً، وهي الصلبة الملساء [**حتّى صَلْصَلَتْ**] أي: يبست. ومنه الصلصال، أي: الطين اليابس الّذي يصلصل، وهو غير مطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار.

[**لِوَقْتٍ مَعْدود، وأَجَلٍ معلوم**] وهو الوقت الّذي يعلم اللّه انحلال هذا التركيب فيه، كما قال تعالى: ﴿وما نؤخّره إلاّ لأجل معدود﴾[1].

ويحتمل أن يراد أنّ لكلّ مرتبة من مراتب تركيب بدن الإنسان وانتقاله في أدوار الخلقة وقتاً معدوداً يقع فيه، وأجلاً معلوماً يتمّ به.

[**ثمّ نَفَخَ فيها**] أي: في الصورة [**من روحه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾[2]، واستعار وصف النفخ لإفاضة النفس على البدن، واشتعال نورها المعقول فيه، كما يشعل النارَ نافخُها.

والروح يحتمل أن يراد به جبرئيل، ونسبته إلى اللّه ظاهرة ويحتمل أنْ يراد به جود اللّه ونعمته، وسمّي روحاً لأنّه مبدء كلّ حياة، وبه قوام كلّ

---

(١) هود: ١٠٤.

(٢) الحجر: ٢٩.

فَمَثُلَتْ إنساناً ذا أذهان يُجيلُها وفكَرٍ يَتَصَرَّفُ بها وجَوارِحَ يَخْتَدِمُها وأدواتٍ يُقَلِّبُها ومَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بها بين الحَقِّ والباطل

شيء ونسبته إلى اللّه ظاهرة، ومن للتبعيض.

ويحتمل أن يراد به النفس الإنسانيّة، فتكون من زائدة، ونسبت إلى اللّه لشرفها وبراءتها عن الموادّ، فلها مناسبة مع علّتها الأولى ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي﴾[1].

[**فَمَثُلَتْ**] تلك الصورة المجبولة [**إنساناً**] نَبَّهَ بالفاء على أنّها إنّما صارت إنساناً بِنَفْخ الروح فيها. [**ذا أذهان**] إشارة إلى ما للإنسان من القوى الباطنة المدركة والمتصرّفة [**يُجيلُها**] يحرّكها ويبعثها في انتزاع الصور الجزئيّة، كما للحسّ المشترك، أو المعاني الجزئيّة، كما للوهم.

[**وفكَرٍ يَتَصَرَّفُ بها**] لم يرد القوّة المفكّرة، فإنّها في الإنسان واحدة، بل أراد حركات تلك القوّة فيما تتصرّف فيه، وهي متعدّدة، فلذا جمعها.

[**وجَوارِحَ يَخْتَدِمُها**] إشارة إلى عامّة الأعضاء، إذ كانت كلّها خدماً للنفس، فإنّه يجعلها في مآربه كالخدم الّذين يستعملهم.

[**وأدواتٍ يُقَلِّبُها**] لعلّ المراد بها الأيدي، كما في قوله: فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها، أو الأعم من ذلك، كالبصر والقلب، كما في قوله عليه السلام: يامقلّب القلوب والأبصار.

[**ومَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بها بين الحقّ والباطل**] قيل إشارة إلى استعداد النفس

---

(١) الإسراء: ٨٥.

والأذواق والمشامّ والألوان والأجناس معجوناً بطينة الألوان المختلفة والأشباهِ المؤتَلفة

لدرك المعقولات الثانية المسمّى عقلاً بالملَكَة بحسب مالها من المعارف الأول، أعني البديهيّات، فإنّ الحقّ والباطل أُمور كلّية، وليس للقوى البدنيّة في إدراك الأُمور الكلّية حظّ.

ويحتمل أن يراد بالمعرفة القوّة الإستعداديّة الأولى للإنسان المسمّاة عقلاً هيولائيّاً.

[**والأذواق**] وهي الآلة الّتي بها يدرك المذوقات.

[**والمشامّ**] الآلة الّتي يدرك بها المشمومات.

[**والألوان**] الّتي بها يدرك الألوان.

[**والأجناس**] تنبيهاً على أنّ للإنسان آلات يدرك بكلّ منها واحداً من هذه الأربعة، وأَخَّرَ الأجناس لأنّ المُدْرِك لها هو العقل، إذ كانت أُموراً كلّية، لكن بواسطة إحساس الحواسّ المشار إليها لمحسوساتها، ولعلّه عنى بالأجناس هنا الأُمور الكلّية مطلقاً لا بعضها كما في اصطلاحهم.

[**معجوناً بطينة الألوان المختلفة**] نُصِبَ على الحال من قوله عليه السلام: «إنساناً»، أو [نُصِبَ] على الصفة له. وطينة الألوان مادّتها الّتي خالطت بدن الإنسان فاستعَدَّ بها لقبول الألوان المختلفة، وهي معنى عجنه بها.

[**والأشباه المؤتَلفَة**] كالعظام والأسنان وأشباهها، فإنّها أجسام متشابهة ائتلف بعضها مع بعض، وبها قامت الصورة البدنيّة، وامتزجت بطينتها.

والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة من الحرّ والبرد، والبلّة والجمود، والمساءة والسرور، واستَأْدَى اللّه سبحانه الملائكةَ وديعتَهُ لديهم، وعَهْدَ وصيَّتِه إليهم في الإذعان بالسجود له، والخضوع لتكرمته، فقال سبحانه: ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس﴾

[**والأضداد المتعادية**] كالكيفيّات الأربع الّتي ذكرها عليه السلام، وهي: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.

[**والأخلاط المتباينة**] وهي: الدم، والبلغم، والصفراء، والسوداء.

ثمّ فصّل إجمال ماسبق بقوله: [**من الحرّ والبرد والبلّة**] وهي الرطوبة [**والجمود**] وهي اليبوسة [**والمساءة والسرور**] وهما من الكيفيّات النفسانيّة.

[**واستَأْدَى اللّه سبحانه الملائكةَ وديعتَهُ لديهم**] أي: طلب منهم أداءَها، إشارة إلى قوله: ﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين، فإذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[١].

[**وعَهْدَ**] اللّه إلى الملائكة [**وصيَّتِه إليهم في الإذعان بالسجود له**] واستيداء ذلك منهم هو قوله: ﴿اسجدوا لآدم﴾[٢].

[**والخضوع لتكرمته، فقال سبحانه: ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس﴾[٣]**] وقبيله من الجنّ والشياطين.

---

(١) ص: ٧١ـ٧٢.

(٢) البقرة: ٣٤.

(٣) البقرة: ٤٣.

اعْتَرَتْهُم الحَمِيَّة، وغَلَبَتْ عليهم الشِّقْوة، وتعـزّزوا بخلقـة النار، واستوهنوا خَلْقَ الصلصال، فأعطاه اللّه النَّظِرَة

[اعْتَرَتْهُم] غشيتهم [الحَمِيَّة] كما قال تعالى: ﴿إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[1].

[وغَلَبَتْ عليهم الشِّقْوة] إشارة إلى ما في القرآن: ﴿ربّنا غَلَبَتْ علينا شقوتنا﴾[2].

[وتعزّزوا بخلقة النار] إشارة إلى قوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[3].

[واستوهنوا] استضعفوا [خَلْقَ الصلصال] إشارة إلى قوله: ﴿ءأسجد لَمن خَلَقْتَ طيناً﴾[4].

[فأعطاه اللّه النَّظِرَة] بفتح النون وكسر الظاء: الإمهال والتأخير، إشارة إلى قوله: ﴿إنّك من المُنظَرين﴾[5].

وفي الكلام حذف، أي: فسأَلَ النظرة، فأعطاه ذلك و﴿قال انظرني إلى يوم يبعثون﴾[6].

---

(١) الآية السابقة.

(٢) المؤمنون: ١٠٦.

(٣) ص: ٧٦.

(٤) الاسراء: ٦١، أو قوله تعالى: ﴿لم أكن لأسجُدَ لبشرٍ خلقتَهْ من صلصالٍ...﴾ الآية ٣٣ من سورة الحجر.

(٥) الأعراف: ١٥.

(٦) الأعراف: ١٤.

استحقاقاً للسُّخْطَة، واستتماماً للبليّة، وإنجازاً للعدَة، فقال: ﴿إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ ثمّ أسكن اللّه سبحانه آدم داراً أرْغَدَ فيها عَيْشَه، وآمن فيها محلّته، وحَذَّرَهُ إبليس وعَداوتَه﴾ فاغْتَرَّهُ نَفاسةً عليه بدار المُقَام

[**استحقاقاً للسُّخْطَة**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولايحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾[1].

[**واستتماماً للبليّة**] أي: بليّة بني آدم واختبارهم بعصيانه أو طاعته ﴿أحسب الناس أنْ يُتْركوا أنْ يقولوا آمنّا وهم لايفتنون﴾[2].

[**وإنجازاً للعدَة، فقال: ﴿إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾**][3] **ثمّ أسكن اللّه سبحانه آدم داراً أرْغَدَ فيها عَيْشَه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾[4].

[**وآمن فيها محلّته وحَذَّرَهُ إبليس وعَداوتَه﴾** بقوله: ﴿ياآدم إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلايخرجنّكما من الجنّة فتشقى﴾[5] [**فاغْتَرَّهُ نَفاسةً عليه بدار المُقَام**] إشارة إلى قوله: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال: ياآدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلك لايبلى﴾[6].

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) العنكبوت: ٢.

(٣) ص: ٨١ـ ٨٢

(٤) البقرة: ٣٥.

(٥) طه: ١١٧.

(٦) طه: ١٢٠.

ومرافقـةِ الأبرار، فبـاعَ اليـقينَ بشكِّه، والعَزيمة بوَهْنه، واسْتَبْدَلَ بالجَذَلِ وَجَلاً

وحقيـقة الغرور سكون النفس إلى مايوافق الهـوى ويميل إليه الطبع عن شبهـة وخدعة من إبليس، ومن لوازم المعـاداة النفاسة على العدوّ بكلّ مـايعدّ كمالاً له من دار المقام.

[**ومرافقةِ الأبرار فباعَ اليقينَ بشكّه، والعَزيمة بوَهْنه**] بسبب الإشتغال باللّذات الحاضرة، والإنهماك فيها، وذلك قوله: ﴿فنسي ولم نجد لَهُعزماً﴾[(١)].

وكان عليه السلام في الجنّة على حال يعلمها يقيناً، وما كان يعلم عيشه في الدنيا، فبدّل ذلك اليقين بما شكّكه فيه إبليس لعنه اللّه بقسمه وقوله: ﴿إنّي لكما لمن الناصحين﴾[(٢)].

وقيل: بل كان يتيقّن عداوته، فشكّكه في ذلك بما حكاه من النصح عن نفسه.

وقيل: بل كان يتيقّن عهد اللّه بملازمة طاعته وأمره، فلمّا وسوس له الشيطان نسي ذلك العهد، فذلك قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾[(٣)] الآية، وكذلك أبدل عزيمته الجازمة على المحافظة على طاعة اللّه والصبر عليها بالضعف عن ذلك.

[**واسْتَبْدَلَ بالجَذَلِ**] أي: السرور والفرح بنعيم الجنّة [**وَجَلاً**] كما دلّ

---

(١) طه: ١١٥.

(٢) الأعراف: ٢١.

(٣) طه: ١١٥.

وبالإغْترار نَدَماً، ثمّ بَسَطَ اللّه سبحانه له في توبته، ولَقّاهُ كلمةَ رحمتِه، ووَعَدَهُ المَرَدَّ إلى جنَّته، فأهّبَطَهُ إلى دار البَليَّة وتناسل الذرّية

عليه بقوله: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإنْ لم تَغْفرْ لنا وتَرْحَمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾[1] وتذكّر قوله: ﴿فإمّا يأتينّكم منّي هُدىً فمَنْ اتَّبَعَ هُداي فلا يَضِلُّ ولا يَشْقى ومَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْري فإنّ له معيشةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يومَ القيامة أعمى﴾[2].

[**وبالإغْترار**] الّذي أتاه من الشيطان [**نَدَماً**] على ما فاته من النعيم.

[**ثمّ بَسَطَ اللّه سبحانه له في توبته ولَقّاهُ كلمةَ رحمته**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه﴾[3] [**ووَعَدَهُ المَرَدَّ إلى جنَّت**] بقوله: ﴿فمن اتّبَعَ هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾[4].

[**فأهّبَطَهُ إلى دار البَليَّة**] والإبتلاء إشارة إلى قوله: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ﴾[5].

[**وتناسل الذرّية**] قيل: في اللّفظ تقديم وتأخير، تقديره: والعزيمةُ توهنه، أَهْبَطَهُ إلى دار البليّة وتناسلِ الذرّية، فاستبدل بالجدل وجلاً

---

(١) الاعراف: ٢٣.

(٢) طه: ١٢٣ ـ ١٢٤. والكلمات ـ كما دلّت عليها الأخبار ـ محمد وأهل بيته الطاهرين حيث توسّل بهم آدم.

(٣) البقرة: ٣٧.

(٤) طه: ١٢٣.

(٥) البقرة: ٣٦.

واصطفى سبحانه من وَلَده أنبياءَ أَخَذَ على الوحي ميثاقَهُم وعلى تبليغِ الرسالةِ أمانَتَهم لَمّا بدَّلَ أكثرَ خلقه عَهْدَ اللّه إليهم

وبالإغترار ندماً، ثمّ أناب إلى اللّه، فبسط، إلى آخره، وانّما جعل تناسل الذرّية في معرض ذمّ الحال وإن كان من كمالات الدنيا لحقارة ذلك بالنسبة إلى الكمال والخير الّذي كان فيه آدم في الجنّة.

إصطفاء الأنبياء من ولد آدم عليه السلام:

[**واصطفى سبحانه من وَلَدِه**] أي من وُلد آدم [**أنبياءَ أَخَذَ على الوحي ميثاقَهُم**] قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم﴾[١] وقال: ﴿وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيّين﴾[٢] الآية.

[**وعلى تبليغِ الرسالة أمانَتَهم**] من ضبط الوحي في ألواح قواهم وجذب سائر النفوس الناقصة وتكميل الناقصين من أبناء نوعهم [**لَمّا بدَّلَ أكثرَ خلقه عَهْدَ اللّه إليهم**] تنبيه على وجه الحكمة في بعثة الأنبياء وسببها، وهي شرطيّة متّصلة قدّم فيها التالي لخلْق ذكْر الأنبياء بذكر آدم، والتقدير: لَمّا بدَّلَ أكثر خلق اللّه عَهْدَهُ إليهم، اصطفى من ولده أنبياء، وذلك العهد هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم﴾[٣] الآية.

(١) الاحزاب: ٧.
(٢) آل عمران: ٨١.
(٣) الاعراف: ١٧٢.

فَجَهِلوا حَقَّهُ واتَّخَذوا الأَنْدادَ مَعَه واجتالتهم الشياطين: عن معرفته وأقتطعتهم عن عبادته فَبَعَثَ فيهم رُسُلَه، وواتَرَ إليهم أنبياءَه ليسْتَأْدوهم ميثاقَ فِطْرته ويُذكِّروهم منسيّ نعمته

قال ابن عبّاس: لمّا خلق اللّه آدم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نسمة هو خالقُها إلى يوم القيامة فقال: ﴿ألستُ بربّكم؟ قالوا: بلى﴾[١] فَنُودي يومئذ جَفَّ القلم بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة.

[**فَجَهِلوا حقَّهُ**] للغفلة والإشتغال باللذّات الفانية عن دوام شكره وعبادته الموصل[٢] إلى النعم الباقية.

[**واتَّخَذوا الأَنْدادَ مَعه**] لنسيانهم العهد القديم [**واجتالتهم الشياطين**]: أدارتهم وصرفتهم وجذبتهم [**عن معرفته**] الّتي هي الدعاء إلى الجنّة [**وأقتطعتهم عن عبادته**] الّتي هي الطريق الموصل إلى جنانه ورضوانه.

[**فَبَعَثَ فيهم رُسُلَه، وواتَرَ إليهم أنبياءَه**] أي أرسل وتراً بعد وتر، أي واحداً بعد آخر [**ليسْتَأْدوهم ميثاقَ فِطْرته**] أي: يطلبوا منهم أداء ماعهد إليهم به حين خلقهم من العبوديّة للّه، والإستقامة عليها ويبعثوهم على أداء ماخُلقوا لأجله من العبادة.

[**ويُذكِّروهم منسيّ نعمته**] أي: يذكّروهم مانسوه من نعم اللّه الجسيمة، وينبّهوهم على شكر ماأولاهم به من مننه العظيمة بالترغيب فيما أعدّه اللّه لأوليائه، والترهيب بما أعدّ لأعدائه.

---

(١) الآية السابقة.

(٢) تذكير كلمة الموصل لأنها صفة لـ«دوام» أي الدَّوام الموصل.

ويَحْتَجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُرُوهُم آيات المقْدرة: مِنْ سَقْفٍ فوقَهم مرفوع، ومِهادٍ تَحتَهم موضوع، ومَعايش تُحييهم، وآجالٍ تُفْنيهم

[**ويَحْتَجّوا عليهم بالتبليغ**] لرسالات ربّهم وينذروهم للقاء يومهم الّذي يوعدون.

[**ويثيروا لهم دفائن العقول**] من وجوه الأدلّة على وحدانيّة المبدع الأوّل وتفرّده باستحقاق العبادة. واستعمال الدفائن استعارة، إذ لما كانت جواهر العقول ونتائج الأفكار موجودة في النفوس بالقوّة اشبهت الدفائن فحسن استعارة لفظ الدفينة لها، ولمّا كان الأنبياء هم الأصل في استخراج تلك الجواهر لإعداد النفوس لإظهارها، حَسُنَ إضافة إثارتها إليهم [**ويُرُوهُم آيات المقْدِرة:**] الإلهيّة وآثارها ويرشدوهم إلى وجوهها فيستدلّوا بما يشاهدون من الحكمة في خلق السماوات والأرض وأمر معاشهم وأسباب حياتهم وموتهم.

[**مِنْ سَقْفٍ فوقَهم مرفوع**] بلا عَمَد محفوظ، مشتمل على بدائع الصنع وغرائب الحكم.

[**ومِهاد تَحتَهم موضوع**] فيه ينتشرون وعليه يتصرّفون.

[**ومَعايش تُحييهم**] أي: بها يكون قوام حياتهم الدنيا، وبلاغاً لمدّة بقائهم لما خلقوا له [**وآجال تُفْنيهم**] بها يكون فناؤهم ورجوعهم إلى بارئهم، وكفى بالأجل آية وواعظاً وداعياً إلى اللّه، ولذا قالﷺ أكثروا من ذكر هادم اللذّات.

وأوصابٍ تُهْرِمُهم وأَحْداثٍ تَتَابعُ عليهم ولم يُخْلِ اللّهُ سبحانَهُ خَلْقَهُ من نبيٍّ مُرْسَلٍ

[**وأوصابٍ تُهْرِمُهم**] وهي الأمراض الّتي تُضْعِفُ قواهم حتّى يهرموا.

[**وأَحْداثٍ**] ومصائب [**تَتَابعُ عليهم**] وتتوارد، فإنّ كلّ هذه الآثار مواد احتجاج الأنبياء على الخلق لينبّهوهم بصدورها عن العزيز الجبّار على انّه هو الملك المطلق الّذي له الخلق والأمر وليُقرّروا في أذهانهم صورة مانسوا من العهد المأخوذ عليهم في الفطرة الأصليّة من انّه هو سبحانه الواحد الحقّ المنفرد باستحقاق العبادة، وإلى ذلك أُشير في قوله تعالى: ﴿وجعلنا السماء سَقْفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف اللّيل والنهار والفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل اللّه من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأَيْدٍ وإنّا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون﴾[٣].

[**ولم يُخْلِ اللّهُ سبحانَهُ خَلْقَهُ من نبيٍّ مُرْسَلٍ**] لعنايته تعالى بالخلق، كما قال: ﴿وإنْ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾[٤] وهذا ممّا انفردت به الإماميّة

---

(١) الانبياء: ٣٢.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) الذاريات: ٤٧ـ٤٩.

(٤) فاطر: ٢٤.

أو كتابٍ مُنْزَل

ودلّت عليه الأخبار المتواترة من أنّ الأرض لاتخلو من حجّة[١]، إمّا ظاهر مشهور، أو غائب مستور[٢]، وإنّ الحجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق[٣].

[أو كتابٍ مُنْزَل] يدعوهم إلى عبادته ويذكّرهم فيه منسيّ عهده، ويُتلَى عليهم فيه أخبار الماضين والعبر اللاحقة للأوّلين، ويحتجّ عليهم فيه بالحجج البالغة، والدلائل القاطعة، ويوضح لهم فيه أأُمور نظامهم، وينبّههم على مبدئهم ومعادهم، ولكن لابدّ للكتاب من قيِّم يحيط بمحكمه ومتشابهه، ومجمله ومفصّله، وظاهره ومؤوّله، كما دلّ عليه البرهان والوجدان. قال تعالى: ﴿هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿انّما هو آيات بيّنات في صدور الّذين أُوتوا العلم﴾[٥].

---

(١) اصول الكافي : ج١، باب أن الارض لاتخلو من حجة، ص ١٧٨، الاحاديث.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٥ ح١٠، عن أمالي الصدوق، وإكمال الدين.

(٣) أُصول الكافي : ج١، باب أن الحجة لاتقوم على خلقه إلاّ بإمام، ص١٧٧، ح٤.

(٤) آل عمران : ٧ .

(٥) العنكبوت : ٤٩ .

أو حُجّة لازمة أو مَحَجَّة قائمة: رُسُلٌ لايُقَصِّر بهم قلّةُ عددهم ولا كثرةُ المكذّبين لهم. مِن سابقٍ سُمّيَ له مَنْ بعده، أو غابرٍ عرّفَهُ مَنْ قَبْلَه

وقد دلّ الدليل القطعيّ إنّ في القرآن تبيانَ كلّ شيء، ومن المعلوم إنّ العقول البشريّة لاتفي بذلك، فلابدّ من قيّم يعلم جميع مافيه.

وقوله: [**أو حُجّة لازمة أو مَحَجَّة قائمة:**] إشارة إلى ذلك ممّا تنفرد به الإماميّة من أنّه لابدّ في كلّ زمان من وجود إمام معصوم.

[**رُسُلٌ لايُقَصِّر بهم قلّةُ عددهم ولا كثرةُ المكذّبين لهم. مِن سابقٍ سُمّيَ له مَنْ بعده، أو غابرٍ عرّفَهُ مَنْ قَبْلَه**] أي: هم رسل كذلك، والمراد الإشارة إلى أنّهم وإن كانوا قليلي العدد بالنسبة إلى كثرة الخلق المكذّبين لهم كما هو المعلوم من حال كلّ نبيّ بُعث إلى أُمّة، فلابدّ فيهم من فرقة تنابذه وتعانده وتكذّب مقاله، فإنّ ذلك لايوليّهم قصوراً عن أداء ما كُلِّفوا القيام به من تبليغ الرسالة وحمل الخلق على مايكرهون ممّا هو صلاحهم في معاشهم ومعادهم، بل يقوم أحدهم وحده ويدعوا إلى طاعة ربّه، ويتحمّل أعباء المشقّة التامّة في مجاهدة أعداء الدين، وتنتشر دعوته في أطراف الأرض رسلاً مبشّرين ومنذرين، لئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل.

و«من» في قوله عليه السلام: «من سابق» للنبيّين، وهو تفصيل للأنبياء، والمراد: أنّ السابق منهم قد أطلعه اللّه تعالى على العلم بوجود اللاحق بعده، فبعضهم كالمقدّمة لتصديق البعض كعيسى، حيث قال: ﴿ومبشّراً

على ذلك نسلت القرون ومَضَت الدُّهور وسَلَفَت الآباء وخَلَفَت الأبناء بعثة الرسول الأعظم ﷺ إلى أن بعث الله محمّداً ﷺ لإنجاز عدته

برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1] وبين لاحق سمّاه مَنْ قبله كمحمّد ﷺ.

و[**على ذلك**] النمط وهذه الوتيرة والأُسلوب الربّاني، والنظام الإلهي [**نسلت القرون**] أي: ولدت [**ومَضَت الدُّهور وسَلَفَت الآباء وخَلَفَت الأبناء**] خلفاً عن سلف.

وقد ساق عليه السلام هذه الخطبة من لدن آدم عليه السلام إلى أن انتهى إلى الخاتم محمّد ﷺ، كما هو الترتيب التطبيقي، إذ هو الغاية من طينة النبوّة وخاتم النبيّين، كما نطق به القرآن: ﴿ما كان محمّدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين﴾[2].

ثمّ شرع بعد ذلك في التنبيه على كيفيّة اهتداء الخلق به ﷺ وانتظام أُمورهم في معاشهم ومعادهم بوجوده استدراجاً لأذهان السامعين، فقال:

بعثة الرسول الأعظم ﷺ

[**إلى أن بعث الله محمّداً ﷺ لإنجاز عدته**] الضمير راجع إلى الباري: ﴿وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض

---

(١) الصفّ: ٦.

(٢) الاحزاب: ٤٠.

مأخوذ على النبيّين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده

كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً﴾[١] وقال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[٢].

[مأخوذ على النبيّين ميثاقه] نصب على الحال من بعث، وذوالحال محمّد صلى الله عليه وآله، وكذا الحال في المنصوبين الآخرين.

والمراد بأخذ الميثاق ماقبل انّه لم يكن نبيّ قطّ إلاّ وبشّر بمبعث محمّد صلى الله عليه وآله وأخذ تعظيمه وإن كان بعد لم يوجد أو ماقرّر في نظرهم من الأعراف بحقيّة نبوّته وتصديقه إذ كان لك من تمام عبادة الحقّ، فبعث حال ما كان ذلك الميثاق مأخوذاً على الأنبياء ومن عداهم.

[مشهورة سماته] أي: علامات نبوّته، فإنّها كانت ظاهرة في الميثاق وفي أحوال تعرفها الرهبان والركبان والكهّان وعلماء أهل الكتاب.

وقد ذكر في التوراة والإنجيل صفاته وعلاماته [كريماً ميلاده] أي: طاهراً أصله عن الفساد، لم يزل يُنْقَل من الأصلاب الزكيّة إلى الأرحام المطهّرة، قال تعالى: ﴿الّذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين﴾[٣] لم تنجّسهُ الجاهليّة بأنجاسها، ولم تلبسه من مدلهمّات ثيابها.

---

(١)

(٢)

(٣) الشعراء: ٢١٨ـ٢١٩.

وأهلُ الأرضِ يومئذ مِلَلٌ متفرِّقةٌ وأهواء منتشرة طرائق متشتّتة بين مُشَبِّهٍ للّه بخلقه أو ملحدٍ في أسمائه أو مُشيرٍ إلى غَيره

[**وأهلُ الأرضِ**] الواو للحال، أي: والحال أنّ أهل الأرض [**يومئذ**] أي حين إذ بُعِثَ [**مِلَلٌ متفرِّقةٌ وأهواء**] أي: أهواؤهم أهواءٌ [**منتشرة**] وطرايقهم [**طرائق متشتّتة**] مختلفي الآراء متشتّتي الأهواء [**بين مُشَبِّهٍ للّه بخلقه**] كالمجسِّمة والمصوّرة والمشبّهة [**أو ملحدٍ في أسمائه**] من عدل بأسمائه عن الحقّ بتحريفها عمّا هي عليه إلى أسماءٍ اشتقّوها لأصنامهم وأوثانهم منها، كاللاّت من اللّه، والعُزَّى من العزيز، ومناة من المنّان.

[**أو مُشيرٍ إلى غَيره**] كالدهريّة وغيرهم من عَبَدَة الأوثان والكواكب.

قيل: إانّ الخلق حيث بُعث محمّدﷺ منهم مَنْ له ملّة وشريعة، ومنهم غيره، فالأوّلون اليهود والنصارى والصابئون والمجوس، وقد حَرَّفوا كتبهم، وغيّروا دينهم، وبقي منهم من غَلَب عليه التشبيه والتجسُّم، كما حكى اللّه عنهم: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء اللّه وأحبّاؤه﴾[1] ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن اللّه وقالت النصارى المسيح بن اللّه﴾[2] ﴿وقالت اليهود يد اللّه مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾[3].

والمجوس أثبتوا أصلين أسندوا إلى أحدهما الخير وإلى الثاني الشرّ، وزعموا أنّه جرت بينهما محاربة فأصلحتهما الملائكة على أن يكون العالم السفلي للشرّ سبعة آلاف سنة، إلى غير ذلك من خرافاتهم وهذيانهم.

---

(١) المائدة: ١٨.

(٢) التوبة: ٣٠.

(٣) المائدة: ٦٤.

....

وأمّا غيرهم من أهل الأهواء فهم على أصناف: فمنهم العرب أهل مكّة وغيرهم، وقد كان منهم معطِّله، ومنهم محصِّلة نوع تحصيل، والأوّلون صنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني، وهم الّين حكى اللّه عنهم: ﴿وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلاّ الدهر﴾[1].

وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق منه وأنكروا البعث والإعادة، كما حَكَى اللّه عنهم: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خَلْقَه قال من يُحيي العظام وهي رميم قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة﴾[2] الآية.

ومنهم من اعترفوا بالخالق ونوعٍ من الإعادة لكنّهم عبدوا الأصنام وزعموا أنّهم شفعاءهم عند اللّه، كما حكى اللّه عنهم: ﴿ويعبدون من دون اللّه ما لايضرّهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه﴾[3] ومن هؤلاء قبيلة ثقيف، وهم أصحاب اللاّت بالطائف. وقريشٌ وبنو كنانة وغيرهم أصحاب العزّى. ومنهم من كان يجعل الأصنام على صور الملائكة ويتوجّه بها إلى الملائكة.

ومنهم من كان يعبد الملائكة، كما قال تعالى: ﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾.

وأمّا المحصِّلة، فقد كانوا في الجاهليّة على ثلاثة أنواع من العلوم:

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) ياسين: ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) يونس: ١٨.

فهداهم بهِ من الضَّلالة وأنقذهم بمكانه من الجهالة

أحدها : علم الأنساب والتواريخ والأديان.

والثاني: علم تعبير الرؤيا.

والثالث: علم الأنواء، وذلك ممّا يتولّاه الكهنة والقافة منهم.

وعن النبيّ ﷺ: من قال مطرنا بِنَوْء كذا، فقد كفر بما أُنزل على محمّدﷺ.

وعنه ﷺ: لاعَدْوى ولا هامّة ولا صَفَر.

ومن غير العرب: البراهمة من أهل الهند ومدارهم على التحسين، والتقبيح العقليين والرجوع في كلّ الأحكام إلى العقل وإنكار الشرائع، وانتسبوا إلى رجل منهم يقال له براهام.

ومنهم: أصحاب البَدّ، والبَدّ عندهم شخص في هذا العالم لايولد ولاينكح ولايطعم ولايشرب ولايهرم ولايموت.

ومنهم: أهل الفكرة، وهم أهل العلم بالفلك وأحكام النجوم.

ومنهم: أصحاب الروحانيّات الّذين أثبتوا وسائط روحانيّة تأتيهم بالرسالة من عند اللّه في صورة البشر من غير كتاب، فتأمرهم وتنهاهم.

ومنهم: عبدة الكواكب.

ومنهم: عبدة الشمس.

ومنهم: عبدة القمر.

فبعث اللّه نبيّهﷺ **[فهداهم بهِ من الضَّلالة]** إلى السلوك إلى الصراط المستقيم.

[وأنقذهم بمكانه] وببركة أنواره **[من]** ظلمات **[الجهالة]** إلى أنوار

ثمّ اختار سبحانه لمحمّد صلى الله عليه وآله لقاه ورضي له ما عنده ذا كرامة عن دار الدنيا، ورَغبَ به عن مقارنة البلوى، فقبضه إليه كريماً صلّى اللّه عليه وآله، وخلَّفَ فيكم

اليقين، فقام بالدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أحسن فجلا اللّه بنوره صدأ قلوب الخلق، وأزهق باطل الشيطان بما جاء به من الحقّ، وانطلقت الألسن بذكر اللّه واستنارت البصائر بمعرفة اللّه وأظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون. وكَمَّلَ به دينه وأتمّ به نعمته، كما قال: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[1].

[**ثمّ اختار سبحانه لمحمّد صلى الله عليه وآله لقاه**] كما أحبّ هو لقاه، كما قال صلى الله عليه وآله: مَنْ أحبّ لقاء اللّه أحبّ اللّه لقاءه.

[**ورضي له ما عنده**] من الكرامة التامّة، والنعمة العامّة في جواره الأمين في أعلا علّيّين ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[2].

[**ذا كرامة عن دار الدنيا**] لحقارتها وعدم قابليّتها، فإنّها لو كان لها قدر عند اللّه لما سقى الكافر منها شربة ماء، ولأنّها سجن المؤمن وجنّة الكافر.

[**ورَغبَ به عن مقارنة البلوى**] ومقام الأذى [**فقبضه**] اللّه تعالى [**إليه كريماً**] عن أدناس الذنوب طاهراً في ولادته الجسمانيّة والروحانيّة من جميع العيوب [**صلّى اللّه عليه وآله**] مابرق بارق، ودرّ شارق [**وخلَّفَ فيكم**

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) القمر: ٥٥.

مـا خَلفَتِ الأنبيـاء في أممهـا إذ لم يتـركـوهـم هَمَلاً بغـيـر طريق واضح، ولا علمَ قائم أوصاف القرآن الكريم كتاب ربّكم

ما خَلفَتِ الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هَمَلاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم] والعلم المنار يُهتَدى به، إذ يجب عليهم أن يُدَبِّروا لبقاء ما سَنُّوه وشَرَّعوه في أمور المصالح الإنسانيّة، تدبيراً، والغاية من ذلك التدبير هو بقاء الخلق واستمرارهم على معرفة الصانع المعبود، ودوام ذكره، وذكر المعاد ونظام أمور العباد، وحسم الفساد والعناد مع انقراض القرن الّذي يلي النبيّ ومن بعده، فوجب إذاً أن يأتيهم بكتابٍ من عند اللّه وافياً بالمطالب الإلهيّة والأحكام الشرعيّة، ويُسنّ على الخلق تكراره وحفظه ودراسته وتعلّمه وتعليمه، وأن ينصب لهم قَيِّماً يعلّمُ جميع مافي القرآن، إذ لايَكِلْهم إلى كتاب فيه المحكم والمتشابه والمجمل والمؤوَّل والناسخ والمنسوخ وإلاّ لاختلفت آراؤهم وتشتّت ولزم الهرج والمرج، واختلاف الكلمة.

أوصاف القرآن الكريم

وقد أشار عليه السلام إلى أوصاف الكتاب وأقسامه بقوله: **[كتاب ربّكم]** بدلٌ من «ما».

والمراد بـ«ما» نوع ما خلّفت الأنبياء في أممها من الحقّ، وذلك ماشتمل عليه الكتاب ممّا لاخلاف يه بين الأنبياء من القوانين الكلّية، كالتوحيد وأمر المعاد وتحريم الكبائر.

مُبـيِّناً حـلالَهُ وحـرامَه وفـرايضـه وفـضـائله وناسِخَه ومنسـوخـه ورخصه وعزائمه

[مُبيِّناً] نصب على الحال من خلف، وذوالحال ضمير النبيّ ﷺ [**حلالَهُ وحرامَه وفرايضه وفضائله**] إشارة إلى الأحكام الخمسة الشرعيّة، الّتي يدور عليها أمر الفقه، وهو الوجوب، والندب، والحظر، والكراهة، والإباحة، وعبّر بالحلال عن المباح والمكروه، وبالحرام عن المحظور، وبالفضائل عن المندوب، وبالفرائض عن الواجب.

[**وناسِخَه ومنسوخه**] والنَّسخ رفع الحكم الثابت بالنصّ المتقدّم بحكم آخر مثله، فالناسخ هو الحكم الرافع، والمنسوخ هو الحكم المرفوع، كقوله تعالى: ﴿والّذين يُتَوفّون منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً﴾[١] فإنّه ناسخ لقوله تعالى: ﴿متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾[٢] و﴿فاقتلوا المشركين﴾[٣] ناسخٌ لقوله: ﴿لا إكراه في الدين﴾[٤].

[**ورخصه**] جمع رخصة، وهو الإذن في الفعل، مع قيام السبب المحرَّم له، لضرورة، كقوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام أُخر﴾.

[**وعزائمه**] جمع عزيمة، وهي ما كان من الأحكام الشرعيّة جارياً على وفق سببه الشرعي، كقوله تعالى: ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، فاعلم أنّه

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) البقرة: ٢٤٠.

(٣) التوبة: ٥.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

وعامّه وخاصّه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده

لا إله إلاّ اللّه.

[وعامّه وخاصّه] والعامّ اللّفظ المستغرق لجميع مايصلح له بحسب وضع واحد، كقوله تعالى: ﴿واللّه بكلّ شيء عليم﴾ و﴿للّه على الناس حجّ البيت﴾.

والخاصّ ما لم يتناول الجميع بالنسبة إلى مايتناوله كقوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ وإلاّ إبليس.

[وعبره] جمع عبرة، وهي الإسم من الإعتبار واشتقاقها من العبور، لأنّ ذهن الإنسان ينتقل فيها من أمر إلى أمر، كما ورد فه من قصص الأوّلين، والمصائب النازلة بهم، الّتي ينتقل ذهن الإنسان باعتبارها إلى تقديرها في نفسه وحاله، فيحصل بذلك انزجاره ورجوعه إلى اللّه، كقوله تعالى: ﴿فأخذه اللّه نكال الآخرة والأُولى إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾.

وقد يستعمل العبرة في كلّ مايفيد اعتباراً من طرق الإحسان، كقوله تعالى: ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونها﴾ الآية.

[وأمثاله] كقوله تعالى: ﴿إنّما مَثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ الآية، وقوله: ﴿ضرب اللّه مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شيء﴾ وقوله: ﴿مثلهم كمثل الّذي استوقد ناراً﴾.

[ومرسله ومحدوده] قيل: هما في عرف أُصول الفقه المطلق والمقيّد، فالمطلق كقوله تعالى في كفّارة الظهار: ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا﴾

ومحكمه ومتشابهه مفسّراً جمله ومبيّناً غوامضه

والمقيّد كقوله: ﴿فتحرير رقبة﴾ والفرق بينهما وبين العام، إنّ لكلّ شيء ماهيّة هو بها ما هو، وهي مغايرة لكلّ ما عداها، فإنّ مفهوم الإنسان مثلاً ليس إلّا أنّه إنسان، فإمّا أنّه واحد أو كثير، أو ليس أحدهما، فمفهوم آخر مغاير لماهيّته، فاللفظ الدالّ على الحقيقة من حيث هي، من غير دلالة على شيء آخر معها هو اللفظ المطلق والمهمل، والدالّ معها على قيد العموم، بحيث يفهم منه تعدّد الماهيّة وتكثّرها في جميع مواردها هو اللفظ العام، أو في بعض مواردها، وهو الخاصّ.

[**ومحكمه ومتشابهه**] والمحكم في اصطلاحهم هو راجح الإفادة لأحد مفهوماته المحتملة للإرادة منه، من دون قرينة، فمنه النصّ وهو الراجح غير المانع من النقيض، كقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين﴾ فإنّه ظاهر العموم في جميعهم، أو إن احتمل بعضهم، ويقابله المتشابه، وهو غير راجح الإفادة لأحد مفهوماته، مه المجمل وهو غير راجح الإفادة لأحدها ولا مرجوحها، كقوله تعالى: ﴿ثلاثة قروء﴾ فإنّه يحتمل للحيض والطهر على سواء، ومنه المؤل وهو غير راجح الإفادة، ولكنّه مرجوحها، كقوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ إذ المراد غير ظاهرة، وهو المراد بالمبيّن إذ بيّن بغير لفظه.

[**مفسّراً جمله ومبيّناً غوامضه**] والتفسير هو التبيين والغوامض دقايق المسائل، وأضاف هذه المعاني كلّها إلى الكتاب لاشتماله عليها، وكونه مبدء لها. ونسب بيان هذه الأمور إلى الرسول صلى الله عليه وآله، لكونه هو الموضح لها نسبته، ثمّ أشار إلى تفصيل أحكام الكتاب باعتبار آخر، وذكر منها أقساماً فقال:

بين مأخوذ ميثاق عمله، وموسّع على العباد في جهله، وبين مثبت في الكتاب فرضه، معلوم في السنّة نسخه، وواجب في السنّة أخذه، مرخّص في الكتاب تركه

[**بين مأخوذ ميثاق عمله**] أي يجب تعلّمه، ولايسع الخلق جهله، كوحدانيّة الصانع، وأمر المعاد والعبادات الخمس وشرائطها.

[**وموسّع على العباد في جهله**] وهو ما لايتعيّن على كافّة الخلق العلم به، بل يعذر بعضهم في جهله، ويسعهم تركه، كالآيات المتشابهات وأوائل السور كـ: ﴿كهيعص﴾ و﴿حمعسق﴾ ونحوهما.

[**وبين مثبت في الكتاب فرضه معلوم في السنّة نسخه**] كقوله تعالى: ﴿واللاّتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم، فإن شهدوا فامسكوهنّ في البيوت حتّى يتوفّاهنّ الموت أو يجعل اللّه لهنّ سبيلاً﴾، وقوله: ﴿واللّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾.

فكانت الثيّب إذا زنت في بلاد الإسلام تمسك في البيت إلى الممات، والبكر تؤذى بالكلام ونحوه بمقتضى هاتين الآيتين، ثمّ نسخ ذلك في حقّ الثيّب بالرجم، وفي حقّ البكر بالجلد والتغريب بحكم السنّة.

[**وواجب في السنّة أخذه مرخّص في الكتاب تركه**] كالتوجّه إلى بيت المقدس في مبدء الإسلام، فإنّه ان ثابتاً في السنّة، ثمّ نُسخ بقوله تعالى: ﴿فلنولّينّك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾ وكثبوت صلاة اخوف في القرآن حال القتال الواقع لجواز

وبين واجب بوقته زائل في مستقبله ومباين بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه

تأخيرها في السنّة إلى انجلاء القتال.

[**وبين واجب بوقته زائل في مستقبله**] كالحجّ الواجب في العمر مرّة، وكالنذور المقيّدة بوقت معيّن وأمثالها، فإنّ وجوبها تابع لوقتها المعيّن، ولايتكرّر بتكرار أمثاله.

[**ومباين بين محارمه**] عطف على على المجرورات السابقة، والياء مفتوحة. وفي معنى الكلام وتقديره لطف، فإنّ المحارم لما كانت هي محالّ الحكم المسمّى بالحرمة، صار المعنى وبين حكم مباين بين محاله هو الحرمة، وقوله:

[**من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه**] بيان لتلك المحال، وإشارة إلى تفاوتها في الشدّة والضعف في كونها مبعدة عن رحمة اللّه على سبيل الجملة.

ويدلّ على أنّ الذنوب فيها كبار وصغائر، وإنّ الكبائر ماتوعّد اللّه عليه بالنار، كالقتل في قوله تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها﴾ وكذا سائر الكبائر من الزنا والظلم ونحوهما.

وأشار بالفقرة الثانية إلى قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم وندخلكم مُدخلاً كريماً﴾ وقوله: ﴿وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ ونحوه من آيات الوعد بالمغفرة، ثمّ عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة، ورجع إلى تقسيم الكتاب، فقال:

وبين مقبول في أدناه وموسّع في أقصاه وفرض عليكم حجّ بيته الحرام الّذي جعله قبلة للأنام﴾ يردونه ورود الأنعام ويألهون إليه ولوه الحمام جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزّته

[**وبين مقبول في أدناه وموسّع في أقصاه**] فإنّ القليل من القراءة مقبول، والكثير مها موسّع مرخّص في تركه.

ثمّ ذكر عليه السلام وجوب حجّ البيت الحرام ومنّة اللّه تعالى على خلقه بذلك، وإلى أسرار وصفه، فقال:

[**وفرض عليكم حجّ بيته الحرام**] أي: المحرّم، كقوله تعالى: ﴿عند بيتك المحرَّم﴾ فإنّ العرب كانت تحرّم فيه ماتستحلّ في غيره من القتل والقتال، أو بمعنى الحرام كزمان وزمن، لكونه أمناً لمن دخله ومانعاً له.

[**الّذي جعله قبلة للأنام﴾** فقال: ﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾.

[**يردونه ورود الأنعام**] شبّه ورود الناس إليه وازدحامهم عليه ومحبّتهم له بازدحام الإبل العطاس على الماء.

[**ويالهون**] أي: يسدّ وجدهم وشوقهم [**إليه**] في كلّ عام، ويشتاقون إلى وروده [**ولوه الحمام**] كاشتياق الحمام الساكن به إليه عند خروجه منه، وأصل همزة يألهون الواو من وله يوله إذا تحيّر من شدّة الوجد.

[**جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزّته**] إشارة إلى أنّ العقل السالم يكن ليهتدي إلى أسرار أعمال الحجّ لم يكن الباعث عليها

واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه

في أكثر الخلق إلاّ الأمر المجرّد، وقصد امتثاله من حيث هو واجب الإتّباع فقط، وفيه كمال الرقّ وخلوص الإنقياد للّه، فمن فعل ما أمر به من أعمال الحجّ كذلك، فهو المخلص الّذي ظهرت عليه علامات المخلص المتواضع الذهن لجلال ربّ العالمين، ولمّا كان تعالى عالم الغيب والشهادة، لم يمكن أن يقال: إنّ تلك للعلامة ممّا يستفيد بها، علماً بأحوال عبيده من طاعتهم ومعصيتهم، فهي علامة لغيرهم من الناس.

[**واختار من خلقه سماعاً**] جمع سامع [**أجابوا إليه دعوته**] إشارة إلى إلحاح في قوله تعالى: ﴿وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق﴾.

وفي الأثر: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا فرغ من بناء البيت جاء جبرئيل فأمره أن يؤذّن بالناس بالحجّ، فقال إبراهيم عليه السلام: يارب وما يبلغ صوتي؟ قال اللّه: أذّن وعليَّ البلاغ، فعلا إبراهيم عليه السلام المقام وأشرف به، حتّى صار كأطول الجبال، وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ونادى: ﴿ياأيّها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم﴾ فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبّيك اللّهمّ لبّيك.

وقوله: [**وصدّقوا كلمته**] إشارة إلى مطابقة أفعالهم، لما جاءت به الانبياء من كلام اللّه سبحانه وعدم مخالفتهم وتكذيبهم له.

[**ووقفوا مواقف أنبيائه**] إشارة إلى مطابقتهم له في مواقف الحجّ وفي

وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه ويحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته وجعله سبحانه للإسلام علماً وللعابدين حرماً

ذكر الانبياء هٰهنا استدراج حسن الطباع اللطيفة المتشوّقة إلى لقاء اللّه والتشبيه بأنبيائه وملائكته.

[**وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه**] إشارة إلى ماروي أنّ في السماء بيتاً تطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضراح وانّ هذا البيت تحته على خطّ مستقيم وأنّه المراد بقوله تعالى: ﴿والبيت المعمور﴾ أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده.

[**ويحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته**] شبّه عليه السلام العبادة بالبضاعة الّتي يتّجر بها، فالتاجر هو النفس، ورأس المال هو العقل، ووجوه تصرّفاته حركاته وسكناته الحسيّة والعقليّة المطلوبة منه بالأوامر الشرعيّة والأرباح الجنّة ﴿ورضوان من اللّه أكبر﴾ فما أقبح مملوكاً يعدّ تصرّفه في خدمة سيّده متجراً يطلب به التكسّب والربح، وأحسن به إذا نظر إلى أنّه أهل العبادة، وأزال جميع الأغراض.

[**وجعله سبحانه للإسلام علماً**] أي: علماً للطريق إلى اللّه وسلوك صراط المستقيم يهتدي به كما يهتدي بالعلم المرفوع للعسكر والمارّة على مقاصدهم.

[**وللعابدين حرماً**] آمناً كما مرّ.

فرض حجّه وأوجب حقّه وكتب عليهم وفادته فقال سبحانه: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾ أحمده استتماماً لنعمته واستسلاماً لعزّته

[**فرض حجّه وأوجب حقّه وكتب عليهم وفادته**] والوفادة القدوم للإسترفاد، ولفظها مستعار للحجّ، لأنّه قدوم إلى بيت الله طلباً لفضله وثوابه.

[**فقال سبحانه: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾**] وفيها م ضروب التأكيد من العدول عن الأمر إلى الجملة الخبريّة بمعنى الطلب، وذكر من يجب عليه عموماً وخصوصاً وتسمية، تاركه كافراً، وأنّ الله غنيّ عن طاعات عبيده.

[ومن خطبة له عليه السلام]
[بعد انصرافه من صفّين]

اسم الأرض الّتي كانت فيها الحرب، والنون أصليّة.

[**أحمده استتماماً لنعمته واستسلاماً لعزّته**] منصوبين على المفعول له.

وقد جعل عليه السلام لحمده غايتين:

الأولى منهما: الإستتمام لنعمة الله، لأنّ العبد يستعدّ بمزيد الشكر لمزيد النعمة، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

واستقصاماً من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته إنّه لايضلّ من هداه، ولايئل من عاداه، ولايفتقر من كفاه

والثانية: الإستسلام العزّ به، إنّ العبد يستعدّ بكمال الشكر لمعرفة المشكور، وهو اللّه سبحانه، وهي مستلزمة للإنقياد لعزّته والخضوع لعظمته نظراً إلى قوله: ﴿ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾ لما يشتمل عليه الآية من التخويف المانع من مقابلة نعم اللّه بالكفر، ولما كانت هاتان الغايتان لإتمام لهما بدون عصمة عن ورطات المعاصي والمعونة بكفايته على الدواعي المهلكة، جعل طلب العصمة غاية أُخرى وهي الوسيلة الأوّلين، وعقّب ذلك الحمد بطلب المعونة منه على تمام الإستعداد لما طلب فقال:

[**واستقصاماً من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته**] إشارة إلى علّة تلك الإستعانة، وهي الفاقة إلى كفاية دواعي التفريط والإفراط بالجذبات الإلهيّة.

[**إنّه لايضلّ من هداه، ولايئل**] أي نجى من وال يئل، أي: لاينجو [**من عاداه، ولايفتقر من كفاه**] والفقرات الثلاثة تعليل لطلب المعونة على تحصيل الكفاية، فإنّه لما كان حصول الكفاية مانعاً من دواعي طرفي الإفراط والتفريط، كان العبد مستقيم الحركات على سواء الصراط، وذلك هدى اللّه يهدي به من يشاء.

فكأنّه قال: وأستعينه على أن يرزقني الكفاية المستلزمة للهداية الّتي هي الغنى الحقيقي، والملك الأبدي.

وقد أطلق عليه السلام هنا لفظ المعاداة للّه، كما أطلقها القرآن الكريم على ما

فإنّه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن وأشهد أن لا إله إلّا الله شهادة ممتحناً إخلاصها، معتقداً مصاصها نتمسّك بها أبداً ما أبقانا

هو من لوازمها، وهو الإعراض عن عبادته والبغض لها، ولمن تلبّس بها من عباده مجازاً.

[**فإنّه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن**] الضمير يعود إلى اللّه سبحانه، ولمّا كان تعالى منزّهاً عن الوزن والخزن اللّذين هما من صفات الأجسام فهما مستعاران لعرفانه في ميزان العقل، إذ لا يوازنه عرفان ما عداه، بل لا يخطر ببال العارف عند الإخلاص سواه حتّى يصدق هناك موازنة يقال فيها أرجح، ويكون المراد بالخزن خزن ذلك العرفان في أسرار النفوس القدسيّة.

ويحتمل عود الضمير إلى ما دلّ عليه قوله أحمده من المصدر على طريقة قولهم من كذب كان شراكه.

[**وأشهد أن لا إله إلّا الله**] قيل: هي أشرف كلمة وحّد بها الخالق منطبقة على جميع مراتب التوحيد.

ومنهم من قدّر الخبر لا إله لنا أو موجوداً إلّا الله، ورجّح جملة من المحقّقين كونها تامّة، وإنّ الخبر إلّا الله.

[**شهادة ممتحناً إخلاصها، معتقداً مصاصها**] مصدر، وصف بوصفين جرياً على غير رواله. والممتحن المختبر، أي: مختبر نفسه في إخلاص هذه الشهادة وعراتها عن شبهة الباطل والشرك الخفيّ. ومصاص الشيء: خالصه.

[**نتمسّك بها أبداً ما أبقانا**] أي: مدّة بقائنا في دار الدنيا.

وندّخرها لأهاويل ما يلقانا فإنّها عزيمة الإيمان وفاتحة الإحسان ومرضاة الرحمن وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله

[**وندّخرها لأهاويل ما يلقانا**] من أُمور الآخرة وشدائدها، والأهاويل: الأُمور المخوفة، ثمّ علّل عليه السلام وجوب التمسّك بهذه الشهادة بأوصاف أربعة أشار إليها بقوله:

[**فإنّها عزيمة الإيمان**] أي: عقيدته المطلوبة للّه من خلقه، وماعداها نوابع ومتمّمات ومعينات على الوقوف على سرّها والوصول إلى إخلاصها.

[**وفاتحة الإحسان**] إذ بها يستعدّ لإحسان اللّه في الدارين، ورضاه في النشأتين، وهي أوّل كلمة افتتحت بها الشريعة، وكما أنّها أوّل مطلوب للّه تعالى من خلقه في فطرهم الأصليّة، وعلى ألسنة رسله، فهي أيضاً غايتهم الّتي ينالون بها السهادة الباقية.

[**ومرضاة الرحمن**] أي: محلّ رضوانه، والسبب المستنزل لتمام رحمته ومزيد نعمته.

وفي النبويّ: أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا لاإله إلّاالله، أي: محلّ دحره وهو طرده وإبعاده، وذلك لأنّ غاية دعوة الشيطان من الإنسان الشرك الظاهر أو الخفي، وكلمة الإخلاص تنفيه بأقسامه وتبعد الشيطان عن مراده.

[**وأشهد أنّ محمّداً**] صلى الله عليه وآله [**عبده ورسوله**] قرت بكلمة التوحيد النبويّ:

أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور والنور الساطع والضياء اللامع والأمر الصادع

من قال أشهد أن لاإله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله فجرى بها لسانه واطمأنّ بها قلبه حرمت النار عليه، ولأنّه لايحصل الإخلاص بكلمة التوحيد إلّا بسلوك مراتبها ولايحصل إلّا بمعرفة كيفيّة السلوك، وذلك إنّما يحصل ببيان الرسل وإرشادهم، فالشهادة والإقرار بصدق المبلغ أجلّ كلمة بعد كلمة الإخلاص.

[أرسله بالدين المشهور] الّذي ظهر على الأديان كلّها، وأشرق نوره في العوالم جلّها.

[والعلم المأثور] إشارة إلى كونه صلى الله عليه وآله هادياً من الضلالة، منقذاً من الجهالة، ومأثوريّته إمّا لكونه مقدّماً على سائر الأديان، كما يقدّم العلم ويهتدي به قوم بعد قوم، أو إلى قله من قرن إلى قرن.

[والكتاب المسطور] وهو القرآن المسطور حقاقه في ألواح النفوس أو في اللّوح المحفوظ، أو الاعمّ من ذلك.

[والنور الساطع والضياء اللامع] الّذي به يهتدون وبنوره يستضيؤن ويخرجون من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة.

[والأمر الصادع] إشارة إلى قهره بأوامر اللّه وردعه عن معاصي اللّه، حتّى شقّ بالأمر الإلهي وجه الباطل، وصدع ما كان ملتئماً من الفساد العاطل، كما قال تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾.

إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبيّنات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً للمثلات، والناس في فتن، انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين،

[**إزاحة للشبهات**] الباطلة عن قلوب الخلق، ودفع شواغلهم في الدنيا، وهي أهمّ وجوه مقاصد البعثة.

[**واحتجاجاً بالبيّنات**] من الحجج الواضحة والبراهين اللائحة، كما قال: ﴿وجادلهم بالّتي هي أحسن﴾.

[**وتحذيراً بالآيات**] النازلة المنذرة بالعصاة البغاة حتّى يرتدعوا عمّا هم عليه من التكذيب والعناد والفساد والإفساد.

[**وتخويفاً للمثلات**] بفتح الميم وضمّ الثاء: العقوبات، جمع مثلة، إشارة إلى قول تعالى: ﴿ويستعجلونك بالسيّئة قبل الحسنة، وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ والمراد تحذيرهم بما نزل بنظائرهم وأمثالهم من المكذّبين من أنواع العذاب والنكال. قال تعالى: ﴿أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ وهذا الإنذار سوى الحجج والخطابات الشرعيّة.

[**والناس في فتن**] الواو للحال، والعامل أرسله، والمراد فتن الناس في مذاهبهم وآرائهم حين بعثته، كما مرّ. أي: أرسله والحان أنّ الناس في فتن.

[**انجذم**] أي: انقطع [**فيها حبل الدين وتزعزعت**] أي: اضطربت ولم تستقم [**سواري اليقين**] جمع سارية، وهي: الدعامة يدعم بها السقف،

واختلف البخر، وتشتّت الأمر، وضاق المخرج

إشارة إلى أنّ الناس حين البعثة كانوا قد تركوا مراسم الشريعة، وارتكبوا الطرق الباطلة، فانقطاع حبل الدين إشارة إلى انحراف الخلق عن سواء السبيل، وعدم تمسّكهم بأوامر اللّه سبحانه حال وقوع تلك الفتن.

واستعار لفظ الحبل هنا كما في قوله: «تمسّكوا بحبل اللّه جميعاً» لقانون الشريعة المطلوب منها لزومه والسواري لقواعد الدين وأركانه المأمور بتشييدها، كالجهاد الّذي هو أقوى مطالبه من الناس في ذلك الزمان، ويكون المراد بتزعزعها عدم استقامتها واستقرار الناس عليها مجازاً، واستعيرت السواري لأهل الدين الّذي يقوم ورجاله العاملين به الّذين لم تأخذهم في اللّه لومة لائم وتزعزعها موت أُولئك أو خوفهم من الأعداء.

وقوله: [**واختلف البخر**] أي: الأصل، ومثله البخار إشارة إلى اختلاف الأصل الّذي كان بجمع الخلق والفطرة الّتي فطر الناس عليها، فإنّها كانت متّفقة بوجود الرسول صلى الله عليه وآله، فاختلف بعده ﴿وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ ويحتمل أن يراد بالبخر الحسب، والحسب الدين أي: اختلف الدين.

[**وتشتّت الأمر**] إشارة إلى تفرّق كلمة المسلمين وغطت على عيونهم ظلمات الشبهات.

[**وضاق المخرج**] منها عليهم، وعمى المصدر، أي: مصدرهم عنها، أي: عموا عن المصدر، فأسند إلى المفعول مجازاً. والعمى هنا هو المشار إليه بقوله: ﴿فإنّها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب الّتي في الصدور﴾ وهو

فالهدى خامل والعمى شامل عصي الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان فانهارت دعائمه وتنكّرت معالمه

استعارة حسنة. أو العمى الحقيقي عدم ملكة البصر. ووجه المشابهة أنّ الأعمى كما لايهتدي لمقاصده في المحسوسة بالبصر لعدمه، كذلك أعمى البصيرة لايهتدي لمقاصده المعقولة.

[**فالهدى خامل**] إشارة إلى عدم ظهوره بينهم حال عماهم عن مصدرهم من ضلالهم إذا كان صونة ساقطاً بينهم غير موجود. والفاء لعطف الجملة الإسميّة على الفعليّة.

[**والعمى شامل**] إشارة إلى اشتراكهم في عدم رؤيتهم لسبيل الحقّ الّذي به يخرجون من شبهات الباطل وظلماته.

وقوله: [**عصي الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان**] إشارة إلى ماهم فيه جور عن الحقّ ونصرة للباطل الّذي هو مراد الشيطان، فبالحريّ أن يكون نصرة للشيطان وعصياناً للرحمان، ومن نصر الشيطان بالذبّ عن الباطل فقد خذل الإيمان.

[**فانهارت**] أي: سقطت [**دعائمه**] إذ بخذلان الإيمان لاتبقى له دعامة يقوم بها.

[**وتنكّرت معالمه**] وأشار بالدعائم والمعالم إلى دعاة الحق وحملة الإيمان وبانهيارهم إلى عدمهم أو عدم قبول قولهم وبتنكّر المعالم إلى عدم معرفتهم في الخلق لقلّتهم.

ويمكن أن يراد بالدعائم قواعد الدين كالجهاد ونحوه، وبانهيارها عدم

ودرست سبله وعفت شركه أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله فيهم سارت أعلامه وقام لوائه في فتن درستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها

القيام بها وبتنكّر المعالم امحائه من القلوب الّتي هي معالم الدين ومحاله.

[**ودرست سبله**] أي: طرقه [**وعفت شركه**] أي: طرائقه جمع شراك، أو جمع شركة بفتح الشين والراء، وهي معظم الطريق. وأراد بها أدلّة الدين وبعفائها عدم الأثر بها لعدم سالكها، فلم يبق للدين أثر يعرف به.

[**أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله**] إشارة إلى مايجرّهم إليه من مناهي اللّه سبحانه فيتّبعونه [**فيهم سارت أعلامه وقام لوائه**] أعلام الشيطان ولوائه، إشارة إلى المقارة إليه والدعاة إلى باطله المقتدى بهم أهل الضلال، أو صور الباطل الّتي تصوّرت في أذهان الخلق وصارت غايات لهم، فانقادوا لها واتّبعوها، فهي كالأعلام والألوية في الحروب وغيرها.

[**في فتن**] متعلّق بقوله: سارت أعلامه، أو بمقدّر يكون خبراً ثانياً للناس، أي: والناس في فتن [**درستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها**] كرّر الفتن ثانياً بزيادة أوصاف، فبالغ عليه السلام في تشبيهها بأنواع الحيوان، واستعار لها اخفافاً وهي الّتي للإبل وأظلافاً وهي الّتي للبقر والغنم، وسنابك وهي الحوافر الّتي للخيل والبغال والحمير، وجعل لها دوساً وعلماً وقياماً على الحوافر.

ويحتمل أن يكون هناك إضمار أي: داستهم بأخفاف إبلها ووطئتهم بأظلاف بقرها وقامت على سنابك خيلها، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه

فهم فيها تائهون، حائرون، جاهلون، مفتونون في خير دار وشرّ، جيان نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرم،

مقامه، وحينئذ يكون التجوّز في نسبة الوطيء والدوس والقيام إليها فقط، وهو المجاز في الإسناد.

[**فهم فيها تائهون**] ضالّون عن قصدهم في ظلمات الفتن.

[**حائرون**] في أنّ الحقّ في أيّ جهة حتّى آل بهم ذلك إلى الترديد بين عليّ ومعاوية.

[**جاهلون**] غير عالمين بالحقّ، بل اعتقدوا الباطل لشبهة التحكيم ودم عثمان ونحو ذلك، ممّا هو جهل مركّب.

[**مفتونون**] إشارة إلى فتنة غيرهم لهم وإضلالهم إيّاهم عن الحقّ وهو الشيطان وأتباعه.

[**في خير دار وشرّ جيان**] يحتمل كون الظرف خبراً ثالثاً للناس، وان يتعلّق بقوله تائهون ومابعده من الأفعال.

قيل: أراد بخير دار الشام، لأنّها الأرض المقدّسة، وبشرّ جيران أهلها القاسطون.

[**نومهم سهود وكحلهم دموع**] أي: انّهم ينامون اهتماماً بأُمورهم وإعداد أنفسهم للقتال.

[**بأرض عالمها ملجم**] يريد نفسه، والناصرين للحقّ [**وجاهلها مكرم**] يريد معاوية. وقيل: أُريد بخير دار العراق، وشرّ جيران أصحابه المستصرخ

ومنها: يعني آل النبيّ صلى الله عليه وآله هم موضع سرّه ولجأ أمره

بهم لتخاذلهم عن الحقّ، ونصرة الدين، ونومهم سهود، خوفاً من الحرب وصرة في التدبير، وكحلهم دموع، أي: يكون قتلاهم أيضاً.

وقيل: نفاقاً، لأنّ من تمّ نفاقه ملك عينيه، .

وقيل: أراد بالدار دار الدنيا، لأنّها دار العمل وأكثر الخلق بها أشرار جهّال. والدنيا دار ناضلة لمن قام فيها بأوامر اللّه وهي مزرعة الآخرة، وكون أهلها شرّ جيرا إمّا شرّ متجاورين كما سبق، أو شرّ جيران لمن التجأ إليهم وجاورهم للإنتصار بهم على أُمور الدين لعدم نصرتهم.

وظاهر لفظ الناس العموم لأصحابه عليه السلام وأصحاب معاوية. وقد بالغ عليه السلام في وصفهم بقلّة النوم لخوف الحرب وهجوم بعضهم على بعض، وشدّة اهتمامهم بأمر القتال وحيرتهم في تيه الباطل حتّى ألحق قلّة نومهم بالسهد لاستلزامه عدم النوم، فاستعار له لفظه وصيّره هو هو.

وقوله: وكحلهم دموع مبالغة في تشبيه دموعهم بالكحل، أو جعله هو هو، ووجه المشابهة انّ الدموع لكبرائه منهم وملازمته أجفانهم أشبه في ذلك الأمر الكثير المعتاد لعيونهم وهو الكحل.

وقوله: بأرض عالمها ملجم الخ، أي: الناس في خير دار هي الدنيا، وهم منها بأرض من حالها أنّ عالمها ملجم بلجام الذلّ من أهلها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاهلها مكرم لموافقته إيّاهم على باطلهم.

[ومنها: يعني] به **[آل النبيّ صلى الله عليه وآله هم موضع سرّه ولجأ أمره]** اللجأ: الملجأ، مايلجىء منه كالوزر مايعتصم به.

وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه،

[**وعيبة علمه، وموئل حكمه**] أي: مرجعه من آل يؤل إلى كذا إذا رجع وانتهى إليه.

[**وكهوف كتبه وجبال دينه**] الضمائر راجعة إلى اللّه تعالى، ويحتمل عودها إلى الرسولﷺ.

وأشار بكونهم موضع سرّه إلى استعداد نفوسهم لأسرار اللّه وحكمته، إذ الموضع الحقيقي للشيء هو ماستعدّ له وقبله، وبكونهم ملجأ أمره إلى أنّهم الناصرون له، فإنّهم القائلون بأوامر اللّه الذابّون عن دين اللّه، فإليهم يلتجى، وكونهم عيبة علمه مرادف لكونهم موضع سرّه، والعيبة استعارة لنفوسهم الشريفة.

ووجه الشبه: انّ العيبة من شأنها حفظ مايورع فيها وصيانته عن التلف والإدناس، وأذهانهم الطاهرة حافظة للعلم عن عدمه وصيانته له من غير أهله.

وأشار بكونهم موئل حكمه إلى كونهم مرجعاً لحكمته إذا ضلّت عن أذهان غيرهم، فمنهم تطلب ومنهم تكتب وبكونهم كهوف إلى أنّهم أهل حفظها ودراستها وتفسيرها، وعندهم علمها وتأويلها.

والكتب إشارة إلى القرآن ونحوه من كتب اللّه، كما قالﷺ: لو كسرت لي الوسادة ثمّ جلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، واللّه ما من آية نزلت في برّ أو بحر أو سهل أو جبل أو سماء أو

لهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه ومنها يعني قوماً آخرين زرعوا الفجور وسقوه الغرور

أرض أو ليل أو نهار إلاّ وأنا أعلم فيمن نزلت وفي أيّ وقت نزلت.

واستعارة لفظ الكهف قريب من استعارة لفظ العيبة.

وأشار بكونهم جبال دينه إلى أنّ دين اللّه سبحانه بهم يعتصم من وصمات الشياطين وتبديلهم وتحريفهم كما يعتصم الخائف بالجبل، وأنّ الدين ثابت بوجودهم، كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال، ولولا الجبال لمارت بأهلها.

[**لهم أقام انحناء ظهره**] الضمير في أقام اللّه تعالى، لأنّه هو الّذي جعلهم أعواناً له وأنصاراً وأعضاداً لدينه، يشدّون أزره ويقوّون ظهره ويؤيّدون أمره، وانحناء الظهر كناية عن ضعفه في بدو الإسلام.

[**وأذهب ارتعاد فرائصه**] جمع فريصة، وهي: اللّحمة بين الجنب والكتف، لاتزال تعد من الدابّة. والضمير في ظهره وفرائصه للدين، أي إنّ اللّه أزال عنه بمعونتهم خوفه الّذي كان يتوقّعه من المشركين على حوزة الدين، وهو كناية عن الشيء ببعض لوازمه إذا كان ارتعاد الفرائص من لوازم شدّة الخوف.

[**ومنها يعني قوماً آخرين**] قيل: أراد معاوية وأهل الشام، وقيل: أصحاب الجمل، وقيل: الخوارج.

[**زرعوا الفجور وسقوه الغرور**] جعل ما فعلوه من القبيح بمنزلة زرع، ثمّ زرعوه، ثمّ سقوه. وفيهما استعارة لطيفة، فإنّ الفجور الخروج عن ملكة

وحصدوا الثبور لايقاس بآل محمّدﷺ من هذه الأمّة أحد، ولايسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً هم أساس الدين

العفّة والزهد وتجاوز طرف الإفراط. والزرع إلقاء الحبّ في الأرض، فاستعارعليه السلام لفظ الزرع لبذر الفجور في أراضي قلوبهم، لأنّ انتشاره عنهم ونموّه فيهم يشبه نموّ الزرع وانتشاره في الأرض، ولمّا كان غرورهم وغفلتهم عن الطريق المستقيم بسبب عدولهم عنها وتجاوزهم إلى طرف الإفراط ومهاوي الهلاك وهو مادّة تماديهم في غيّهم وزيادة خوفهم وعدولهم عن سواء السبيل، أشبه الماء الّذي هو سبب حياة الزرع ونموّه ومادّة زدياته، ولذا حسن استعاة لفظ السقي المختصّ بالماء، ثمّ لمّا كانت غاية ذلك الفجور وهلاكهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بعذابها أشبهت تلك الغاية الثمرة، فقال:

[**وحصدوا الثبور**] فاستعار لفظ الحصاد ونسب إليه، وقد اشتملت هذه الألفاظ مع حسن الإستعارة على الترصيع.

ثمّ عادعليه السلام إلى الثناء على آل محمّدﷺ فقال:

[**لايقاس بآل محمّدﷺ من هذه الأمّة أحد، ولايسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً**] إذ لامناسبة بينهم وبين غيرهم في الفضل. ثمّ أشارعليه السلام إلى جملة من أسباب فضيلتهم فقال:

[**هم أساس الدين**] أي: أسباب لنعمة الدين على الخلق وإرشادهم إليه، والمنعم أفضل من جهة ماهو منعم خصوصاً بمثل هذه النعمة الّتي لايمك جزائها ولأنّهم أساس وأصل للدين.

وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، وبهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة، الآن رجع الحقّ إلى أهله، ونقل إلى منتقله.

[**وعماد اليقين**] لأنّهم أسباب إزالة مايضعفه من الشبهات، فبهم يقوم الدين كما يقوم السقف بالعماد، ولأنّهم على الصراط السويّ والمنهج الحقّ البهيّ.

[**إليهم يفيء**] يرجع [**الغالي**] الّذي غلا فيهم وتجاوز حدود البشريّة.

[**وبهم يلحق التالي**] من فرط منهم وتخلّف عنهم.

[**وبهم خصائص حقّ الولاية**] من العلوم ومكارم الأخلاق والآيات والكرامات.

[**وفيهم الوصيّة والوراثة**] لايزاحمهم في ذلك أحد [**الآن**] وهو زمان استخلافه عليه السلام.

[**رجع الحقّ إلى أهله ونقل إلى منتقله**] ويدلّ على أنّ الحقّ في تلك المدّة لم يكن في أهله.

. . . .

ومن خطبة له عليه السلام
المعروفة بالشقشقيّة

وتعرف بالمقمّصة أيضاً. ونسبتها إليه عليه السلام كادت أن تكون متواترة، وإنكار جملة من العامّة أن تكون من كلامه عليه السلام بناء على أنّه لم يصدر منه شكاية في هذا الأمر أصلاً عناد ولجاج، فإنّ المنافسة بين الصحابة سيّما في أمر الخلافة أمر معلوم بالضرورة، وتشاجرهم في السقيفة، وتخلّف عليّ عليه السلام ووجوه بني هاشم عن البيعة أمر ظاهر، لايدفعه إلاّ جاهل أو معاند. ونسبتها إلى تأليف السيّد الرضي أظهر فساداً، إذ نقلها من يوثق به من العلماء والأُدباء قبل مولد الرضيّ بمدّة مديدة.

وحكى ابن أبي الحديد عن شيخه مصدق، عن ابن الخشاب أنّه قال: واللّه إنّي لأعلم أنّها من كلامه عليه السلام، كما أعلم أنّك مصدق. قال: فقلت له: إنّ كثيراً من لناس يقولون إنّها من كلام الرضي(ره)؟ فقال لي: إنّ للرضي ولغير الرضي هذا النفس وهذا الأُسلوب قد وقفنا على رسائل الرضي وعرفنا طريقته وفنّه في الكلام المنثور، ومايقع مع هذا الكلام في خلّ ولا خمر.

ثمّ قال: واللّه لقد وقفتُ على هذه الخطبة في كتب صنّفت قبل أن يُخلق الرضي بمائتي سنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها وأعرف خطوط من هي من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب والد الرضي.

أما واللّه لقد تقمّصها ابن أبي قحافة وإنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى

قال ابن أبي الحديد: وقد وجدنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبوالقاسم البلخي إمام البغداديّين من المعتزلة، وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضي بمدّة طويلة. ووجدتُ أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبه أحد متكلّمي الإماميّة، وكان من تلامذة أبي القسم البلخي، ومات في ذلك العصر، قبل أن يكون الرضي موجوداً.

وكيف كان، فأنوار هذه الخطبة الساطعة تنادي بأفصح لسان أنّها من كلامه عليه السلام الّذي هو تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

[**أما واللّه لقد تقمّصها ابن أبي قحافة**] الضمير راجع للخلافة، لكونها معلومة، كما في قوله تعالى: ﴿حتّى توارت بالحجاب﴾ وتقمّصها أي: جعلها كالقميص مشتملة عليه متكلّفاً، كالّذي يلبس لباس غيره. وابن أبي قحافة أبوبكر واسمه عبداللّه، واسم أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب. وأُمّه: ابنة عمّ أبيه، وهي امّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد.

[**وإنّه**] أي: والحال إنّه [**ليعلم أنّ محلّي منها**] أي: من الخلافة [**محلّ القطب من الرحى**] وقطب الرحى مسمارها الّذي عليه تدور، وكذا هو الناظم لأُمور الإسلام والمسلمين على وفق الحكمة لاتدور رحى العالم إلاّ به، وهو تشبيه للمعقول بالمعقول، لأنّ محلّ القطب نظام أحوال الرحى، وتشبيه نفسه بالقطب تشبيه للمحسوس بالمحسوس، وتشبيه الخلافة بالرحى

ينحدر عنّي السيل ولايرقى إليّ الطير فسدلت دونها ثوباً وطويتُ عنها كشحاً

تشبيه المعقول بالمحسوس، وحيث كانت حاجة الرحى إلى القطب ضروريّة لايظهر نفعها إلاّ به، فهم من تشبيه محلّه بمحلّه أنّه لايقوم مقامه أحد في أمر الخلافة والإمامة، كما لايقوم غير القطب مقامه في محلّه. ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[**ينحدر عنّي السيل ولايرقى إليّ الطير**] فاستعار عليه السلام لنفسه الشريفة وصفين من أوصاف الجبل والأمكنة المرتفعة:

أحدهما: انحدار السيل عنه، كناية عن علوّه وشرفه مع فيضان العلوم الحقيقيّة والمعارف الربّانيّة منه، واستعار لذلك لفظ السيل الّذي منه حياة كلّ شيء.

وثانيهما: إنّه لايرقى إليه الطير، كناية عن غاية أُخرى من العلوّ، إذ ليس كلّ مكان علا بحيث ينحدر عنه السيل، لأنّه ينحدر عن المراينة والهضبة الّتي قد يرقى الطير إليها، فجعل نفسه عليه السلام بحيث لايرقى إليه الطير، وهذا أعظم في الرفعة والعلوّ ممّا قبله.

[**فسدلت دونها**] أي: أرخيت دون الخلافة [**ثوباً**] كناية عن احتجابه عليه السلام عن طلبها، والمبالغة فيها بحجاب الإعراض عنها، واستعارة الثوب للحجاب استعارة المحسوس للمعقول. وكذا قوله:

[**وطويتُ عنها كشحاً**] كناية عن امتناعه منها، كالمأكول المعاف الّذي يطوي البطن دونه. والكشح بالفتح: الخاصرة. وقيل: أراد إنّه عليه السلام التت

وطفقتُ أرتأي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير

عنها كما يفعل المعرض عمّن إلى جانبه، كما قال: طوى كشحه عنّي وأعرض جانباً.

[**وطفقتُ أرتأي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء**] يريد أنّي جعلتُ أُجيل الفكر في تدبير أمر الخلافة، وأُردّده بين طرفي نقيض، إمّا أن أصول بيد جذّاء، أو أترك، وفي كلّ منهما خطر عظيم لما في لك من تعزير النفس وتشويش نظام المسلمين.

والجذّاء: بالدال والذال أي: مقطوعة، كناية عن عدم الناصر والمعين. ووجه المشابهة: إنّ قطع اليد لمّا كان مستلزماً لعدم القدرة على التصرّ بها والصولة، وعدم الناصر والمعين مستلزم لذلك، حسنت الإستعارة.

وأمّا ترك ذلك فيه الصبر على مشاهدة التباس الأمور واختلاط الحقّ بالباطل. واستعار لذلك الإلتباس لفظ الطخية وأصلها قطعة من الغيم والسحاب، استعارة للظلمة من استعارة المحسوس للمعقول. ووجه المشابهة: إنّ الظلمة كما لايهتدى فيها إلى المطلوب فكذا اختلاط الأُمور لايهتدى فيها لتميز الحقّ والسير إلى اللّه.

ووصفها بالعمياء استعارة أيضاً، فإنّ الأعمى لمّا لم يكن ليهتدي لمطالبه، فكذا هذه الظلمة لايهتدي فيها للحقّ.

ثمّ كنّى عن شدّة الإختلاط وطول مدّته بأنّه:

[**يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير**] يمكن حمله على الحقيقة

ويكدح فها مؤمن حتّى بلغ ربّه فرأيتُ أنّ الصبر على هاتا أحجى فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً

بالحمل على طول مدّة الولاة قبله، وعلى المجاز والإستعارة، كما مرّ. أي: الكبير من الناس يكاد يهرم لصعوبتها، والصغير يشيب من أهوالها.

[**ويكدح فها مؤمن**] أي: يسعى ويكدّ مع مشقّة [**حتّى بلغ ربّه**] قال تعالى: ﴿إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾. وهو كناية عن شدّة سعيه واجتهاده في لزوم الحقّ والظفر به.

ثمّ أشار عليه السلام إلى ترجيح القسم الثاني وهو الصبر فقال:

[**فرأيتُ أنّ الصبر على هاتا**] أي هذه، والهاء للتنبيه، وذا للإشارة [**أحجى**] أي: أليق بالحجى، وهو العقل، أو بأهل الحجى لما في المنافرة من انشعاب عصى المسلمين مع غضاضة الإسلام وكثرة أعدائه والمشركون في غاية القوّة في جميع الأقطار.

[**فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجى**] الواو للحال، والجملتان حاليّتان. والقذى: مايقع في العين فيؤذيها. والشجى: مايعترض في الحلق من عظم ونحوه، وهما كنايتان عن الغمّ ومرارة الصبر. أي: صبرتُ على مضض ورمض، كما يصبر الأرمد، والّذي يعض بأمر فهو يكابد الخنق.

[**أرى تراثي**] قيل: هو ما خلّفه رسول اللّه صلى الله عليه وآله لابنته عليها السلام كفدك، لأنّ مال الزوجة في حكم مال الرجل.

[**نهباً**] إشارة إلى منع الخلفاء منه بالخبر المفترى: «نحن معاشر الأنبياء لانورّث ماتركناه صدقة».

حتّى مضى الأوّل بسبيله أدلى بها إلى ابن الخطّاب بعده ثمّ تمثّل بقول الأعشى

وقيل: أراد عليه السلام منصب الخلافة، ويصدق عليه الإرث كما في قوله: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ ومنصب النبوّة. قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ولا يرقى إليّ الطير فطفقتُ أرتأي بين كذا وكذا، فرأيتُ إنّ الصبر على هاتي أحجى فسدلتُ دونها ثوباً وطويتُ عنها كشحاً، وصبرتُ وفي العين قذى الخ، إذ لايجوز أن يسدل دونها ثوباً، ويطوي عنها كشحاً، ثمّ يطفق يرتأي بين أن ينابذهم أو يصبر، والتقديم والتأخير طريق ادرحت في لغة العرب. قال سبحانه: ﴿الّذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً﴾ أي: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً.

[**حتّى مضى الأوّل**] أبوبكر [**بسبيله**] طريقه طريق الآخرة، وهو الموت [**أدلى بها إلى ابن الخطّاب بعده**] اقتباس من قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكّام﴾ أي: تدفعوها إليهم رشوة، وأصله من أدلت الدلو في البئر أرسلته، كناية عن نصّ أبي بكر عليه بالخلافة.

وفي بعض النسخ: لفلان، والمراد به عمربن الخطّاب بن نفيل بن عبدالعزّى بن رياح بن عبدالله بن قرط بن دراج بن عديّ بن كعب بن لؤي بن غالب. وأُمّ عمر: خثيمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم.

[**ثمّ تمثّل بقول الأعشى**] واسمه ميمون بن جندل من قصيدة يمدح بها

شتّان ما يومي على كورها ويوم حيّان أخي جابر
فيا عجباً

علقمه أوّلها:

علقم ما أنت من عامر الناقص الأوتار والواتر

[شتّان ما يومي على كورها ويوم حيّان أخي جابر]

وحيّان وجابر ابنا السمين بن عمرو من بني حنيفة، وكان حيّان صاحب الحصن باليمامة، وكان سيّداً مطاعاً يصله كسرى في كلّ سنة، وكان في نعمة ورفاهيّة مصوناً من وعثاء السفر، إذ لم يكن يسافر أبداً، وكان الأعشى ينادمه يقول: شتّان، أي: ما أقعد بين يومي يومي هذا على كور الناقة في داب ونصب في الهواجر وبين يومي منادماً حيّان أخي جابر، وأنا في أرغد نعمة وأخفض عيش. أو يقال: إنّ حيّان عاتب الأعشى بأنّك نسبتني إلى أخي وهو أصغر منّي سنّاً، فاعتذر بأنّ القافية جرّته إلى ذلك، فلم يقبل عذره، واليوم الأوّل رفع بأنّه فاعل اسم الفعل، والثاني عطف عليه، والغرض تمثيل حاله عليه السلام بحال القائل. والفرق بين أيّامه مع رسول الله صلى الله عليه وآله في العزّة وقرب المنزلة والوقوف على العلوم الإلهيّة ومكارم الأخلاق السنيّة، وأيّامه هذه الّذي خذله فيها القريب والبعيد، وما حصل له مع القوم من المتاعب والمشاقّ ومقاسات المحن والشدائد.

وقيل: أراد عليه السلام الفرق بينه وبين القوم في ظفرهم بمطلوبهم وفوزهم به وفوات مطلوبه هو وحصول المشقّة والحرمان.

[فيا عجباً] أصلهنّ فياعجبي، كـ: ياغلامي، ثمّ قلبت الياء ألفاً، فإذا

بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها الآخر بعد وفاته لشدّ ما تشطّرا ذراعيها

وقف وقف على هل السكت يا عجباه كـ: ياغلاماه، أي: ياعجبي احضر فهذا أوانك.

[**بينا هو**] الضمير راجع إلى أبي‌بكر [**يستقيلها**] أي: الخلافة [**في حياته**] إشارة إلى ماروي عنه من قوله على المنبر: أقيلوني أقيلوني فلستُ بخيركم وعليّ فيكم.

[**إذ عقدها الآخر**] وهو عمر [**بعد وفاته**] حيث نصّ عليه بالخلافة، ووجه إنّ طلبه الإقالة لزهده فيها وثقلها وكثرة شرائطها وشدّة مراعاة أحوال الخلق مع اختلاف طباعهم وأهوائهم على قانون واحد، وخوفه من العثرة المردية في موارد الهلاك، فكيف يتحمّل مضارّها وآثامها وأخطارها بعد الممات، مضافاً إلى الحياة.

وحكى ابن أبي الحديد عن بعض الشعراء قوله:

حملوها يوم السقيفة أوزاراً   تخفّ الجبال وهي ثقال

ثمّ جاءوا من بعدها يستقيلون   هيهات تلك عثرة لاتقال

[**لشدّ ما تشطّرا ذراعيها**] شدّ أصله شدد أي: صار شديداً جدّاً، كحبّ في حبّذا، واللام للتأكيد، وما مع الفعل بعدها في تقدير المصدر وهو فاعل شدّ، والجملة من تمام التعجّب، وقد استعار عليه السلام لفظ الضرع هنا للخلافة تشبيهاً بالناقة ووجه الشبه المشاركة في الإنتفاع منهما، والمقصود وصف

فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسّها ويكثر العثار فيها والإعتذار منها

اقتسامهما لهذا الأمر المشبه لاقتسام الحالبين أخلاف الناقة، وللناقة أربعة أخلاف، خلفان قادمان، وخلفان آخران، وكلّ اثنين منهما شطر، وتشطّرا ضرعيها اقتسما فائدتها ونفعها، والضمير للخلافة، وسمّي القادمين معاً ضرعاً، والآخران معاً ضرعاً لتجاورهما وكونهما لايحلبان إلاّ معاً كشيء واحد.

[**فصيّرها في حوزة خشناء**] أي: في جهة صعبة المرام، وكنّى بالحوزة عن طباع عمر، فإنّها كانت توصف بالجفاوة [**يغلظ كلمها**] والكلم الجرح، كناية عن غلظ المواجهة بالكلام والجرح به، كما قيل:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

[**ويخشن مسّها**] كناية عن خشونة طباعه المانعة من ميل الطباع إليه، المستلزمة للأذى، كما يستلزم مسّ الأجسام الخشنة.

[**ويكثر العثار فيها والإعتذار منها**] أي: ليست هذه الجهة طريقاً سهل، بل هي كطريق وعر كثير الحجارة، لايزال الماشي فيه عاثراً. وكنّى عليه السلام بذلك عمّا كان يتسرّع إليه عمر من الأحكام، ثمّ يعاود النظر فيها فيجدها غير صائبة، أو ينبّه على الخطأ فيعتذر.

وقد حكى عنه الجمهور كثيراً من ذلك.

قال ابن أبي الحديد: كان عمر يعتني كثيراً بالحكم، ثمّ ينقضه ويعتني

....

بضدّه وخلافه، وقد أفتى في الجدّ مع الإخوة بقضايا كثيرة مختلفة، ثمّ خاف من الحكم في هذه المسألة فقال: من أراد أن يتقحّم جراثيم جهنّم فليقل في الجد برأيه.

وقال مرّة: لايبلغني انّ امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبيّ صلى الله عليه وآله إلاّ ارتجعت ذلك منها. فقالت له امرأة: ماجعل اللّه لك ذلك، إنّه تعالى قال: ﴿وإن آتيتم إحداهنّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾. فقال: كلّ الناس أفقه من عمر حتّى ربّات الحجال، ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت فأضلّت إمامكم فنضلته.

ومرّ يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن فاستسقاه فخدج له ماء بعسل، فلم يشربه فقال: إنّ اللّه تعالى قال: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ فقال له الفتى: ايهاً ياأميرالمؤمنين! إنّها ليست لك ولا لأحد من أهل هذه القبلة، اقرأ ماقبلها: ﴿يوم يعرض الّذين كفروا على النار أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر.

وقيل: إنّه كان يعسّ بالليل فسمع صوت رجل وامرأة في بيت، فارتاب من سور الحائط، فوجد امرأة ورجلاً وعندهما زقّ خمر، فقال: ياعدوّ اللّه أكنت ترى أنّ اللّه يسترك وأنت على معصية؟! قال: ياأميرالمؤمنين إن كنتُ أخطأتُ في واحدة فقد أخطأت في ثلاث، قال اللّه تعالى: ﴿ولاتجسّسوا﴾ وقد تجسّست، وقال: ﴿وآتوا البيوت من أبوابها﴾ وقد تسوّرت، وقال: ﴿وإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا﴾ وماسلّمت.

فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحّم

وقال عمر: متعتان كانتا على عهد رسول اللّه ﷺ وأنا محرّمهما، ومعاقب عليهما: متعة النساء ومتعة الحجّ.

[**فصاحبها**] قيل: الضمير للحوزة، أي: المصاحب لتلك المطيع الغليظة الخشناء [**كراكب**] الناقة [**الصعبة**] وهي الّتي لم تركب ولم ترض [**إن أشنق لها**] راكبها الزمام، يقال: أشنق الرجل الزمام ناقته إذا كفّها بالزمام [**خرم**] أنفها.

[**وإن أسلس لها**] زمامها ولم يكفّها [**تقحّم**] في المهالك وألقته في مهواة أو ماء أو نار، ولم تقف حتّى ترديه فيهلك، فكذا المصاحب لتلك الأخلاق والمبتلي بصاحبها إن أكثر عليه إنكار مايتسرّع إليه أدّى ذلك إلى فساد الحال بينهما، وإن سكت عنه وتركه أدّى ذلك إلى الإخلال بالواجب وهو من موارد الهلكة.

وقيل: الضمير في صاحبها يعود إلى الخلافة، وصاحبها هو كلّ من تولّى أمرها، ووجه شبهه براكب الصعبة أنّ الخليفة يحتاج إلى مداراة الخلق وجذبهم عن طرفي الإفراط والتفريط إلى حان الوسط، فلا يشدّد عليهم في طلب الحقّ التشديد الموجب لعجزم وقصورهم وفساد الأمر بينه وبينهم، كمن أشنق الصعبة، ولا يهملهم فيتعدّوا الواجب ويهلك بهلاكهم كمن أسلس لها.

وقيل: أراد بصاحبها نفسه عليه السلام، لأنّه أيضاً بين خطرين: إمّا أن يبقى ساكتاً عن طلب الأمر فيقتحم بذلك في موارد الذلّ كما يتقحّم مسلس قياد

فمني الناس لعمر اللّه بخبط وشماس وتلوّن واعتراض

الصعبة، وإمّا أن يتشدّد في طلبه فيشقّ بذلك عصى الإسلام، كمن أشنق لها فخرم.

[**فمني الناس**] أي: ابتلوا [**لعمر اللّه**] قسم يؤكّد المطلوب [**بخبط وشماس**] وهو كثرة نفار الدابّة. [**وتلوّن**] أي: تبدلّ وتغيّر [**واعتراض**] وهو السير لاعلى خطّ مستقيم، كأنّه يسيّر عرضاً.

وهذا كلّه إشارة إلى ما ابتلوا به من اضطراب الرجل وحركاته الّتي كان عليها. فكنّى بالخبط منها وبالشماس ن جفاوة طباعه وخشونتها، وبالتلوّن والإعتراض انتقاله من حالة إلى أُخرى في أخلاقه، والكلّ استعارات.

ووجه المشابهة: إنّ خبط البعير وشماس الفرس واعتراضهما في الطريق حركات غيرمنظومة، فشبّه با ما لم‌يكن منظوماً من حركات الإنسان وأفعاله.

وقيل: أراد ماابتلوا ب الناس من تفرّق الكلمة واضطراب الأمر لذلك بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

قال ابن أبي‌الحديد: كان عمر صعباً، عظيم الهيبة، شديد التياسة، لايجاد أحداً، ولايراقب شريفاً، وكان أكابر الصحابة يتحامونه وينقادون من لقائه.

وقيل لابن عبّاس لمّا أظهر قوله في العول بعد موت عمر ولم‌يكن من قبل يظهره: هلاّ قلت هذا وعمر حيّ؟ قال: هبته، وكان أمرء مهيباً.

. . . .

واستدعى عمر امرأة ليسألها عن أمر وكانت حاملاً، فلشدّة هيبته ألقت ما في بطنها وأجهضت جنيناً ميّتاً، فاستفتى عمر أكابر الصحابة في ذلك، فقالوا: لاشيء عليك إنّما أنت مؤدّب. فقال عليه السلام: إن كانوا زابنوك فقد غشوك، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا، عليك غرة، يعني عتق رقبة، فرجع عمر والصحابة إلى قوله، وعمر هو الّذي شيّد بيعة أبي بكر وقمع المجاهدين فيها، فكسر سيف الزبير، ودفع في صدر المقداد، ووطىء في السقيفة سعد ابن عبادة، وقال: اقتلوا سعداً، قتل اللّه سعداً، وخطم أنف الجبّار بن المنذر، وهو الّذي قال يوم السقيفة: أنا جذيتها المحكك، وعذيقها المرحب، وتوعّد من لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميّين وأخرجهم منها.

ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة.

إلى أن قال: ولمّا مات رسول اللّه صلى الله عليه وآله وشاع بين الناس موته طاف عمر على الناس قائلاً: انّه لم يمت ولكنّه غاب عنّا كما غاب موسى عن قومه، وليرجعنّ فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّه مات، فجعل لايمرّ بأحد يقول انّه مات إلاّ ويخبطه ويتوعّده، حتّى جاء أبوبكر فقال: أيّها النّاس من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد ربّ محمّد فإنّه حيّ لايموت، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ قالوا: فواللّه لكأنّ الناس ماسمعوا هذه الآية حتّى تلاها أبوبكر.

وقال عمر: لمّا سمعته يتلوها هويت إلى الأرض وعلمتُ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد مات.

فصبرت على طول المدّة وشدّة المحنة حتّى إذا مضى بسبيله

إلى أن قال: وكان في أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعبجهة ظاهرة، يحسب السامع لها أنّه أراد بها مالم يكن قد أراد.

فمنها الكلمة الّتي قالها في مرض رسول اللّه صلى الله عليه وآله ومعاذ اللّه أن يقصد بها ظاهرها، ولكنّه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفّظ منها، وكان الأحسن أن يقول مغمور أو مغلوب بالمرض، وحاشاه أن يعني بها غير ذلك، ولجفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير.

ثمّ قال: وعلى نحو هذا يحمل كلامه في صلح الحديبيّة لمّا قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ألم تقل لنا ستدخلونها في ألفاظ تكره حكايتها حتّى شكاه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر، حتّى قال له أبوبكر: الزم بعزره، فواللّه أنّه لرسول اللّه.

وعمر هو الّذي غلّظ على جبلة حتّى اضطرّه إلى مفارقة بلاد الإسلام كلّها، وعاد مرتدّاً داخلاً في دين النصرانيّة لأجل لطمة لطمها، انتهى ملخّصاً.

ثمّ إنّه عليه السلام ذكر صبره على ماصبر عليه مع صاحب هذه الأخلاق فقال:

[فصبرت على طول المدّة] الّتي تخلّف فيها، ووقع فيها ماوقع.

[وشدّة المحنة] بسبب فوات الحقّ، وعدم انتظام أحوال الدين، وأمور الإسلام والمسلمين.

جعلها في جماعة زعم أنّي أحدهم

[حتّى إذا مضى] الخليفة الثاني [بسبيله] طريقه، طريق الآخرة، الّذي لابدّ لكلّ حيّ من سلوكه، وأضافه إليه لأنّ لكلّ إنسان طريقاً خاصّاً بحسب أعماله.

[جعلها] شورى [في جماعة زعم أنّي أحدهم].

روى ابن أبي الحديد وغيره من الجمهور: إنّ عمر لّما طعنه أبولؤلؤ، وعلم أنّه ميّت وأراد أن يستخلف قال: إنّ رسول اللّهﷺ مات وهو راض عن هؤلاء الستّة من قريش: عليّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبداللّه بن عوف، وقد رأيتُ أن أجعلها شورى بينهم، ليختاروا لأنفسهم، ثمّ قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير منّي، يعني أبابكر، وإن ترك فقد ترك من هو خير منّي، يعني رسول اللّهﷺ، ثمّ دعاهم، فدخلوا عليه، فقال: أكلّكم يطمع في الخلافة بعدي؟ فوجموا، فقال لهم ثانية، فأجابه الزبير وقال: ماالّذي يبعدنا منها، ولّيتها أنت فقمت بها، ولسنا دونك في قريش، ولا في السابقة، ولا في القرابة، ثمّ قال عمر: أمّا أنت يازبير فوعقه لنفس مؤمن الرضا كافر الغضب يوماً إنسان ويوماً شيطان، فإن أفضت إليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب إماماً، وماكان اللّه ليجمع لك أمر هذه الأمّة، وأنت على هذه الصفة.

ثمّ أقبل على طلحة وكان مبغضاً له، منذ قال لأبي بكر يوم وفاته: ما قال في عمر: أمّا إنّي أعرفك منذ أُصيبت اصبعك يوم أُحد، ولقد مات رسول اللّهﷺ ساخطاً عليك للكلمة الّتي قلتها.

قال الجاحظ: لمّا أُنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممّن نقل قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: ماالّذي يغنيه حجابهنّ اليوم وسيموت غداً فننكحهنّ.

ولو قال لعمر قائل: أنت قلت إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عن الستّة، فكيف تقول الآن لطلحة إنّه مات ساخطاً عليك، لكان قد رماه بمناقضة، ولكن من الّذي كان يجسر على عمر أن يقول له مادون هذا.

قال: ثمّ أقبل على سعدبن أبي وقّاص، فقال: إنّما أنت صاحب مقنب من هذه المقانب، تقاتل به، وصاحب قبض وقوس وأسهم ومازهره والخلافة وأُمور الناس.

ثمّ أقبل على عبدالرحمن بن عوف فقال: أمّا أنت فلو وزن نصف ايمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به، ولكن لايصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، ومازهره وهذا الأمر.

ثمّ أقبل على عليّ عليه السلام فقال: للّه أنت لولا دعابة فيك، أما واللّه لئن ولّيتهم لتحملنّهم على الحقّ والمحجّة البيضاء.

ثمّ أقبل على عثمان فقال: كأنّي بك، قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك، فحملت بني أُميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس وأثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذوبان العرب فذبحوك على فراشك.

ثمّ دعى أباطلحة الأنصاري فقال: انظر إذا عدتم في حفرتي فكن في خمسين رجلاً من الانصار، حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر

. . . .

وتعجيله، واجمعهم في بيت وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه، وإن اتّفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقهما، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة الّتي فيها عبدالرحمن فارجع إلى مااتّفقت عليه، فإن أصرّت الثلاثة الأُخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيّام ولم يتّفقوا على أمر، فاضرب أعناق الستّة ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

فلمّا دفن عمر جمعهم أبوطلحة ووقفعلى باب البيت بالسيف في خمسين رجلاً من الأنصار، حاملي سيوفهم، ثمّ تكلّم القوم وتنازعوا، فأوّل ماعمل طلحة أنّه أشهدهم على نفسه أنّه وهب حقّه لعثمان، لعلمه إنّ الناس لايعدلون به عليّاً وعثمان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب عليّ عليه السلام.

فقال الزبير في معارضته: وأنا أُشهدكم أنّي قد وهبت حقّي من الشورى لعليّ.

فقال سعد: وأنا وهبتُ حقّي لابن عمّي عبدالرحمن.

فلمّا لم يبق إلاّ ثلاثة قال عبدالرحمن لعليّ وعثمان: أيّكما يخرج نفسه من الخلافة وتكون إليه الإختيار في الإثنين الشافتين، فلم يتكلّم منهما أحد.

فقال عبدالرحمن: أُشهدكم أنّي قد أخرجتُ نفسي من الخلافة على أن

. . . .

أختار أحدهما فأمسكا، فبدأ بعليّ عليه السلام فقال له: أُبايعك على كتاب اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين.

فقال عليّ عليه السلام: بل على كتاب اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله واجتهاد رأيي، فعدل عنه إلى عثمان، فعرض ذلك عليه، فقال: نعم.

فعاد إلى عليّ عليه السلام، فأعاد قوله حتّى فعل ذلك ثلاثاً، فصفق على يد عثمان، وقال: السلام عليك ياأميرالمؤمنين.

فيقال: إنّ عليّاً عليه السلام قال له: مافطنها إلاّ لأنّك رجوت منه مارجى صاحبكما من صاحبه تق اللّه بينكما عظر مبسم، ففسد بعد ذلك بين عثمان وبين عبدالرحمن، فلم يكلّم أحدهما صاحبه حتّى مات عبدالرحمن.

ثمّ نقل عن الراوندي أنّه قد روى: إنّ عمر لمّا قال: كونوا مع الثلاثة الّتي عبدالرحمن فيها، قال العبّاس لعليّ: ذهب الأمر منّا، الرجل يريد أن يكون الأمر في عثمان.

فقال عليّ عليه السلام: وأنا أعلم ذلك، ولكنّي أدخل معهم في الشورى لأنّ عمر قد أهلّني الآن للخلافة، وكان قبل يقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: إنّ النبوّة والإمامة لايجتمعان في بيت، فأنا أدخل في ذلك لأُظهر للناس مناقضة فعله لروايته.

ولايخفى مافي هذه القضيّة من المناقضات العجيبة، والأُمور الغريبة، والشهادة بأنّهم من أهل الجنّة، وأنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راض، والأمر بضرب رقابهم كلاً أو بعضاً، ولذا استغاث عليه السلام منها، فقال:

ياللّه وللشورى متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتّى صرتُ أقرن إلى هذه النظائر لكنّي أسففتُ إذ أسفوا وطرتُ إذ طاروا فصغى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره

[**ياللّه**] بفتح اللام [**وللشورى**] بكسر اللام، والواو إمّا زائدة أو للعطف على محذوف مستغاث له أيضاً، أي: باللّه لعمرو للشورى، أو لي وللشورى ونحوه، والشورى مصدر كالنجوى.

[**متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتّى صرتُ أقرن إلى هذه النظائر**] الإستفهام على سبيل التعجّب من عروض الشكّ لأذهان الخلق في مساواته لأولّهم إلى غاية أن قاسوه بالخمسة المذكورين، وجعلوهم نظائره وبمنزلته في الفضل والإستحقاق.

[**لكنّي أسففتُ إذ أسفوا**] من أسف الطائر إذا قارب الأرض بطيرانه.

[**وطرتُ إذ طاروا**] استعارة لأحوال الطائر من الإسفاف والطيران لأحواله من مقارنة لهم واتّباعه إيّاهم في مرداهم.

[**فصغى**] أي: مال [**رجل منهم لضغنه**] أي: حقده وعداوته، وهو طلحة، وقيل: سعدبن أبي وقّاص، لأنّه كان منحرفاً عنه، وتخلّف عن بيعته يوم عثمان.

[**ومال الآخر لصهره**] وهو عبدالرحمن مالى إلى عثمان، إذ كان بينهما مصاهرة، لأنّ عبدالرحمن كان زوجاً لأمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أُخت عثمان لأُمّه أروى بنت كريز.

مع هن وهن، إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال اللّه خضم الإبل نبتة الربيع

[**مع هن وهن**] يريد أنّ ميله لم يكن لمجرّد بل لأسباب أُخر كنفاسة عليه أو حسد له بوصول هذا الأمر إليه، فكنّى بهن وهن عنها.

[**إلى أن قام ثالث القوم**] يعني عثمان [**نافجاً حضنيه**] النفج: كالنفخ. والحضن: الجانب.[**بين نثيله**] وهو ردّته [**ومعتلفه**] مايعتلف به من المأكول، وكنّى بذلك عن أنّه لم يكن همّه إلاّ التوسّع ببيت المال والإشتغال بالتنعّم بالمآكل والمشارب، ملاحظاً في ذلك تشبيهه بالبعير أو الفرس حين ينتفخ جنباه بكثرة الأكل. ووجه الإستعارة أنّ البعير والفرس لااهتمام له أكثر من أن يكون بين أكل وروث، فكذا حاله.

[**وقام معه بنو أبيه**] بنو أُميّة بن عبدالشمس، أو المراد أقربائه مطلقاً.

[**يخضمون مال اللّه خضم الإبل نبتة الربيع**] والخضم: الأكل بكلّ الفم، ضدّ القضم، وهو الأكل بأطراف الأسنان، كناية عن كثرة توسّعهم بمال المسلمين. ووجه الشبه لايخلو من لطف، فإنّ الإبل تستلذّ نبت الربيع بشهوة صادقة لمجيئه عقيب يبس الأرض وطول مدّة الشتاء، مضافاً إلى طيبه ونضارته، فكذا ماأكله بنوأُميّة من بيت أموال المسلمين يشبه ذلك، لكثرته وطيبه عقيب ضرّهم وفاقتهم فيهم على قدم عظيم من النهم وشدّة الأكل وامتلاء الأفواه.

إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته

[إلى أن انتكث] أي: انتقض **[عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته]** إشارة إلى غاية حالاتهم المذكورة، وماترتّب عليها. واستعار لفظ الفتل وهو برم الحبل، لما كان يبرمه من الرأي والتدبير، وكذا لفظ الإنتكاث الإنتقاض تلك التدابير ورجوعها عليه بالفساد والهلاك.

واستعار لفظ الإجتهاز الّذي يفهم منه سبق الجراح والإثخان بضرب ونحوه لقتل عثمان المسبوق بطعن أسنّة الألسنة والجرح بحداد سيوفها. وكذا وصف الكبو الّذي هو حقيقة في الحيوان لفساد أمره بعد استمراره كالكبو بعد استمرار مشي الفرس سليماً من العثار.

وكنّى ببطنته عن توسّعه ببيت المال أيضاً، وأسند الكبو إليها لأنّها السبب الحامل على فساده أمره.

قال ابن أبي الحديد ماملخّصه:

ثالث القوم هو عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أُميّة بن عبدشمس بن عبدمناف، وأُمّه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبدشمس، بايعه الناس بعد انقضاء الشورى وصحّت فيه فراسة عمر، فإنّه أوطىء بني أُميّة رقاب الناس وولاّهم الولايات، وأقطعهم القطائع.

وافتتحت أرمينية في أيّامه، فأخذ الخمس كلّه فوهبه لمروان.

وطلب إليه عبدالله بن خالد بن أُسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

....

وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد سيّره، ثمّ لم يردّه أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق المدينة يعرف بمهروز على المسلمين فأقطعها عثمان بن الحرث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فدفعت عنها.

وحمى المراعي حول المدينة كلّها من مواشي المسلمين كلّهم إلاّ عن مواشي بني أُميّة.

وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقية بالمغرب.

وأعطى أباسفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الّذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال.

وقد كان زوّجه ابنته أُمّ أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلتُ رحمي، قال: لا، ولكنّي أبيك لأنّي أظنّك أنّك أخذت عوضاً عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، والله لو أعطيت مروان مائتي درهم لكان كثيراً، فقال: ألق المفاتيح يابن أرقم فإنّا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسّمها كلّها في بني أُميّة،

فـمـا راعني إلاّ والناس إليّ كـعـرف الضـبـع ينثالون عـليَّ من كلّ جانب

وأنكح ابن الحكم ابنته عايشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيدبن أرقم.

وانضمّ إلى هذه الأمور أُمور أُخرى نقمها عليه المسلمون كتيسير أبي ذرّ إلى الربذة، وضرب عبداللّه بن مسعود حتّى كسر أضلاعه، وماأظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود وردّ المظالم وكفّ الأيدي العادية، والإنتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ماوجدوه من كتابه إلى عامل مصر يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، فاجتمع عليه كثير من أهل المدينة فقتلوه.

ثمّ قال:

والّذي نقوله نحن إنّها وإن كانت أحداثاً إلاّ أنّها لم تبلغ المبلغ الّذي يستباح بها دمه، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى انتقال الإمرة إليه بقوله:

[فما راعني إلاّ والناس إليّ كعرف الضبع ينثالون عليَّ من كلّ جانب] الواو في والناس للحال، وخبر المبتدا محذوف، دلّ عليه متعلّقه وهو إليّ، أي: مقبلون إليّ ونحو ذلك، وفاعل راني إمّا مادلّت عليه هذه الجملة من المصدر، أي: فماراعنى إلاّ إقبال الناس إليّ ينثالون عليّ كعرف الضبع من كلّ وجه، أي وانثيالهم عليّ، والإنثيال تتابع الشيء تتلو بعضه بعضاً،

حتّى لقد وطىء الحسنان وشقّ عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم

ويحتمل أن يكون الفاعل نفس الجملة الإسميّة، إذ جوّز الكوفيّون كون الجملة فاعلاً، وينثالون إمّا خبر ثان للمبتدا أو حال عن راعني.

أشار عليه السلام إلى وصف ازدحام الناس عليه للبيعة بعد قتل عثمان كعرف الضبع، فإنّها ذات عرف كثير قائم الشعر، والعرب تسمّي الضبع عرفاً لفظة عرفها.

[**حتّى لقد وطىء الحسنان**] الحسن والحسين عليهما السلام من غاية ازدحامهم [**وشقّ عطفاي**] والعطفان: الجانبان من المنكب إلى الورك، أي: بالجذب عند خطابه، والجلوس على جانبيه، ويروى عطافي والعطاف: الرداء، وقيل: الحسنان الإبهامان، لما روي أنّه عليه السلام كان يومئذ جالساً محتبياً وهي جلسة رسول اللّه صلى الله عليه وآله المسمّاة بالقرفصاء، وهي جمع الركبتين وجمع الذيل، فلمّا اجتمعوا ليبايعو زاحموه حتّى وطؤا إبهاميه وشقّوا ذيله بالوطىء، والأوّل أقرب.

وكيف كان فيدلّ على جلافية طباعهم وقلّة توقيرهم وتعظيمهم لاميرهم.

وقوله: [**مجتمعين حولي كربيضة الغنم**] منصوب على الحال، كالّذي قبل وصف شدّة ازدحامهم حوله بالقطعة الرابضة من الغنم، ووجه الشبه اجتماعهم حوله، ويحتمل أن يلاحظ فيها زيادة، وهو أن شبّههم بالغنم

فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أُخرى وفسق آخرون كأنّهم لم يسمعوا كلام اللّه حيث يقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض

لغفلتهم عن وضع الأشياء في محالّها، وقلّة تفطّنهم وأدبهم ﴿إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

[**فلمّا نهضت بالأمر**] وقمت بأعباء الخلافة [**نكثت طائفة**] وهم أصحاب الجمل، سيّما طلحة والزبير، فإنّهما بايعاه ونقضا بيعته وخرجا عليه.

[**ومرقت أُخرى**] عن الدين، كما يمرق السهم عن القوس، وهم الخوارج وأصحاب النهروان.

[**وفسق آخرون**] وهم أصحاب معاوية، وهذه الأسماء سبقت من الرسول ﷺ حيث أخبر ﷺ بأنّه سيقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين بعده، وهو من دلائل نبوّته ﷺ، لأنّه إخبار بالغيب، وخصّ الخوارج بالمروق الّذي هو مجاوزة الشهم للرميّة، لأنّ الخوارج كانوا أوّلاً منتظمين في سلك الحقّ وبالغوا في طلبه إلى أن تعدّوه وتجاوزوه، وخصّ أصحاب معاوية بالفاسقين والقاسطين، لأنّ مفهومهما الخروج عن سنن الحقّ، وقد كانوا كذلك بمخالفته عليه السلام والخروج عن طاعته. وقال تعالى: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾.

[**كأنّهم لم يسمعوا**] أي هؤلاء الطوائف الثلاث [**كلام اللّه**] سبحانه [**حيث يقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض**

ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾ بلى واللّه لقد سمعوها ووعوها، ولكن حلت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها أما والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة

ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾] فكيف طلبوا العلوّ والمفاخرة في الدنيا، ولعلّ هذا عذب لهم على سبيل التهكّم بهم، أي: لاعذر لهم في أفعالهم إلاّ هذا.

ثمّ أراد عليه السلام تكذيبهم في ذلك العذر على تقدير اعتذارهم به، فقال:

[**بلى واللّه لقد سمعوها ووعوها، ولكن حلت الدنيا في أعينهم**] فاغترّوا بزينتها [**وراقهم زبرجها**] أي: زينتها، والزبرج الزينة من وشي أو غيره. وقيل: الذهب، فارتكبوا ماارتكبوا لذلك، ثمّ لما ذكر عليه السلام حاله مع القوم من النكاية والتظلّم في أمر الخلافة وذمّ الشورى وماانتهى إليه من الحال الّتي أوجبت نزوله عن مرتبته إلى أن قرن بالجماعة المذكورين أردف ذلك ببيان الحامل له على قبول هذا الأمر والقيام به بعد تخلّفه عنه، وأكّد ذلك القسم فقال:

[**أما والّذي فلق الحبّة**] إشارة إلى قوله تعالى: فالق الحبّ والنوى، أي: خالقه، كقوله: فطر الخلائق بقدرته، قيل: فلق الحبّة الشقّ الّذي في وسطها [**وبرأ النسمة**] وهي كلّ ذي روح من الشر، وإنّما خصّ الحبّة والنسمة بالتعظيم بالنسبة إلى اللّه تعالى لما يشتملان عليه مع لطف الخلقة وصغر الحجم من أسرار الحكم وبدائع الصنع، ممّا يحتاج إلى أوراق كثيرة، منها: إنّ طبيعة الحبّ تقتضي الهوى في عمق الأرض، فكيف تولّدت منها الشجرة

لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ اللّه على العلماء أن لايقارّوا على كظمة ظالم ولاسغب مظلوم لألقيتُ حبها على غاربها

الصاعدة في الهواء وعلى العكس، فلمّا تولّد منها أمران متضادّان علم إنَّ ذلك ليس لمجرّد الطبيعة، بل لحكمة إلهيّة، ولأنّا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقّة واللطافة، بحيث لو دلكها الإنسان بأدنى قوّة لصارت كالماء، فكيف قويت مع هذا على خرق الأرض الصلبة والنفوذ في مسام الأحجار ذلك تقدير العزيز الحكيم.

ومن ذلك: إنّ الطبائع الأربعة تجتمع في الفاكهة الواحدة كالاترج، فإنّ قشره حار يابس ولحمه بارد رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس، فتولّد هذه الطبائع عن الحبّة الواحدة من فاعل حكيم.

[**لولا حضور الحاضر**] إشارة إلى حضور من حضر لبيعته أو من حضر من الجيش للحرب [**وقيام الحجّة**] علينا [**بوجود الناصر**] للحقّ [**وما أخذ اللّه على العلماء**] من العهود والمواثيق من إنكار المنكر والأمر بالمعروف [**أن لايقارّوا على كظمة ظالم ولاسغب مظلوم**] والمقارة الموادعة والمسالمة، والكظمة بكسر الكاف مايعتري الإنسان من الثقل والكرب عند الإمتلاء من الطعام، والسغب: الجوع. وكنّى بكظمة الظالم وهي بطنته وشبعه عن قوّة ظلمه، لانّ قدرته مظنّة ذلك، ولسغب المظلوم وهو جوعه عن كونه مظلوماً.

[**لألقيتُ حبها على غاربها**] الضميران للخلافة، يقال: ألقى فلان حبل

ولسقيت آخرها بكأس أوّلها ولألفيتم دنياكم هذه عندي أهون من عفطة عنز

فلان على غاربه، أي: تركه هملاً يسرح حيث يشاء من غير مانع. والفقهاء يذكرون هذه اللفظة في كنايات الطلاق، استعار عليه السلام وصفاً من أوصاف الناقة للخلافة أو للأُمّة كنّى بها عن تركه لها وإهماله لأمرها ثانياً، كما هماله أوّلاً، ولمّا استعار لها لفظ الغارب جعل لها حبلاً يلقى عليه وهو من ترشيح الإستعارة، وأصله: إنّ الناقة تلقى زمامها على غاربها وتترك لترعى.

[**ولسقيت آخرها بكأس أوّلها**] استعار لفظ السقي للترك المذكور أيضاً، ورسخ تلك الإستعارة بذكر الكأس ووجه تلك الإستعارة إنّ السقي بالكأس لمّا كان مستلزماً لوجود السكّر غالباً وكان إعراضه أوّلاً مستلزماً لوقوع الناس فيما ذكر من الطخية العمياء المستلزمة لحيرة كثير من الخلق وضلالهم الّذي يشبه السكر وأشدّ منه لاجرم حسن أن يعير لذلك الترك بسقي الكأس.

[**ولألفيتم دنياكم هذه عندي أهون من عفطة عنز**] ألفيت الشيء: وجدته. وعطفة العنز: ماتنثره من أنفها. وقيل: العطسة.

ويدلّ أنّه عليه السلام كان طالباً للدنيا لا من حيث أنّها دنياً، بل لنظام الخلق وإجراء أُمورهم على قانون العدل المأخوذ على العلماء ونظم هذا الكلام في صورة متّصلة هكذا لو لم يحضر الحاضر ولم يقم الناصر ولم يؤخذ على العلماء إنكار المنكر والأمر بالمعروف إذا تمكّنوا لتركت آخراً كما تركتُ أوّلاً، ولوجدتم دنياكم هذه أهون عندي ممّا لاقيمة له وهو عفطة العزن.

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه

[قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد] سواد العراق، سمّي سواداً لخضرته بالزرع والأشجار والنخل. والعرب تسمّي الأخضر أسود. قال سبحانه: ﴿مدهامّتان﴾ يريد الخضرة.

[عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه] قال الكيدري ما ملخّصه:

وجدت في الكتب القديمة انّ ذلك الكتاب فيه عدّة مسائل:

أحدها: ما الحيوان الّذي خرج من بطن حيوان آخر ولبس بينهما نسب؟ فأجاب عليه السلام بأنّه: يونس خرج من بطن الحوت الثانية.

ما الشيء الّذي قليله مباح وكثيره مباح؟ فقال عليه السلام: هو نهر طالوت، لقوله تعالى: ﴿إلّا من اغترف غرفة بيده﴾.

الثالثة: ما العبادة الّتي إن فعلها واحد استحقّ العقوبة وإن لم يفعلها استحقّ العقوبة؟ فأجاب بأنّها صلاة السكارى.

الرابعة: ما الطائر الّذي لا فرخ له ولا فرع ولا أصل. فقال: هو طائر عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذني﴾.

الخامسة: رجل عليه من الدين ألف درهم وله في كيسه ألف درهم فضمنه ضامن بألف درهم، فحال عليهما الحول فالزكاة على أيّ المالين

. . . .

تجب؟ فقال: إن ضمن الضامن بإجازة من عليه الدين فلا يكون عليه، وإن ضمنه من غير إذنه فالزكاة مفروضة في ماله.

السادسة: حجّ جماعة ونزلوا في دار من دور مكّة، وأغلق واحد منهم باب الدار، وفيها جماعة فمتن من العطش قبل عودهم إلى الدار، فالجزاء على أيّهم يجب؟ فقال عليه السلام: على الّذي أغلق الباب ولم يخرجهنّ ولم يصنع لهنّ ماء.

السابعة: شهد شهداء أربعة على محصن بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه، فرجمه واحد منهم دون الثلاثة الباقين، ووافقه قوم أجانب في الرجم، فرجع من رجمه عن شهادته، والمرجوم لم يمت ثمّ مات فرجع الآخرون عن شهاداتهم عليه بعد موته، فعلى من تجب ديته؟ فقال: تجب على من رجمه من الشهود ومن وافقه.

الثامنة: شهد شاهدان من اليهود على يهودي أنّه أسلم، فهل تقبل شهادتهما أم لا؟ فقال: لاتقبل شهادتهما، لأنّهما يجوّزان تغيير كلام اللّه وشهادة الزور.

التاسعة: شهد شاهدان من النصارى على نصراني أو مجوسي أو يهوديّ أنه أسلم، فقال: تقبل شهادتهما لقول اللّه سبحانه: ﴿ولتجدنّ أقربهم مودّة للّذن آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى﴾ الآية ومن لايستكبر عن عبادة اللّه لايشهد الزور.

قال له ابن عبّاس: ياأميرالمؤمنين لو اطّردت مقالتك من حيث أفضيت فقال: هيهات يابن عبّاس، تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت.

قال ابن عبّاس: فواللّه ماأسفتُ على كلام قطّ كأسفي على ذلك الكلام أن لايكون أميرالمؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

العاشرة: قطع انسان يد آخر، فحضر أربعة شهود عند الإمام وشهدوا في قطع يده وأنّه زنا وهو محصن، فأراد الإمام أن يرجمه فمات قبل الرجم، فقال: على من قطع يده دية يده ولو شهدوا أنّه سرق نصاباً لم تجب دية يده على قاطعها.

فلمّا فرغ عليه السلام من قرائته [**قال له ابن عبّاس ياأميرالمؤمنين لو اطّردت مقالتك من حيث أفضيت**] يقال: اطّرد النهر أي: تتابع جريه. وأفضيت: وصلت. أي: لو اتّبعت قولك الأوّل قولاً ثانياً. وأصل أفضى: خرج إلى الفضاء، فكأنّه شبّهه حيث سكت بمن أُخرج من خبأ أو جدار إلى فضاء من الأرض، وذلك إنّ النفس والقوّة والهمّة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب، فإذا قطع الإنسان وفرغ تفرّقت وخرجت عن حجر الإجتماع واستراحت.

[**فقال: هيهات يابن عبّاس، تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت**] والشقشقة بالكسر فيهما شيء يخرجه البعير من فيه إذا هاج، يقال: الخطيب ذو شقشقة، تشبيهاً له بالفحل. والهدير: صوتها.

[**قال ابن عبّاس: فواللّه ماأسفتُ على كلام قطّ كأسفي على ذلك الكلام أن لايكون أميرالمؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد**].

قال الرضي(ره) كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم

قال ابن أبي الحديد: حدّثني شيخي أبوالخير مصدق، قال: قرأت على الشيخ أبي محمّدبن الخشاب هذه الخطبة، فلمّا انتهيت إلى هذا الموضع قال لي: لو سمعت ابن عبّاس يقول هذا لقلت له: وهل بقي في نفس ابن عمّك أمر لم يبلغه في هذه الخطبة لتأسف أن لايكون بلغ من كلامه ماأراد، واللّه مارجع عن الأوّلين ولا عن الآخرين ولابقي في نفسه أحد لم يذكره إلاّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

[قال] السيّد [الرضي(ره)] قوله عليه السلام: [**كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم**] يريد أنّه إذا شدّد عليها في جذب الزمام وهي تنازعه رأسها خرم أنفها وإن أرخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحّمت به فلم يملكها. يقال: أشنق الناقة إذا جذب رأسها بالزمام فرفعه وشنقها أيضاً ذكر ذلك ابن السكّيت في إصلاح المنطق، وانّما قال عليه السلام أشنق لها ولم يقل أشنقها لأنّه جعلها في مقابلة قوله أسلس لها، فكأنّه عليه السلام قال: إن رفع لها رأسها بالزمام يعني أمسكه عليها.

وفي الحديث: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله خطب الناس وهو على ناقته وقد شنقل لها في تنصع لجريها.

ومن الشاهد على إنّ أشنق بمعنى شنق قول عدي بن زيد العبادي:
سائها ما بنا متن في الأيدي وشناقها إلى الأعناق، أي: تعليقها.

بنا اهتديتم في الظلماء وتسنّمتم العلياء وبنا انفجرتم عن السرار وقر سمع لم يفقه الواعية

ومن خطبة له عليه السلام، ملتقطة من خطبة طويلة. وروي أنّه خطب بها بعد قتل طلحة والزبير.

[بنا] معشر آل محمّد صلى الله عليه وآله [اهتديتم] أيّها الناس [في الظلماء] لأنّهم عليهم السلام سبب هداية الخلق وإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى أنوار الدين المبين، ومعارف أسرار اليقين، وتوحيد ربّ العالمين، واستعار عليه السلام لفظ الظلماء للجهل الحاجب لأبصار البصائر عن درك الحقّ.

[وتسنّمتم العلياء] أي: ركبتم سنام العلياء وعلا قدركم وشرف ذكركم بتلك الهداية.

واستعار وصف السنام للعلياء ملاحظة لشبهها بالناقة، ورشح تلك الإستعارة بذكر التسنّم وهو ركوب السنام كناية عن علوّهم.

[وبنا انفجرتم] أي: دخلتم في الفجر. وروي: أفجرتم وهو أفصح.

[عن السرار] وهو اللّيلة واللّيلتان الّتي يستتر فيهما القمر في آخر الشهر، فلا يظهر. استعار لفظ السرار لما كانوا فيه من ليل الجهل في الجاهليّة، وخمول الذكر ولفظ الإنفجار عنه لخروجهم من ذلك إلى نور الإسلام واشتهارهم في الناس كالفجر الطالع من ظلمة السرار في الضياء والإشتهار.

[وقر سمع لم يفقه الواعية] التفات إلى الدعاء بالوقر وهو الثقل في

كيف يراعي النبأة من أصمّته الصيحة ربط جنان لم يفارقه الخفقان

السمع على سمع لايفقه صاحبه بواسطته علماً، ولايستفيد من السماع به مقاصد الكتب الإلهيّة والحكم الربّانيّة، والمعارف الحقّانيّة، وكلام الأنبياء والأوصياء والدعاة إلى اللّه، وقوله: الصمم بعدم فائدة خلقه منه.

[**كيف يراعي النبأة**] وهو الصوت الخفيّ [**من أصمّته الصيحة**] القويّة، استعار لفظ النبأة لدعابة لهم وندائه إلى سبيل الحقّ، والصيحة خطاب اللّه ورسوله، وهي استعارة على سبيل الكناية عن ضعف دعائه بالنسبة إلى قوّة دعاء اللّه ورسوله لهم. وتوضيح ذلك إنّ الصوت الخفيّ لما كان لايسمع عند الصوت القويّ إذ من شأن الحواسّ أن لايدرك الأضعف مع وجود الأقوى، فجعل كلام اللّه وكلام رسوله كالصوت القويّ في حقّهم.

وكلامه كالصوت الخفيّ وإسناد الإضمام إلى الصيحة من ترسيخ الإستعارة، وكنّى به عن بلوغ تكرار كلام اللّه على أسماعهم حتّى ملّته بحيث لايستمع بعده ماهو بمعناه سيّما الأضعف، وهذه الكلمة بمنزلة الإعتذار لنفسه في عدم تأثير وعظه فيهم.

[**ربط جنان لم يفارقه الخفقان**] هذا دعاء للقلوب الخائفة الوجلة الّتي لاتزال تخفق من خشية اللّه، وتشفق من عذابه بالثبات والسكينة والإطمئنان وربط إن كان معلوماً، فالمعنى ثبت قلب كان كذلك، وإن كان مجهولاً، فالمعنى ربط اللّه جناناً كان كذا، وهو جذب لهم إلى درجة الخائفين، كأنّه قال: كيف يلتفت إلى قولي من لايلتفت إلى كلام اللّه ورسوله، وللّه درّ الخائفين من اللّه فما ضرّكم لو كنتم مثلهم فرجعتم إلى الحقّ.

مـازلت أنتظر بكم عـواقب العـذر وأتوسّمكـم بحـيلة المغـتـرّين سترني عنكم جلباب الدين وبصّرنيكم صدق الـنيّة أقمت لكم على سنن الحق

[**مـازلت أنتظر بكم عـواقب العـذر وأتوسّمكم**] أي: أتعرّفكم [**بحيلة المغترّين**] الغـافلين عن عواقب الأُمـور، إشارة إلى أنّه عليه السلام كـان عارفـاً بعاقـبة أمرهم وعـذرهـم، وكـان يلوح له ذلك من حركـاتهم وسكناتهم بفـراسته وحدسه الصائب، كما قال تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾.

وفي الخبر: اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور اللّه.

[**سترني عنكم جلباب الدين وبصّرنيكم صدق النيّة**] الجلباب الملحفة، واستـعـار لفظه للدين باعتـبار ستره، وحـجبه عن العنف بهم وحـملهم على المشـقّة أو ستره عـن علمـهم، فقـوّته ربّك، ولو لم يكـن ذلك الستر لعـرفـوه بذلك، أو المعنى إنّ اظهاركم شعار الإسـلام عصمكم منّي مع علمي بنفاقكم وإنّما أبصـرت نفاقكم وبواطنكم الخبيـثة بصدق نيّتي، أو المراد سـترني عنكم جلباب ديني ومنعـني أن أعرّفكم نفسي وقـدرتي على استيـصالكم. وروي: ستركم عنّي، أي: عصم الدين منّي دماءكم واتّباع مدبركم.

ثمّ أشار عليه السلام إلى فضيلته ليقـتدوا به بقوله: ويرجعوا إلى أشعّة أنواره، بقوله:

[**أقـمـت لكم على سنن الحقّ**] بفـتح السـين الجـادة والـطريقـة، وهي الكتاب والسنّة، فإنّه هو الكتاب الناطق الواقف على أسـراره والمحيط بحقائقه واغواره.

وفي جواد المضلّة حيث تلتفتون ولا دليل وتحتفرون ولا تميهون اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان

[**وفي جواد**] جمع جادّة [**المضلّة**] بفتح الضاد وكسرها، الّتي يضلّ سالكها، إذ كان عليه السلام هو العالم بالكتاب والموضح لطرق الحقّ منه ولطرق الباطل والهادي فيهما، وذاك حيث يلتفتون في ظلمة الجهل فلا ينصرون دليلاً سواه، ويطلبون ماء الحياة بالبحث والفحص، فلا توجد عند من عداه، كما قال عليه السلام:

[**حيث تلتفتون**] في أودية الضلال إلى دليل.

[**ولا دليل**] سواي [**وتحتفرون**] لتجدوا ماء نتقعون به غلّتكم فلا تظفرون بالماء.

[**ولا تميهون**] يقال: ماهت البئر خرج ماؤها. واستعار وصف الإحتفار للبحث عن مظانّ العلم، ولفظ الماء له حيث به حياة القلوب، كما انّ بالماء حياة الأبدان.

[**اليوم أنطق لكم العجماء**] وهي الّتي لانطق لها [**ذات البيان**] كناية عن الحال الّتي يشاهدونها من العبر الواضحة والمثلات، حلّت بقوم فسقوا عن أمر ربّهم وعمّا اتّضح وانتشر من كمال فضله عليه السلام بالنسبة إليهم ومايبنغي لهم أن يعتروه من حال الدين، ومقتضى أوامر اللّه الّتي تحثّهم على اتّباعها، فإنّ جميع هذه الأحوال لانطق لها بالمقال، فلذا شبّهها بالعجماء من الحيوان، ولكنّها تنادي بلسان الحال بوجوب اتّباعه وتشهد بصدقه، ولذا شبّهها بذات البيان.

عزب رأي امرىء تخلّف عنّي ما شككت في الحقّ مذ رأيته ولم يوجس موسى خيفة على نفسه وإنّما أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال

وقيل: العجماء صفة محذوف، أي: الكلمات العجماء، كناية عمّا ذكر في هذه الخطبة من الرموز والإشارات، فهي خفيّة غامضة، ومع غموضها جليّة لأولي الألباب، فكأنّها تنطق كما ينطق ذوالألسنة، كما قيل: ماالأمور الصامتة الناطقة؟ فقيل: الدلائل المخبرة والعبر الواعظة، وفي المثل: سل الأرض من شقّ أنهارك وخرج ثمارك، فإن لم تجبك جواراً أجابتك اعتباراً.

[**عزب**] أي: بعد [**رأي امرىء تخلّف عنّي**] دعاء أو إخبار، وذمّ لمن تخلّف عنه، وفيه حثّ على التمسّك به واتّباع أقواله وأفعاله. ثمّ بيّن سبب ذلك بقوله:

[**ما شككت في الحقّ مذ رأيته**] فإنّ معارفه ثابتة لايتطرّق إليها الشكّ والشبهة، وهو القائل: لو كشف الغطاء ماازددت يقيناً.

[**ولم يوجس**] من أوجس أي: أحسّ [**موسى خيفة على نفسه وإنّما أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ والغرض إنّ الخوف الّذي يخافه عليه السلام منهم ليس على نفسه، بل أشدّ خوفه من غلبة أهل الجهل على الدين وفتنة الخلق بهم وقيام دول الضلال وانسداد مسالك الحقّ وعما طرق الهدى، كما خاف موسى عليه السلام من غلبة جهّال السحرة، حيث ألقوا حبالهم وعصيّهم، وقالوا ﴿بعزّة فرعن إنّا لنحن الغالبون﴾.

اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل من وثق بماء لم يظمأ.

[اليوم تواقفنا على سبيل الحقّ والباطل] الموافقة مفاعلة من الطرفين، والخطاب لمقابليه في القتال، والمراد: إنّي واقف على سبيل الحقّ وأنتم واقفون على سبيل الباطل داعون إليه.

[من وثق بماء لم يظمأ] هو مثل نبّه به عليه السلام على وجوب الثقة بما عنده، أي: انّكم إن سكنتم إلى قولي ووثقتم به كنتم أقرب إلى اليقين والهدى وأبعد عن الضلال والرديّ، كما إنّ الواثق بالماء في أدواته آمن من العطش وخوف الهلاك بعيد عنهما بخلاف من لم يبق بذلك، وكنّى بالماء الّذي منه حياة كلّ شيء عمّا يتفجّر منه من العلوم الإلهيّة والمعارف الربّانيّة، والأسرار الحقيقيّة، والحكم البهيّة، فإنّ فيها حياة القلوب.

[ومن كلام له عليه السلام
لمّا قبض رسول اللّه صلى الله عليه وآله وخاطبه العبّاس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة]

وروي أنّه لمّا تمّ أمر البيعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، أراد أبو سفيان أن يوقع الحرب بين المسلمين ليقتل بعضهم بعضاً، لأن يطفي نور اللّه، فمضى إلى العبّاس فقال له: ياأباالفضل إنّ هؤلاء القوم قد ذهبوا بهذا الأمر من بني هاشم، وجعلوه في بني تيم، وانّه ليحكم فينا غداً هذا الفظّ الغليظ من بني عدي، فقم لندخل على عليّ عليه السلام ونبايعه بالخلافة، وأنت عمّ

أيّها الناس! شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرِّجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح

رسول اللّه ﷺ وأنا رجل مقبول في قريش، فإن دافعونا عن ذلك قاتلناهم وقتلناهم، فأتيا أمير المؤمنين عليه السلام، وكان عليه السلام يعلم من حاله أنّه لا يقول ذلك عصباً للدين، بل للفساد، فأجابه عليه السلام وقال:

[**أيّها الناس! شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة**] شبّه عليه السلام الفتنة بالبحر المتلاطم، ولذا استعار له لفظ الأمواج، وكنّى بها عن حركات الفتن وقيامها، ووجه الشبه اشتراك البحر والفتنة عند هيجانهما في هلاك الخائض فيهما، واستعار سفن النجاة لكلّ مايكون وسيلة إلى الخلاص من الفتنة من مهاونة أو حيلة أو صبر، ووجه الشبه كون كلّ منهما سبباً للسلامة.

[**وعرِّجوا عن طريق المنافرة**] والتعريج العدول عن الطريق، أمرهم بالعدول عن طريق المنافرة إلى السكون والسلامة ومايوجب سكون الفتنة وكذا.

[**وضعوا تيجان المفاخرة**] أمر بطريق آخر من طرق النجاة من ترك المفاخرة، إذ هي ماتهيج الأضغان وتثير الأحقاد، وتوجب قيام الفتنة، وحيث كان أكبر ماينتهي إليه أرباب الدنيا من المفاخر هو لبس الشيخان، وكانت الأصول والأحساب الشريفة أسباب الأفخار الدنيوي، استعار لهم لفظها وأمرهم بوصفها.

[**أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح**] أشار عليه السلام بعد النهي عن المنافرة والمفاخرة إلى ماينبغي أن يكون حال طالب الخلافة عليه ليفوز بمطلوبه أو ينجو من الفتنة، فحكم بالفوز أحد شخصين:

ماء آجن و لقمة يغصّ آكلها

الأوّل: من وجد أنصاراً وأعواناً وجاهد في سبيل اللّه.

وثانيهما: من لم يجد ذلك فاستسلم فاستعار لفظ الجناح للإهوان والإنصاف.

ووجه الشبه: إنّ الجناح لما كان محل القدرة على الطيران والتصرّف، فكذا الأعوان والأنصار بهم القوّة على النهوض إلى الحرب والطيران في ميدانها، وحكم بالنجاة للمتسلّم عند عدم الجناح.

ويحتمل أن يكون المراد بالفقرة الأُولى من مات شبّه الميّت المفارق للدنيا السالك طريق الآخرة بالطائر الناهض عن الأرض بجناحه، وأن يراد أفلح من اعتزل هذا العالم وساح في الأرض منقطعاً عن مشاق الدنيا، وعلى التقادير تنطبق الفقرة الثانية أي: أراح نفسه وغيره باستسلامه.

ثمّ نبّه عليه السلام إنّ المطالب الدنيويّة وإن عظمت فهي مشوبة بالكدر، فقال:

[ماء آجن] أي: الإمرة على الناس وخمية العاقبة ذات مشقّة في العاجلة، فهي في عاجلها كالماء الآجن يجد شاربه مشقّة.

[و] في أجلها [لقمة يغصّ] بفتح الياء والغين من غصصت بالكسر أي: لقمة تحدث من [آكلها] الغصة، فاستعار لفظ الماء الآجن وهو المتغيّر الفاسد من أجن الماء بفتح الجيم، ياجن بالكسر والضمّ، واللقمة الموصوفة لمساغ الدنيا باعتبار ما فيها من شائبة الكدر بالمحن من المنافسات ونحوها، وقصد بذلك التنفير عنها شكيناً للفتنة.

ومجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير أرضه فإن أقل يقولوا حرص على الملك وإن أسكت ويقولوا جزع من الموت هيهات! وبعد اللّتيّا والّتي

ويحتمل أن يكون الأمران معاً للعاجلة، لأنّ العضّ في أوّل البلع، كما انّ ألم الشراب للماء الآجن يحدث في أوّل الشرب.

ويحتمل أن لايكون عنى الإمرة المطلقة، بل هذه الإمرة المخصوصة، وبيعة السقيفة، ثمّ أخذ عليه السلام في الإعتذار عن الإمساك وترك المنازعة بقوله:

[**ومجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها**] الإيناع إدراك الثمرة [**كالزارع بغير أرضه**] تمثيل لحاله في طلبه للأمر في غير وقته بمجتني الثمرة قبل أن تدرك لاينتفع بمااجتناه، كمن زرع في غير أرضه، لاينتفع بذلك الزرع، وإنّه في محل أن يمنع من التصرّف، ويبطل سعيه، والغرض من ذلك تنفيرهم عن التشبّه بمن يكون هذا حاله، ثمّ ذكر عليه السلام أنّه بين محظورين:

[**فإن أقل**] وأطلب حقّي وأُنادي بأنّي ظلمتُ وغصبتُ [**يقولوا حرص على الملك**] والإمارة واهتمّ بأُمور الدنيا [**وإن أسكت**] ينسبوني إلى الذلّ والعجز [**ويقولوا جزع من الموت**] فعلى كلّ حال لايمكن إرضاء الخلق ولايسكتون عن أحد، وحيث أنّه كان غالباً ساكتاً فيوردوا القول الثاني، دفعه عليه السلام بقوله: مكذباً لأوهامهم.

[**هيهات!**] أي: بعد جزعي من الموت أبعد ملاقاتي كبار الشدائد وصغارها انسب إلى الجزع من الموت.

[**وبعد اللّتيّا والّتي**] كنايتان عن الشدائد والمصائب العظيمة والحقيرة،

والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثـــدي أُمّه بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة

وأصل المثل: إنّ رجلاً تزوّج امرأة قصيرة صغيرة، فقاسى منها شدائد فطلّقها، وتزوّج طويلة فقاسى أضعاف ذلك فطلّقها، وقال: بعد اللّتيا والّتي لاأتزوّج أبداً، فضرب بهما المثل للداهية الكبيرة والصغيرة.

[**والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه**] فإنّ أولياء الله يحبّون الموت، فإنّه جسرهم إلى الجنان، وهو عليه السلام سيّد الأولياء ورئيس العارفين بعد خاتم النبيّين، والموت وسيلة إلى لقاء محبوبهم من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، وأُنسهم به أُنس عقليّ ثابتاً، فكان أشدّ من أُنس الطفل بالثدي لكونه عن ميل شهواتي في معرض التغيّر والزوال.

[**بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة**] استدراك بعد نفي الجزع من الموت، وإشارة إلى سبب آخر لسكونه، وهو العلم الّذي انطوى عليه عليه السلام، فإنّ علمه بعواقب الأُمور وأدبارها وتطلّعه إلى نتائج الحركات بعين بصيرته الّتي هي كمرآة صافية فرزي بها صور الأشياء في المرائي العالية، فارتسمت فيها كما هي ممّا يوجب توقّفه عمّا يعلم أنّ فيه فساداً وتسرعة إلى مايعلم فيه مصلحة بخلاف الجاهل الّذي يقدم على عظائم الأُمور بفطير الرأي لا عن بصيرة قادته إلى ذلك. ثمّ نبّه عليه السلام على عظم قدر العلم الّذي اندمج عليه بقوله: لو بحتُ به الخ.

واللّه لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم

وأشار باضطرابهم إلى تشتّت آرائهم عند علمهم بما سيقع من ذلك، ومن انتقال الأمر إلى بني أُميّة ومدّة دولتهم، فإنّ ذلك يكون سبباً لنفارهم وشبّه اضطراب آرائهم باضطراب الأرشية، جمع رشا وهو حبل البئر في الطوى البئر المطويّة البعيدة العميقة، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس، وذلك أنّ الطوى كلّما كانت أعمق كان اضطراب الحبل فيها أشدّ لطوله، فكذا حالهم، أي: يكون لهم اضطراب قويّ واختلاف شديد.

وقيل: أراد بهذا العلم علم الآخرة ومابعد الموت، فإنّهم لو شرح لهم ذلك لاضطربوا أشدّ اضطراب خوفاً من اللّه، ولذهلوا عمّا هم فيه من المنافسة في الدنيا.

وقال ابن أبي الحديد: هو إشارة إلى الوصيّة الّتي خصّ بهاعليه السلام وأنّه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع في مبدأ الإختلاف عليه.

[ومن كلام له عليه السلام لمّا أُشير عليه عليه السلام بأن لا يتبع طلحة والزبير ولايرصد لهما القتال]

يقال: أرصد له بشرّ أي: أعدّ له وهيّئه.

روى أبو عبيد قال: أقبل اميرالمؤمنين عليه السلام يريد الطواف، وقد عزم على اتباع طلحة والزبير وقتالهما، فأشار عليه ابنه الحسن عليه السلام أن لايتبعهما ولايرصد لهما القتال. فقال عليه السلام:

[واللّه لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم] بسكون الدال: ضرب

حتّى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها ولكنّي أضرب بالمقبل إلى الحقّ المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً حتّى يأتي على يومي فوالله مازلت مدفوعاً عن حقّي مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى يوم الناس هذا

الحجر أو غيره على الأرض ليس بالقويّ.

[**حتّى يصل إليها طالبها ويختلها**] أي: يخدعها [**راصدها**]

حكي انّ الضبع تستعفل في حجرها بمثل ذلك اللدم، فتسكن حتّى تصاد.

ويحكى أنّهم يضعون في حجرها حجراً ويضربون بأيديهم بابه فتحسب الحجر شيئاً تصيده فتخرج فتصاد.

ويقال: إنّها من أحمق الحيوان أن يدخل عليها فيقال: ليست هذه أُمّ عامر، أو يقال: خامري أُمّ عامر، فتسكن حتّى توثق رجلها بحبل متّخذ لصيدها.

[**ولكنّي أضرب بالمقبل إلى الحقّ**] وجه [**المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً حتّى يأتي على يومي**] الّذي قدّر فيه أجلي.

[**فوالله مازلت مدفوعاً عن حقّي مستأثراً عليّ**] والاستيناب بالشيء الإنفراد به [**منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى يوم الناس هذا**] أقسم عليه السلام على انّه لايسكن على كثرة الظلم والبغي وطول دفاعه عن حقّه.

ثمّ أردف ذلك بما هو الصواب عنده، وهو المقاومة والقتال بمن أطاعه لمن عصاه، وجعل المريب في مقابلة السامع، لانّ المرتاب في الحقّ مقابل

اتّخذوا الشيطان لأمرهم مالكاً واتّخذهم له أشراكاً ودبّ ودرج في حجورهم فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم

للقاتل له، ثمّ فسّر الأبد بغاية عمره، حيث انّه غاية مايمكنه، ثمّ أردف ذلك بالتظلّم والشكاية في الإستيثار عليه بهذا الأمر المحوج إلى الشكاية. وأشار إلى مبدأ ذلك الدفاع ومنتهاه.

[ومن خطبة له عليه السلام]

[**اتّخذوا الشيطان لأمرهم مالكاً**] وفي نسخة: ملاكاً [**واتّخذهم له أشراكاً**] ملاّك الأمر مايقوم به والأشراك إمّا جمع شريك كشريف وأشراف، أو جمع شرك وهو حبائل الصيد كجبل وأجبال، واستعار لهم لفظ الأشراك باعتبار أنّهم أسباب لدعوة الخلق إلى مخالفة الحقّ، فكأنّ الشيطان يصطاد الخلق بواسطة طاعتهم له وتصرّفه فيهم، ثمّ أردف ذلك ببيان ملازمته لهم، فشبّهه بالطائر الّذي بنى عشّه في قلوبهم وصدورهم. واستعار لفظ البيض والأفراخ، لأنّ الطائر لما كان يلازم عشّه فيبيض ويفرّخ فيه أشبهه الشيطان في إقامته في صدورهم وملازمته إيّاهم. وكذا قوله:

[**ودبّ ودرج في حجورهم**] استعارة كنّى بها عن تزيينهم الباطل وملازمة ابليس وعدم مفارقته لهم ونشوّه معهم، كما يربى الولد في حجر والديه. ثمّ أشار عليه السلام إلى وجوه تصرّفاته فقال:

[**فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم**] بأن عزلها عن تصرّفهم فيها، وكان هو المتصرّف بها. ثمّ أشار إلى ثمرة متابعته فقال:

فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه يزعم أنّه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة فليأت عليها بأمر يعرف وإلاّ فليدخل فيما خرج منه

[**فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل**] وهو الفاسد من القول، بأن أخرجهم عن أوامر اللّه في الأفعال والأقوال، فعل منصوب على المصدر، إمّا من فعل محذوف، أي فعلوا ذلك [**فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه**] أي: إنّ الأقوال الصادرة عنهم على خلاف أوامر اللّه إنّما تصدر عن مشاركة الشيطان ومتابعته أو مفعول قوله: اتّخذوا، لأنّه بمعنى فعلوا.

[ومن كلام له عليه السلام
يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك]

قيل: كان يقول: بايعت بيدي لابقلبي، وكان يدّعي تارة أنّه أُكره، وأُخرى أنّه ورّى في البيعة تورية، فقال عليه السلام:

[**يزعم أنّه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليجة**] وهي البطانة، أي: أمراً خفيّاً من عدم موافقة قلبه.

[**فليأت عليها**] على الوليجة المدّعاة [**بأمر يعرف وإلاّ فليدخل فيما خرج منه**] وهو قياس محذوف الكبرى، تقديره أنّه أقرّ بما هو مقبول

قد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الأمرين الفشل ولسنا نرعد حتى نوقع ولانسيل حتّى نمطر

ومحكوم بلزومه شرعاً، وادّعى أنه أضمر في باطنه مايفسده من الوليجة، وكلّ من فعل ذلك احتاج في بيان دعواه إلى بيّنة تعرّف صحّتها، فينتج أنّه محتاج إلى نيّة كذلك، إذ التورية أمر باطن لايمكن الإحتجاج به، وأشار إلى النتيجة بقوله: فليأت الخ.

وروى ابن أبي الحديد: إنّ عليّاًعليه السلام قال للزبير لمّا بايعه: إنّي لخائف أن تغدرني وتنكث بيعتي، قال: لاتخافنّ، فإنّ ذلك لايكون منّي أبداً، فقال عليّعليه السلام: فلي اللّه عليك بذلك راع وكفيل، قال: نعم اللّه لك عليّ بذلك راع وكفيل.

[ومن كلام لهعليه السلام]

[**قد أرعدوا وأبرقوا**] إشارة إلى أصحاب الجمل في معرض الدم والإرعاد والإبراق كنايتان عن التهديد والوعيد الصادر منهم لهعليه السلام بالحرب، ووجه الإستعارة كون الوعيد من الأمور المزعجة، كما أنّ الرعد والبرق كذلك.

[**ومع هذين الأمرين الفشل**] أي الضعف، لأنّ التهديد والوعيد قبل إيقاع الحرب ضعف.

[**ولسنا نرعد حتى نوقع ولانسيل حتّى نمطر**] إشارة إلى نفي تلك

ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله وإنّ معي لبصيرتي

الرذيلة عنه وعن أصحابه، وإثبات الفضيلة لهم، وكما أنّ فضيلة السحاب أن يقترن وقوع المطر منه برعده وبرقه وإسالته بإمطاره كذلك أقوالنا مقرونة بأفعالنا لاخلف فيها، وإسالة عذابه مقرونة بأمطاره.

ويفهم من ذلك أنّ خصمه يهدّده بالحرب من غير قوّة نفس ولاإيقاع لها، فأشبه ذلك الرعد من غير إيقاع المطر والسيل عن غير مطر، فكأنّه قال: كما لايجوز سيل بلامطر، فكذا مايدّعونه ويهدّدون به من إيقاع الحرب بلا شجاعة ولا قوّة، والجلبة أمارة العجز والجبن والصمت والسكون والشجاعة.

[ومن خطبة له عليه السلام]

قيل: هذا الفصل ملتقط ملفّق من خطبة له عليه السلام لمّا بلغه أنّ طلحة والزبير خلعا بيعته، ومداره على ثلاثة أُمور:

الأوّل: الذمّ لأصحاب الجمل، والتنفير عنهم، أشار إليه بقوله:

[**ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله**] أي: إنّ الباعث لهم والجامع على مخالفة الحقّ إنّما هو الشيطان بوسوسته لهم وتزيينه الباطل في قلوبهم.

الثاني: التنبيه على فضيلة نفسه بقوله:

[**وإنّ معي لبصيرتي**] إشارة إلى كمال عقله واستعداده لاستجلاب

ما لبّستُ على نفسي ولا لبّس عليَّ وأيم اللّه لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه

الحقّ، واستيضاحه، ثمّ أكّد ذلك بالإشارة إلى عدم انخداع نفسه القدسيّة للشيطان فيما يلبّس به على الحقّ من الشبه الباطلة على البصائر الضعيفة، فيعميها بذلك عن الإدراك وتميز الباطل، سواء كانت تلك المخادعة والتلبيس بواسطة، كما أشار إليه بقوله:

[**ما لبّستُ على نفسي**] أي: لايلتبس على نفسي المطمئنّة ماتلقيه إليها نفسي الأمّارة، أو بواسطة، كما أشار إليه بقوله:

[**ولا لبّس عليَّ**] أي: إنّ أحداً ممّن اتّبع إبليس وتلقّف عنه الشبه وصار في قومه أن يلبس الحقّ صورة الباطل، لايمكنه أن يلبّس عليّ.

الثالث: الوعيد لهم بالحرب المهلكة، وأشار إليه بقوله:

[**وأيم اللّه**] أصل أيم أيمان جمع يمين، حذفت النون تخفيفاً، كما في قوله: لم يك. وقيل: هو اسم برأسه وضع موضع القسم.

[**لأفرطنّ لهم حوضاً**] من أفرطت الحوض أفرطه بالضيم، أي: ملائة [**أنا ماتحه**] أي: مستقي الماء فيه، استعار ﷺ إفراط الحوض لجمعه الجند، وتهيئة أسباب الحرب، وكنّى بقوله: أنا ماتحه عن أنّه المتولّي لذلك، ولمّا كانت الحروب تشبه بالبحر وبالماء الجمّ فيستعار لها أوصافه، فيقال: فلان خواض غمرات جاز أن يستعار هنا لفظ الحوض وترسخ تلك الإستعارة بالمتح والفرط والإصدار والإيراد.

وفي تخصيص نفسه بالمتح تأكيد بتهديد لعلمهم ببأسه وشجاعته.

لايصدرون عنه ولايعودون إليه تزول الجبال ولا تزل عضّ على ناجذك أعر اللّه جمجمتك

ثمّ أردف ذلك بوصف استعداده لهم بالشدّة والصعوبة، فقال:

[**لايصدرون عنه ولايعودون إليه**] وعنى بالأوّل: إنّ الوارد منهم لاينجو، فهو كمن يغرق فيه، وبالثاني: إنّ من نجى منهم لايطمع في مثل ماطمعوا فيه خوفاً، فلايعود.

[ومن كلامه عليه السلام لابنه محمّد بن الحنفيّة لمّا أعطاه الراية يوم الجمل]

مشيراً له إلى آداب الحرب وكيفيّة القتال

[**تزول الجبال ولا تزل**] الكلام في صورة شرطيّة متّصلة، أي: لو زالت الجبال لاتزل. والمراد المبالغة والنهي عن الزوال مطلقاً، ولذا علّقه على أمر محال، وهو زوال الجبال.

[**عضّ على ناجذك**] وهو السنّ بين الناب والضرس، وللعضّ عليه فائدتان:

احداهما ربط الجأش وتماسك أجزاء البدن للتجربة.

والثانية: تصلّب عضل الرأس وتقادم ماعساه يقع من الضرب فيه، كما قال عليه السلام في موضع آخر: وعضّ أعلى النواجذ فإنّه انباء للسيوف عن الهام.

[**أعر اللّه جمجمتك**] استيعارة لطيفة، شبه جمجمته بالآلة الّتي

تد في الأرض قـدمك ارم ببـصـرك أقـصى القـوم وغضّ بصـرك واعلم أنّ النصر من عند اللّه

تستعار للإنتفاع بها، ثمّ تردّ فـانتفاع حرب اللّه بمحمّد(رض) على هذا الوجه يشبه الإنتفاع بالعارية، والمراد بذلها في طاعة اللّه. ولعلّ العدول إلى العارية إشارة إلى سلامته في هذا الحرب، إذ العارية مردودة سيّما ما أُعير اللّه، وفيه تثبيت لجأشه وربط لقلبه.

[**تد**] أي: اجعله كالوتد في الثبات [**في الأرض قدمك**] وفيه فائدتان:

احداهما: ربط الجأش واستصحاب العزم على الثبات.

والثانيـة: إنّ ذلك مظنّة الشجاعة، وأمـارة الصبر على المكاره، فـيوهن العدوّ ويقهره.

[**ارم ببصرك أقصى القوم**] ليعلم على ماذا يقدم ولينظر مخاتل المخاتل.

[**وغضّ بصرك**] بعـد مـدّة، لكـونه عـلامـة السكينـة والثبـات، وعـدم الطيش، ولأنّ مـدّ النظر إلى بريق السـيوف مظنّة الرهبـة، وربّمـا خـيف على البصر أيضاً، والنظر المحمود في الحرب أن يلحظ شزراً.

[**واعلم أنّ النصر من عند اللّه**] لما ثبّته بتلك الأُمور الخـمسة، أشار إلى أنّه لايتّكل على ذلك، بل يـعلم أنّ النصـر من اللّه وبيـده، كمـا قـال تعـالى: ﴿ومالنصر إلاّ من عند اللّه العـزيز الحكيم﴾ ليتأكّد ثباته بثقـته باللّه، ملاحظاً لقوله تعالى: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾.

أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم، قال: إذاً قد شهدنا ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان

[ومن كلام له عليه السلام]

لمّا ظفر بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددتُ إنّ أخي فلاناً كان شاهداً ليرى مانصرك اللّه به على أعدائك، فقال له عليه السلام:

[**أهوى أخيك**] أي محبّته وميله كان [**معنا؟ قال: نعم، قال: إذاً قد شهدنا**] فإنّه وإن لم يحضر بالفعل، ولكن حضر بالقوّة والهمّة، وكم إنسان يحصل بحضور همّة وإن لم يحضر ببدنه كثير نفع إمّا باستجلاب الرجال أو بتأثير ألقمه في أعداء اللّه، أو لأنّه لمّا أحبّ وهوى أن يكون معهم فثوابه كمن كان معهم، فإنّ نيّة المرء خير من عمله، ولأنّ الراضي بفعل كفاعله. ثمّ قال عليه السلام:

[**ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال وأرحام النساء**] تأكيد لحضور أخ القائل بالإشارة إلى من سيوجد من أنصار الحقّ الذابّين عنه، وعباد اللّه الصالحين شاهدون معنا أيضاً، والشهادة شهادة بالقوّة، أي: إنّهم موجودون في أكمام المواد بالقوّة، ومن كان في قوّة أن يحضر من أنصار اللّه فهو بمنزلة الحاضر الموجود بالفعل في نصرته له إذا وُجد.

[**سيرعف بهم الزمان**] استعار لفظ الرعاف وهو الدم الخارج من أنف

ويقوى بهم الإيمان.
كنتم جند المرأة

الإنسان لوجودهم، وفيه تشبيه للزمان بالإنسان، وإنّما نسب وجودهم إلى الزمان لأنّه من الأسباب المعدّة لقوابل وجودهم.

[**ويقوى بهم الإيمان**].

[ومن كلام له عليه السلام في ذمّ أهل البصرة وأهلها]

روي أنّه لمّا فرغ من أمر الحرب لأهل الجمل أمر منادياً ينادي في أهل البصرة: إنّ الصلاة الجامعة لثلاثة أيّام من غداة، ولا عذر لمن تخلّف إلّا من حجّة أو علّة، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فلمّا كان في اليوم الّذي اجتمعوا فيه خرج فصلّى بالناس الغداة في المسجد الجامع، فلمّا قضى صلاته قام فأسند ظهره إلى حائط القبلة عن يمين المصلّى، فخطب الناس فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله واستغفر للمؤمنين والمسلمين والمسلمات، ثمّ قال:

يا أهل البصرة، يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلها ثلاثاً، وعلى اللّه الرابعة.

[**كنتم جند المرأة**] أراد عائشة، فإنّهم جعلوها عقد نظامهم، وفي ذلك كمال الذمّ لهم، لأنّ اتّباع أقوال النساء وآرائهنّ مذموم عقلاً وشرعاً.

وأتباع البهيمة رغى فأجبتم وعقر فهربتم أخلاقكم رقاق

وفي النبويّ: إنّهنّ ناقصات العقول، ناقصات الدين، ناقصات الحظوظ.

أمّا نقصان عقولهنّ فلأنّ شهادة ثنتين منهنّ بشهادة رجل واحد ﴿لتذكر إحداهما الأُخرى﴾.

وأمّا نقصان دينهنّ فلأنّ احداهنّ تقعد في بيتها شطر دهرها أي: في أيّام حيضها، لاتصوم ولاتصلّي.

وأمّا نقصان حظّهنّ فلأنّ ميراثهنّ على النصف من ميراث الرجال.

[**وأتباع البهيمة**] وهو جمل عائشة، فإنّهم كانوا محيطين به، مجيبين لرغائه، هاربين لعقره، وهذا أشنع في الذمّ ممّا قبله، ﴿إن هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾، وكان هذا الجمل راية عسكر أهل البصرة، قتلوا دونه كما تقتل الرجال تحت راياتها.

[**رغى**] ذلك الجمل، وكنّى برغا به عن دعوتها لهم إلى القتال، إذ قدمت عليهم راكبة له.

[**فأجبتم وعقر فهربتم أخلاقكم رقاق**] أي: صغار حقار، وأشار بدقّة أخلاقهم إلى كونهم على رذائل الأخلاق دون حاق الوسط، ولمّا كانت أُصول الفضائل الخلقيّة الحكمة والفقه والشجاعة، وكانوا على طرف الجهل وهو طرف التفريط من الحكمة العمليّة وعلى طرف الجبن وهو طرف التفريط من الشجاعة، وعلى طرف الجور وهو طرف الإفراط من ملكة العفّة والعدالة لاجرم صدق أنّهم على رذائل الأخلاق ورقاقها.

وعهدهم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربّه كأنّي بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها.

[**وعهدهم شقاق**] إشارة إلى نكثهم بيعته ﷺ وعذرهم معه، والعذر رذيلة بأزاء ملكه الوفاء.

[**ودينكم نفاق**] لأنّهم خرجوا على الإمام العادل وحاربوه، فخرجوا عن الدين، ولعلّ ذلك خاصّ ببعضهم، إذ المنافق العرفي الخارج عن الإسلام بقلبه المظهر له بلسانه.

[**وماؤكم زعاق**] أي: مالح لقربه من البحر، وامتزاجه به، وذكر ذلك في معرض ذمّهم لعلّه لسوء اختيارم ذلك المكان والإقامة به مع كون ماءهم بتلك الحال المستلزمة لأمراض كثيرة، أو لأنّ ذلك من أسباب التنفير عن المقام معهم وتكثير سوادهم.

[**المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه**] لأنّه لابدّ وأن ينخرط ف سلكهم ويستعدّ لقبول ميل طباعهم وينفعل عن رذائل أخلاقهم، وحينئذ يكون موثوقاً بدينه.

[**والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربّه**] لأنّه خرج من القرية الظالم أهلها ليسلم من الذنوب الّتي يكتبها المقيم بينهم، وتلك رحمة وأيّ رحمة، وكلّ ذلك في معرض التنفير عنهم.

[**كأنّي بمسجدكم كجؤجؤ**] أي: صدر [**سفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها**].

وأيم اللّه لتغرقنّ بلدتكم هذه حتّى كأنّي أنظر إلى مسجدكم كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة. كجؤجؤ طير في لجّة أرضكم قريبة من الماء

وفي رواية أُخرى:

[وأيم اللّه لتغرقنّ بلدتكم هذه حتّى كأنّي أنظر إلى مسجدكم كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة].

وفي رواية أُخرى:

[كجؤجؤ طير في لجّة] شبّه نفسه عليه السلام في مشاهدته بنور بصيرته لمسجدهم في الماء بالمشاهد لذلك، والحاضر لرؤيته بعين الحسّي في الجلاء والظهور، وجؤجؤ السفينة والطائر صدره. والجاثمة: الباركة.

والمنقول: إنّ البصرة غرقت مرّة في أيّام القادر باللّه، ومرّة في أيّام القائم بأمراللّه، عرفت بأجمعها، وغرق من في ضمنها، وخربت دورها ولم يبق فيها إلاّ غلق مسجدها الجامع حسبما أخبر به عليه السلام، وكان غرقها من قبل بحر فارس.

[ومن كلام له عليه السلام في مثل ذلك]

[أرضكم قريبة من الماء] إشارة إلى أنّها وضع هابط مستقلّ من الأرض، وقريب من البحر، فهو بصدد أن يعلوها بملاقاة دجلة، كما يشاهد

بعيدة من السماء خفّت عقولكم وسفهت حلومكم فأنتم غرض لنابل وأكلة الآكل

من دخول الماء حدائقهم وسقيه بساتينهم في كلّ يوم مرّة أو مرّتين، والمراد قريبة من الغرق بالماء.

[**بعيدة من السماء**] قيل في تفسيره وجوه:

الأوّل: إنّ المراد بالسماء المطر، فإنّ أمطارها قليلة.

الثاني: إنّ أرباب الهيئة والنجوم ذكروا إنّ أبعد موضع في الأرض عن السماء، يعني بعدها عن معدّل النهار، والبقاع والبلاد تختلف في ذلك، وقد دلّت الآلات والأرصاد النجوميّة على أنّ أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدّل النهار هو الابله، والابله قصبة البصرة.

الثالث: إنّ أهلها لمّا كانوا ذوي أوصاف مذمومة كانوا أبعد من نزول الرحمة عليهم من سماء الجود الإلهي، مستعدّين لنزول العذاب.

[**خفّت عقولكم**] إشارة إلى قلّة استعدادهم لدرك وجوه المصالح، وضعف عقولهم عن تدميرها وتسرّعهم إلى مالاينبغي، وغفلتهم عمّا ينبغي.

[**وسفهت حلومكم**] وسفه الحلم تبديله بضدّه واستعماله في غير موضعه.

[**فأنتم غرض لنابل**] أي: كلّ من قصد أذاهم وأراد إهلاكهم نال ذلك منهم.

[**وأكلة الآكل**] كناية عن كونهم في معرض أن يطمع في أموالهم

وفريسة لصائد أما والله لو وجدته وقد تزوّج به النساء وملك به الإماء لرددته فإنّ في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليق أضيق

ونعمتهم، ويأكلها من يقصد أكلها.

[**وفريسة لصائد**] كناية عن كونهم بصدد أن يفترسهم من يقصد قتلهم وإهلاكهم، واستعار لفظ العرض والأكل والفريسة لهم. ووجه المشابهة فيها ظاهر.

[ومن كلام له عليه السلام
فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان]

والقطائع: ما يقطعه أو بعض الرعيّة من أرض بيت المال ذات الخراج ويسقط عنه خراجه، وقد كان عثمان أقطع قطائع كثيرة من أرض الخراج لكثير من بني أُميّة وأوليائه، فقال عليه السلام:

[**أما والله لو وجدته وقد تزوّج به النساء وملك به الإماء لرددته**] على مستحقّيه.

[**فإنّ في العدل سعة**] ووجه سعة العدل بالقياس إلى الجور أنّ الإنسان يتمكّن من التصرّف فيه به أكثر من التصرّف بالجور، إذ بالعدل نظام العالم بأسره، وهو محلّ لرضا المظلوم بإيصال حقّه إليه، ولرضاء الظالم بعلمه بأنّه عند انتزاع الحقّ منه أخذ لما ليس له، وأكّد ذلك بالوعيد الصادق، فقال:

[**ومن ضاق عليه العدل فالجور عليق أضيق**] فالظالم وإن قام شيطانه

ذمّتي بما أقول رهينة

عند انتزاع الحقّ منه وضاق العدل عليه فهو في محلّ الرضا، فإن لم يرض لضيق العدل عليه فالجور عليه أضيق في الدنيا والآخرة، لأنّه ربّما انتزعت منه قهراً، وكان جوره سبباً للتضيّق عليه في ذلك، ولأنّ الأوامر والنواهي الإلهيّة محيطة به سادة عليه وجوه التصرّف الباطل، ولأنّه إذا نزل عليه عدل اعتقد أنّه آخذ منه ماينبغي.

[ومن خطبة له عليه السلام لمّا بويع بالمدينة

وأوّلها: الحمد للّه ــــــ محمود بالحمد وأولاه بالمجد إلهاً واحداً صمداً أقام أركان العرش، فأشرق لضوئه شعاع الشمس خلق فأتقن وأقام فذلت له وطأة المتمكّن، وأشهد أن لاإله إلّا اللّه وحده لاشريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بالنور الساطع، والضياء المنير، أكرم خلق اللّه حسباً وأشرفهم نسباً، لم يتعلّق عليه مسلم ولا معاهد بمظلمة.

أمّا بعد: فإنّ أوّل من بغى على الأرض عناق أنبت آدم عليه السلام كان مجلسها من الأرض جريباً وكان لها عشرون اصبعاً وكان لها ظفران كالمنجلين، فسلّط اللّه عليها أسداً كالفيل وذئباً كالبعير ونسراً كالحمار، وكان ذلك في الخلق الأوّل فقتلها، وقد قتل اللّه الجبابرة على أسوأ أحوالهم، وإنّ اللّه أهلك فرعون وهامان، وقتل قارون بذنوبهم، إلى أن قال عليه السلام:

[ذمّتي بما أقول رهينة] والذمّة العقد والعهد. يقال: هذا الدين في

وأنا به زعيم إنّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات حجزه التقوى عن تقحّم الشبهات.

ذمّتي وفي عنقي، كناية عن الإلتزام والضمان والرهينة المرهونة.

[**وأنا به زعيم**] أي: كفيل، وأخرج الكلام مخرج الترغيب لهم في سماع مايقوله عليه السلام.

وفي الخبر: الزعيم غارم.

[**إنّ من صرّحت**] كشفت [**له العبر**] جمع عبرة وهي الموعظة [**عمّا بين يديه من المثلات**] أي: العقوبات [**حجزه**] أي: منعه [**التقوى عن تقحّم الشبهات**] يقال: قحم في الأمر وتقحمه: رمى بنفسه، فيه أشار عليه السلام إلى وجوب الإعتبار لوجوب التقوى، ونبّه على أنّها وسيلة إليه، لأنّ من أخذت العناية الربّانيّة بزمام عقله فأعدت نور بصيرته لمشاهدة ماصرّحت به آفات الدنيا وكشفت عبرها من تبدّل حالاتها وتغيّراتها على من أوقف عليها همّه واتّخذها دار إقامة، فشاهد أنّ جميع ذلك أُمور باطلة وأظلال زائلة، فلابدّ أن يفيض اللّه على قلبه صورة خشيته وتقواه، فيستلزم تلك الخشية توقّفه وامتناعه عن أن يلقي نفسه في تلك الأُمور الزائلة والشبهات الباطلة لإشراق نور الحقّ الواضح على لوح نفسه، بالإعتبار، فالتقوى اللازم عنه هو الحاجز عن ذلك التقحّم، وأشار بالشبهات إلى مايتوهّم كونه حقّاً ثابتاً باقياً من الأُمور الفانية الزائلة واللذّات الدنيويّة الباطلة، فالوهم يشبهها بالحقّ، ولذا تسمّى شبهات، والعقل السليم يقوى على تميزها.

وأكّد عليه السلام هذه الملازمة برهان ذمّته على صحّتها وكفالته بصدقها،

ألا وإنّ بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيّه ﷺ والّذي بعثه بالحقّ لتبلبلنّ بلبلة ولتغربلنّ غربلة ولتساطنّ سوط القدر حتّى يكون أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم

واستعمال الرهن استعارة كما في قوله تعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ وبالتقوى يتميّز الحق من الباطل. قال تعالى: ﴿إن تتّقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً﴾ وقال تعالى: ﴿واتّقوا اللّه ويعلّمكم اللّه﴾ وقال تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا﴾ الآية.

ثمّ لمّا نبّه عليه السلام على لزوم التقوى وانّه مخلص من تقحّم الشبهات نبّه على أنّهم في الشبهات مغمورون بقوله:

[**ألا وإنّ بليّتكم**] إشارة إلى ماهم عليه من اختلاف الأهواء وتشتّت الآراء [**قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيّه ﷺ**] وكان الناس غارقين في بحار الجهالات تائهين في طرق الضلالات.

وفي ذلك إشارة إلى أنّهم ليسوا من التقوى في شيء، وإلاّ لميّزوا بين الحقّ والباطل، ثمّ توعّدهم عليه السلام بعاقبة ذلك ونزول ثمرته بهم بقوله:

[**والّذي بعثه بالحقّ لتبلبلنّ بلبلة**] والبلبلة: الإختلاط [**ولتغربلنّ غربلة**] وهي: نخل الدقيق ونحوه [**ولتساطنّ سوط القدر حتّى يكون أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم**] وكنّى بالبلبلة عمّا يوقع بهم بنوأُميّة وغيرهم من أُمراء الجور من الهموم المزعجة وخلط بعضهم ببعض، ورفع أراذلهم وحطّ أكابرهم. وبالغربلة عن التقاط آحادهم وقصدهم بالأذى والقتل، كما فعل بكثير من الصحابة والتابعين، كغربلة الدقيق ليمزّ شيء عن شيء، ولذا

وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة

استعار له لفظها وأشار بالثالث إلى تصريف أئمّة الجور بهم من تغيير قواعد عن عزيز أذلّوه وذليل أعزّوه، وبعيد قرّبوه وقريب بعّدوه، وخلط الشريف بالوضيع والعزيز بالذليل، كما تساط القدر.

[وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا] إشارة إلى بعض نتائج تقلّب الزمان بهم. وقيل: أشار بالمقصّرين الّذين يسبقون إلى قوم قصّروا عن نصرته في مبدأ الأمر حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، ثمّ نصروه في ولايته وقاتلوا معه في سائر حروبه وبالسابقين الّذين يقصّرون إلى من كانت له في الإسلام سابقة، ثمّ يخذله وينحرف عنه ويقاتله. وقيل: المقصّرون الّذين يسبقون كلّ من أخذت العناية الإلهيّة بيده وقاده زمام التوفيق إلى الجدّ في طاعة الله واتّباع سائر أوامره، والوقوف عند نواهيه وزواجره بعد تقصيره في ذلك، وعكس هؤلاء من كان في مبدأ الأمر مستمرّاً في سلوك سبيل الله، ثمّ جذبه هواه إلى غيرما كان عليه، وسلك به الشيطان مسالكه، فاستبدل بسبقه في الدين تقصيراً وانحرافاً عنه.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ ذلك ممّا أخبر به الرسول صلى الله عليه وآله الصادق المصدّق مؤكّداً بالقسم فقال عليه السلام:

[والله ما كتمت وشمة] أي: كلمة ممّا أخبر به عليه السلام، والوشمة بالشين المعجمة الكلمة.

[ولا كذبت كذبة] أقسم عليه السلام أنّه لم يكتم أثراً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى، أو كلمة ممّا يتعيّن عليه أن يتوح به، وأنّه لم يكذب قطّ.

ولقد نبّئت بهذا المقام وهذا اليوم ألا وإنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النار ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأُعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة

[**ولقد نبّئت بهذا المقام**] أي: مقام بيعة الخلق له.

[**وهذا اليوم**] أي: يوم اجتماعهم عليه، أي: أخبرني به النبيّ الصادق المصدّق، فكان كما أخبرﷺ، وفي ذلك تنفير لهم عن الباطل إلى الحقّ، وثبّت لهم على اتّباعه، ثمّ لمّا أمرهم بالتقوى وأنبأهم بما سيكون عاقبة أمرهم في لزومهم لبليّتهم وتورّطهم في الشبهات أردف ذلك بالتنفير عن الخطايا والترغيب في التقوى بالتنبيه على مايقود إليه كلّ منهما، فقال:

[**ألا وإنّ الخطايا خيل شمس**] يقال: حصان شموس، أي: يمنع ظهره من الركوب، وشمس الفرس بالفتح وبه شماس.

[**حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النار**] استعار لفظ الخيل للخطايا، ثمّ وصفها بالوصف المنفر، وهو الشموس والهيئة المانعة لذي العقل من ركوبها، وهي كونها مع شموسها مخلوعة اللجم، ووجه الإستعارة إنّ الفرس الشموس الّتي خلعت لجامها من شأنها أن تقتحم براكبها المهالك، فكذا راكب الخطئية لّما جرى به ركوبها على غير نظام الشريعة وخلع بذلك لجام الأوامر الشرعيّة والحدود المرعيّة تقحّمت به أعظم موارد الهلاك نار جهنّم وبئس المصير.

[**ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأُعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة**] استعارﷺ لفظ المطايا لوصف الحسن الموجب للميل إليها،

حقّ وباطل ولكلّ أهل فلئن أمر الباطل لقديماً فعل ولئن قلّ الحقّ فلربّما ولعلّ

وهو كونها ذللاً وبالهيئة الّتي ينبغي للراكب وهو أخذ الزمام أي الحدود الشرعيّة الّتي يلزمها صاحب التقوى، ولمّا كانت المطيّة الذلول من شأنها أن تتحرّك براكبها على وفق النظام الّذي ينبغي وتسير به على تؤده وتوصّله إلى المطلوب، فكذا التقوى، فسهولة طريق السالك إلى اللّه بالتقوى وراحته عن جموح الهوى به في موارد الهلكة يشبه ذلّة المطيّة، وحدود اللّه الّتي بها يملك التقوى، ويستقرّ عليه يشبه أزمة المطايا الّتي بها تملك، وكون التقوى موصلاً لصاحبه بالسلامة إلى السعادة الأبديّة الّتي هي أسنى المطالب يشبه غاية سير المطي الذلول براكبها، والإستعارة في الموضعين من استعارة المحسوس للمعقول.

ثمّ لمّا بيّن أنّ هٰهنا طريقين مركوبين للسالك: طريق الخطايا وطريق التقوى، ذكر بعده أنّهما [**حقّ وباطل**] فكأنّه قال: وهما حقّ، وهو التقوى، وباطل وهو الخطايا، ثمّ قال:

[**ولكلّ أهل**] أي: لكلّ من طريقي الباطل والحقّ قوم، وكلّ ميسّر لما خلق له.

[**فلئن أمر الباطل**] أي كثر [**لقديماً فعل**] وليس ذلك ببدع حتّى أجهد في نفسي في الإنكار على أهله، ثمّ لايسمعون ولاينتهون.

[**ولئن قلّ الحقّ فلربّما ولعلّ**] والمراد أنّ كثرة الباطل وقلّة الحقّ من قديم الزمان، وذلك كالإعتذار لنفسه ولأهل الحقّ في قلبه وكالذمّ والتوبيخ لأهل

ولعلّ مـا أدبر شيء فـأقـبل إنّ في هـذا الكلام الأدبي من مـواقع الإحسان ما لايبلغه مواقع الإستحسان

الباطل على كثرته، وفي قوله لربّما ولعلّ تنبيه على أنّ الحقّ وإن قلّ فربّما يعود كثيراً ثمّ أردف حرف التعليل وهو ربّما بحرف التمنّي، فكان في هذه الأحرف الوجيزة إخبار بقلّة الحقّ ووعد بقوته وتمنّي لكثرته، وقوله:

[**ولعلّ ما أدبر شيء فأقبل**] استبعاد لرجوع الحقّ إلى الكثرة والقوّة بعد قلّته وضعفه على وجه كلّي، فإنّ زوال الإستعداد للأمر مستلزم لزوال صورته، وصورة الحقّ إنّما أُفيضت على قلوب صغت واستعدّت لقبوله، فإذا أخذ ذلك الإستعداد في النقصان بموت أهلهاأو بموت قلوبهم واسودّت ألواح نفوسهم أشبه الباطل، فلابدّ أن ينقص نور الحقّ وتكثر ظلمة الباطل بسبب قوّة الإستعداد لهما وظاهر أنّ عود الحقّ وإضاءة نوره بعد إدباره وإقبال ظلمة الباطل أمر بعيد، وقلّما يعود مثل ذلك الإستعداد لقبول مثل تلك الصوت للحقّ، ولعلّ يعود بقوّة فتصبح ألواح النفوس وأرضها مشرقة بأنوار الحقّ ويكرّ على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، وماذلك على اللّه بعزيز.

وفي ذلك تنبيه لهم على لزوم الحقّ وبعث على القيام به كيلا يضمحلّ بتخاذلهم عنه فلا يمكنهم تداركه.

قال السيّد الرضي (ره) أقول:

[**إنّ في هذا الكلام الأدبي من مواقع الإحسان**] مصدر أحسن إذا فعل حُسناً ومواقع الإحسان الكلمة الحسنة منه [**ما لايبلغه مواقع الإستحسان**] وهي الأفكار المستحسنة له، لأنّها لاتبلغ محاسن كلامه، ولاتحيط بها.

وإن حظّ العجب منه أكثر من حظّ العجب به وفيه مع الحال الّتي وصفنا زوائ من الفصاحة لايقوم بها لسان، ولايطّلع فجّها انسان، ولايعرف ما أقوله إلاّ من ضرب في هذه الصناعة بحقّ وجرى فيها على عرق وما يعقلها إلاّ العالمون شغل من الجنّة والنار أمامه!

[**وإن حظّ العجب منه أكثر من حظّ العجب به**] أي: إنّ تعجّب الفصحاء من حسنه أكبر من عجبهم بأنفسهم باستخراج محاسنه، لأنّ فيه محاسن لايمكنهم التعبير عنها وإن تعجّبوا منها.

[**وفيه مع الحال الّتي وصفنا زوائ من الفصاحة لايقوم بها لسان، ولايطّلع فجّها انسان، ولايعرف ما أقوله إلاّ من ضرب في هذه الصناعة بحقّ وجرى فيها على عرق وما يعقلها إلاّ العالمون**].

ومنها، من جملة هذه الخطبة

[**شغل من الجنّة والنار أمامه!**] أي: من كانت الجنّة والنار أمامه ولايدري إلى أيّهما يصير فقد شغل بشغل شاغل عمّا عداه، فيجب عليه أن لايشتغل إلاّ به وشغله بهما ملاحظتهما وتذكّرهما مدّة وقته، والهمّة بمايكون وسيلة إليهما. واستعار لفظ الأمام لهما باعتبار كونهما غايتين ينتهي إليهما، وإنّما قال شغل بالبناء للمفعول دون الفاعل، لأنّ المقصود هنا ليس إلاّ ذكر الشغل، أو لأنّه لما كان الشاغل هو اللّه تعالى بإيجاد الجنّة والنار والترغيب في أحدهما والترهيب من الأُخرى، كان ترك ذكره للتعظيم والإجلال أو لظهوره.

ساع سريع نجى وطالب بطيء رجى ومقصّر في النار هوى

ثمّ إنّه عليه السلام لما نبّه على وجوب الإشتغال بالجنّة والنار عن غيرهما قسم الناس بالنسبة إلى ذلك الإشتغال على ثلاثة أقسام، فقال:

[ساع سريع نجى] بسبقه إلى الإيمان ومبادرته إلى الطاعة والرضوان فنجوا من عذاب النار ومن غضب الجبّار المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿والسابقون السابقون أُولئك المقرّبون في جنّات النعيم فاكهين بما آتاهم ربّهم ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم﴾ وهؤلاء الّذين طلبوا بعناية جدّهم واجتهادهم وبذلوا وسعهم وطاقتهم.

[وطالب] للطاعة والراضون [بطيء] متأنّي في طلبه غير باذل جدّه وجهده في ذلك.

[رجى] عفو اللّه ونظرة إليه برحمته، فالسلامة عليه أغلب، ووصوله إلى المطلوب أقرب.

[ومقصّر] تارك للطلب [في النار هوى] حيث خالف الرحمن واتّبع الشيطان فأورده النار وبئس الورد المورود، وهو المشارإليه بقوله تعالى: ﴿وأمّا الّذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ماشاء ربّك إنّ ربّك فعّال لما يريد﴾.

ووجه التقسيم إلى الثلاثة على ما ذكره بعض المحقّقين إنّ الناس إمّا طالبون للّه ولما عنده أو غير طالبين، والطالبون إمّا مجتهدون في الوصول إليه أو متأنّون، والأوّل هم السابقون المقرّبون، والثالث المقصّرون الّذين

اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة وعليها ما في الكتاب الكريم وآثار النبوّة، ومنها منفذ السنّة وإليه تصر عاقبة

وقف بهم الشيطان حيث أراد.

وأمّا الثاني: فذو صنفين يتجاذبانه بين جهتي السفالة والعلوّ، فسلوكه إلى اللّه وإن ضعف جاذب له إلى الجنّة، ويد الشيطان جاذبة له إلى النار، إلّا أنّ رجاءه اللّه وسكونه به إذا انضاف إلى حركته البطيئة في سبيل اللّه كانت السلامة عليه أغلب، وإنّما خصّ الثاني بالرجاء، لأنّه عمدته دون عمله لضعفه، ونحوه قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن اللّه﴾.

ولمّا قسّم الناس إلى سابقين ولاحقين ومقصّرين أشار عليه السلام إلى الطريق الموصلة الّتي يجب سلوكها فقال:

[**اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة**] أشار باليمين والشمال إلى طرفي الإفراط والتفريط من الفضائل النفسانيّة، وبالطريق الوسطى إلى العدل منها، وهو لزوم عين الفضيلة من غير انحراف وهي الصراط المستقيم في الدنيا والأخرى، والجادّة الواضحة لمن اهتدى.

[**وعليها ما في الكتاب الكريم**] والفرقان العظيم من المقاصد الإلهيّة والحكم الربّانيّة [**وآثار النبوّة، ومنها منفذ السنّة**] أي: طريقها ومبدئها الّذي منه تخرج [**وإليه تصير عاقبة**] الخلق في الدنيا والآخرة، فإنّ من العدل بدئت السنّة وانتشرت في الخلق، وإليه مرجع أُمورهم في الدنيا والآخرة، أمّا في

هلك من ادّعى وخاب من افترى من أبدى صفحة للحقّ هلك عند جهلة الناس وكفى بالمرء جهلاً أن لايعرف قدره

الدنيا فلأنّ نظام أُمورهم في حركاتهم وسكناتهم مبني عليه في القوانين الشرعيّة الّتي تردّ إليها عواقب أُمورهم ويحملون عليها، وأمّا في الآخرة فبالنسبة إليه يستبين فوز الفائزين وخسران الخاسرين، ﴿فريق في الجنّة وفريق في السعير﴾ وقوله:

[**هلك من ادّعى وخاب من افترى**] يحتمل الدعاء والإخبار، أي: هلك من ادّعى ماليس له أهلاً وماليس بحقّ، وخاب من كذب في دعواه وأحلّ المقصود تعريض بمعاوية ودعواه الأمارة وخيبة المفتري، لأنّ الفرية اختلاق ماليس بحقّ، وظاهر أنّ الكذب لاثمرة له، أمّا في الآخرة فظاهر وأمّا في الدنيا فقد يكون وقد لايكون، وإن كان فهو في معرض الزوال، ومستلزم لسخط اللّه، فهو كأن لم يكن.

[**من أبدى صفحة للحقّ**] وتجرّد لإظهاره في مقابلة كلّ باطل سمعه أو رآه من الجاهلين وحملهم على مرّ الحقّ وصعبه في كلّ وقت.

[**هلك عند جهلة الناس**] أي: كان في معرض الهلاك بأيديهم وألسنتهم ولامحالة يلقى منهم مايكره لعدم موافقته طباعهم، وأومى بذلك إلى نفسه عليه السلام في معرض الإعتذار في مقابلة معاوية ونحوه على باطلهم وقوله:

[**وكفى بالمرء جهلاً أن لايعرف قدره**] تنبيه على أنّ أقلّ الجهل كاف

لايهلك على التقوى سنخ أصليّ ولايظمأ عليها ذرع قوم واستتروا بيوتكم وأصلحوا ذات بينكم والتوبة من ورائكم

في الرذيلة، فكيف بكثيره وجهل المرء بقدره ومرتبته من الناس جهل فاحش لاستلزامه رذائل صعبة، كالعجب والكبر قول الباطل وادّعاء الكمال للناقصين وتعدّي الطور في أكثر الأحوال، كما قال عليه السلام: رحم الله امرء عرف قدره ولم يتعدّ طوره.

[**لايهلك على التقوى سنخ أصليّ ولايظمأ عليها ذرع قوم**] والسنخ هو الأصل، نبّه عليه السلام على لزوم التقوى باعتبارين:

أحدهما: إنّ كلّ أصل بني على التقوى فمحال أن يهلك أو يلحق بانيه خسران، كما قال تعالى: ﴿أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسّس بنيانه على شفا جرف هار﴾.

الثاني: إنّ من زرع زرعاً آخروياً كالمعارف الإلهيّة في أرض نفسه مثلاً أو دنيوياً كالأعمال الّتي بها تقوم مصالح الإنسان في الدنيا وسقاها بماء التقوى فلا يلحق زرعه ظمأ، بل يقوى ويزكو ثمره وهو ترغيب في التقوى لغاية ماتثمره من الخير الأُخروي، ثمّ أمرهم عليه السلام بالإستتار، فقال:

[**واستتروا بيوتكم**] أي: ألزموها قطعاً لمادّة الفتنة بينهم، وفراراً من الإجتماع للمنافرات والمفاخرات والمشاجرات، ولذا أردفه بقوله:

[**وأصلحوا ذات بينكم**] لأنّ قطع مادّة الفتنة سبب لإصلاح ذات البين

[**والتوبة من ورائكم**] تنبيه للعصاة على الرجوع إلى التوبة عن الجري في

ولايحمد حامد إلّا ربّه، ولا يلم لائم إلّا نفسه إنّ أبغض الخلائق إلى اللّه رجلان: رجل وكّله اللّه إلى نفسه فهو جائر عادل عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة

ميدان المعصية واقتفاء أثر الشيطان وإنّما كانت التوبة وراءهم باعتبار رجوع العاصي إليها عمّا هو متوجّه بقلبه إليه من المعصية، وقيل: وراء بمعنى أمام.

[**ولايحمد حامد إلّا ربّه، ولا يلم لائم إلّا نفسه**] تأديب لهم بالتنبيه على قصر الحمد والثناء على اللّه دون غيره وأنّه مبدأ كلّ نعمة يستحقّ بها الحمد، وقصر اللّوم على النفس من قبولها دعوة الشيطان وإعراضها عن دعوة الرحمن، قال تعالى: ﴿ماأصابك من حسنة فمن اللّه وماأصابك من سيّئة فمن نفسك﴾.

ومن كلام له عليه السلام
في صفة من يتعدّى للحكم بين الأُمّة، وليس بذلك أهل

[**إنّ أبغض الخلائق إلى اللّه**] عزّوجلّ [**رجلان: رجل وكّله اللّه إلى نفسه**] أي: تركه واباها وجعل توكّله عليها، وقد قال عليه السلام: اللّهمّ لاتكلني إلى نفسي فاعجز عنها، وقال: فإنّك إن وكلتني إلى نفسي هلكت.

[**فهو جائر عادل عن قصد السبيل**] والصراط المستقيم الموصل إلى الرضوان والنعيم.

[**مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة**] والمشغوف بالغين المعجمة، أي:

فهو فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هدى من كان قبله مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته حمّال خطايا غيره

بلغ حبّه إلى شغاف قلبه، وهو غلافه، وبالمهملة أي: بلغ إلى شعفة قلبه وهي عند معلّق النياط، وهذا هو الجهل المركّب والداء الّذي لادواء له، حيث أنّه جائر عن قصد السبيل، ويعتقد أنّه على سواء السبيل، فهو من الأخسرين أعمالاً، الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وممّن قال تعالى فيه: ﴿أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

[**فهو فتنة لمن افتتن به**] فإنّ محبّة قول الباطل والدعوة إلى الضلالة سبب لكونه فتنة لمن اتّبعه.

[**ضالّ عن هدى من كان قبله**] وهذا الوصف كالثاني، فإنّ الضال عن الهدى جائر عن قصد السبيل، إلّا أنّ هيٰهنا زيادة، إذ الجائر عن القصد قد يجوز ويضلّ، حيث لاهدى يتبعه، والموصوف هيٰهنا جائر وضالّ مع وجود هدى من كان قبله مأمور باتّباعه وهو كتاب اللّه وسنّة رسولهﷺ، وأعلام هداه الحاملون لدينه الناطقون عن مشكاة النبوّة، وذلك أبلغ في لائمته، وآكد في وجوب عقوبته.

[**مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته**] وهذا مسبّب عمّاقبله، إذ ضلال الإنسان في نفسه لإضلال غيره، وكون الإضلال في حياته ظاهر وبعد وفاته لبقاء العقائد الباطلة، المكتسبة عنه، فهي سبب ضلال الضالّين بعده.

[**حمّال خطايا غيره**] وهو لازم عمّا قبله، فإنّ حمله الأوزار من يضلّه

رهن بخطيئته

إنّما هو لسبب إضلاله له.

[رهن بخطيئته] أي: موثوق بها، عن الوصول إلى الصراط المستقيم والطريق القويم، وإلى هذين الوصفين أُشير في القرآن بقوله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء مايزرون﴾.

وفي النبوي: أيّما داع دعى إلى الهدى فاتّبع كان له مثل أجر من تبعه، لاينقص من أُجورهم شيء، وأيّما داع دعى إلى الضلالة فاتّبع كان علي مثل وزر من تبعه ولاينقص منه شيء، قيل: ولاينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ماسعى﴾ و﴿ولاتزر وازرة وزر أُخرى﴾ وإلاّ لما دخل أحد من الناس النار أبداً، بل كانت مقصورة على إبليس وحد، بل المعنى إنّ الرئيس المضلّ إذا وضع سيّئة تكون فتنة للناس وضلالاً لم تصدر تلك السيّئة إلاّ عن نفس قد استولى عليها الجهل المركّب المضاد لليقين، وصار ملكة من ملكاتها، فتسود لوحها به عن قبول الأنوار الإلهيّة، وصار ذلك حجاباً بينها وبين الرحمة بحسب مايكون ذلك الحجاب في القوّة والشدّة أضعاف حجب التابعين له والمقيّدين به، الناشئة عن فتنته، فإنّ تلك الحجب الطارية على قلوب التابعين مستندة إلى ذلك الحجاب، وهو أصلها، فلاجرم يكون وزره وسيئته في قوّة أوزار أتباعه وسيّئاتهم الّتي حصلت لسبب إضلاله لا كلّ سيّئاتهم من كلّ جهة، ولذا قال: ﴿ومن أوزار الّذين يضلّونهم﴾ أي: بعضها وهي الحاصلة بسبب المضلّين، كما قال ﷺ: فإنّه

ورجل قمش جهلاً موضعاً في جهّال الأمّة عاد في أغباش الفتنة عمّ بما في عقد الهُدنة قد سمّاه أشباه الناس عالماً وليس به

حمّال خطايا غيره رهن بخطيئته، وصيغة المبالغة إشارة إلى أنّه كثيراً مايحمل خطايا غيره. ثمّ أشار عليه السلام إلى الرجل الثاني وميّزه بعشرين وصفاً فقال:

[**ورجل قمش**] أي: جمع [**جهلاً**] استعار لفظ الجمع المحسوس للجمع المعقول [**موضعاً**] بكسر الضاد، أي: مسرعاً، من وضع البعير أسرع وأوضعه راكبه فهو موضع به، أي: أسرع به [**في جهّال الأمّة**] يسرع إلى مايسرعون إليه، وروي موضع بفتح الضاد، أي: مطرحاً ليس من أشراف الناس.

[**عاد في أغباش الفتنة**] اغباش اللّيل: بقايا ظلمته، أي: سائراً في أوائل ظلماتها.

وروي: غار، أي: غافل في ظلمات الخصومات لايهتدي لوجه تخليصها.

وروي: اغطاش الفتنة والغطش: الظلمة أيضاً.

[**عمّ بما في عقد الهُدنة**] أي: أعمى البصيرة بما في عقد الصلح والمسالمة بين الناس من نظام أُمورهم ومصالح معاشهم فهو جاهل بوجوه المصالح مثير للفتن.

[**قد سمّاه أشباه الناس**] من الجهّال وأرباب الضلال المتشبّهون بأهل الكمال صورة لاحقيقة، فالوجه وجه إنسان، والقلب قلب شيطان.

[**عالماً وليس به**] إذ ليس العلم إلاّ آية محكمة، أو سنّة قائمة، أو

بكر فاستكثر من جمع ماقلّ منه خير ممّا كثر حتّى إذا ارتوى من ماء آجن متغيّر واكتثر من غير طائل جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ماالتبس على غيره

فريضة عادلة، وماخلاهنّ فهو فضل، والعالم الغير العامل بعلمه هو والشيطان سواء.

[**بكر فاستكثر من جمع ماقلّ منه خير ممّا كثر**] روي من جمع منوناً، وغير ممنون، أمّا مع التنوين فالجملة بعده صفة له، واستعمل المصدر مقام اسم المفعول، أي: من مجموع، وأمّا مع الإضافة فقيل: يحتاج إلى تقدير ما، أي: من جميع ما الّذ قلّ منه خير ممّا كثر. وقيل: هو مثل قوله: تسمع بالمعيدي خير من أن ترى. أي: من جمع ما إن قلّ منه خير ممّا كثر. وعنى بالتبكير الاشباق في أوّل العمر إلى جمع الشبهات والآراء الّتي قليلها خير من كثيرها، وباطلها أكثر من حقّها.

[**حتّى إذا ارتوى من ماء آجن متغيّر**] فاسد، استعارة للجهل والإعتقادات الفاسدة الّتي تشبه الماء الآجن الّذي لاغناء فيه للشارب، بل يضرّه، كما يستعار للعلوم الحقّة الماء الصافي والزلال، ورشح تلك الإستعارة بذكر الإرتواء، إشارة إلى التملّي منها.

[**واكتثر**] هو كقولك ستكثر [**من غير طائل**] وروي اكتنز أي: اتّخذ العلم كنزاً.

[**جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ماالتبس على غيره**] من المبهمات، واشتبه على الخلق من المعضلات واثقاً من نفسه بفصل مايعرض بين الناس من الخصومات وضامناً حال ثاني أو صفة للأوّل.

فإن نزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشواً رثّاً ثمّ قطع به فهو من س الشبهات في مثل نسج العنكبوت لايدري أصاب أم أخطأ، فإن صاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجى أن يكون قد أصاب

[**فإن نزلت به إحدى**] القضايا [**المبهمات**] والمسائل المشكلات، وسمّي المشكل مبهماً لأنّه أُبهم عن البيان، كأنّه أصمت كالبهيمة فلم يجعل عليه دليل ولا إليه سبيل.

[**هيّأ لها حشواً**] وهو الكلام الكثير الّذي لافائدة فيه [**رثّاً**] أي: ضعيفاً، والرث: الخلق ضدّ الجديد، أي: هيّأ لتلك القضيّة المشكلة ما لايحلّها ولايرفع إشكالها.

[**ثمّ قطع به**] عن جهل مركّب [**فهو من لبس**] بالضمّ مصدر لبس [**الشبهات**] واشتباه المعضلات [**في مثل نسج العنكبوت**] وانّه لأوهن البيوت، وهو تمثيل للأُمور الواهية، ووجه الشبه أنّ الشبهات الّتي تقع على ذهن مثل هذا الموصوف إذا قصد حلّ قضيّة مبهمة يكثر فيلبّس على ذهنه وجه الحقّ منها، فلا يهتدي له لضعف ذهنه، فتلك الشبهات في الوها تشبه نسج العنكبوت وذهنه فيها يشبه الذباب الواقع، فكما لايتمكّن الذباب من خلاص نفسه من شباك العنكبوت لضعفه كذلك ذهن هذا الرجل لضعفه ونقصان عقله.

[**لايدري أصاب**] فيما حكم به [**أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجى أن يكون قد أصاب**] وهذا من لوازم الحكم مع عدم العلم وتوابع الإعتماد على الرأي والإفتاء مع الجهل.

جاهل خباط جهالات عاش ركاب عشوات لم يعضّ على العلم بضرس قاطع

[**جاهل خباط جهالات**] أي: كثير الخبط، وهو المشي على غير استواء، ومنه: خبط عشواء وهي الناقة الّتي في بصرها ضعف تخبط بيدها على كلّ شيء، والإضافة بمعنى في، وكنّى بذلك عن كثرة أغلاطه الّتي يقع فيها في الفتوى والأحكام، فيمشي فيها على غير طريق الحقّ من القواعد الشرعيّة والقوانين المرعيّة.

وفي نسخة: جهلات جمع جهلة، فعل من الجهل.

[**عاش**] خابط في ظلام [**ركاب عشوات**] جمع عشوة، مصدر عشوت ضوء النار إذا تبيّنته على ضعف، إشارة إلى أنّه لايستلمح نور الحقّ في ظلمات الشبهات إلّا على ضعف لنقصان ضوء بصيرته، فهو يمشي فيها على مايتخيّله دون مايتحقّقه، ووجه الشبه أنّ شأن الماشي إلى الضوء في الطرق المظلمة تارة يلوح له فيمشي عليه، وتارة يخفى عنه فيضلّ عن القصد ويمشي على الوهم والخيال، فكذا حال السالك في طرق الدين قبل استكمال نور بصيرته، فإنّه تارة يدرك نور الحقّ لظهوره، وتارة يغلب عليه ظلمات الشبهات فيبقى في الظلمة خابطاً.

[**لم يعضّ على العلم بضرس قاطع**] كناية عن عدم نفاذ بصره بصيرته، وعدم إتقانه للقوانين الشرعيّة لينتفع بها انتفاعاً تامّاً، يقال: فلان لم يعضّ على الأمور بضرس قاطع، إذا لم يحكمها، وأصله أنّ الإنسان يمضغ الطعام الّذي هو غذاء البدن، ثمّ لايجيد مضغه لينتفع به البدن انتفاعاً تامّاً، فمثل به من لم يحكم ولم يتقن مايدخل فيه من المعقولات الّتي هي غذاء الروح.

يذري الروايات إذراء الريح الهشيم لامليّ واللّه بإصدار ماورد عليه ولا هو أهل لما منه فرط لايحسب العلم في شيء ممّا

[**يذري الروايات إذراء الريح الهشيم**] ذراه وأذراه ذرواً واذراء إذا طيّره وقلّبه من حال إلى حال، والهشيم النبت اليابس المنكسر، وفيه تشبيه تمثيلي، ووجه الشبه صدور فعل بلاروية وبغير نفع وفائدة، فكذا هذا الرجل المتصفّح للروايات بلابصيرة ولاروية، في تصفّحها ولاشعور بوجه العمل بها يمرّ على رواية بعد أُخرى ويمشي عليها من غير فائدة وانتفاع، كما أنّ الريح الّتي تذري الهشيم لاشعور لها بفعلها ولايعود إليها من ذلك الفعل نفع ولا فائدة.

[**لامليّ واللّه بإصدار ماورد عليه**] في النهاية: المليء بالهمزة الثقة الغني، قال: وقد أولع الناس بترك الهمزة وتشديد الياء، ومنه حديث عليّ لامليّ واللّه بإصدار ماورد عليه، والإصدار الإرجاع، وضمير ورد للموصول وعليه للرجل، ويحتمل العكس، والمراد أنّه فقير ليس له قوّة علميّة، وقدرة روحانيّة على إرجاع ماورد عليه من المسائل المشكلة والشبهات المعضلة بإيراد الأجوبة الشافية عنها. وزاد في الكافي:

[**ولا هو أهل لما منه فرط**] من إدّعائه علم الحقّ، أي: ليس هو أهل لما ادّعاه من علم الحقّ الّذي من أجله سبق الناس وتقدّم عليهم بالرئاسة والحكومة، أو المعنى ليس هو من أهل العلم بالحقيقة، كما يدّعيه لما فرط منه وقصر.

[**لايحسب**] بكسر السين من الحسبان، أي: يظنّ [**العلم في شيء ممّا**

أنكر ولايرى أنّ من وراء مابلغ منه مذهباً لغيره وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه

أنكر] أي: يعتقد أنّ ماحصل له من العلم المغشوش المدلّس بالشبهات الّذي يكون الجهل خيراً منه بمراتب هو العلم ولايظنّ لغاية جهله وجود العلم لأحد في شيء ممّا جهله لاعتقاده أنّه أعلم العلماء وأنّ ماجهله قد جهله غيره بطريق أولى، وذلك مبلغه، وأمّا بضمّ السين من الحساب، أي: لايعدّ العلم في شيء ممّا جهله شيئاً، ولايدخله تحت الحساب والإعتبار.

[**ولايرى أنّ من وراء مابلغ منه مذهباً**] يعني أنّه إذا ظنّ حكماً في قضيّة برأيه أو بخبر مغشوش بلغه جزم به، وربّما كان فيها [**لغيره**] قول أصحّ وأظهر من قوله يعضده دليل صحيح ونصّ صريح، فلا يعتبره لكمال جهله، ويمضي على مابلغ فهمه إليه لبلادة طبعه وعدم فرقه بين الصحيح والسقيم، أو لحفظ مرتبته من النقص بالرجوع عن مذهبه الباطل إلى ذلك المذهب الصحيح والحقّ الصريح.

[**وإن أظلم**] على البناء للفاعل [**عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه**] وزاد في الكافي: لكي لايقال له لايعلم يقال: أظلم اللّيل عليه أي: صار مظلماً.

وقوله لما يعلم علّة للإكتتام، ومن بيان لما وكي لا يقال علّة لغلبة العلم بالجهل للإكتتام، يعني إن صار عليه أمر من أُمور الدين مظلماً مشتبهاً لايدري وجه الحقّ فيه ولاوجه الشبهة أيضاً اكتتم به وستره عن غيره من أهل العلم وسبب الإكتتام أنّه عالم بأنّه جاهل بذلك الأمر من كلّ وجه حتّى من

تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعجّ منه المواريث إلى اللّه أشكو من معشر يعيشون جهّالاً ويموتون ضلاّلاً

وجه الشبهة، فيستتر ويخفيه ويعرض عن استماعه ويسكت عنه، لئلاّ يقال إنّه لايعلمه، فيحفظ بذلك علوّ منزلته بين الناس، ولذلك الوجه لايسئل أهل العلم حتّى يستفيد منهم.

[**تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعجّ منه المواريث**] إمّا على سبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: أهل الدماء وأولياء المواريث، فيكون حقيقة، أو على سبيل إستعارة لفظ الصراخ والعجّ لنطق الدماء والمواريث بلسان حالها المفصح عن مقالها. ووجه الإستعارة إنّ الصراخ والعجيج لما كانا إنّما يصدران عن تظلّم وشكاية وكانت الدماء المهراقة بغير حقّ والمواريث المستباحة بالأحكام الباطلة ناطقة بلسان حالها مفصحة بالشكاية والتظلّم لاجرم حسن استعارة اللّفظين هنا.

ثمّ بعد أن خصّ الرجلين بما ذكر فيهما من الأوصاف المنفرة على سبيل التفصيل أردف ذلك بالتنفّر عنهما على سبيل الجملة بما يعمّهما وغيرهما من الجهّال من التشكّي والبراءة فقال:

[**إلى اللّه أشكو**] كما في بعض النسخ، أو أبرء [**من معشر يعيشون جهّالاً**] يستمرّون على الجهل والعيش فيه وكنّى بالعيش عن الحياة وقابله بذكر الموت فقال:

[**ويموتون ضلاّلاً**] وصف لازم من الوصف الأوّل، فإنّ من عاش جاهلاً مات ضالاً.

ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر

[**ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حقّ تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه**] أي: إذا فسّر الكتاب وحمل على الوجه الّذي أُنزل، اعتقدوه فاسداً وأطرحوه بجهلهم عن درجة الإعتبار على ذلك الوجه، وإذا حرّف عن مقاصده ومواضعه ونزل على حسب أغراضهم ومقاصدهم شروه على ذلك الوجه بأغلا ثمن، وكان من أنفق السلع بينهم، واستعار له لفظ السلعة، ووجه المشابهة ظاهر، ومنشأ جميع ذلك الجهل.

[**ولا عندهم أنكر من المعروف**] لمخالفته أغراضهم ومقاصدهم، ولذا أطرحوه حتّى صار بينهم منكراً يستقبحون فعله.

[**ولا أعرف من المنكر**] لموافقة أغراضهم ومحبّتهم له.

وقال ابن أبي الحديد: الرجل الأوّل هو الضالّ في أُصول العقائد كالمشبّه والمجبّر ونحوهما، ألا تراه كيف قال مشغوف بكلام بدعة ودعاء ضلالة فتنة لمن افتتن به الخ.

والثاني: فقهاء السوء، ألا تراه كيف يقول جلس بين الناس قاضياً وقال تصرخ من جور قضائه الدماء وتعجّ منه المواريث.

ترد على أحدهم القضيّة في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ ترد تلك القضيّة بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قول، ثمّ تجتمع القضاة بذلك عند الإمام الّذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً وإلههم واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد إذ أمرهم اللّه بالاختلاف فأطاعوه أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل اللّه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء للّه فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ اختلاف العلماء في الفتيا

[**ترد على أحدهم القضيّة في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ ترد تلك القضيّة بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قول، ثمّ تجتمع القضاة بذلك**] الحال والاختلاف [**عند الإمام الّذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً وإلههم**] أي: والحال أنّ الههم [**واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد**] وهذه صغرى قياس مضمر تقدير، كبراه وكلّ قوم كانوا كذلك فلايجوز أن يختلفوا في حكم شرعيّ، وتكون آراءهم المختلفة صائبة.

ثمّ أشار عليه السلام إلى حجّة في تقرير المقدّمة الكبرى، إذ الصغرى مسلّمة، فقال:

[**إذ أمرهم اللّه**] سبحانه [**بالاختلاف فأطاعوه أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل اللّه**] سبحانه [**ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء للّه فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى**] إذ شأن الشريك ذلك.

أم أنزل اللّه ديناً تامّاً فقصّر الرسول ﷺ عن تبليغه وأدائه واللّه تعالى سبحانه يقول: ﴿مافرّطنا في الكتاب من شيء وفيه تبيان كلّ شيء وذكر إنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنّه لااختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق

[**أم أنزل اللّه ديناً تامّاً فقصّر الرسول ﷺ عن تبليغه وأدائه واللّه تعالى سبحانه يقول: ﴿مافرّطنا في الكتاب من شيء وفيه تبيان كلّ شيء**] وذلك ينادي بأنّ الكتاب يعني بجميع المطالب الدينيّة والأحكام الشرعيّة والمعارف الحقّانيّة وجميع مايحتاج إليها في أُمور معادهم ومعاشهم إذا تدبّروا معناه ولاحظوا أسراره فيحرم عليهم قولاً لايستند إليه، وحكم لايرجع إليه، وحيث إنّ عقول الخلق قاصرة وأفهامهم حاسرة عن تدبّر جميع معانيه وتعقّل ظاهره وخافيه فلابدّ من قم يحيط بجميع أسراره، ويصل إلى اغواره يجب الرجوع في ذلك إليه والتعويل عليه، كما تظافرت بذلك الآيات وتواترت الروايات. قال تعالى: ﴿ومايعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم﴾ وقال تعالى: ﴿بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين أُوتوا العلم﴾ وقال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾.

[**وذكر**] تعالى [**إنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنّه لااختلاف فيه**] ولاتناقض في معانيه [**فقال سبحانه: ﴿ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وإنّ القرآن ظاهره أنيق**] أي: حسن معجب بأنواع البيان [**وباطنه عميق**] لايصل إلى غوره إلاّ أُمناء الرحمان وحجج اللّه على الإنس والجانّ.

لاتفنى عجائبه ولاينقضي غرائبه ولا تنكشف الظلمات إلّا به

[لاتفنى عجائبه] الأُمور المعجبة منه **[ولاينقضي غرائبه]** أي: الأُمور الغريبة المستنبطة منه.

[ولا تنكشف الظلمات] ظلمة الضلال وظلمة الجهل وظلمة الشبهات **[إلّا به]** ولاتنجلي إلّا بنوره، فأين تسرحون وأنّى تصرفون؟

قال المحقّق الوحيد ابن أبي الحديد: لاينبغي أن يحمل جميع مافي الكتاب العزيز على ظاهره، فكم من ظاهر فيه غيرمراد، بل المراد به أمر آخر باطن، والمراد الردّ على أهل الإجتهاد في الأحكام الشرعيّة وإفساد قول من قال كلّ مجتهد مصيب، وتلخيص الإحتجاج من خمسة أوجه:

أحدها: أنّه لمّا كان الإله سبحانه واحداً والرسول واحداً والكتاب واحداً وجب أن يكون الحكم في الواقعة واحداً، كالملك الّذي يرسل إلى رعيّته رسولاً بكتاب يأمرهم فيه بأوامر يقتضيها ملكه وإمرته، فإنّه لايجوز أن تتناقض أوامره ولو تناقضت لنسب إلى السفه والجهل.

وثانيها: لايخلو الإختلاف الّذي ذهب إليه المجتهدون إمّا أن يكون مأموراً به أو منهيّاً عنه، والأوّل باطل، لأنّه ليس في الكتاب والسنّة مايمكن الخصم أن يتعلّق به في كون الإختلاف مأموراً به، والثاني: حقّ، ويلزم منه تحريم الإختلاف.

وثالثها: إمّا أن يكون الإسلام ناقصاً أو تامّاً، فإن كان الأوّل كان اللّه قد استعان بالمكلّفين على إتمام شريعة ناقصة أرسل بها رسوله إمّا استعان

. . . .

على سبيل النيابة، أو على سبيل المشاركة، وكلاهما كفر. وإن كان الثاني فإمّا أن يكون اللّه تعالى أنزل الشرع تاماً فقصّر الرسول عن تبليغه، أو يكون الرسول قد بلّغه على تمامه وكماله، فإن كان الأوّل فهو كفر أيضاً، وإن كان الثاني فقد بطل الإجتهاد، لأنّ الإجتهاد إنّما يكون فيما لم يتبيّن، فأمّا ما قد تبيّن فلامجال للإجتهاد فيه.

ورابعها: الإستدلال بقوله تعالى: ﴿مافرّطنا في الكتاب من شيء﴾ وقوله: ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾ وقوله سبحانه: ﴿ولارطب ولايابس إلاّ في كتاب مبين﴾ فهذه الآيات دالّة على اشتمال الكتاب العزيز على جميع الأحكام، فكلّما ليس في الكتاب وجب أن لايكون في الشرع.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غيراللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ فجعل الإختلاف دليلاً على أنّه ليس من عند اللّه، لكنّه من عند اللّه سبحانه بالأدلّة القاطعة الدالّة على صحّة النبوّة، فوجب أن لايكون فيه اختلاف.

واعلم إنّ هذه الوجوه هي الّتي يتعلّق بها الإماميّة ونفاة القياس والإجتهاد في الشرعيّات، وقد تكلّم عليها أصحابنا إلى آخر ما قال.

وفي نسخة خاطب به الأشعث بن قيس، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث، فخفق عليه السلام إليه بصره ومايدريك ما عليّ ممّا لي عليك لعنة اللّه ولعنة اللاعنين

ومن كلام له عليه السلام
قاله للأشعث

[**وفي نسخة خاطب به الأشعث بن قيس، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث**] وهو أنّه عليه السلام كان يذكر في خطبته أمر الحكمين، فقال له رجل من أصحابه: نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها، فمالندري أيّ الأمرين أرشد، فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذا جزاء من ترك العقدة، أي جزاءكم إذ تركتم الرأي والحزم وأصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم، فظنّ الأشعث أنّه أرا هذا جزائي حيث تركت الحزم وحكمت، فقال: ياأميرالمؤمنين هذه عليك لا لك حيث تركت وجه المصلحة وابتعت الآراء الباطلة.

[**فخفق عليه السلام إليه بصره**] ثمّ قال: [**ومايدريك ما عليّ ممّا لي**] إذ ليس لمن لايعلم حجة على من يعلم وهو عليه السلام باب مدينة العلم وسيّد العارفين وأعلم الأوّلين والآخرين بعد سيّد المرسلين.

[**عليك لعنة اللّه ولعنة اللاعنين**] لكونه مضافاً إلى اعتراضه وردّه على اللّه ورسوله من المنافقين الداخلين في ضمن قوله تعالى: ﴿أُولئك جزاؤهم

حائك ابن حائك، منافق ابن كافر

أنّ عليهم لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين﴾ **[حائك ابن حائك]** إمّا على ظاهره لما روي أنّه كان و وأبوه ينسجان برود اليمن، أو مجازاً، لأنّه كان إذا مشى يحرّك منكبيه ويفجج بين رجليه، وهذه المشية تعرف بالحياكة، أو استعارة أُشير بها إلى نقصان عقله، وقلّة استعداده، فليس له أهليّة الإعتراض عليه، لأنّ ذن الحائك تمام وقته متوجّه إلى أوضاع الخيوط المتفرّقة وترتيبها، ونظامها محتاج إلى حركة رجليه ويديه ونحو ذلك، ممّا يشغله عمّا سواه، فهو أبله فيماعدا شغله، مضافاً إلى أنّ مخالطته غالباً ومعاملته مع ضعفاء العقول من النساء والصبيان، والطبع يسترق، وذلك هو السبب في نقصان عقل معلّم الأطفال.

وعن الصادق عليه السلام قال: عقل أربعين معلّماً عقل حائك، وعقل حائك عقل امرأة، والمرأة لاعقل لها.

وعن الكاظم عليه السلام قال: لاتستشيروا المعلّمين ولا الحوكة، فإنّ اللّه تعالى قد سلبهم عقولهم. ثمّ زاد عليه السلام في ذمّه بقوله:

[منافق بن كافر] قال ابن أبي الحديد: وكان الأشعث من المنافقين في خلافة عليّ عليه السلام وهو في أصحاب أميرالمؤمنين، كما كان عبداللّه بن أبي سلول في أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله كلّ واحد منهما رأس النفاق في زمانه، وكان أشعث الرأس فغلب عليه ذلك حتّى نسي اسمه، وتزوّج النبيّ صلى الله عليه وآله أُخته قتيلة، فتوفّى قبل أن تصل إليه، ثمّ أكّد عليه السلام نقصان عقله وقلّة فطنته بوقوعه في الأسر مرّتين فقال:

والله لقد أسّرك الكفر مرّة والإسلام أُخرى فما فداك في واحدة منهما مالك ولا حسبك

[**والله لقد أسّرك الكفر مرّة والإسلام أُخرى فما فداك**] أي لم ينجك من الوقوع [**في واحدة منهما مالك ولا حسبك**] ولم يرد الفداء بعد الأسر، لأنّه فدى نفسه في الجاهليّة، وذلك لأنّ مراداً لما قتلت أباه خرج ثائراً طالباً بدمه، فأسر ففدى نفسه بثلاثة آلاف بعير، ووفد على النبيﷺ في سبعين رجلاً من كندة، فأسلم على يديه، وهذا هو المشار إليه بقولهﷺ: أسّرك الكفر.

وأمّا أسره في الإسلام فذكر ما ملخّصه: انّه لمّا قُبض رسول اللهﷺ ارتدّ بحضرموت، ومنع أهلها تسليم الصدقة، وأبى أن يبايع لأبي بكر، فبعث إليه بزياد بن لبيد بعد رجوعه عنهم، وقد كان عاملاً قبل ذلك على حضرموت، ثمّ أردفه بعكرمة بن أبي جهل في جمع عظيم من المسلمين، فقاتلهم الأشعث بقبائل كندة قتالاً شديداً في وقائع كثيرة، وكانت الدائرة عليه، فالتجأ بقومه إلى حصنهم، فحصره زياد حصراً شديداً، وبلغ بهم جهد العطش، فبعث الأشعث إلى زياد يطلب منه الأمان لأهله ولبعض قومه، ومن غفلته أنّه لم يطلب لنفسه الأمان، فلمّا نزل أسّره وبعث به مقيّداً إلى أبي بكر بالمدينة، فسأل أبابكر أن يستبقيه لحربه ويزوّجه أُخته أُمّ فروة، ففعل وكانت عمياء، فولدت له محمّداً وإسماعيل وإسحاق، وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة، فما مرّ بذات أربع إلّا عقرها وقال للناس: هذه وليمة البناء، وثمن كلّ عقرة في مالي فدفع أثمانها إلى أربابها، فكان المسلمون والكافرون يلعنونه وسبايا قومه وسماء نساء قومه عرف النار، وهو اسم للغادر عندهم.

وإن امرء دلّ على قومه السيف وقاد لهم الحتف، لحريّ أن يمقته الأقرب، ولايأمنه الأبعد فإنّكم لو عاينتم ماقد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم

[**وإن امرء دلّ على قومه السيف وقاد لهم الحتف، لحريّ أن يمقته الأقرب، ولايأمنه الأبعد**] إشارة إلى ماذكره الشرّاح من غدره بقومه، لأنّه لمّا طلب الأمان من زياد لنفر يسير من وجوه قومه فظنّ الباقون أنّه أخذ الأمان لجميعهم، فسكنوا ونزلوا من الحصن، فلمّا خرجوا قتلوا صبراً، فذكروا زياد الأمان، فقال: إنّ الأشعث لم يطلب الأمان إلّا لعشرة من قومه.

فأمّا ما قال السيّد (رضي اللّه عنه) أنّه أُسر في الكفر مرّة وفي الإسلام أخرى.

وأمّا قوله عليه السلام: دلّ على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالدبن الوليد باليمامة غرّ فيه قومه ومكر بهم حتّى أوقع بهم خالد، وكان قومه بعد ذلك يسمّونه عرف النار، وهو إسم للغادر عندهم، فلم نقف عليه، ولعلّه اشتباه لفظيّ منشأه قتال خالد أهل الردّة باليمامة.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فإنّكم لو عاينتم ماقد عاين من مات منكم**] من أهوال الموت وسكراته وكربه وصدماته وأهوال منكر ونكير والسؤال والعذاب ونحو ذلك [**لجزعتم ووهلتم**] أي: فزعتم، يقال: وهل يوهل وهلاً: فزع.

وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ماعاينوا

[وسمعتم] الداعي إلى اللّه [وأطعتم] اللّه ورسوله وحججه بامتثال الأوامر الإلهيّة، واجتناب النواهي الشرعيّة، وقلتم ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل فتجابون بقوله تعالى: أولم نعمّركم مايتذكّر فيه من تذكّر رجاءكم النذير، فذوقوا فما للظالمين من نصير.

[ولكن محجوب عنكم ماعاينوا] فإنّ العالم الجسمانيّ لايدرك مافي العالم البرزخي والمثالي، ولا العالم الأُخرويّ، ولذا إنّ من صحب الميّت ولم يفارقه حتّى في قبره لايرى شيئاً والميّت معذّب أو مثاب قطعاً، بل إذا ختُم فم الميّت ثمّ بعد أيّام فتحت قبره وجدت الختم كما كان مع أنّه سُئل قطعاً، وذاك لاحتجاب مافي ذلك العالم عن أهل هذا العالم لحكم ربّانيّة وأسرار خفيّة، ونظير ذلك أنّك تصاحب النائم وهو يرى في منامه أهوالاً عظيمة، وآلاماً جسيمة، ويستغيث فلايغاث، وينادي فلايجاب، ويتألّم كمال التألّم بمايراه، وأنت بجنبه لاترى من ذلك شيئاً، لأنّ الإنسان مادام ملتحفاً بجلباب هذا البدن الظلماني، فهو محجوب بظلمة هيئاته ومعارضات أوهامه وخيالاته عن مشاهدة عالم الغيب، وذلك الحجاب أمر قابل للزيادة والنقصان، والناس فيه على مراتب، ولو رفع اللّه عنهم هذا الجلباب وطرح عن أعين بصائرهم ذلك الحجاب لشاهدوا من أهوال الآخرة وأحوالها ماشاهد أُولئك كما اتّفق لجملة من عباد اللّه الصالحين، وخواصّه العارفن، وأولياءه المتّقين، ومنهم حارث بن النعمان.

وقريب مايطرح الحجاب ولقد بُصِّرتم إن أبصرتم وأُسمعتُم إن سمعتم وبحقّ أقول لكم: لقد جاهرتْكُم العِبَر

[**وقريب مايطرح**] ما مصدريّة في محلّ الرفع بالإبتداء، وقريب خبره، أي: طرح [**الحجاب**] قريب، وهو في صورة التهديد، والمراد بذلك الموت الرافع لحجب الأبدان عن رديّة تلك الأُمور بالعيان، كما قال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة عن هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ وإنّما كان قريباً لأنّه آت لامحالة، وكلّ آت قريب، وهو هادم اللذّات، الّذي لامفرّ منه، ومفرق الجماعات الّذي لامحيص عنه ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ ﴿قل إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾.

ثمّ أشار عليه السلام إلى طرق الهداية وإلى مايشبه الجواب عن العذر السابق لحالهم، وهو وجود الحجاب المانع عن مشاهدة مايوجب الجزع والفزع، بقوله:

[**ولقد بُصِّرتم**] بالعِبَر والأمثال وتقلّب الأحوال [**إن أبصرتم**] إذ وجود البصر بلا إبصار غير نافع، كما قال: ﴿لهم أعين لايُبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها﴾.

[**وأُسمعتُم**] المواعظ الإلهيّة والحكم الربانيّة، وماجرى على القرون الماضية والأُمم الخالية [**إن سمعتم**] حسبما مرّ، وخصّ البصر والسمع بالذكر لأنّهما الآلتان اللّتان عليهما مدار العبرة والإعتبار، وبهما يتوصّل إلى البصيرة والإستبصار، ثمّ أردف ذلك ببيان مابصّروا به وأُسمعوا، فقال:

[**وبحقّ أقول لكم: لقد جاهرتْكُم العِبَر**] بما نزل بالأُمم السالفين

وزجرتم بما فيه مزدجر وما يبلّغ عن اللّه بعد رُسُل السماء إلاّ البشر فإنّ الغاية أمامكم وإنّ وراءكم الساعة

والقرون الماضين [**وزجرتم بما فيه مزدجر**] بالوعيدات العظيمة، والتهويلات الجسيمة، والمصائب والآلام، وتقلّب الأحوال والأيّام، ولولم يكن إلاّ الموت لكفى، كيف ومابعد الموت أعظم وأدهى، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدَجَر حكمة بالغة فما تُغني النُذُر﴾.

وقوله: [**وما يبلّغ عن اللّه بعد رُسُل السماء إلاّ البشر**] إشارة إلى أنّه ليس في الإمكان طريق وراء ماجذبتم به إلى اللّه على ألسنة رسله من الوعد والوعيد، والأمثال والتذكير بالعبَر وتقلّب الأحوال بعد رُسُل السماء وهم الملائكة، إلاّ على ألسنة الرُسُل البشريّة، ولايمكن أن يبلّغكم رسالات ربّكم بعد الملائكة إلاّ هم، وقد بلغوا وأكّدوا، فينبغي أن يكون ذلك لكم كافياً، ولأمراضكم شافياً، فلا عذر لكم في التخلّف عن دعوتهم، وترك سلوك طرق هدايتهم.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فإنّ الغاية**] من الجنّة والنار، والثواب والعقاب، وسائر أحوال الآخرة [**أمامكم**] إليها تسيرون، وفيها تصيرون، ويحتمل أن يُراد بالغاية الموت، لأنّ الإنسان كالسائر إليه.

[**وإنّ وراءكم الساعة**] أي: القيامة، كما قال: ﴿ويسألونك عن

تحدوكم تخفّفوا تلحقوا فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم

الساعة﴾ وقال: ﴿اقتربت الساعة﴾ وجعلت وراء لأنّها تسوق الناس إلى موقف الجزاء، كما يسوق الراعي الإبل، فكانت كالشيء يخفر الإنسان من خلفه، ويحرّكه من وراءً إلى جهة مابين يديه.

ويحتمل إرادة القيامة الصغرى، وهي الموت، وكان وراء لأنّ الإنسان لّما كان بطبعه يفرّ من الموت وينفر منه وكانت العادة في الهارب من الشيء أن يكون وراءه مهروب عنه، وكان الموت متأخّراً عن وجود الإنسان ولاحقاً تأخّراً ولحوقاً عقليّاً أشبه المهروب عنه المتأخّر اللاحق هرباً وتأخّراً ولحوقاً حسّياً، فاستعير له لفظ الجهة المحسوسة، وهي وراء، وإنّما قال:

[تحدوكم] لأنّ الحادي شافه سوق الإبل بالحداء، وكان تذكّر الموت وسماع نواديه متعلّقاً مزعجاً للنفوس إلى الإستعداد لأمور الآخرة والأهبة للقاء اللّه، فو يحملها على قطع عقبات طريق الآخرة، كما يحمل الحادي الإبل على قطع الطرق البعيدة الوعرة، فأشبه الحادي وأسند إليه، ولّما نبّههم بكون الغاية أمامهم، والساعة تحدوهم على سفر لابدّ من سلوكه، نبّه على طريق النجاة فيه، فقال:

[تخفّفوا تلحقوا] أي: خفّفوا علائقكم في الدنيا بالزهد فيها والإعراض عن شهواتها ولذّاتها، بل عن كلّ شاغل عن اللّه وعائق عن رضاه، كي يلحقوا بدرجات السابقين، ومراتب المقرّبين، وهو جزاء، أو إن تخفّفوا تلحقوا.

[فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم] أي: انّما ينتظر ببعث الّذين ماتوا سابقاً

إنّ هذا الكلام لو وُزن بعد كلام اللّه سبحانه وكلام رسول اللّه ﷺ بكلّ كلام لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً. فأمّا قوله ﵇: «تخفّفوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً وماأبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة استعار لفظ النطفة، وهي الماء القليل الصافي لما فيها من الحكمة.

موت الباقين ولحوقهم بهم لاقتضاء حكمة اللّه ذلك، كأمير يريد إعطاء جنده إذا تكامل عرضهم إنّما يعطي الأوّل منهم إذا انتهى عرض الأخير، ووصف الإنتظار مستعان لكمال مطلوب اللّه سبحانه من الخلق بأسرهم، وهو وصولهم إلى ساحل عزّته.

قال السيّد (رض): أقول:

إنّ هذا الكلام لو وُزن بعد كلام اللّه سبحانه وكلام رسول اللّه ﷺ بكلّ كلام لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً.

فأمّا قوله ﵇: «تخفّفوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً وماأبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة استعار لفظ النطفة، وهي الماء القليل الصافي لما فيها من الحكمة.

ومن خطبة له ﵇

وأكثرها ملخّص من خطبته الّتي خطبها لمّا بلغه أنّ طلحة والزبير خلعا بيعته، وأوّلها بعد حمد اللّه والثناء عليه والصلاة على نبيّه ﷺ: «أيّها الناس

ألا وإنّ الشيطان قد ذمّر حزبه واستجلب جلبه ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه والله ما أنكروا عليَّ منكراً ولاجعلوا بيني وبينهم نَصَفاً

إنّ اللّه افترض الجهاد فعظّمه، وجعله نصرته وناصره، واللّه ماصلحت دنياً ولا دين إلاّ به».

[**ألا وإنّ الشيطان قد ذمّر**] بالذال المعجمة مخففاً ومشدّداً، والتشديد دليل التكثير، أي: حضّ وحثّ [**حزبه**] أتباعه وأشياعه ودعاهم فأجابوه، وناداهم فأطاعوه.

[**واستجلب جلبه**] بفتح اللام مايجلب، كما يقال: جمع جمعه، والجلب: الجماعة من الناس وغيرهم تجمع وتؤلّف.

وفي نسخة: خيله وهو واضح.

[**ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابه**] كما كان عليه حين البعث، ممّا أُشير إليه سابقاً.

وفي نسخة: إلى مظانّه، أي: محالّه.

وفي أُخرى: إلى قطابه، قطاب الجيب: مدخل الرأس فيه، أي: ليعود الجور إلى لباسه وثوبه.

[**واللّه ما أنكروا عليَّ منكراً**] من قتل عثمان، أو السكوت عن النكير على قاتليه، إذ هو عليه السلام بريء منه مع أنّه غير منكر، وقد أجمع عليه الصحابة والتابعون أكثر من الّذين أجمعوا على خلافة أبي‌بكر، فإن كان إجماعهم هناك حجّة فليكن هنا.

[**ولاجعلوا بيني وبينهم نَصَفاً**] بالتحريك، وهو الّذي ينصف، إشارة

وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه فلئن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه، ولئن كانوا ولّوه دوني، فما التبعة إلاّ عندهم وإنّ أعظم حجّة لعلى أنفسهم يرتضعون، أُمّاً قد فطمت

إلى أنّهم لو وصفوا العدل بينهم وبينه لظهر لهم بطلان دعواهم.

[**وإنّهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه**] إشارة إلى طلبهم لدم عثمان مع كونهم أعظم شركاء فيه، وطلحة كان من أعظم المحرضين على قتله، والساعين فيه، وكذا الزبير وعائشة، وروي أنّ الزبير لمّا برز لعليّ عليه السلام يوم الجمل قال له: ماحملك على ماصنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، فقال: أنت وطلحة ولّيتماه وإنّما توبتك من ذلك أن تقدّم نفسك وتسلّمها إلى ورثته.

[**فلئن كنت شريكهم فيه**] فرضاً ولذاتي بان دون إذاً [**فإنّ لهم لنصيبهم منه، ولئن كانوا ولّوه دوني، فما التبعة إلاّ عندهم**] قبل تقرير الحجّة أنّهم خلوا في دم عثمان، وكلّ من دخل فيه فإمّا بالشركة أو الإستقلال، وعلي التقديرين فليس لهم أن يطلبوا بدمه.

وأشار إلى القسم الأوّل بقوله: فإن كنتَ الخ، أي: على تقدير كونهم شركاء لي في ذلك، فعليهم أن يبدأوا بتسليم أنفسهم إلى أوليائه، وأشار إلى الثاني بقوله: وإن كانوا ولّوه دوني فما الطلبة إلاّ قتلهم.

[**وإنّ أعظم حجّة لعلى أنفسهم**] كما عرفت [**يرتضعون، أُمّاً قد فطمت**] استعار لفظ الأمّ لنفسه، أو للخلافة، فبيت المال لبنها، والمسلمون أولادها المرتضعون، وكنّى بارتضاعهم لها، وقد فطمت التماسهم منه عليه السلام

ويحيون بدعة قد أُميتت وإلىٰ مَ أُجيب وإنّي لراض بحجّة اللّه عليهم وعلمه فيهم فإن أبوا أعطيتهم حدّ السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحقّ، ومن العَجَب بعثهم إليّ

من الصلات والتفضيلات، مثل ما كان يصلهم عثمان ويفضّل بعضهم على بعض، والفطام منعه لهم من ذلك.

[**ويحيون بدعة قد أُميتت**] إشارة إلى ذلك التفضيل، فإنّه بخلافه سنّة رسول اللّه ﷺ الّذي قال اللّه: ﴿ولكم في رسول اللّه أُسوة حسنة﴾ بل بخلاف سيرة الشيخين، ياخيبة الداعي من دعى، قيل: هو كالنداء في قوله تعالى: ﴿ياحسرة على العباد ياحسرتنا على مافرّطنا﴾ أي: ياخيبتي احفري، فهذا أوانك، وقيل: خرج مخرج التعجّب من عظم خيبة الدعاة إلى قتاله، ومن دعى.

[**وإلىٰ مَ أُجيب**] استفهام على سبيل الإستحقار للمدعوين لقتاله والناصرين إذا كانوا أعوام الناس ورعاعهم وللمدعو إليه وهو الباطل الّذي دعوا لنصرته.

[**وإنّي لراض بحجّة اللّه عليهم**] فللّه الحجّة البالغة، وقد احتجّ عليهم بما مرّ ونحوه.

[**وعلمه فيهم**] فإنّه يعلم بظلمهم لي، وكفاني ذلك، إذ كفى به ناصراً ووليّاً ومعيناً.

[**فإن أبوا**] عن قبول الحجّة والبرهان ودلائل البيان [**أعطيتهم حدّ السيف، وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحقّ، ومن العَجَب بعثهم إليّ**

أن أبرز للطعان، وأن أصبر للجلاد، هبلتهم الهبول لقد كنت وما أُهدّد بالحرب، ولا أُرهب بالضرب وإنّي لعلى يقين من ربّي، وفي غير شبهة من ديني

أن أبرز للطعان، وأن أصبر للجلاد] تعجبّ عليه السلام من تهديدهم له بذلك، مع علمهم بحاله في الشجاعة والحرب، والصبر على المكاره، وهو محلّ الإستهزاء والتعجّب منهم.

[**هبلتهم الهبول**] أي: ثكلتهم الثواكل، وهي من الكلمات الّتي تدعوا بها العرب.

[**لقد كنت وما أُهدّد بالحرب، ولا أُرهب بالضرب**] أي: لم أزل منذ كنت عل هذه الحال فما هذا التهديد.

[**وإنّي لعلى يقين من ربّي، وفي غير شبهة من ديني**] تأكيد لقوّته على الحرب، وإقدامه على الجلاد، وجذب لقلوب السامعين إلى الثقة، بأنّهم على بيّنة من ربّهم، وبصيرة في متابعتهم إيّاه على القتال والحرب، فإنّ الموثق بأنّه على الحقّ ناصر للّه، ذابّ عن دين اللّه، وكلّما اشتدّ يقينه كان أشدّ صبراً، وأقوى جلداً، وأثبت في المكاره، ممّن لايكون كذلك.

أمّا بعد، فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس، فلا يكوننّ ذلك له فتنة

ومن خطبة له عليه السلام

قيل مدار هذا الفصل على تأديب الفقراء بترك الحسد ونحوه، وتأديب الأغنياء بالشفقة على الفقراء ومواساتهم، وتزهيد بجمع المال، وقدّم مقدّمة حاصلها الإشارة إلى أ كلّما يتجدّد من زيادة أو نقصان فيما يكون به صلاح الخلق في معاشهم ومعادهم من مال أو جاه أو أهل، فإنّه عن قسمة ربّانيّة، فقال عليه السلام:

[**أمّا بعد، فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان**] أي: القضاء والقدر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر، أي: مبثوث في جميع أقطار الأرض إلى كلّ نفس بما قسّم لها من زيادة أو نقصان في المال والعمر والجاه والولد.

[**فإذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة**] أي: زيادة [**في أهل أو مال أو نفس، فلا يكوننّ ذلك له فتنة**] يفتتن به ويفضي به إلى الحسد، وقيل: أراد بالأمر الّذي ينزل حكم القدرة الإلهيّة على الممكنات بالجود الإلهي، المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿إنّما أمرنا بشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون﴾ وبنزوله نسبة حصوله إلى كلّ نفس بما قسم لها، وهي النسبة المسمّاة بالقدر في قوله

فإنّ المرء المسلم ما لم يغش دناءة يظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس كالفالج الياسر الّذي ينتظر أوّل فورة من قداحه توجب له المغنم

تعالى: ﴿وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه، وما ننزّله إلاّ بقدر معلوم﴾ والمراد بالسماء سماء الجود الإلهي، وبالأرض عالم الكون والفساد، ويحتمل أن يراد ظاهرهما، لأنّ السماوات بحركاتها شرائط معدّة لما يحدث في الأرض، فكانت مبادي على بعض الوجوه، لنزول الأمر، فجاز نسبتة إليها، ووجه تشبيهه بقطر المطر: إنّ حصوله لكلّ نفس ممّا يختلف بالإصابة وعدمها، وبالزيادة والنقصان، كالقطر بالنسبة إلى البقاع، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس، وقوله: فإذا رأى الخ تأديب لمن حصل في حقّه النقصان من أحد الأمور المذكورة بالنهي عن الفتنة بحال من حصلت له الزيادة في أحدهما، والفتنة: الإبتلاء، أي: فلا يبتل نفسه بغبطة وحسد.

[**فإنّ المرء المسلم ما لم يغش**] أي: يرتكب، وما مصدريّة بمعنى المدّة.

[**دناءة**] أي: أمراً خسيساً [**يظهر**] عنه بين الناس [**فيخشع لها**] أي: يستحي منها [**إذا ذكرت**] بين الناس، ويخشع إذا قرع به.

[**ويغرى بها لئام الناس**] وعوامهم، في فعل مثله، أو في هتك ستره به [**كالفالج الياسر**] أي: اللاعب بالميسر، وهو لعب معروف، كانت العرب تلعب به.

[**الّذي ينتظر أوّل فورة من قداحه**] وهي الخشبات الّتي يلعب بها، ثمّ أشار إلى وجه فوزه أنّها [**توجب له المغنم**] والنفع في بعض السهام.

وترفع عنه بها المغرم وكذلك المسلم البريء من الخيانة ينتظر إحدى الحسنَيَيْن إمّا داعي اللّه فما عنداللّه خير له وإمّا رزق اللّه فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه حافظاً لهما، فيفوز الفوز العظيم. أنّ المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة

[**وترفع عنه بها المغرم**] والغرّ في بعض آخر، وبعضها توجب غنماً وغرماً، وبعضها لايوجب غنماً ولا غرماً.

[**وكذلك المسلم البريء من الخيانة**] الضابط لنفسه عن ارتكاب مناهي اللّه في صبره عنها حسبما مرّ وصفه.

[**ينتظر إحدى الحسنَيَيْن**] في الدنيا [**إمّا داعي اللّه**] أن يدعوه اللّه بالقبض إليه عن الشقاء في هذه الدار [**فما عنداللّه خير له**] فيفوز إذاً بالنعيم المقيم.

[**وإمّا رزق اللّه**] أن يفتح اللّه عليه أبواب رزقه فيصبح [**فإذا هو ذو أهل ومال**] قد جمع اللّه له بينهما [**ومعه دينه وحسبه**] **حافظاً لهما، فيفوز الفوز العظيم**.

ثمّ نبّه عليه السلام على تحقير الدنيا، ومافيها بقوله:

[**أنّ المال والبنين حرث الدنيا**] لأنّهما من أعظم أسبابها ومصالحها.

[**والعمل الصالح حرث الآخرة**] وحرث الدنيا حقير عند حرث الآخرة، فليطلب الأهمّ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً وخير أملاً﴾ وقال تعالى: ﴿ومامتاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل﴾.

وقد يجمعها اللّه لأقوام فاحذروا من اللّه ماحذركم من نفسه واخشوه خشية ليست بتعذير واعملوا في غير رياء ولاسمعة، فإنّه من يعمل لغيراللّه يكله اللّه إلى مَن عمل له نسأل اللّه منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء

[**وقد يجمعها اللّه لأقوام**] كسليمان ويوسف، فمن حاول ذلك فليلتجي إلى اللّه في الجمع بينهما، فإنّ اجتماعهما منه لا من غيره، فتوكّلوا عليه، حيث كان جمعهما غيرممكن إلاّ منه، ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾ ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[**فاحذروا من اللّه ماحذركم من نفسه**] بقوله: ﴿فاتّقون﴾، ﴿فارهبون﴾، ﴿ولاتخشوا الناس واخشون﴾.

[**واخشوه خشية**] صادقة [**ليست بتعذير**] وهو إظهار العذر من غير عذر، [**واعملوا**] للّه عملاً خالصاً [**في غير رياء ولاسمعة، فإنّه من يعمل لغيراللّه يكله اللّه إلى مَن عمل له**] ومن وُكِّل إلى غير اللّه فهو من الخاسرين الهالكين، اللّهم لاتكلني إلى نفسي، فأعجز عنها، ولا إلى الناس فيهينوني، ولا إلى قرابتي فيحرموني.

[**نسأل اللّه منازل الشهداء ومعايشة السعداء**] أي: العيش معهم [**ومرافقة الأنبياء**] وبدأ عليه السلام بطلب أسهل المراتب الثلاثة للإنسان، وختم بأعظمها، فإنّ من حكم له بالشهادة غايته أن يكون سعيداً، والسعيد غايته أن يكون في زمرة الأنبياء، رفيقاً لها، فانظر إلى هذا الترتيب العجيب، والطرز الغريب من الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، لأنّ المرتبة العالية لايمكن

أيّها الناس، إنّه لايستغني الرجل وإن كان ذامال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وبألسنتهم وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، والمهمّ لشعثه وأعطفهم عليه عند نازلة نزلت به

الوصول إليها دفعة قبل الوصول إلى ماسواها، كما لايمكن الصعود إلى السطح دون تناول السلّم.

ولمّا أشار عليه السلام إلى تأديب الفقراء عن التعرّض للأغنياء بما يوجب لهم ملكات السوء من الحسد ونحوه، أردف ذلك بتأديب الأغنياء بمعونة الفقراء لينتظم شمل الطرفين، ويصلح أمر الجانبين، فقال:

[**أيّها الناس، إنّه لايستغني الرجل وإن كان ذامال**] وثروة وخدم وحشم عن أعوان له وأصحاب ومعاضدين، ولذا ترى الملوك الّذين هم أكثر الناس ثروة أحوج الخلق إلى الأعوان، وقد روي من قال: اللّهمّ أغنني عن خلقك، فقيل: لا، فقل: كذا، فإنّ الخلق كالأصابع يحتاج بعضهم إلى بعض، بل قل: اللّهمّ أغنني عن شرار خلقك.

وبالجملة: فلا غناء لأحد عن الخلق سيّما [**عن عشيرته**] وأقاربه، فإنّهم أعظم الناس شفقة عليه في إصلاح أُموره.

[**ودفاعهم عنه بأيديهم**] صولة الصائلين [**وبألسنتهم**] مسبّة القائلين.

[**وهم أعظم الناس حيطة**] بكسر الحاء وسكون الياء [**من ورائه، والمهمّ لشعثه**] أي: أشدّهم جمعاً لما تفرق من أمره.

[**وأعطفهم عليه عند نازلة نزلت به**] من فقر وحاجة، لأنّ قربهم منه باعث لهذه الأمور الّتي هي دواعي الشفقة عليه.

ولسان الصدق يجعل اللّه للمرء في الناس خير له من المال يورثه ومنها: ألا لايعدلنّ أحدكم عن القرابة يرى أن يسدّها بالّذي لايزيده إن أمسكه، ولاينقصه إن أهلكه ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنّما يقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيدي كثيرة

[**ولسان الصدق**] وهو الذكر الجميل [**يجعل اللّه للمرء في الناس**] كما قال: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ [**خير له من المال يورثه**] غيره، وهذا أيضاً ترغيب في البدل بمايستلزمه من غاية الذكر الجميل.

[**ومنها: ألا**] العرض والتنبيه، إشارة إلى غفلتهم.

[**لايعدلنّ أحدكم عن القرابة**] وينحرف عنها [**يرى**] في موضع النصب على الحال [**أن يسدّها**] في موضع الجرّ بدلاً من القرابة [**بالّذي لايزيده إن أمسكه، ولاينقصه إن أهلكه**] أي: لايعدل عن سدّ خلّة أقاربه وأرحامه بالفضل من المال الّذي لايزيد إمساكه في إصلاح حاله، ولاينقص إتلافه من ذلك، فإنّ الفضل الزائد في حال الإنسان على القدر الّذي يدفع به حاجته، وكنّى بالسدّ الّذي هو حقيقة في منع جسم لجسم محسوس عن المنع المعقول، وهو منه الإختلال الواقع في حال الإنسان، كناية بالمستعار.

[**ومن يقبض يده**] بأن يمسك خيره [**عن عشيرته، فإنّما يقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيدي كثيرة**] ولاريب أنّ انتفاع الناس بالهدي الكثيرة أتمّ وأولى بصلاح حاله، وأكثر من النفع الحاصل له بقبض يده عن النفع بها، فيجب عليه أن يستجاب بمدّ يده بالنفع مدّ الأيدي الكثيرة إلى نفعه، وإلاّ كان سفيهاً مضيعاً مفوتاً على نفسه منافع عظيمة، بل يكون

ومن يلن حاشيته من قومه المودّة وما أحسن المعنى الّذي أراد بقوله: ومن يقبض يده عن عشيرته إلى تمام الكلمة، فإنّ الممسك يده عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم واضطرّ إلى مراقدتهم قعدوا عن نصرته، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة وتناهض الأقدام الجمّة.

قد ناقض غرضه ووقع في أعظم ممّا فرّ منه، كما لايخفى، فإنّه إنّما أمسك يده للنفع، وقد فاته أعظم النفع.

[**ومن يلن حاشيته**] وجانبه للناس بالتواضع لهم، يستدم [**من قومه**] الّذين تواضع لهم [**المودّة**] مودّتهم المستلزمة لنفعه وعدم مضرّتهم له، وصلاح حاله، وقد أدّب اللّه تعالى نبيّه بمثل ذلك، فقال: ﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾.

قال السيّد (رضي اللّه عنه):

[**وما أحسن المعنى الّذي أراد بقوله: ومن يقبض يده عن عشيرته إلى تمام الكلمة، فإنّ الممسك يده عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم واضطرّ إلى مراقدتهم قعدوا عن نصرته، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة وتناهض الأقدام الجمّة.**

ولعَمْري ما عليَّ من قتال من خالف الحقّ وخابط الغيّ من إدهان ولا ايهان فاتّقوا اللّهَ عبادَ اللّه وفرّوا إلى اللّه من اللّه

ومن خطبة له عليه السلام

[**ولعَمْري ما عليَّ من قتال من خالف الحقّ وخابط الغيّ**] والضلال، وأتى بخابط بلفظ المفاعلة، إشارة إلى أنّ كلاً منهما يخبط الآخر، والخبط هو المشي على غير استقامة [**من إدهان**] أي مصانعة ونفاق، قال تعالى: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنن﴾.

[**ولا ايهان**] مصدر أوهنته، أي: أضعفه، ويجوز وهنة بحذف الهمزة، والغرض من هذا الكلام ردّ قول القائلين وعدل العادلين انّ متابعته عليه السلام لمحاربيه ومخالفيه ومداهنتهم أولى من محاربتهم، فقال عليه السلام: لايجب عليّ مصانعتهم وليس فيها صلاح دنيويّ، ولاأُخرويّ، أمّا في الدنيا فليسوا بمضعفين لي، ولا أنا عاجز عنهم، وأمّا في الآخرة فلأنّ خبطهم في النفي توجب مقاتلتهم، فلا معنى للإنكار.

ثمّ أردف عليه السلام ذلك بأوامر فقال:

[**فاتّقوا اللّهَ عبادَ اللّه**] قال تعالى: ﴿واتّقوا اللّه حقّ تقاته ولاتموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾ وتقوى اللّه خشيته، المستلزمة للإعراض عن مناهيه المبعدة عنه.

[**وفرّوا إلى اللّه**] بالإقبال عليه، وتوجيه وجه النفس إليه [**من اللّه**]

. . . .

ففرّوا من عدله إلى عفوه، ومن غضبه إلى رحمته، قيل: والفرار إلى اللّه على مراتب:

أوّلها: الفرار من بعض آثاره إلى بعض، كالفرار من أثر غضبه إلى أثر رحمته، كما قال: ﴿ربّنا لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا وارحمنا﴾ كأنّهم لم يروا إلاّ اللّه رافعاً له، ففرّوا من بعضها إلى بعض.

الثانية: أن يفني العبد عن مشاهدة الأفعال، ويترقّي في درجات القرب والمعرفة إلى مصادر الأفعال، وهي الصفات، فيفرّ من بعضها إلى بعض، كما يستفاد من سخط اللّه بعفوه.

الثالثة: أن يترقّي عن مقام الصفات إلى مقام الذات، فيفرّ منها إليها، كقوله تعالى: ﴿لا ملجأ من اللّه إلاّ إليه﴾ وفي دعاء افتتاح تكبيرات الصلاة: منك وبك ولك وإليك، أي: منك بدوّ وجوده، وبك قيامه، ولك ملكه، وإليك رجوعه.

ثمّ أكّد ذلك بقوله: لا ملجأ ولا منجا ولا مفرّ منك إلاّ إليك، وقد جمع الرسولﷺ هذه المراتب حين أمر بالقرب في قوله: ﴿واسجد واقترب﴾ فقال في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك، والعفو كما يكون صفة للعاني، كذلك قد يراد به الأثر الحاصل عن صفة العفو، ثمّ لمّا قرب فغنى عن مشاهدة الأفعال وترقّى إلى مصادرها، وهي الصفات، وقال: أعوذ برضاك من سخطك، وهما صفتان.

ثمّ لمّا ترقّى عن مشاهدة الصفات إلى ملاحظة الذات قال: وأعوذ بك

وامضوا في الّذي أنهجه لكم وقوموا بما عصبه بكم

منك، وهذا فرار إليه منه مع قطع النظر عن الأفعال والصفات.

ثمّ لّما ازداد عليه السلام قرباً قال: لاأُحصي ثناء عليك، وهو حذف لنفسه عن درجة الإعتبار، واعتراف بالعجز عن الإحاطة بما له من صفات الجلال ونعوت الكمال، وكان قوله بعد ذلك: أنت كما أثنيت على نفسك كمالاً للإخلاص، وتجريداً للكمال المطلق، فقوله عليه السلام: ففرّوا إلى اللّه من اللّه أمر بالترقّي إلى المرتبة الثالثة من المراتب المذكورة، ثمّ قال عليه السلام:

[**وامضوا في الّذي أنهجه لكم**] وجعله نهجاً أي: طريقاً بيّناً، وأوضحه من النهج القويم، والصراط المستقيم التّي تظافرت بها الآيات، وتواترت بها الروايات.

[**وقوموا بما عصبه بكم**] أي: ناطه بكم من التكاليف الشرعيّة، والحدود المرعية، وجعله كالعصابة الّتي يشدّ بها الرأس، وحيث كان الغاية من سلوك سبيل اللّه بالعبادة انقياد الطبيعة للعقل وإطاعة النفس الأمّارة للنفس المطمئنّة، بحيث تكون مؤتمرة بأمرها منزجرة بزجرها، ذكر عليه السلام هذه الأوامر الثلاثة الّتي عليها مدار الرياضة والسلوك إلى اللّه، فالأمر بالتقوى مستلزم للزهد الحقيقي، وهو معيّن على حذف الموانع الداخليّة والخارجيّة، والأمر بسلوك سبيل اللّه معيّن على تطويع النفس الأمّارة، والأمر بالفرار إلى اللّه أمر بتوجيه السرّ إليه، وهذه الأغراض الثلاثة هي التي يتوجّه نحوها الرياضة المستلزمة لكمال الإستعداد المستلزمة للوصول إليه تعالى، ولذا قال عليه السلام:

فعليّ ضامن لفلحكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً

[فعليّ ضامن لفلحكم] أي: فوزكم وظفركم [آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً] أي: إذا قمتم بواجب ماأُمرتم به من هذه الأوامر، كان ذلك مستلزماً لفوزكم في دار القرار، بجنّات تجري من تحتها الأنهار، ولمثلها ﴿فليعمل العاملون﴾، وفيها ﴿فليتنافس المتنافسون﴾.

ومن خطبة له عليه السلام

وقد تواتر عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن، وهما عبيداللّه بن العبّاس، وسعيدبن نمران، لما غلب عليهما بسربن أرطاة، قيل: السبب في ذلك أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يعظّمون قتله، فبايعوا عليّاً عليه السلام، على دغل، فلمّا اختلف الناس عليه بالعراق، وكان العامل له يومئذ على صنعاء عبيداللّه بن العبّاس، وعلى الجند بها سعيدبن نمران، ثمّ قتل محمّدبن أبي بكر بمصر، وكثرت غارات أهل الشام، تكلّم هؤلاء ودعوا إلى الطلب بدم عثمان، فأنكر عليهم ابن عبّاس، فتظاهروا بمنابذة عليّ عليه السلام لجنسهم، فكتبوا إلى أصحابهم بالجند، فعزلوا سعيدبن نمران عنهم، وأظهروا أمرهم فانضمّ إليه خلق كثير إرادة منع الصدقة، فكتب عبيداللّه وسعيد إلى أميرالمؤمنين عليه السلام يخبرانه الخبر، فكتب إلى أهل اليمن، والجند كتاباً يهدّدهم فيه، ويذكّرهم اللّه تعالى فأجابوه بأنّا مطيعون إن عزلت عنّا هذين الرجلين، وكتبوا إلى معاوية فأخبروه، فوجّه إليهم بسربن أرطاة، وكان فظّاً سفّاكاً للدماء، فقتل في

فقام عليه السلام إلى المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه إلى الجهاد ماهي إلاّ الكوفة أقبضها وأبسطها فإن لم تكوني إلاّ أنت تهبّ أعاصيرك فقبّحك اللّه

طريقه داود وسليمان ابنا عبداللّه بن العبّاس، وبالطائف عبداللّه بن المدان، وكان صهراً لابن عبّاس، ثمّ انتهى إلى صنعاء، وقد خرج منها عبيداللّه وسعيد واستخلفا عليهما عبداللّه بن عمروبن أراكة الثقفي، فقتله بسر، وأخذ صنعاء فلمّا قدم ابن عبّاس وسعيد على عليّ عليه السلام بالكوفة عاتبهما على تركها قتال بسر، فاعتذرا إليه بضعفهما عنه.

[**فقام عليه السلام إلى المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه إلى الجهاد**] ومخالفتهم له في الرأي، وقال: [**ماهي إلاّ الكوفة**] والضمير يرجع إليها وإن لم يجز لها ذكر لكونها المعهودة في الخطاب، نحو قوله تعالى: ﴿كلاّ إنّها لظى﴾ ويحتمل أن يكون ضمير الشأن [**أقبضها وأبسطها**] خبر ثان، أو لمبتدا محذوف، أي: أنا وهما، كنايتان عن وجوه التصرّف فيها، أي: إنّ التصرّف فيها بوجوه التصرّف حقير بالنسبة إلى سائر البلاد الّتي عليها الخصم، فما عسى أصنع بتصرّفي فيها، وماالّذي أبلغ به من دفع الخصم ومعونته، وربّما أشعر بحصر مابقى له من البلاد الّتي يعتمد عليها في الحرب ومقاتلة العدوّ في الكوفة، فأشار بذلك إلى تحقيرها، وقوله:

[**فإن لم تكوني إلاّ أنت تهبّ أعاصيرك فقبّحك اللّه**] عدول عن الغيبة إلى الخطاب، والضمير بعد إلاّ تأكيد للّذي قبلها، والجملة الفعليّة بعده في موضع الحال، وخبر كان محذوف، ولفظ الأعاصير يمكن حمله على حقيقة، لأنّ الكوفة معروفة بهبوب الأعاصير، فأتى بذلك في معرض ذمّها

لعمر أبيك الخير يا عمرو إنّني على وضر من ذاالإناء قليل ثمّ وقال: أُنبئت بسراً قد اطّلع اليمن وإنّي واللّه لأظنّ هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، ومعصيتك إمامكم في الحقّ، وطاعتهم

وتحقيرها، وعلى الإستعارة لمايحدث من آرائها المختلفة الّتي هي منبع الغدر والتثاقل عن رأيه، ووجه الشبه الإزعاج والأذى، وتقدير الكلام، فإن لم تكوني إلاّ أنت عدّة لي وجنّة ألقى بها مع ماعليه حالك من المذام فقبحاً لك، ثمّ لاستصغاره إيّاها، وتحقيره لها، تمثّل بقول الشاعر:

[لعمر أبيك الخير يا عمرو إنّني على وضر من ذاالإناء قليل]

ووجه التمثيل أنّ الكوفة تشارك الوضر، وهو الدرن الباقي في الإناء بعد الأكل في القلّة والحقارة، فهو يقول: إنّي على بقية من هذا الأمر كالوضر القليل في الإناء، ومن روي الآلاء وهو شجر حسن المنظر، فإنّما أراد انّي على بقيّة من هذا الأمر كالقدر الحاصل لناظر آلاء من حسنه مع عدم الإنتفاع به، وإنّما خصّ الكوفة دون البصرة وغيرها، لأنّ جمهور من كان يعتمد عليه من العسكر أهلها.

[**ثمّ**] شرع في بيان غرضه من استفسارهم إلى الجهاد [**وقال: أُنبئت**] أي: بالمجهول، أي: أعلمت وأخبرت [**بسراً**] بالسين المهملة ابن أبي أرطاة، من أصحاب معاوية [**قد اطّلع اليمن**] غزاها [**وإنّي واللّه لأظنّ هؤلاء القوم**] يعني أصحاب معاوية [**سيدالون منكم**] والإدالة: الغلبة [**باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، ومعصيتك إمامكم في الحقّ، وطاعتهم**

إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبه وخيانتكم وبصلاحهم في بلادهم وإفسادكم لو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته

إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبه وخيانتكم وبصلاحهم في بلادهم وإفسادكم] لامهم أوّلاً على خروج اليمن من أيديهم باستيلاء بسر عليها، ثمّ خوّفهم بما حكم به من ظنّه الصادق وفراسته الصحيحة أن سيدال القوم منهم.

ثمّ عقّب ذلك بذكر أسباب توجب وقوع ماحكم به فذكر أربعة من قبلهم هي أسباب الإنقهار، وأربعة من قبل الخصم، هي أسباب القهر، ورتّب كلّ أمر عقيب ضدّه لتظهرهم المناسبة بين أفعالهم وأفعال خصومهم.

فمن قبل الخصم الإجتماع والتوازر، وإن كان على باطل، ومن أفعالهم ضدّه من التفرّق عن الحقّ، والتصرّف فيه، بإذن وليّ الأمر.

الثاني: من قبل الخصم الطاعة لإمامهم الجائر الظالم فيما أمر به من الباطل، ومن قبلهم معصية الإمام الحقّ في أمره بالحقّ.

الثالث: من قبل الخصم، تأديتهم الأمانة لصاحبهم من الوفاء ببيعته، ولزوم عهده، ومن أفعالهم ضدّ ذلك من الخيانة والغدر.

الربع: صلاح القوم في بلادهم، أي: انتظام أمورهم فيها بطاعة إمامهم، وضدّ ذلك منهم من الخروج عن طاعته.

وقوله: **[فلو ائتمنت أحدكم على قعب]** وهو القدح الضخم **[لخشيت أن يذهب بعلاقته]** مبالغة في ذمّهم بالخيانة على سبيل الكناية عن خيانتهم لإمامهم في عهده، وقبول أوامره، ثمّ شرع في شكايتهم إلى اللّه الّذي ثبت

للّهمّ إنّي قد مللتهم وملّوني، وسئموني فأبدلني بهم خيراً وأبدلهم لي شراً منّي

إليه الشكوى، ويعلم السرّ والنجوى، فقال:

[**اللّهمّ إنّي قد مللتهم وملّوني، وسئموني**] والملل والسئم مترادفان، وحقيقته: إعراض النفس عن الشيء لفتور القوى البدنيّة، أو لما بان لها من أنّ مطلوبها غيرممكن، وقد عجزت قواه عن معالجة حالهم وإصلاح أمرهم، وبان له عدم قابليّتهم، كما بان لنوح من قومه، ﴿فقال ربّي إنّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً فلميزدهم دعائي إلاّ فراراً﴾ إلى أن قال: ﴿ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنّك إنْ تذرهم يضلّوا عبادك ولايلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً﴾.

وأمّا سئمهم منه عليه السلام فلصعوبة الحقّ عليهم، وتنفّرهم من الحقّ، وميلهم إلى الباطل، ولكثرة تكراره الأمر بالجهاد عن دين اللّه، والمواظبة على طاعة اللّه، ممّا تأباه نفوسهم وتشمأزّ منه قلوبهم.

ثمّ أردف تلك الشكاية بالتضرّع إلى اللّه في الخلاص منهم، ثمّ بالدعاء عليهم، فقال:

[**فأبدلني بهم خيراً**] إمّا في الدنيا، أو في العقبى.

[**وأبدلهم لي شراً منّي**] لايقال: يقتضي ذلك كونه ذاشرّ، وهو منزّه عنه، ثمّ كيف ساغ أن يدعو بوجود الشرور والأشرار، لأنّا نقول: أفعل التفضيل خارج عن بابه، كما في المؤمن خير من الكافر، أو يكون المراد شراً منّي بحسب عقيدتهم الفاسدة، ودعائه بوجود الاشرار جائز مع المصلحة في تخويفهم بذلك، أو لأنّه علم عدم صلاحهم، وأنّه لايرجى صلاحهم، ولذا

اللّهمّ أمث قلوبهم، كما يماث الملح في الماء أما واللّه لوددتُ أنّ لي بكم أجمع ألف فارس من بني فراس بن غَنْم

هنالك لو دعوت، أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم

قال السيّد (رض): قلت أنا: والأرمية جمع رميّ، وهي السحاب والحميم في هذا الموضع وقت الصيف، وإنّما خصّ الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنّه أشدّ جفولاً وأسرع خفوقاً، لأنّه لاماء فيه، وإنّما يكون السحاب

قال:

[اللّهمّ أمث قلوبهم، كما يماث الملح في الماء] والميث: الإذابة، كناية عن أسبابه من الغمّ والخوف، كأنّه طلب من اللّه تعالى أن يقتصّ منهم إذ ماتوا قلبه بفساد أفعالهم، ويروى أنّ اليوم الّذي دعى عليهم فيه وُلد الحجّاج أو بعده بزمان قليل، واستيصاله أهل الكوفة أمر معروف.

[أما واللّه لوددتُ أنّ لي بكم] أي: بدلكم **[أجمع ألف فارس من بني فراس بن غَنْم]** بفتح الغين وسكون النون، وهو غَنْم بن تغلب بن وائل، وخصّهم لشهرتهم بالحميّة والشجاعة، وسرعة إجابة داعيهم، كما أشار إليه الشاعر بقوله:

[هنالك لو دعوت، أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم]

قال السيّد (رض): قلت أنا: والأرمية جمع رميّ، وهي السحاب والحميم في هذا الموضع وقت الصيف، وإنّما خصّ الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنّه أشدّ جفولاً وأسرع خفوقاً، لأنّه لاماء فيه، وإنّما يكون السحاب

ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لايكون في الأكثر إلّا في زمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله هنالك: لو دعوت أتاك منهم.

إنّ اللّه بعث محمّداًﷺ نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل وأنتم معشر العرب على شرّ دن وفي شرّ دار

ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لايكون في الأكثر إلّا في زمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله هنالك: لو دعوت أتاك منهم.

ومن خطبة له عليه السلام

[**إنّ اللّه بعث محمّداًﷺ نذيراً للعالمين**] ذكر بعض غايات البعثة، إذ الغاية منها جذب الخلق إلى الحقّ، وهو تارة يكون بالإنذا، وتارة يكون بالتبشر، ذكر هنا الإنذار لأنّه السبب الأقوى في الردع، وفيه إشارة إلى غلبة الغرور عليهم، وأردفه بقوله:

[**وأميناً على التنزيل**] إشارة إلى أنّ الإنذارات الواردة في الكتاب والسنّة حقّ لاريب فيه ولاشبهة تقريباً عليه السلام فيها بتبديل وتحريف وزيادة ونقصان.

[**وأنتم**] الواو للحال، أي: حال ما كنتم [**معشر العرب على شرّ دن**] إذ كانوا يعبدون ماينحتون، واللّه خلقهم ومايعلمون.

[**وفي شرّ دار**] وهي نجد وتهامة وأرض الحجاز، ثمّ بيّن وجه كونها

بين حجارة خشن و حيّات صمّ تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم

أشرّ ببيان فساد أحوالهم في ساكنهم، لأنّهم منيخون، أي: مقيمون [**بين حجارة خشن**] سوداء لا نداوة بها ولا نبات.

[و] بين [**حيّات صمّ**] لاتنزجر بالصوت، كأنّها لاتسمع ولاعلاج لسمومها، وربّما يراد بها الصلبة الشديدة، وحيّات تلك الأطراف في نهاية القوّة، وغاية حدّة السمّ لاستيلاء الحرارة واليبس عليها، ثمّ ذكر وجه الشرّ في مشاربهم فقال:

[**تشربون الكدر**] لأنّ غالب المياه الّتي يشربونها كدرة متغيّرة نتنه اخبه، لايقدم على شربها إلّا عند الضرورة، لعدم إقامتهم غالباً في مكان واحد، حتّى يصلحوا مياههم، بل لم يزالوا في حلّ وارتحال، وقوله:

[**وتأكلون الجشب**] إشارة إلى وجه الشرّ في مأكلهم، والجشب الطعام الغليظ الخشن، وذلك معلوم من حالهم، فإنّهم يأكلون مادبّ ودرج، وقلّ أن يسلم حيوان يخرج من حجره منهم، وسئل بعض العرب: أيّ الحيوانات تأكلون في البادية؟ فقال: مادبّ ودرج إلّا ام حبين، وهي دويبة قدر كفّ الإنسان، فقال السائل: لنهي ام حبين السلامة، وبعضهم يخلط الشعير بنوى الثمر ويطحنهما ويتّخذها خبزاً، ثمّ قال:

[**وتسفكون دماءكم**] أي: يسفك بعضكم دماء بعض.

[**وتقطعون أرحامكم**] حتّى كان الآباء يقتلون الأبناء وبالعكس، وشاع بينهم الوؤد من البنات أحياء.

الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة ومنها: فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي فضننت بهم عن الموت فأغضيتُ على القذى وشربت على الشجى

[**الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة**] أي: مشدودة، استعار العصب للزوم الآثام لهم في تلك الحال، وذكرهم بهذه الأحوال لينبههم على النسبة بين حالهم اليوم وقبل، فقد بدّلوا ببركة رسول اللّه ﷺ عن فساد الحال بصلاحه، ففتحوا المدن وكسروا الجيوش، وقتلوا الملوك، وغنموا الأموال، كما قال تعالى في الإمتنان عليهم وتذكيرهم أنواع النعم، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها، وجعل لهم الذكر الباقي، والشرف الثابت مضافاً إلى هدايتهم إلى الإسلام الموصل إلى دارالسلام.

ومنها: مايتضمّن اقتصاص حاله عليه السلام بعد رسول اللّه ﷺ في أمر الخلافة، وهو اقتصاص في معرض التظلّم والشكاية ممّن يرى أنّه أحقّ منه بالأمر، فأشار إلى أنّه عليه السلام فكّر في أمر المقاومة والدفاع عن حقّه الّذي غُصب منه، فلم يجد ناصراً ولا معيناً، وقال:

[**فنظرت فإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي**] وهم قليلون [**فضننت**] بالكسر، ونقل الفرّاء الفتح، أي: بخلت [**بهم عن الموت**] لعلمه بأنّه لو قاوم بهم لقتلوا، ولايصل إلى مقصوده.

[**فأغضيتُ على القذى**] يقال: أغضيتُ على كذا، أي: أطبقتُ جفني عليه، والقذى: مايسقط في العين ممّا يؤذيها، وكنّى به عن صبره على المقاومة، ووجه الشبه استلزامهما للألم الشديد، وكذا قوله:

[**وشربت على الشجى**] وهو مايعترض في الحلق، ووجه الشبه

وصبرتّ على أخذ الكظم، وعلى أمرّ من طعم العلقم.

استلزامهما الأذى وعدم التلذّذ والإساغة.

[**وصبرتّ على أخذ الكظم**] يقال: أخذ يكظمه، أي: بمجرى نفسه.

[**وعلى أمرّ من طعم العلقم**] وهو شجر بالغ المرارة، وكنّى بهما عن أخذ الوجوه عليه، وتضيّق الأمر فيما يطلبه، ووجه المشابهة الأذى، وإنّما كان أمرّ وأشدّ من العلقم، لأنّه ألم روحانيّ، وهو أشدّ من الجسمانيّ، وفي التنزيل: ﴿ربّنا إنّك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ ولم يقل أحرقته، لأنّ الخزي عذاب روحانيّ أشدّ من الإحراق الجسماني.

وهذا كلّه إشارة إلى أمر السقيفة، قال ابن أبي الحديد: إنّ عليّاً عليه السلام امتنع من البيعة حتّى أُخرج كرهاً، وأنّ الزبير امتنع وقال: لاأُبايع إلاّ عليّاً، وكذلك أبوسفيان بن حرب، وخالد بن سعيد بن العاص، والعبّاس وبنوه، وأبوسفيان الحرث بن عبدالمطّلب، وجميع بني هاشم، وقالوا: إنّ الزبير شهر سيفه، فلمّا جاء عمر ومعه جماعة من الناس الأنصار وغيرهم قال في جملة ما قال: خذوا سيف هذا فاضربوا به الحجر.

ويقال: فعل ذلك وساقهم كلّهم بين يديه إلى أبي بكر، فحملهم على بيعته، ولم يتخلّف إلاّ عليّ وحده، فإنّه اعتصم ببيت فاطمة، فتحاموا إخراجه منه قسراً، فأتت فاطمة إلى باب البيت، فأسمعت من جاء يطلبه، فتفرّقوا وعلموا أنّه بمفرده لايضرّ شيئاً فتركوه.

وقيل: إنّهم أخرجوه فيمن أُخرج وحمل إلى أبي بكر فبايعه.

وقد روى الطبري كثيراً من هذا.

فأمّا حديث التحريق وماجرى مجراه من الأُمور الفظيعة وقول من

....

قال: إنّهم أخذوا عليّاً عليه السلام يقاد بعمامته والناس حوله فأمر بعيد، والشيعة تنفرد به على أنّ جماعة من أهل الحديث قد رووا نحوه، ثمّ قال:

فأمّا قوله لم يكن لي معين الخ، فقول مازال يقوله، ولقد قاله عقيب وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله، قال: لو وجدتُ أربعين ذوي عزم، ذكر ذلك نصر بن مزاحم، وكثير من أرباب السير.

وأمّا مايقوله جمهور المحدّثين وأعيانهم، فإنّه عليه السلام امتنع من البيعة ستّة أشهر، ولزم بيته ولم يبايع حتّى ماتت فاطمة، فلمّا ماتت بايع طوعاً.

وفي صحيح مسلم، والبخاري: كانت وجوه الناس تختلف إليه، وفاطمة لم تمت بعد، فلمّا ماتت انصرفت وجوه الناس عنه، فخرج من بيته، فبايع أبابكر، وكانت مدّة بقائها بعد أبيها ستّة أشهر.

ثمّ قال بعد كلام: فأمّا حديث الفلتة، فقد كان سبق من عمر أن قال: إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى اللّه شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه.

ثمّ قال: قد أكثر الناس في حديث الفلتة، وذكرها شيوخنا المتكلّمون، ثمّ اعتذر عنه وقال: إنّ هذه اللفظة من عمر مناسبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ماجبله اللّه عليه من غلظ الطينة وجفاء الطبيعة، كما قدّمنا في اللفظة الّتي قالها في مرض رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال: إنّما رضي عمر ببيعة أبي بكر من حيث كانت حاجزة عن بيعة أميرالمؤمنين، ولو ملك الإختيار لكان مصير الأمر إليه أثر في نفسه، وأقرّ لعينه.

. . . .

ثمّ روى ابن أبي الحديد عن البخاري ومسلم في صحيحيهما عن طلحةبن معروف قال: سألت عبداللّه بن أبي أوفى: أوصى رسول اللّهﷺ؟

قال: لا.

قلت: فكيف كتب على المسلمين الوصيّة أو كيف أمر بالوصيّة ولم يوص؟

قال: أوصى بكتاب اللّه.

قال طلحة.

ثمّ قال ابن أبي أوفى: ماكان أبوبكر يتأمّر على وصيّ رسول اللّهﷺ ودّ أبوبكر أنّه وجد من رسول اللّهﷺ عهداً فخرم أنفه بخرامه، ونحوه عن عائشة.

ثمّ قال: وفي الصحيحين أيضاً أخرجاه عن ابن عبّاس، أنّه كان يقول يوم الخميس اشتدّ برسول اللّهﷺ وجعه، فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم لاتضلّون بعدي أبداً، فتنازعوا، فقال: أنّه لاينبغي عندي تنازع، فقال قائل: ماشأنه أهجر استفهموه، فذهبوا يعيدون عليه، فقال: دعوني، والّذي أنا فيه خير من الّذي أنتم فيه.

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عبّاس قال: لمّا احتضر رسول اللّهﷺ وفي البيت رجال منهم عمربن الخطّاب، قال للنبيّ: حسبنا كتاب اللّه، فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول قرّبوا إليه ليكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول القول ماقاله عمر، فلمّا كثر اللغو

. . . .

والإختلاف عنده ﷺ قال: قوموا فقاموا، وكان ابن عبّاس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ماحال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب ذلك الكتاب.

ثمّ روى عن أبي بكر الجوهري بإسناده عن سلمة بن عبد الرحمان، قال: لمّا جلس أبوبكر على المنبر كان عليّ عليه السلام والزبير وناس من بني هاشم في بيت فاطمة عليها السلام فجاء عمر إليهم وقال: والّذي نفسي بيده لتخرجنّ إلى البيعة أو لأحرقنّ عليكم البيت، فخرج الزبير مصلتاً سيفه، فاعتنقه رجل من الأنصار وزياد بن لبيد، فدقّ به، فبدر السيف فصاح به أبوبكر وهو على المنبر: اضرب به لحجر.

قال أبوعمرو بن عبّاس: فلقد رأيتُ الحجر فيه تلك الضربة، ويقال: هذه ضربة سيف الزبير، ثمّ قال أبوبكر: دعوهم فسيأتي اللّه بهم، قال: فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه.

وقد روى في رواية أُخرى: إنّ سعد بن أبي وقّاص كان معهم في بيت فاطمة، والمقداد بن الأسود أيضاً، وإنّهم اجتمعوا على أن يبايعوا عليّاً عليه السلام، فأتاهم عمر ليحرق عليهم، فخرج إليهم الزبير بالسيف، وخرجت فاطمة تبكي وتصيح، فنهنهت الناس وقالوا: ليس عندنا معصية ولاخلاف في غير ماأجتمع عليه الناس، وإنّما اجتمعنا لنؤلف القرآن.

وعن الشعبي قال: سئل أبوبكر فقال: أين الزبير؟ فقيل: عند عليّ، وقد تقلّد سف، فقال: قم ياعمر، قم يا خالد بن الوليد، فانطلقا حتّى تأتياني بهما، فانطلقا، فدخل عمر وقام خالد على باب البيت من خارج،

ومنها: ولم يبايع معاوية على شرط أن يؤتيه على البيعة، فلا ظفرت يد البائع

فقال عمر للزبير: ماهذا السيف، فقال: نبايع علياًعليه السلام، فاخترطه عمر، فضرب به حجراً فكسره، ثمّ أخذ بيد الزبير فأقامه، ثمّ دفعه وقال: ياخالد دونكه فأمسكه، ثمّ قال لعليّعليه السلام: قم فبايع لأبي بكر، فتلكى واختلس، فأخذ بيده وقال: قم، فأبى أن يقوم، فحمله فدفعه كما دفع الزبير، فأخرجه ورأت فاطمة ماصنع عمر بهما، فقامت على باب الحجرة وقالت: ياأبابكر ماأسرع ماأغرتم على أهل بيت رسول اللّهصلى الله عليه وآله، واللّه لاأُكلّم عمر حتّى ألقى اللّه، قال: فمشى إليها أبوبكر بعد ذلك وشفع لعمر وطلب إليها فرضيت عنه.

ثمّ قال ابن أبي الحديد: والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً، ومن تأمّلها وأنصف علم أنّه لم يكن هناك نصّ صريح مقطوع ب لايختلجه الشكوك ولاتتطرّق إليه الإحتمالات، ثمّ قال: ولكن قد علمت النفوس والعقول أنّه قد كان هناك تعريض وتلويح وكناية، وقول غيرصريح، وحكم غيرمثبوت الى آخر ما قال، انتهى ملخّص ما أردنا نقله من كلام ابن أبي الحديد، والكلام في ذلك طويل الذيل، إلاّ أنّا لسنا في مقام الجرح والتعديل، وإنّما أردنا الإستشهاد بكلامه لوضوح السبيل.

ومنها: يذكر فيها عمروبن العاص:

[**ولم يبايع معاوية على شرط أن يؤتيه على البيعة**] ثمناً، وهو طعمة مصر، ولم يبايعه حتّى كتب له بها كتاباً، ثمّ دعىعليه السلام عليهما فقال:

[**فلا ظفرت يد البائع**] لمدينه، وهو عمرو.

وخزيت أمانة المبتاع فخذوا للحرب أهبتها وأعدّوا لها عدّتها فقد شبّ لظاها وعلا سناها واستشعروا الصبر فإنّه أدعى إلى النصر

[**وخزيت أمانة المبتاع**] يعني معاوية، فيما ولي من أُمور المسلمين، إذ كانت أمانة في يده، وخزيها ذلّها، وهوانها، ولمّا كانت مبايعة عمرو إمارة للحرب وقيامها، قال عليه السلام:

[**فخذوا للحرب أُهبتها**] أي: استعدادها [**وأعدّوا**] أي: هيّئوا [**لها عدّتها**] من الآلات والسلاح ونحوهما،

[**فقد شبّ لظاها**] أي: أوقدت نارها، وأُثيرت. وروي شبّ بالبناء للفاعل، أي: ارتفع لهبها.

[**وعلا سناها**] أي: ضوءها، وفيهما كناية بالمستعار، ووجه المشابهة بين لهب النار وسناها وأمارات الحرب كونها علامات على أمرين فيهما مظنّة الهلاك، ومحلّ الفتنة، ويحتمل أن يكون لفظ السنا ترشيحاً للإستعارة.

وقوله: [**واستشعروا الصبر فإنّه أدعى إلى النصر**] إستعارة، فإنّ الشعار الثوب الملاصق للبدن والشعر، بخلاف الدثار، أي: اتّخذوا الحرب كاللباس، أو بمعنى العلامة، أي: اتّخذوه علامة، أو اشتقّ من الشعور، أي: ليكن في شعوركم الصبر، ومعلوم إنّ الصبر من أقوى أسباب النصر، ومن كان الصبر علامة له عرفه الخصم بها، فارتدع، وملخّص بيعة ابن العاص أنّ علياً عليه السلام لمّا نزل بالكوفة بعد فراغه من البصرة، كتب إلى معاوية

أمّا بعد، فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة

يدعوه إلى البيعة، فأهمّه ذلك، فدعى قوماً من أهل الشام إلى الطلب بدم عثمان، فأجابوه، وأراد الإستظهار في أمره، فأشار عليه أخوه عتبة بالإستعانة بعمروبن العاص، وكان بالمدينة فاستدعاه، فلمّا قدم عليه وعرف حاجته إليه تباعد عنه، وجعل يمدح عليّاً في وجهه، ويغفّله ليخدعه عمّا يريد منه، حتّى قال له معاوية يوماً ياأباعبدالله إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الّذي عصى الله وشقّ عصى المسلمين، وقتل الخليفة، وأظهر الفتنة، وفرّق الجماعة، وقطع الرحم، فقال عمرو: من هو؟ قال: عليّ، فقال: والله يامعاوية ماأنت وعليّ جملي بعير، ليس لك هجرته، ولاسابقته، ولاصحبته، ولاجهاده، والله إنّ له مع ذلك لحظّاً في الحرب، ليس لأحد غيره، ولكنّي قد تعوّدت من الله إحساناً وبلاء جميلاً فما تجعل لي إن بايعتك على حربه، وأنت تعلم مافيه من المغرور الخطر، قال: له حكمك، قال له: مصر طعمه، فتلكّى معاوية، فلم يزل يماطله حتّى رضي معاوية، فعاهده على ذلك، وبايعه، وكتب له بمصر كتاباً.

ومن خطبة له عليه السلام

في مدح الجهاد وفضله، وهي من خطبه المشهورة، قد رواها العامّة والخاصّة بطرق عديدة على خلاف في بعض ألفاظها، وزيادة ونقصان.

[**أمّا بعد، فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة**] استعار لفظ الباب للدخول

فتحه اللّه لأوليائه وهو لباس التقوى، ودرع اللّه الحصينة، وجُنّته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللّه ثوب الذلّ وشمله البلاء وديّث بالصغار

به إلى الجنّة، إذ منه يعبر المجاهد السالك إلى اللّه، إلى الباب الأعظم للجنّة، وهو قهر الشيطان، والنفس الأمّارة، وطاعة الرحمان.

[**فتحه اللّه لأوليائه**] المخصلين، لأنّ المجاهد قد فارق أهله وولده وماله، وأقدم على من يغلب على ظنّه أنه أقوى كما أمر المسلمون بأن ينبت أحدهم لعشرة، ثمّ يعلم أنّه لو قهره لقتله واستباح ذرّيته، والمجاهد في جميع هذه الأحوال صابر، شاكر، محتسب.

[**وهو لباس التقوى، ودرع اللّه الحصينة، وجُنّته**] والجُنّة بالضمّ، مااستتر به من سلح وغيره [**الوثيقة**] واستعار للجهاد لفظ اللباس والدرع والجُنّة، ثمّ رشح تلك الإستعارتين الأخيرتين بوصفي الحصانة والوثاقة، و وجه الشبه أنّ الإنسان يتقي به شرّ العدوّ وسوء العذاب في الآخرة، كما يتقي بثوبه مايؤذيه من حرّ أو برد، وبدرعه وجُنّته مايخشاه من عدوّه.

[**فمن تركه رغبة عنه**] من غير عذر [**ألبسه اللّه ثوب الذلّ**] استعار لفظ الثوب للذلّ لشموله، ووجه الشبه إحاطة الذلّ به إحاطة الصفة بالموصوف، كإحاطة الثوب بلابسه.

[**وشمله البلاء**] من العدوّ، فصار ذليلاً خاسراً.

[**وديّث بالصغار**] أي: ذلل، والصغار الذلّ والضيم، وبعير مديّث، أي: مذلّل، ومنه الديّوث الّذي لاغيرة له، لأنّه قد ذلّل حتّى صار كذلك.

والقمـاء، وضـرب على قلبـه بالإسـهـاب وأديل الحقّ منه بتـضـيـيع الجهاد وسئم الخسف ومنع النصف

[**والقماء**] بالمدّ، مصدر قموء الرجل قماء، فهو قمي الحقارة والذلّ.

وفي رواية الراوندي: القما بالقصر، وهو غير معروف.

[**وضـرب على قلبـه بالإسهـاب**] أي: ذهاب العقل مـن أسهب الرجل بالبنـاء للمـفـعـول، أي: ذهـب عـقله من أذى يـلحـقـه، ويمكـن أن يكون من الإسهاب الّذي هو كثرة الكلام، كأنّه عـوقب بذلك، بأن يكثر لغوه وفضول كـلامه وإطلاق لـفظ الضرب علـى قلبه استـعـارة، كقـوله تالى: ﴿وضـربت عليهم الذلّة والمسكنة﴾ ووجه الشـبه فيها إحاطة قلّة العقـل به، كإحاطة القبّة المضروبة بمن فيها، أو لزوم قلّة العقل كلزوم الطن المضروب على الحائط.

[**وأُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد**] يقال: أُديل الحقّ من فلان، أي: غلبه عليه عدوّه، أي: أُديل الحقّ بسبب تضييعه الجهاد.

[**وسئم الخسف**] يقال: سئمه خسفاً، أي: أولاه ذلاً، وكلّفه المشقّة.

[**ومنع النصف**] بكسـر النون الإسم من الإنصـاف، ولـزوم الأمـور المذكـورة من ترك الجهـاد مع التـمكّن منه أمر ظـاهر، وي أُمور يتنفّر الإنسـان عنها بطـبعه، ومع ذلك فـهي مضـرّة بحال من تلحقـه في الدارين. ويلزم من ذلك خسران الدنيا والآخرة.

ثمّ أردف ذلك بتفـصـيل غـرضـه عليه السلام ممّا أجمـله منه، وهو حـثّهم على الجهاد، وتوبيخهم على تركه، فقال:

ألا ، وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسرّاً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فواللّه ماغزى قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا فتواكلتم وتخاذلتم

[**ألا ، وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم**] معاوية وأصحابه [**ليلاً ونهاراً وسرّاً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فواللّه ماغزى قوم قطّ في عقر**] بالضمّ ، أي : أصل [**دارهم إلاّ ذلّوا**] قال المحقّق البحراني : إنّ للأوهام أفعالاً عجيبة في الأبدان ، تارة بزيادة القوّة ، وتارة بنقصانها ، حتّى أنّ الوهم ربّما كان سبباً لمرض الصحيح ، لتوهّمه المرض وبالعكس ، فكان السبب في ذلّ من غزى في داره وإن كان معروفاً بالشجاعة هو الأوهام .

أمّا أوهامهم فلأنّها تحكم بأنّه لم يقدم على غزوهم إلاّ لقوّة غازيهم ، واعتقاد ضعفهم ، فتنفعل نفوسهم عن تلك الأوهام ، وتنقهر عن المقاومة ، وتزول غيرتها فتذلّ .

وأمّا أوهام غيرهم فلأنّ الغزو الّذي يلحقهم يكون باعثاً لكثير الأوهام على الحكم بضعفهم ومحرّكاً لطمع كلّ طامع فيهم ، ثمّ أردف ذلك عليه السلام بما قابلوا به نصيحته ، فقال :

[**فتواكلتم**] من وكل كلّ منهما أمره إلى الآخر ، أي : لم يتولّه أحد ، وأحال به كلّ واحد على الآخر ، ومنه رجل ، وكلّ أي : عاجز يكل أمره إلى غيره .

[**وتخاذلتم**] من الخذلان ، إشارة إلى تواكلهم وتخاذلهم عمّا أمر به .

حتّى شنّت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسّان بن حسّان وأزال خيلكم عن مسالحها وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأُخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها ماتمنع منه إلاّ بالإسترجاع

[**حتّى شنّت عليكم الغارات**] أي: تفرّقت من كلّ جانب، قيل: ماكان من ذلك متفرّقاً نحر إرسال الماء على الوجه دفعة بعد دفعة، فهو بالشين المعجمة، وما كان إرسالاً غير متفرّق، فهو بالسين المهملة، ويجوز سنّ الغارة، وأسنّها.

[**وملكت عليكم الأوطان**] أي: ملكت تلك الغارات أوطانكم وحدودكم.

[**هذا أخو غامد**] سفيان بن عوف بن المفضّل المعايدي.

[**قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسّان بن حسّان**] البكري.

[**وأزال خيلكم عن مسالحها**] جمع مسلحة، وهي الحدود والأطراف من البلاد، يربت فيها أصحاب السلاح كالثغور.

[**وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأُخرى المعاهدة، فينتزع حجلها**] وخلخالها [**وقلبها**] أي: سوادها [**وقلائدها**] جمع قلادة [**ورعاثها**] جمع رعثة، بفتح الراء والعين وسكونها، وهي: القرط، والرعاي أيضاً ضرب من الخرز والحليّ.

[**ماتمنع منه إلاّ بالإسترجاع**] قول ﴿إنّا للّه وإنّا إليه راجعون﴾ وو أيضاً

والإسترحام، ثمّ انصرفوا وافرين مانال رجلاً منهم كلم ولا أُريق لهم دم، فلو أنّ امرء مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ماكان به ملوماً، بل كان عندي به جديراً فيا عجباً! عجباً، واللّه يميت القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم، فقبحاً لكم وترحاً

ترديد الصوت في البكاء [**والإسترحام**] أي: مناشدة الرحم.

[**ثمّ انصرفوا وافرين**] أي: غانمين موفود عليهم المال والغنيمة.

[**مانال رجلاً منهم كلم**] أي: جرح [**ولا أُريق لهم دم، فلو أنّ امرء مسلماً مات من بعد هذا**] الأمر [**أسفاً**] وحزناً وغيرة [**ماكان به ملوماً، بل كان عندي به جديراً**] حقيقٌ.

[**فيا عجباً! عجباً، واللّه يميت القلب**] نادى العجب من حالهم منكراً ليحضر له، كأنّه غير متعيّن في حال ندائه، ثمّ تعيّن بندائه وحضر، فكرّره ليصفه بالشدّة، ونصبه على المصدر، كأنّه لما حضر وتعيّن قال: عجبتُ عجباً من شأنه كذا، ونحو هذا المنادى قوله تعالى: ﴿يابشرى هذا غلام﴾.

ويحتمل أن يكون العجب الأوّل نصباً على المصدر أيضاً، والثاني للتأكيدما ذكر، ويكون المنادى محذوفاً تقديره: ياقوم، أو نحوه، ووصفه بأنّه يميت القلب [**ويجلب الهمّ**] كناية عن الهمّ والغمّ الملاحق من ذلك، تسمية للشيء باسم مايؤول إليه، أو إطلاقاً للمسبّب على السبب.

ثمّ أشار إلى السبب بقوله:

[**من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم، فقبحاً لكم وترحاً**] دعاء عليهم بالبُعد عن الخير، وبالحزن، وبسبب تفريطهم.

حين صرتم غرضاً يُرمىٰ يغار عليكم ولاتغيرون وتُغْزَوْنَ ولا تُغْزُون ويعصى اللّه وترضون! فإذا أمرتُكم بالسير إليهم في أيّام الحرّ قلتم: هذه حمارّة القيظ أمهِلنا ينسلخ عنّا الحرّ، فإذا أمرتُكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارّة القُرّ كلّ هذا فراراً من الحرّ والقُرّ فإذا كنتم من الحرّ والبرد تفرّون فأنتم واللّه من السيف أفرّ

[**حين صرتم غرضاً**] للرماة.

[**يُرمىٰ يغار عليكم**] في عقر دياركم [**ولاتغيرون وتُغْزَوْنَ ولا تُغْزُون**] وأنتم أولى بذلك منهم بكونكم على الحقّ، وهم على الباطل.

[**ويعصى اللّه**] بالأمور المذكورة وغيرها.

[**وترضون! فإذا أمرتُكم بالسير إليهم في أيّام الحرّ قلتم: هذه حمارّة القيظ**] بتشديد الراء، شدّة حرّه [**أمهِلنا ينسلخ عنّا الحرّ، فإذا أمرتُكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارّة القُرّ**] بتشديد راء، صبارّة: أي: شدّة البرد.

[**كلّ هذا**] إشارة إلى تلك الأعذار الفاسدة، والمماطلات الكاسدة [**فراراً من الحرّ والقُرّ**] العامين للناس، يتمنّى المرء في الصيف الشتاء، فإذا جاء الشتاء أنكره، لا بذا يرضى ولايرضى بذا، ﴿قُتل الإنسان ما أكفره﴾.

[**فإذا كنتم من الحرّ والبرد تفرّون فأنتم واللّه من السيف أفرّ**] لأنّ الفارّ من الأهون فارّ من الأشدّ بطريق أولى، إذ لامناسبة لشدّة الحرّ والبرد مع القتل والمجالدة بالسيف.

ثمّ أردف ذلك التبكيت بذمّهم فقال:

يا أشباه الرجال ولا رجال حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال لوددتُ أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفة، واللّه جرَّت ندماً، وأعقبتْ سدماً

[**يا أشباه الرجال**] في الصورة والظاهر [**ولا رجال**] لخلوّهم من صفات الرجال من الشجاعة والأنفة والحميّة والغيرة.

ثمّ وصفهخم بوصف ثان، وهو:

[**حلوم الأطفال**] لخلوّ الطفل عن ملكة الحلم، ووجه شبه حلومهم بحلوم الأطفال سرعتها عن أدنى سبب لايصلح أن يقع به العاقل كحلمهم عن أهل الشام، وتركهم الحرب بصفّين عن خدعة أهل الشام لهم بالمسالمة وطلب المحاكمة إلى كتاب اللّه ورفع المصاحف، فقالوا: إخواننا في الدين، فلا يجوز لنا قتالهم حتّى ترتّب عليه ماترتّب.

[**وعقول ربّات الحجال**] أي: النساء، والحجال: جمع حجلة، وهو بيت العروس يزيّن بالستور والثياب ونحوهما، ووجه شبه عقولهم بعقول النساء ضعفها عن إدراك وجوه المصالح المختصّة بتدبير المدن والحروب ونحوهما، ثمّ قال عليه السلام:

[**لوددتُ أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفة، واللّه جرَّت ندماً، وأعقبتْ سدماً**] والسدم: الحزن عند الندم، أبان لهم محبّته لعدم رؤيتهم وعدم معرفتهم لاستلزام ذلك الندم على الدخول في أمرهم، والحزن من تقصيرهم في الذبّ عن الدين كما حزنت الأنبياء على تقصير أُممها، حتّى قال اللّه تعالى لسيّد أنبيائه: ﴿ولاتحزن عليهم ولاتكن في ضيق ممّا يمكرون لعلّك باخع نفسك أن لايكونوا مؤمنين﴾.

قـاتلكـم اللّه لقـد ملئـتم قلبي قـيـحـاً وشـحنتم صـدري غـيظاً وجرّعتموني نغب التهمام أنفاسا

ثمّ عاد عليه السلام إلى الدعاء عليهم والشكاية منهم فقال:

[**قاتلكم اللّه**] دعاء عظيم، لأنّ المقاتلة مستلزمة للعداوة، وهي مستلزمة للعن والطرد والبُعد عن الشفقة والخير، فإطلاق المقاتلة والعداوة على اللّه كناية عن لوازمهما، وذكر المفسّرون وغيرهم أنّ معنى قاتله اللّه لعنه، لأنّ من أمنه اللّه بمنزلة المقتول الهالك.

وقوله: [**لقد ملئتم قلبي قيحاً**] وهو مايكون في القرحة من المدة والصديد، كناية عن ألم القلب من إطلاق اسم الغاية على ذي الغاية، إذ كان غاية ألم العضوان يتقيّح، وكذا قوله:

[**وشحنتم**] أي: ملئتم [**صدري غيظاً**] أطلق الشحن على فعلهم المؤلم لقلبه مجازاً، لأنّ الشحن حقيقة في نسبة بين جسمين.

وكذا قوله: [**وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً**] والنغب: جمع نغبة بضمّ النون، وهي الجرعة، والتهمام بالفتح: الهمّ، أي: جلبتم لي الهمّ وقتاً فوقتاً، وهو مجاز، لأنّ التجريع إدخال الماء ونحوه في الحلق، وكنّى به عن طريان الهمّ على نفسه، ومايلزم الهمّ من الآلام البدنيّة على بدنه، وتكرار ذلك منهم يشبه طريان المشروب وتجريعه، وقوله أنفاساً مجازاً في الدرجة الثانية، فإنّ النفس هو المقوء الداخل والخارج في بدن الحيوان، وأُريد به هنا مقدار من الهمّ يرد عليه من قبل أصحابه وقتاً فوقتاً، وهو درجة ثانية من المجاز.

فأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان حتّى قالت قريش ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لاعلم له بالحرب للّه أبوهم وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها ومقاماً منّي لقد نهضت فيها ومابلغت العشرين، وها أناذا قد ذرّفتُ على الستّين ولكن لا رأي لمن لايُطاع

• وقوله: [**فأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان**] من تمام شكايته منهم بمخالفة أوامره [**والخذلان**] له عليه السلام [**حتّى قالت قريش ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لاعلم له بالحرب**] لما رأوا من سوء تدبيركم، لأنّ الناس غالباً ينسبون مايرون من حسن التدبير وسيّئه إلى الرئيس والمقدّم، ولم يعلموا أنّ التقصير من قومه، وأنّهم لم يطيعوه، بل خالفوا أمره إلى ضدّه.

[**للّه أبوهم**] كلمة مدح [**وهل أحد منهم أشدّ لها**] أي: للحرب [**مراساً**] أي: علاجاً [**وأقدم فيها**] قياماً [**ومقاماً منّي**] استفهام إنكاريّ.

[**لقد نهضت فيها ومابلغت العشرين، وها أناذا قد ذرّفتُ**] بتشديد الراء، أي: زدتُ [**على الستّين**] كناية عن صرف عامّة عمره عليه السلام في الحرب، فكيف يكون غير عارف بها، وهو ابن جلاها، وطلاع ثناياها.

[**ولكن لا رأي لمن لايُطاع**] بيان السبب في إفساد أصحابه، أنّه ليس ماتوهّمه قريش من ضعف الرأي في الحرب، بل عدم إطاعتهم له فيمايراه ويشير عليهم به، لأنّ الرأي الّذي لايقبل بمنزلة الفاسد، وإن كان صواباً.

أمّا بعد، فإنّ الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت

ومن خطبة له عليه السلام

تشتمل على ذمّ الدنيا، والتنفير عنها، ومدح الآخرة، والترغيب فيها، والإستعداد لها بالتوبة الصادقة الناصحة، والأعمال الفاضلة الصالحة.

[**أمّا بعد، فإنّ الدنيا قد أدبرت**] يقال: أدبر ودبر، أي: ولّى دبره.

[**وأذنت بوداع**] أي: أعلمت به، إشارة إلى تقضي أحوالها بالنسبة إلى كلّ فرد من الخلق، من صحّة، وشباب، وجاه، ومال، وكلّما يكون سبباً لصلا حال الإنسان، فإنّ جميع ذلك من الدنيا لدنوّها من الإنسان وحسن إطلاق إسم الإدبار عليها لتقضيا شيئاً فشيئاً، تشبيهاً بالحيوان في إدباره، وكذا اسم الوداع، فإنّ التقضي لما استلزم المفارقة المستلزمة لأسف الإنسان عليها ووجده بها أشبه ذلك مايفعله الإنسان في حقّ صديقه المرتحل عنه في وداعه له من الأسف على فراقه والحزن والبكاء ونحوه، فاستعير اسم الوداع له، وكنّى بإعلامها بذلك عن الشعور الحاصل بمفارقتها من تقضّيها شيئاً فشيئاً، وهو إعلام بلسان الحال.

[**وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت**] باطّلاع الآخرة، عبارة عن الدار الجامعة للأحوال الّتي يكون الناس عليها بعد الموت من سعادة، وشقاوة، وألم، ولذّة، كما أنّ الدنيا مقابل ذلك، ولّما كان يقضي العمر مقرباً

ألا! وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق والسقة الجنّة، والغاية النار أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته

للوصول إلى تلك الدار، والحصول فيما يشتمل عليه من خير أو شرّ، حسن إطلاق لفظ ثمّ نزلها، لشرفها على الدنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل، فأسند إليها لفظ الإشراف، ولأجل إحصاء الأعمال الدنيويّة فيها منزلة عالم مطّلع، فأطلق عليها لفظ الإطلاع.

[**ألا! وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق**] والمضمار: المدّة الّتي تضمر فيها الخيل للسباق، أي: تعلف وتسمن، ثمّ تردّ إلى القوت، وهي أربعون يوماً، واستعار لفظة المدّة للحياة، باعتبار أنّ الإنسان يستعدّ فيها بالتقوى لتكمل قوّته العقليّة، فيكون من السابقين إلى لقاء اللّه تعالى، كما يستعدّ الفرس بالتضمير لسبق مثله، والسباق مصدر كالمسابقة، وهو أيضاً جمع سبعة، كنطفه ونطاف، وكنّى بغد عمّا بعد الموت، قال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السماء والأرض أُعدّت للّذين آمنوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾.

وروي السباق مرفوعاً، ولا وجه له إلاّ أن يكون مضافاً إليه أُقيم مقام مضاف هو الخبر، أي: وقت السباق، جمع سبقة، وتمام المعنى مايأتي في كلام السيّد(ره).

[**والسقة**] بضمّ السين وفتحها: ماأسبق إليه من الخطر [**الجنّة، والغاية النار**] ويأتي توضيحه إن شاءاللّه في كلام السيّد(ره).

[**أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته**] حثّ‏عليه السلام على وجوب التوبة قبل

ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ألا وإنّكم في أيّام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرّه أجله، ومن قصّر في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه

الموت، لأنّها عبارة عن انزجار النفس العاقلة عن متابعة النفس الأمّارة، ويأتي تمام الكلام فيها إن شاء اللّه في محلّ أليق.

ولقد أجاد من قال: نحن لانريد أن نموت حتّى نتوب، ولانتوب حتّى نموت.

[**ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه**] ويوم البؤس إشارة إلى مابعد الموت اللازم للإنسان من حيث تقصيره في العمل، إذ الواصل إلى وم بؤسه على غيرعمل أسير في يد شياطينه، وغاية ذلك دخول النار والحجب عن الأبرار، ولما كان العمل هو المعين على قهر الشيطان، نبّه عليه، ثمّ أردفه بالتنبيه على وجود الزمان الّذي يمكنهم العمل فيه، وهو أيّام آمالهم للعمل وغيره، وعلى أنّ ذلك الزمان منقطع بلحوق الأجل، ثمّ أردفه ببيان فائدة العمل في ذلك الزمان من الثواب، وبيان ثمرة العقر من العقاب، فقال:

[**ألا وإنّكم في أيّام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله**] في الدنيا والأُخرى.

[**ولم يضرّه أجله، ومن قصّر في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه**] أجله، استعار لفظ الخسران لفوات العمل، إذ الخسران في المعاملة نقص رأس المال أو ذهابه، والعمل رأس مال العامل، الّذي به يكسب الكمال الدنيويّ، والثواب الأُخرويّ، فحسنت الإستعارة.

ألا فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرهبة ألا وإنّي لم أر كالجنّة نام طالبها، ولا كالنار نام راهبها

وأمّا استلزام المنفعة لعدم مضرّة الموت والخسران لمضرّته فظاهر، إذ الكامل في قويته المُعرض عن الدنيا لايلتفت إليها بعد المفارقة، ولايشقّ عليها فراقها، فانتفت المضرّة عنه بخلاف المقصّر في العمل المنهمل في زهرتها المائل إليه، فإنّه يشقّ مفارقتها عليه لفوات محبوبه.

[**ألا فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرهبة**] حثّ عليه السلام على وجوب التسوية في العمل في الرغبة والرهبة، كما هو شأن العبوديّة الصادقة، وإلى ذلك أُشير في القرآن بقوله: ﴿وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾.

وقال سيّد العابدين أميرالمؤمنين عليه السلام: ماعبدتُك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، وإنّما وجدتُك أهلاً للعبادة فعبدتُك.

وإذا انتفت الرغبة والرهبة وجب التساوي في العبادة حالتيهما.

[**ألا وإنّي لم أر كالجنّة نام طالبها، ولا كالنار نام راهبها**] أي: من العجب من يوقن بالجنّة كيف يطلبها وينام عنها، ومن يوقن بالنار كيف يهرب منها وينام، والضمير في طالبها وراهبها يعود إلى المفعول الأوّل لرأيت المحذوف المشبّه في الموضعين، أي: لم أر نعمة كالجنّة، نام طالبها، ولانقمة كالنار، ونام في محلّ النصب مفعولاً ثانياً، وهو تنبيه على وجه الشبه، والمفعول الثاني في الجملتين صفة جارية على غير من هي له تنبيه للموقنين بالجنّة والنار، على كونهم نائمين في مراقد الطبيعة ليتفطّنوا للإستعداد، ولما وراءهم من ثواب أو عقاب.

ألا وإنّه من لاينفعه الحقّ يضرّه الباطل ولا من يستقيم به الهدى يحذ به الضلال إلى الردى ألا وإنّكم قد أُمرتم بالطعن ودللتم على الزاد

[**ألا وإنّه من لاينفعه الحقّ يضرّه الباطل**] الضمير في أنّه للشأن، وأراد بالحقّ الإقبال على اللّه بلزوم الأعمال الصالحة المطابقة للعقائد الصحيحة وبالباطل الإلتفات عنه إلى غيرذلك، ممّا لايجدي نفعاً في الآخرة، ولاريب أنّ وجود الحقّ مستلزم لمنفعته، فعدم منفعته إذن مستلزم لعدمه وعدمه مستلزم لوجود الباطل، لأنّ عمل المكلّف وعقيدته إمّا أن يطابق أمر اللّه أو لا، والأوّل الحقّ، والثاني الباطل، وعدم الأوّل مستلزم لوجود الثاني، ووجود الباطل مستلزم لمضرّته، فظهر انّ عدم منفعة الحقّ مستلزم لوجود مضرّة الباطل.

[**ولا من يستقيم به الهدى يحذ به الضلال إلى الردى**] كنّى بالهدى عن نور العلم والإيمان وبالضلال عن الجهل، والخروج عن أمر اللّه أي من لم يكن الهدى دليله وقائده إلى الصراط السويّ، فلابدّ وأن ينحرف به الضلال عنه، لأنّ الهدى يستلزم استقامة الإنسان على الجادة، كما انّ عدم استقامة الهدى مستلزم لعدم الهدى المستلزم لوجود الضلال المستلزم للعدول عن الصراط.

[**ألا وإنّكم قد أُمرتم بالطعن**] والمسير إلى اللّه تعالى [**ودللتم على الزاد**] من الطاعات، قال تعالى: ﴿ففرّوا إلى اللّه وإنّي لكم منه نذير مبين﴾ وقال: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربّكم﴾ وقال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ وقال: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

وإنّ أخوف ماأخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل وتزوّدوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم به غداً

[**وإنّ أخوف ماأخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل**] لاستلزامهما الإعراض عن الآخرة، المستلزم لعدم الطعن المأمور به إليها.

[**وتزوّدوا في الدنيا من الدنيا**] قال عليه السلام: نعم العون على الآخرة الدنيا، ثمّ انّ الزاد الموصل إلى اللّه إمّا علم أو عمل، وكلاهما يحصلان من الدنيا في الدنيا.

[**ما تحرزون أنفسكم به غداً**] إشارة إلى أنّ كلّ زاد أعدّ به الإنسان نفسه للوصول إلى جوار اللّه فقد احترز به من عذابه، وحفظ به نفسه ﴿يوم لاينفع مال ولابنون إلاّ من أتى اللّهَ بقلب سليم﴾.

قال السيّد: وأقول: لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطرّ إلى عمد الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الأعمال وقادحال لزناد الإتّعاظ والإنزجار.

ومن أعجب قوله: ألا وإنّ اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنّة، والغاية النار، فإنّ فيه مع فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل وواقع التشبيه سرّاً عجيباً، ومعنى لطيفاً وهو قوله عليه السلام: «والسقة الجنّة» لانّ الإستباق إنّما يكون لأمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنّة، وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ باللّه منها، ولم يجز أن يقول والسبقة إلى النار، بل قال: والغاية النار، لأنّ الغاية قد ينتهي إليها من لايسرّه الإنتهاء إليها، ومن يسرّه ذلك فيصلح أن يعبّر بها عن الأمرين معاً،

أيّها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم

فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل، قال عزّ ذكره: ﴿قل تمتّعوا فإنّ مصيركم إلى النار﴾.

ولايجوز أن يقال في هذا الموضع: فإن سبقتكم إلى النار، فتأمّل ذلك، فباطنه عجيب، وغوره بعيد، وكذا في أكثر كلامهﷺ.

وقد جاء في رواية أُخرى: والسبقة الجنّة، بضمّ السين، والسبقة عندهم اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مال، أو عرض، والمعنيان متقاربان، لأنّ ذلك لايكون على جزاء على فعل الأمر المذموم، وإنّما يكون جزاء على فعل الأمر المحمود.

ومن خطبة له عليه السلام

روي أنّ السبب فيها أنّ الضحّاك بن قيس بعد قصّة الحكمين وعزمه على المسير إلى الشام بعثه معاوية في أربعة آلاف فارس لما سمع باختلاف الناس على أميرالمؤمنين، ومقاتلة الخوارج، وحثّه على النهب والمغارة، فأقبل يقتل وينهب حتّى مرّ بالثعلبيّة، فانحاز على الحاج، فأخذ أمتعتهم وقتل عمروبن قيس بن مسعودبن أخي عبداللّه بن مسعود صاحب رسول اللّهﷺ، وقيل: معه ناساً من أصحابه، فلمّا بلغ عليّاًعليه السلام ذلك استصرخ أصحابه على أطراف أعماله، فتكاسلوا وتثاقلوا، ورأى منهم تعاجزاً وفشلاً، فقام خطيباً وقال:

[أيّها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم] إشارة إلى قوله تعالى:

كلامكم يوهي الصمّ الصلاب يقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد ما غرّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم

﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**كلامكم يوهي الصمّ الصلاب**] والوهي: الضعف، والصمّ: الأحجار القويّة، استعار لفظي الصمّ الصلاب من أوصاف الحجارة للقلوب الّتي تضعف من سماع كلامهم، ونظيره في التنزيل: ﴿ثمّ قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾ إشارة إلى قولهم في مجالسهم لانحتفل بالخصم، وإنّه لمخذول، ومن يكون وسنفعل بهم وكذا وكذا، ممّا يضعف عند سامعه القلوب الصلبة، وتظنّ السماع أنّ لهم ثباتاً، كما أشار إليه بقوله:

[**يقولون في المجالس كيت وكيت**] كناية عمّا يقولونه ممّا مرّ.

[**فإذا جاء القتال قلتم حيدي حياد**] كلمة يقولها الهارب الفارّ، أصله من حاد عن الشيء، أي: انحرف، أي: تنحّى عنها، ليتها الحرب، كقولهم ينحى فياح، وفياح اسم للحرب، أو الفارة، قيل: ويحتمل أن يكون حياد من أسماء الأفعال كنزال، فيكون قد أمر بالتنحّي بلفظين مختلفين.

[**ما غرّت دعوة من دعاكم**] بل كانت دعوته ذليلة لتقاعدكم عنها، والتقاعد مستلزم للحكم بذلّة الداعي.

[**ولا استراح قلب من قاساكم**] للحكم بتعبه بتكرار النصيحة والدعوى مرّة بعد أُخرى، وكرة غب أُولى ولا إجابة.

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لاحياة لمن تنادي

أعـاليل بأضـاليل دفـاع ذي الدين المطول لايمنع الضـيم الذلل ولا يدرك الجوّ إلاّ بالجدّ أيّ دار بعد داركم تمنعون

[أعـاليل] جـمع إعـلال، اسم لما يتـعلّل به ويعـتـذر [بأضـاليل] جـمع إضـلال، وهـما جـمع علّة، وضلّة اسم من الضلال، خـبر مبـتـدا محـذوف، أي: إذا دعـوتكم إلى القـتال تعـلّلتم، وهي أعـاليل باطلة، وأعـذار فاسـدة، سببها الضلال عن سبيل اللّه.

[**دفـاع ذي الدين المطول**] كـثير المطل، وهو تطويل الوعد وتسـويفـه، منصـوب بنزع الخـافض، أي: دفـاعكم كـدفـاع ذي الدَّيْن المطول، ويحـتـمل الرفع بأن استـعـار دفـاع ذي الدَّيْن المطـول دفـاعـهم. ووجـه الشـبـه أنّ المدين المطول أبداً منتـهي لعدم المطالبـة وتودّ نفسـه أن لايراه غريمه، وهـم يـحبّون أن لايعرض لهم بذكر القتـال، فاستعار لدفاعهم الدفـاع المذكور لمكان المشابهة، ثمّ نبّههم على قبح الذلّ بذكر بعض لوازمه، فقال:

[**لايمنع الضـيم الذلل**] أي: إنّ الذليل بالجبن لايتـمكّن من دفع الضـيم عن نفسه.

[**ولا يدرك الجـوّ إلاّ بالجـدّ**] إشـارة إلى قـبـح التـواني والـتـخـاذل بأنّ الإنسان لايدرك حقّه إلاّ بالجدّ والتشمير، ثمّ أعقب ذلك بالسـؤال على جهة الإنكار، فقال:

[**أيّ دار بعـد داركم**] الّتي هي دار الإسـلام والسـلام [**تمنعـون**] عنهـا العدوّ مع أنّ داركم هذه لانسبة لغيرها إليـها في العزّة، والكرامة، مع كـونها موطنهم ومحلّ دولتهم.

ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور واللّه من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناضل

[**ومع أيّ إمام بعدي تقاتلون؟**] مع كونه أفضل الناس حسباً ونسباً، عبداللّه، وأخ رسولﷺ، وفيه تثبيت لهم على طاعته، إذ كان يتوهّم في بعضهم الميل إلى معاوية، والرغبة فيما عنده من الدنيا، ثمّ أردف ذلك بذمّ من اغترّ بكلامهم، ثمّ بالإخبار بسوء حال أصحابه فقال:

[**المغرور واللّه من غررتموه**] والمقصود في الحقيقة ذمّهم وتوبيخهم على خلف المواعيد والمماطلة بالنفاذ إلى الحرب، ونسب من وثق بهم إلى الغر لخلفهم معه الوعد بالنهوض معه، وجعله المغرور مبتدا ومن خبره أبلغ في إثبات الغرّة لمن اغترّ بهم من العكس، لإفادته حينئذ انحصار المغرور فيمن اغترّ بهم.

[**ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب**] شبّهعليه السلام نفسه وإيّاهم باللاعبين بالميسر، ولاحظ شبه حصولهم في حقّه بخروج إحدى السهام في حصولهم له من باب اطلاق اسم أحد الضدّين على الآخر، كتسمية السيّئة جزاء، وقوله:

[**ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناضل**] لاحظعليه السلام المشابهة بين رجال الحرب، وبين السهام في كون كلّ منها عدّة للحرب، ودفع العدوّ، ولاحظها بين إرسالهم في الحرب وبين الرمي بالسهام، فلذا استعار وصف السهم من الأفوق والناضل، واستعار لفظ الرمي لمقاتلته بهم، ثمّ خصّصهم بأردى أوصاف السهم الّتي يبطل معها فائدته، لمشابهتهم ذلك السهم في

أصبحتُ واللّه لا أُصدق قولكم ولا أطمع في نصركم، ولا أُوعد العدوّ بكم ما بالكم؟ ما دواؤكم ما طبّكم القوم رجال أمثالكم

عدم الإنتفاع بهم في الحرب، وكأنّه أيضاً اختصّ بعثه لهم على الحرب باستعارة الرمي بالسهم الموصوف لزيادة الشبه، وهي عدم انبعاثهم عن أمره، وتجاوزهم أوطانهم كالرمي بالسهم الّذي لا فوق له ولا فضل، فإنّه لايكاد يتجاوز عن القوس مسافة، وهذا من لطائف الإستعارة والمشهابهة، والمعنى أنّ من كنتم في حزبه فالخيبة حاصلة له فيما يطلبه بكم، ومن قاتل بكم عدوّه فلا نفع له فيكم، ثمّ أردفه بالأخبار بأُمور نشأت عن إساءة ظنّه بهم، وعدم وثوقه بأقوالهم لكثرة خلفهم ومواعيدهم الباطلة بالنهوض معه، فقال:

[**أصبحتُ واللّه لا أُصدق قولكم**] لإكثارهم من الخلف والكذب، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن أمثالهم: إنّ الكذوب لايصدق.

[**ولا أطمع في نصركم، ولا أُوعد العدوّ بكم**] إذ كان وعيده بهم مع طول تخلّفهم وشعور العدوّ بذلك، ممّا يوجب جرأته وتسلّطه وأمانه من المقاومة، ثمّ أردف ذلك بالإستفهام الإنكاري، وتقريع حالهم، فقال:

[**ما بالكم؟ ما دواؤكم**] الّذي يصلح مرضكم هذا، مادواؤكم، سؤال عن كيفيّة علاجهم وماقبله عن دوائهم، أي: [**ما طبّكم**] وقيل: أراد ما عادتكم، ثمّ نبّههم على ماعساهم يتوهّمونه من قوّة خصومهم، فقال:

[**القوم رجال أمثالكم**] في الرجوليّة الّتي هي مظنّة الشجاعة والبأس، فلامزية لهم عليكم، فلا معنى لخوفكم منهم، ثمّ ذمّهم على مايصدر منهم من الأُمور القبيحة، فقال:

أقولاً بغير فعل وغفلة من غير ورع وطمعاً في غير حقّ

[**أقولاً بغير فعل**] أتقولون ما لاتفعلون بالنهوض إلى الحرب، ثمّ لاتنهضون، ﴿ياأيّها الّذين آمنوا لِمَ تقولون ما لاتفعلون كبر مقتاً عند اللّه أن تقولون ما لاتفعلون﴾.

وفي بعض النسخ: بغير علم، أي: أتقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، ولاتعتقدونه، أو أتقولون إنّا مخلصون للّه، وإنّا مسلمون، ولاتأتون بشرائط الإسلام والإيمان.

ثمّ نبّه عليه السلام ثانياً على غفلتهم فقال:

[**وغفلة من غير ورع**] وهذه هي المذمومة، وأمّا الغفلة مع الورع، فإنّها محمودة نافعة في الدارين، وهي عبارة عن ملازمة الأعمال الصالحة مع الغفلة عن الأُمور الدنيويّة، ومنهم البله الّذين أشار إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: أكثر أهل الجنّة البلهاء، أي: سليموا الصدور من الإهتمام بالدنيا، ووجوه تحصيلها، وذمّهم هنا باعتبار غفلتهم عن مصالح الجهاد.

[**وطمعاً في غير حقّ**] أي: فيما كانوا يتوقّعونه من التفضيل والزيادة على عطيّاتهم، كما فعل من قبله.

لو أمرتُ به لكنتُ قاتلاً أو نهيت عنه لكنت قاصراً، غير أنّ من نصره لايستطيع أن يقول خذله من أنا من غير منه، ومن خذله لايستطيع أن يقول نصره من هو خير منّي

ومن كلام له عليه السلام
في معنى قتل عثمان

[**لو أمرتُ به لكنتُ قاتلاً**] لأنّ الأمر بالشيء، بل الراضي به كفاعله [**أو نهيت عنه لكنت قاصراً، غير أنّ من نصره لايستطيع أن يقول خذله من أنا من غير منه، ومن خذله لايستطيع أن يقول نصره من هو خير منّي**] قيل: مفهوم الفصل التبرّي من دخول عثمان، والدخول فيه بأمر أو نهي في صورة شرطيّتين متّصلتين، يستنتج منها نقيض ملزومهما باستناد نقيض لازميهما، والملازمة عرفيّة فيما إذ الآمر بالقتل يسمّى قاتلاً عرفاً، والناهي عنه يسمى ناصر، وقوله: غير أنّ من نصره إلى آخره في معرض الجواب لمن أنكر بحضرته قعوده وجميع أكابر الصحابة عن نصرة عثمان، وقال: إنّهم لو نصروه وهم أكابر الصحابة لما اجترى عليه طغام الأُمّة، وإن كانوا رأوا الحقّ قبله، فكان يتعيّن عليهم أن يعرفوا الناس ذلك لترتفع الشبهة فأجابه بذلك، ومفهوم القضيّتين أنّي لو سلّمت أنّي خاذل له، فإنّ الخاذلين له كانوا أفضل من الناصرين، إذ الخاذلون أكابر الصحابة، والمناصرون بنواُميّة وأتباعهم، وليس لهم أن يدعوا الأفضليّة على الخاذلين، ولا للخاذلين أن يعترفوا

وأنا جامع لكم أمره استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع

بالمفضوليّة لهم، وهو في قوّة صغرى وتقدير كبراه، وكلّ من كان خاذلاً له أفضل من ناصريه، فلا يجوز لائمة خاذليه وتخصيصهم بالتعنيف في أمره، لأنّهم أفضل، والأفضل أولى أن يتّبع.

وقيل: إنّ هذه كلمة قرشيّة أراد بذلك أنّه عليه السلام عمى على الناس في كلامه قال: ولم يرد التبرّي من أمره، وإنّما المراد أنّ الخاذلين لايلحقهم المفضوليّة، بكونهم خاذلين، وإنّ الناصرين له لاتلحقهم الأفضليّة بنصرته.

قيل: ويمكن حمل كلامه على وجه آخر، وذلك أنّه إنّما قرّر أفضليّة الخاذلين على الناصرين، ليسلم هو من التخصيص باللائمة في القعود عن النصرة، فكأنّه قال: وإذا كان خاذلوه زفضل ناصريه تعيّن عليهم السؤال عن التخلّف، وإن يستشهد عليهم بحال الناصرين له مع كونهم مفضولين فلم خصّصت بالملائمة من بينه، وبالمطالبة بدمه لولا الأغراض الفاسدة.

وقال ابن أبي الحديد: هذا الكلام بظاهره يقتضي أنّه ما أمر بقتله، ولا نهى عنه، فيكون دمه عنده في حكم الأُمور المباحة التي لايؤمر بها، ولاينهى عنها.

وأورد عليه: أنّ التبرّي من الأمر بالشيء والنهي عنه غاية مايفهم منه عدم الدخول فيه، والسكوت عنه، ولايلزم من ذلك الحكم بأنّه من الأُمور المباحة، ثمّ أبان عليه السلام حاله وحالهم، فقال:

[وأنا جامع لكم أمره استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع]

يعني: إنّ عثمان استبدّ برأيه واستأثر فيها الأُمّة شركائه فيه، فخرج من ذلك

وللّه حكم واقع في المستأثر والجازع

إلى حدّ الإفراط الّذي فسد معه نظام الخلافة، وأدّى إلى ماأدّى، وأمّا قاتلوه فلخروجهم في الجزع من أفعاله إلى حدّ التفريط، إذ كان ينبغي لهم التثبّت وتنبيهه مرّة بعد أُخرى متدرّجين في مراتب النهي عن المنكر لا القتل ابتداء، ويحتمل أن يكون المعنى أسأتم الجزع عليه بعد قتله وأثرتم الفتنة والفساد.

[**وللّه حكم واقع في المستأثر والجازع**] أي: يحكم في الآخرة بينهما بما يستحقّانه من ثواب أو عقاب، أو فيما ارتكباه من خطأ أو صواب، كما قال تعالى: ﴿والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، قل اللّهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

وقيل: أراد عليه السلام بالحكم الواقع للّه في المستأثر الحكم المقدّر اللاحق لعثمان بالقتل المكتوب بقلم القضاء الإلهي في اللّوح المحفوظ، وفي الجازع هو الحكم في اللاحق لمقاتليه من كونهم قاتلين أو راضين أو جازعين.

وفي نسبة هذه الأحكام إلى اللّه تنبيه على تبرّيه من الدخول في أمر عثمان وقاتليه.

لاتلقينّ طلحة، فإنّك إن تلقيه تجده كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول

ومن كلام له عليه السلام

لمّا أنفذ عبداللّه بن عبّاس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل

ليستضيئه، أي: يسترجعه من فاء، أي: رجع ومنه الفيء إلى طاعته، قال عليه السلام:

[**لاتلقينّ طلحة، فإنّك إن تلقيه تجده**] وفي نسخة: تلفه من الفية أي: وجدته.

[**كالثور عاقصاً قرنه**] والعقص: الإعوجاج، وعقص الثور قرنيه بالفتح متعد، وعقص قرنه بالكسر لازم [**يركب الصعب**] وهي الدابّة الجموح.

[**ويقول هو الذلول**] السهل الساكن، أي: يستهين بالمستصعب من الأُمور ويتهوّر في الأُمور، ويتهوّر في الأُمور الصعبة، وقد شبّهه عليه السلام بالثور، وأشار إلى وجه الشبه بعقص القرن، وكنّى بالقرن عن شجاعته، وبالعقص الّذي هو التواء القرنين عن منع جانبه، وعدم الإنقياد لأحد اللازم

ولكن ألق الزبير فإنّه ألين عريكة فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فماعدا ممّا بدا، قال السيّد وهو عليه السلام أوّل من سمع منه ماعدا ممّا بدا

من الكبر والعُجب بالنفس الّذي قد يعرض للشجاع، ووجه الإستعارة أنّ القرن آلة القوّة لكنوز يمنع بها عن نفسه، كالشجاعة الّتي يلزمها منع الجانب، وأنّه عند إرادة الخصام، يعقص قرنيه، أي: يرخي رأسه ويعطف قرنيه، يقابل بهما خصمه، ولعلّ أراد عليه السلام أنّه عند لقاء ابن عبّاس له يكون مانعاً جانب متهيّأً للقتال مقابلاً بالخشونة، وعدم الإنقياد الصادر عن عجبه بنفسه، وغروره بشجاعته.

قيل: ويحتمل أن يكون وجه الشبه هو التواء طلحة في آرائه وانحرافه عنه عليه السلام بالتشبيه بالتواء القرن، وهو تشبيه المعقول بالمحسوس، ثمّ قال عليه السلام:

[**ولكن ألق الزبير فإنّه ألين عريكة**] أي: طبعاً وخلقاً، فإنّه كان سهل الجانب لايحتاج فيما يراد منه إلى تكلّف، كالجلد اللّين الّذي يسهل عركه.

[**فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فماعدا ممّا بدا، قال السيّد وهو عليه السلام أوّل من سمع منه ماعدا ممّا بدا**] وذكّره بالنسب والرحم لاستلزامه الإستمالة والإنعطاف، ونحوه قوله تعالى في ذكر موسى وهارون: ﴿فألقى الألواح وأخذ برأسه يجرّه إليه قال ابن أُمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء﴾ فإنّ فيه من الإستمالة والإستعطاف بتذكيره حقّ الأُخوّة، سيّما النسبة إلى الأُمّ ماليس في غيره، مثل قوله: ﴿ياموسى﴾ أو ﴿ياأيّها النبيّ﴾ ونحوهما.

أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود

وقوله: فما عدا قال ابن أبي الحديد: عدا بمعنى صرف، أي: ماصرفك عمّا كان بدا منك، أي: ظهر، والمعنى: ماالّذي صدّك عن طاعتي بعد إظهارك لها، وحذف الضمير المفعول المنصوب كثير جداً، كقوله تعالى: ﴿واسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ اي: أرسلناه، انتهى.

وقيل: عدا بمعنى جاوز، ومن لبيان الجنس، والمراد: ماالّذي جاوز بك عن بيعتي ممّا بدا لك بعدها من الأُمور الّتي ظهرت لك.

وروي عن الصادق، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام قال: سألت ابن عبّاس عن تلك الرسالة، فقال: بعثني فأتيت الزبير فقلت له، فقال: إنّي أُريد ماتريد، كأنّه يقول الملك، ولم يزدني على ذلك، فرجعتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته.

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: قلت الكلمة للزبير فلم يزدني على أن قال: أنا مع الخوف الشديد لنطمع.

وسئل ابن عبّاس عمّا يعني الزبير بقوله: هذا، فقال: يقول أنا على الخوف لنطمع أن نلي من الأمر ماولّيتم، وربّما فسّر بإرادته إنّا مع الخوف الشديد من اللّه نطمع أن يغفر لنا هذا الذنب، وهو بعيد.

ومن خطبة له عليه السلام

[أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود] جائر من عَند عن الطريق يعند بالضمّ، أي: عدل وجار، أو من عَند يَعند بالكسر، أي: خالف، وردّ

وزمن شديد يُعدّ المحسن فيه مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوّاً

الحقّ، وهو يعرفه، إلاّ أنّ اسم فاعله عاند وعنيد وعنود اسم فاعل عند يعند بالضمّ.

[**وزمن شديد**] ربّما يفسّر بالبخيل، كقوله: ﴿وإنّه لحبّ الخير لشديد﴾ أي: بخيل، لأجل حبّ المال.

وفي رواية: زمن كنود، وهو الكفور، وقد تعارف نسبة الخير والشرّ إلى بعض الأزمنة دون بعض، لأنّ الزمان من الأسباب للعدّة لحصول مايحصل في هذا العالم من الحوادث والأُمور الواقعة فيه خيرها وشرّها، وقد تتفاوت الأزمنة في الإستعداد لقبول الخير زو الشرّ، ففي بعضها يكون الخير بحسب الإستقراء غالباً خصوصاً في زمن قوّة الدين والنواميس الشرعيّة الناظمة للعالَم، وفي بعضها يكون الشرّ غالباً كما في العكس، ثمّ أشار عليه السلام إلى تعداد الأوصاف الّتي باعتبارها وصف الزمان بالرداءة، فقال:

[**يُعدّ المحسن فيه مسيئاً**] كما طريقة أهل الكسل عن الطاعات، والّذين يقيسون غيرهم على أنفسهم، فيعدّون الباذل ماله في اللّه مرائياً، ونحو ذلك من الفضائل يعدّونها رذائل طعناً في فضيلة صاحب الفضيلة، وحسداً أن ينال رتبة أعلى، فيلحقونه بدرجاتهم في الإساءة، ثمّ قال:

[**ويزداد الظالم فيه عتوّاً**] أي: كبراً، وذلك لأنّ منشأ الظلم و النفس الأمّارة بالسوء، وهي في زمان العدل مقهوردة دائماً أو غالباً، وثورانها في ذلك الوقت طالبة للظلم، يكون فلتة وانتهاز فرصة، فالظالم في زمان العدل إن ظلم أو تجاوز حدّه فكالسارق الّذي لايأمن في كلّ لحظة أن يقع به

لاننتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا ولانتخوّف قارعة حتّى تحلّ بنا فالناس على أربعة أصناف

المكروه، فكذا الظالم في زمن العدل مقوم بحرّاس الشريعة مرصود بعيون طلائعها، أمّا في زمان ضعف الشريعة، فالظالم فيه كالناهب معطي لقوته سؤلها فعتوّه فيه أزيد، وقد كان عليه السلام في زمانه بالنسبة إلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله كذلك، ثمّ أشار عليه السلام إلى ثالث العيوب بقوله:

[**لاننتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا**] توبيخ لعدم عمل العالم بعلمه، وعدم سؤال الجاهل عمّا جهله لقلّة الرغبة في العلم والإنتفاع ب، وقد تظافرت الأخبار بأنّ العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلاّ ارتحل، وقوله:

[**ولانتخوّف قارعة حتّى تحلّ بنا**] القارعة: الخَطْب الذي يقرع، أي: يصيب، كناية عن عدم فكرهم في مآل أمرهم وعواقب أحوالهم واشتغالهم بما لايعنيهم عن تدمير مصالحهم، وفيه إيماء إلى مايستقبلونه من الفتن من بني أُميّة وغيرهم، ثمّ قال عليه السلام:

[**فالناس على أربعة أصناف**] وسياق كلامه عليه السلام يقتضي كونهم خمسة، ولكنّه عليه السلام أفرد الأربعة لاشتراكها في غرض الذمّ، وأفرد الخامس لاختصاصه بالمدح، ووجه القسمة أنّ الناس إمّا يريدون للدنيا أو للّه، والأوّلون إمّا قادرون عليها أو غير قادرين، وغيرالقادرين إمّا غيرمحتالين لها أو محتالون، والمحتالون إمّا أن يؤهلوا نفوسهم للآخرة والملك أو لما هو دون ذلك، فأشار عليه السلام إلى هذه الأقسام بقوله:

منهم من لايمنعه من الفساد في الأرض إلّا مهابة نفسه وكلالة حدّه ونضيض وفره ومنهم المصلت بسيفه والمعن بشرّه والمجلب بخيله ورجله قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مِقْنَب يقوده أو منبر يفرعه

[**منهم من لايمنعه من الفساد في الأرض إلّا مهابة نفسه**] أي: حقارتها [**وكلالة حدّه**] يقال: كلّ حدّ السيف وغيره إذا وقف عن القطع.

[**ونضيض وفره**] أي: قلّة مال، وكنّى بكلالة حدّه عن عدم قطعه في الأمور وإمضائه لها، وضعفه عنها، وتنضيض وفره إلى ماقيل الفقر يمنعه عن كلّ فاحشة، وفي المثل الفارسي: «مستورى بى‌بى از بى‌حادرى».

ومعلوم أنّ المريد للدنيا المنهمك في شهواتها لو خلّى ونفسه ولم يمنعه مانع لم يكن سعيه فيها إلّا فساداً، وهذا إشارة إلى الصنف الثاني المريدين لها غير القادرين ليها، وأشار إلى القسم الأوّل بقوله:

[**ومنهم المصلت بسيفه**] أي: الماضي في الأُمور بقوته [**والمعن بشرّه**] المتجاهر بأفعاله السيّئة الخبيثة [**والمجلب بخيله ورجله**] أي: المستعين على الأمور بجمع الخيل والرجالة، والرجل جمع راجل.

[**قد أشرط نفسه**] أي: أعلمها وأعدّ لها [**وأوبق دينه**] أي: أهلكه [**لحطام ينتهزه**] والحطام متاع الدنيا، وأصله مايكسر من التين، والإنتهاز: الإختلاس والإستلاب بقدر الإمكان.

[**أو مِقْنَب**] بكسر الميم وفتح النون: الجمع من الخيل مابين الثلاثين إلى الأربعين.

[**يقوده أو منبر يفرعه**] أي: يعلو، وهؤلاء هم القادرون على الدنيا،

ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، وممّا لك عند اللّه عوضاً

الخائضون في شواتها، السابحون في لذّاتها، المطلقون للقوى الشهويّة والغضبيّة في إرادتها، المرخون عنان النفس الأمّارة في مشتهياتها، فإصلات السيف كناية عن التغلّب والقهر، وإعلان الشرّ المجاهرة بالظلم والعدوان، والإجلاب بالخيل والرجل جمع أسباب الظلم وآلات الغلبة، ودواعي الإستعلاء والقهر وإشراط نفسه تأهيلها وإعدادها للفساد في الأرض.

ومن المعلوم إنّ نتيجة هذه الأُمور فساد الدين، وقوله لحطام إلى آخره، إشارة إلى بعض العلل الغائيّة للصنف المذكور، واستعار لفظ الحطام للمال، ووجه المشابهة أنّ اليبس من النبات كما أنّه لانفع له بالقياس إلى مايبقى من خضرته ونضارته أو يكون ذاثمرة كذلك المال بالنسبة إلى الأعمال الصالحة الباقي نفعها في الآخرة، وخصّ هذه الأُمور الثلاثة لكونها الأغلب في مطالب الدنيا، إذ الغالب أنّ السعي فيها إمّا لجمع المال أو لرئاسة دنيويّة باقتناء الخيل والنعم، أو دينيّة كعلوّ المنابر والوعظ والإرشاد والتعليم، وهذا هو الّذي يحمل الدين فخّاً لتحصيل الدنيا، ولذا قال عليه السلام:

[ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، وممّا لك عند اللّه عوضاً]

تنبيه على أنّ هذا الصنف من الخاسرين في أفعالهم الشبيهة بالتجارة الخاسرة، فإنّ طالب الدنيا هالك في الآخرة على كلّ حال، فهو كالبائع لها بما حصل له من دنياه، والمعتاض بما أعدّ اللّه له من الآجر الجزيل في الآخرة بالحطام الذاتي، وتبقى تبعته، ولذا استعار لفظ التجارة لها فعن قريب تفنى دنياه ويخسر الدنيا والآخرة ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾.

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولايطلب الآخرة بعمل الدنيا قد طامن شخصه وقارب من خطوه وشمّر من ثوبه وزخرف من نفسه للأمانة واتّخذ ستر اللّه ذريعة إلى المعصية ومنهم من أقعده عن الملك ضؤولة نفس

ثمّ أشار إلى الصنف الثالث الغير القادرين على الدنيا مع احتيالهم لها بقوله:

[**ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة**] كالرياء والسمعة في الأعمال الصالحة يجعلها وسيلة لتحصيل الدنيا الدنيّة.

[**ولايطلب الآخرة بعمل الدنيا**] لأنّه مريد الدنيا فقط دون الآخرة.

ثمّ أشار إلى كيفيّة احتياله لتحصيلها، بقوله:

[**قد طامن شخصه**] أي: خفض، والإسم الطمأنينة [**وقارب من خطوه**] لم يسرع ومشى رويداً.

[**وشمّر من ثوبه**] أي: رفعه.

[**وزخرف**] أي: زيّن [**من نفسه للأمانة**] أي: زيّنها وأظهر أنّه أمين صالح، ونحو ذلك من شعار الصالحين من عباد اللّه.

[**واتّخذ ستر اللّه**] عليه، الّذي حماه به، بحيث لو اطّلع عليه غيره لما فعله.

[**ذريعة إلى المعصية**] وإلى ماأمّلوه من الدنيا الفانية، كلّ ذلك لأجل استمالة قلوب أهل الدنيا حتّى يطمئنّوا إليهم في أموالهم.

ثمّ أشار عليه السلام إلى الصنف الرابع الغير القادرين عليها بقوله:

[**ومنهم من أقعده عن الملك ضؤولة نفس**] أي: حقارتها وقصورها عن

وانقطاع سببه فقصرته الحال على حاله فتحلّى باسم القناعة وتلبّس بلباس أهل الزهادة وليس هو من ذلك في مراح ومغدى وبقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع

تحصيل المراتب العالية، وظنّها عدم تمكّنها ممّا تطلبه من الدنيا وإن كان محبوباً لها مرغوباً فيه.

[**وانقطاع سببه**] من قلّة المال د الأعوان والأنصار.

[**فقصرته الحال على حاله**] الّتي لم يبلغ معها ماأراد، ووقفت به عليها فعدل عن ذلك الغير المقدور له إلى أمر آخر يسهل عليه.

[**فتحلّى باسم القناعة**] بلا مسمّى.

[**وتلبّس بلباس أهل الزهادة**] من اللباس الخشن ونحوه، بلا حقيقة، والمواظبة على العبادات ولزوم ظواهر أمر اللّه من دون أن يكون ذلك عن أصل أصيل، واعتقاد صحيح قاده إلى ذلك.

[**وليس هو من ذلك في مراح ومغدى**] والمراح: المكان الّذي تأوي إليه الماشية بالليل، والمغدى: هو الّذي تأوي إليه بالغداة، كنّى بذلك عن أنّه ليس من القناعة والزهد في شيء أصلاً، ثمّ أشار إلى الصنف الخامس وهم المريدون بقوله:

[**وبقي رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع**] إلى اللّه، وتذكّروا أنّهم سيقفون بين يدي ربّ الأرباب، ومالك الرقاب، وسلطان يوم الحساب، ويسألون عن النقير والقطمير والصغير والكبير الجليل والحقير، وعلموا أنّ اللّه مطلع على سرائرهم محيط بما ف ضمائرهم معهم أينما كانوا فأعرضوا عن غيره واستحيوا منه حقّ الحياء وغضّوا أبصارهم وبصائرهم عن غيره.

وأراق دموعهم خوف المحشر فيهم بين شريد وناد وخائف مقموع

[**وأراق دموعهم خوف المحشر**] وهول المطلع، قال بعض العارفين: إنّ خوف الخائفين قد يكون لأمور مكروهة لذاتها، وقد يكون لأمور مكروهة لأدائها إلى ما هو مكروه لذاته، وأقسام القسم الثاني كثيرة كخوف الموت قبل التوبة أو خوف نقص التوبة أو خوف الإنحراف عن القصد في عبادة اللّه أو خوف استيلاء القوى الشهوانيّة بحسب مجرى العادة في استعمال الشهوات المألوفة، أو خوف تبعات النفس عنده، أو خوف سوء الخاتمة، أو خوف سبق الشقاوة في علم اللّه، وكلّ هذه ونحوها مخاوف عباد اللّه الصالحين، وأغلبها على قلوب المتّقين خوف الخاتمة.

وأمّا أقسام القسم الأوّل فمثل أن يتمثّل في نفوسهم ما هو المكروه لذاته، كسكرات الموت وشدّته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هو الموقف بين يدي اللّه تعالى، أو الحياء من كشف السرّ، والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته، وكيفيّة العبور عليه، أو من النار وأغلالها وأهوالها، أو من حرمان الجنّة أو من نقصان الدرجات فيها، أو خوف الحجاب من اللّه وأعلاها رتبة خوف الفراق والحجاب، وهو خوف العارفين، وخوف المحشر يشمل جميع ذلك.

[**فيهم بين شريد**] والشريد: المشرّد المطرود.

[**وناد**] أي: ذاهب على وجهه لكثرة إنكاره المنكر، أو لقلّة صبره على مشاهدة المنكرات.

[**وخائف مقموع**] والقمع الإذلال.

وساكت مكموم وداع مخلص وثكلان موجع قد أخملتهم التقيّة وشملتهم الذلّة فهم في بحر أُجاج أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة

[**وساكت مكموم**] لايمكنه الكلام، كأنّه سدّ فوه بالكعام، وهو شيء يجعل في فم البعير عند الهياج كان التقيّة شدّت فاه عن الكلام، فاستعار لفظة الكعام لذلك.

[**وداع مخلص**] للّه [**وثكلان موجع**] إمّا لمصابه في الدين، أو لكثرة أذى الظالمين.

[**قد أخملتهم التقيّة**] أي: أسقطتهم وأرذلتهم بين الناس والتقيّة والتقوى الخوف.

[**وشملتهم الذلّة**] بسبب الخوف من الأعداء.

[**فهم في بحر أُجاج**] مالح، واستعار لفظ البحر الأُجاج لما هم فيه من أحوال الدنيا الباطلة، ووجه المشابهة أنّ الدنيا كما لاتصلح للإقتناء والإستمتاع بها، بل تكون سبباً للعذاب في الآخرة كذلك البحر لايمكن سابحه شربه وإن بلغ به جهد العطش مبلغه.

[**أفواههم ضامرة**] بالراء المهملة، أي: ذابلة لكثرة صيامهم وبعد أفواههم من المضغ وبالزاي المعجمة أي: ساكنه.

[**وقلوبهم قرحة**] جوعاً أو خوفاً من اللّه أو عطشاً إلى رحمته ورضوانه، أو لما يشاهدونه من كثرة المنكرات، وعدم تمكّنهم من إنكارها.

قد وعظوا حتّى ملّوا وقهروا حتّى ذلّوا وقتلوا حتّى قلّوا فلتكن الدنيا في أعينكم أحقر من حثالة القرظ وقراضة الجلم واتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمة

[**قد وعظوا**] الخلق ونصحوهم وأرشدوهم.

[**حتّى ملّوا**] من تكرار ذلك وعدم تأثيره في السامعين.

[**وقهروا**] من أعداء الدين وكيد المنافقين وخمول شعائر الدين.

[**حتّى ذلّوا وقتلوا**] أي: أكثرهم في سبيل اللّه [**حتّى قلّوا فلتكن الدنيا في أعينكم**] أي: السامعون صغيرة حقيرة.

[**أحقر من حثالة القرظ**] والحثالة: الثفل والقرظ ورق يدبغ به.

[**وقراضة الجلم**] والجلم: المقراض تخربه أوبار الإبل وقراضته: ماتساقط من قرضه.

[**واتّعظوا بمن كان قبلكم**] من الأُمم الماضية، والقرون الخالية، فإنّ في حالهم عبرة لمن اعتبر، وتبصرة لمن تبصّر.

[**قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم**] فإنّكم مضطرّون إلى مفارقة ماأنتم فيه، وفائدة الأمر بالإتّعاظ الإعراض عن الدنيا وعدم الإغترار بها والإقبال على الأعمال الصالحة، ثمّ لما كان ماسبق من قبيل الكناية والإشارة إلى ترك الدنيا ولذّاتها، عقّبه عليه السلام بالتصريح فقال:

[**وارفضوها**] أي: تركوا الدنيا قبل أن تترككم حال كونها [**ذميمة**]

فإنّها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

حقيرة [فإنّها قد رفضت من كان أشغف بها منكم] فلادوام لصحّتها، ولاثبات لرفاقتها، فإنّها إذا رفضت من هو أحبّ لها منكم وأحرص عليها ولم تدم له، فبالأولى أن لاتدوم لكم، واللائق بالعاقل الإعراض عمّن لاتدوم صحبته ولاتصفو محبّته، فكيف بما إذا كان غدّاراً مكّاراً عدوّاً يلقي من أقبل عليه على أُمّ رأسه.

قال السيّد (ره): وهذه الخطبة ربّما نسبها من لاعلم له إلى معاوية، وهي من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام الّذي لاشكّ فيه، وأين الذاهب من الرغم والعذب من الأُجاج، وقد دلّ على ذلك الدليل الخريت أي: الحاذق، ونقده الناقد البصير عمروبن بحر الجاحظ، فإنّه ذكر هذه الخطبة في كتابه البيان والتبيين، وذكر من نسبها إلى معاوية، ثمّ تكلّم بعدها بكلام في معناها جملته أنّه قال: وهذا الكلام بكلام أميرالمؤمنين عليه السلام أشبه، وبمذهب في تصنيف الناس.

وفي الأخبار عمّا هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقيّة والخوف أليق، ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال سلك مسلك الزهّاد ومذاهب العباد.

وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً إنّ الله سبحانه بعث محمّداًﷺ وليس أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدّعي نبوّة

ومن خطبة له عليه السلام
عند خروجه لقتال أهل البصرة

قال عبدالله بن عبّاس (رض): دخلتُ على أميرالمؤمنين عليه السلام بذي قار، وهو موضع قريب من البصرة، نُصرت فيه العرب على الفرس قبل الإسلام.

[**وهو يخصف نعله**] أي: يخرزها [**فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟**] فقلت: لاقيمة لها، فقال:

[**والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً**] ثمّ خرج عليه السلام فخطب الناس فقال:

[**إنّ الله سبحانه بعث محمّداًﷺ وليس أحد من العرب يقرء كتاباً ولا يدّعي نبوّة**] الواو للحال، وفيه إشارة إلى ما كانت اليهود تدعيه من التوراة والنصارى من الإنجيل، ليس في الحقيقة هو المنزل من عند الله على موسى وعيسى عليهما السلام، بل حرّفوهما وبدّلوهما، قال تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾. وقال: ﴿قل من أنزل الكتاب الّذي أُنزل على موسى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ أو إنّه أراد بالعرب جمهورهم، وكانوا معطّلة وعبدة أوثان.

فساق الناس حتّى بوّأهم محلّتهم وبلّغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنّت صفاتهم

[**فساق الناس حتّى بوّأهم**] أسكنهم [**محلّتهم**] منزلتهم [**وبلّغهم منجاتهم**] أي: موضع نجاتهم، كنّى بذلك عن سوقه العقلي أذهانهم بالآيات والبراهين إلى دين اللّه القويم، وصراطه المستقيم، وشريعته الغرّاء، وملّته الزهراء، وكنّى بمحلّتهم ومنزلتهم فطرتهم الّتي فُطروا عليها أو مرتبتهم الّتي خلقوا لأجلها، وأُشير إليها بقوله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾ .

وهي في الحقيقة لزوم القصد في سبيل اللّه المسمّى إسلاماً وديناً وإيماناً، وهو في الحقيقة النجاة الّتي لاخوف على سالكها، ولا سلامة للمنحرف عنها.

[**فاستقامت قناتهم**] بها، بعد أن كانت مموّجة، أي: استقاموا على الإسلام بعد الكفر، أو كناية عن استقامة دولتهم وانتظام أُمورهم، فالمراد بالقناة القوّة والغلبة والدولة الّتي حصلت لهم من إطلاق السبب على المسبّب، فإنّ الرمح سبب للقوّة.

[**واطمأنّت صفاتهم**] والصفاة: الحجر الأملس المنبسط، استعارة لحالهم الّتي كانوا عليها، ووجه الشبه أنّهم كانوا قبل الإسلام في مواطنهم وعلى أحوالهم متزلزلين لايقرّ بعضهم بعضاً في موطن، ولا على حال، بل لم يزالوا في الغارة والنهب والجلاء، كالواقف على الحجر الأملس المتزلزل المضطرب، فاطمأنّت أحوالهم، وسكنوا في مواطنهم ببركة سيّد المرسلين، وأخيه أميرالمؤمنين.

أما والله إنّي كنتُ لفي ساقتها حتّى تولّت بحذافيرها ماعجزت ولاجبنت وإنّ مسيري هذا لمثلها فلأنقُبَنَّ الباطل حتّى أخرج الحقّ من خاصرته

[**أما والله إنّي كنتُ لفي ساقتها**] جمع سائق كحائك وحاكه، ثمّ استعملت في الأخير، لأنّ السائق إنّما يكون في آخر المركب والجيش.

[**حتّى تولّت بحذافيرها**] أي: بأسرها، أقسم عليه السلام أنّه لم يزل في ساقتها يطردها وهي تطرد أمامه حتّى تولّت بأسرها، لم يبق منها شيء من غير عجز اعتراه، ولا جبن كما قال:

[**ماعجزت ولاجبنت**] والضمير في ساقتها للحرب المستنبط من الناس، فكأنّه قال: فساق الناس وهم يومئذ كتائب، فكنت في ساقتها حتّى تولّت تلك الكتائب بأسرها، لم يبق فيها مايغالبه.

[**وإنّ مسيري هذا**] وفي نسخة غداً [**لمثلها**] أي: لمثل تلك الحال الّتي كنتُ عليها معهم زمان كفرهم من سوق كتائبهم وطردها من غير جبن ولا ضعف، وهو في معرض التهديد، الّذي عساه أن يبلغ خصومه ويقوي به أولياءه، وكذا قوله:

[**فلأنقُبَنَّ**] وفي نسخة: لايقرن [**الباطل حتّى أخرج الحقّ من خاصرته**] وفي نسخة: حتّى يخرج الحقّ من جانبه، في معنى التهديد أيضاً، وفيه تنبيه على ماعليه خصومه من الباطل، واستعار لفظ الخاصرة للباطل، والبقر والثقب لتفريق الباطل، وتمييز الحقّ، تشبيهاً له في استتار الحقّ فيه، وعدم تمييزه منه بحيوان ابتلع جوهراً ثميناً أغلا منه قيمة، وأتمّ فائدة، فاحتيج إلى شقّ بطنه في استخلاص مابتلعه.

ما لي ولقريش والله لقد قاتلتهم كافرين وقاتلتهم مفتونين ولأقاتلنّهم مفتونين وأنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم

[**ما لي ولقريش**] اسفهام انكاري، حيث جحدوا فضيلته، وخانوا بيعته، وقطعوا قرابته وأنكروا مودّته، واستحلّوا مقاتلته.

[**والله لقد قاتلتهم كافرين**] إظهاراً لامتنانه عليهم حيث أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، وتعيير لهم بما كانوا عليه من الكفر، حتّى يذعنوا بفضله عليهم، وينفعلوا من مقاتلته بالكفران والإنكار عليه، إذ كانوا أولى بإتيان المنكر منه، وهو أولى بردّهم عنه آخراً، كما كان أوّلاً، وكذا قوله:

[**وقاتلتهم مفتونين**] على ما في بعض النسخ، وفي أكثرها: [**ولأقاتلنّهم مفتونين**] تهديد لهم بمقاتلتهم ومحاربتهم على فتنتهم وضلالهم عن الدين، وكافرين ومفتونين نصب على الحال، وفي تعليق الحكم عليهما إشعار بعلّة قتالهم في الحالَيْن، وهو طلب الإستقامة في الرجوع عن الضلال إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحقّ.

[**وأنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم**] تهديد لهم بالرعب والخوف، فإنّي أنا الّذي سفكتُ دماءهم وقتلت شجعانهم، لم أتغيّر ولم أتبدّل.

أفٍّ لكم

ومن خطبة له عليه السلام
في استنفار الناس إلى أهل الشام

روي أنّه عليه السلام خطب بها بعد فراغه من أمر الخوارج، وقد كان قام بالنهروان، فحمد اللّه وأثنى عليه، وقال:

أمّا بعد، فإنّ اللّه قد أحسن نصركم، فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم من أهل الشام، فقالوا له: قد نفدت نبالنا، وكلّت سيوفنا، ارجع بنا إلى مصرنا لنصلح عدّتنا، ولعلّ أميرالمؤمنين عليه السلام يزيد في عددنا مثل من هلك منّا، لنستعين به، فأجابهم:

﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة الّتي كتب اللّه لكم ولاترتدّوا على أدباركم﴾ الآية، فتلكّؤا عليه وقالوا: إنّ البرد شديد، فقال: إنّهم يجدون البرد كما تجدون.

[أفٍّ لكم] ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿ياموسى إنّ فيها قوماً جبّارين﴾ إلى قولهم: ﴿فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون﴾ فقام منهم ناس، واعتذروا بكثرة الخراج في الناس، وطلبوا أن يرجع بهم إلى الكوفة أيّاماً، ثمّ يخرج بهم، فرجع بهم غير راض، وأنزلهم نخيلة، وأمرهم أن يلزموا معسكرهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، ويقلّوا زيارة أهلهم، وجعلوا

أُفٍّ لكم لقد سئمتُ عتابكم أرَضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً؟ وبالذلّ من العزّ خلفاً؟

يتسلّلون ويدخلون الكوفة، حتّى لم يبق معه إلاّ القليل منهم، فلمّا رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس فقال:

أيّها الناس! استعدّوا لقتال عدوّ ف جهادهم القربة إلى اللّه ودرك الوسيلة عنده قوم حيارى عن الحقّ، لاينصرونه موزعين بالجور والظلم، لايعدلون به جفاة عن الكتاب، نكب عن الدين، يعمهون في الطغيان، ويتسفّكون في غمرة الضلال، ﴿فأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ومن رباط الخيل﴾ وتوكّلوا على اللّه وكفى باللّه وكيلاً، قال: فلم ينفروا، فتركهم أيّاماً، ثمّ خطبهم بهذه الخطبة فقال:

[**أُفٍّ لكم**] كلمة استقذار ومهانة، ثمّ أبان بعض ما تأنّف منه، فقال:

[**لقدْ سئمتُ**] أي: مملتُ [**عتابكم**] من كثرة تكراره مرّة بعد أُخرى، وكرّة غبّ أُولى.

[**أرَضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً؟ وبالذلّ من العزّ خلفاً؟**] استفهام انكاري، فإنّ الجهاد من أعظم الطاعات الإلهيّة، ويثمر المثوبات الأُخرويّة، والدرجة العالية، والرتبة السامية، ويثمر في الدنيا عزّة الجانب، وغنيمة المال والمدح في الألسن، وخوف الأعداء، والتقاعد عنه يستلزم الذلّة وطمع العدوّ، فلذا كان صاحبه كمن اعتاض الدنيا من الآخرة، والذلّ من العزّ، وعوضاً وخلفاً منصوبان على التميز.

إذا دعوتُكم إلى جهاد عدوّكم دارت أعينكم كأنّكم من الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة يرتجّ عليكم جواري فتعمهون فكأنّ قلوبكم مألوسة وأنتم لاتعقلون ما أنتم لي بثقة أبداً سجيس اللّيالي

[**إذا دعوتُكم إلى جهاد عدوّكم دارت أعينكم كأنّكم من الموت في غمرة**] تبكّيت لهم بأنّهم عند دعوتهم إلى الجهاد تدور أعينهم تردداً وحيرة وخوفاً من مخالفة دعوته، أو من الإقدام على الموت، كأنّكم في تلك الحال عند دوران الأعين والحيرة من الموت في غمرة، غمرات الموت: سكراته الّتي يغمر فيها العقل، ويشتغل بما يجده من الألم عن أهله وماله، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذي يُغشىٰ عليه من الموت﴾ وقوله:

[**ومن الذهول في سكرة**] قريب من سابقه، شبّه حال ذهولهم عن جهاد عدوّهم، واشتغالهم عنه بما في أيديهم بحال من في سكرات الموت غفل عمّا كان عنده لاشتغاله بسكرات الموت.

[**يرتجّ عليكم**] أي: تعلّق [**جواري**] أي: مخاطبتي [**فتعمهون**] أي: تتحيّرون وتتردّدون، ثمّ شبّه حالهم عند دعائه لهم إلى الجهاد بحال من اختطل عقله، أي: إنّهم في حيرتهم وتردّدهم في جوابه كمختلط العقل، لايفقه مايقول، فقال:

[**فكأنّ قلوبكم مألوسة**] المألوس: المجنون المختلط العقل.

[**وأنتم لاتعقلون ما أنتم لي بثقة أبداً**] لاستمراركم على الخلف والكذب، المستلزم لعدم ثقة بأقوالهم.

[**سجيس اللّيالي**] كلمة تقال للأبد، كسجيس الأوجس، أي: أبداً

وما أنتم بركن ويمال بكم ولا زوافر عزّ يفتقر إليكم ما أنتم إلاّ كإبل ضلّ رعاتها كلّما جُمعَتْ من جانب انتشرت من آخر لبئس لعمر اللّه سعر نار الحرب تكادون ولاتَكيدون

مدى الليالي.

[**وما أنتم بركن**] يستند إليكم.

[**ويمال بكم**] على عدوّكم، استعارة من ركن الجبل، وهو جانبه، لما بينهما من المشاكلة في الشدّة وامتناع المعتصم به، ونحوه قوله تعالى: ﴿لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى رُكن شديد﴾ أي: قويّ، يمنعني منكم، وهو وصف بالتخاذل والعجز.

[**ولا زوافر**] جمع زافرة، وزافرة الرجل: أنصاره وعشيرته، وتأتي بمعنى حوامل، أي: حوامل.

[**عزّ يفتقر إليكم**] وهو وصف لهم برذيلة الذلّ والحقارة.

[**ما أنتم إلاّ كإبل ضلّ رعاتها**] ووجه الشبه أنّها [**كلّما جُمعَتْ من جانب انتشرت من**] جانب [**آخر**] إشارة إلى أنّهم ضعيف عزمهم، متشتّتة آراؤهم، لايجتمعون على مصلحة بها يكون نظام أحوالهم في الدارين، وصلاح أُمورهم في النشأتين، وذلك وصف لهم برذيلة البلاهة.

[**لبئس لعمر اللّه سعر نار الحرب تكادون ولاتَكيدون**] ذمّهم عليه السلام بأنّهم ليسوا من رجال الحرب، لأنّ عمدة قوامها بالرأي السليم، والتدبير المستقيم، وقد ذكر سابقاً ضعف عقولهم، وأنّهم كالأنعام، استعار عليه السلام لهيجان الحرب لفظ النار، لما يستلزمانه من الأذى الشديد، ورشح تلك الإستعارة بذكر الإسعار، ووصف رجالها به، وكونهم يخدعون ويمكر بهم عدوّهم في

وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون ولا ينام وأنتم في غفلة ساهون غلب والله المتخاذلون وأيم الله إنّي لأظنّ بكم أن لو حمس الوغا واستحرّ الموت

إيقاع الحيلة بهم، وليس لهم قوّة المكر والحيلة به، وذلك أيضاً من رذيلة ضعف الرأي، ثمّ قال:

[**وتنتقص أطرافكم**] وتؤخذ بلداتكم.

[**فلا تمتعضون**] أي: تأنفون وتغضبون، وصفهم بعدم الغيرة وبالمهانة، وأنّ العدوّ يغار عليهم فلايشقّ ذلك عليهم، ولاغيرة لهم فيدفعونه.

[**ولا ينام**] عنكم العدوّ [**وأنتم في غفلة ساهون**] إشارة إلى وصفهم برذيلة الغفلة عمّا يراد بهم، وقلّة تعقّلهم لصالح أنفسهم، وفي هذه الفقرا من تنبيه الغافلين، وإيقاظ الراقدين، وتنشيط السامعين مافيه كفاية للعاقل الرشيد، و﴿لمن ألقى السمع وهو شهيد﴾ .

[**غلب والله المتخاذلون**] تخويف لهم بأنّ التخاذل الّذي فيهم يثمر غلبهم، وعدل عن الخاصّ إلى العام، لكونه أوقع في النفس، وأعمّ فائدة.

[**وأيم الله**] قسم كما مرّ.

[**إنّي لأظنّ بكم**] أقسمﷺ أنّه يظنّ فيهم ظنّاً صادقاً، ممّا يظهر له من أحوالهم وأفعالهم وأقوالهم ويتفرّس منهم.

[**أن لو حمس الوغا**] أي: اشتدّت الحرب، وأصل الوغى صوت والجلبة، ثمّ سمّيت الحرب نفسها لما فيها من ذلك.

[**واستحرّ الموت**] أي: اشتدّ حرارة الموت، والمراد شدّته الشبهة بالحرارة مجازاً أو خلوصه وحضوره بأن يكون اشتقاقه من الحرّية.

قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس والله إن امرء يمكن عدوّه من نفسه يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفري جلده لعظيم عجزه ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره

[**قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس**] أي: تفرّقتم عنه كتفرّق الرأس عن البدن، أو كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يمنة ونصفه يسرة، إذ هو حينئذ لايعود ولايتّصل بعد ذلك أبداً.

وقيل: الرأس: اسم رجل يُنسب إله قرية من قرى الشام، يقال لها بيت الرأس، وهذا الرجل انفرج عن قومه فلم يعد إليهم، فضُرب به المثل.

وقيل: معناه انفرجتم عنّي رأساً، أي: بالكلّية.

وقيل: المعنى انفراج من يريد أن ينحو برأسه.

وقيل: معناه انفراج المرأة عن رأس ولدها حالة الوضع، فإنّه يكون غاية من الشدّة وتفرّق الإتّصال والإنفراج، ونحوه قوله عليه السلام في موضع آخر: انفراج المرأة عن قبلها، وكيف كان فالمقصود شدّة انفصالهم وتفرّقهم عنه أحوج مايكون إليهم.

[**والله إن امرء يمكن عدوّه من نفسه يعرق لحمه**] يقال: عرقت اللحم أعرقه، إذا لم أبق على العظم منه شيئاً، وهو كناية عن تمكين العدوّ لسلب مالهم بالكلّية.

[**ويهشم عظمه**] كناية عن القتل وسائر أسباب الهلاك.

[**ويفري جلده**] كناية عن تمزيق حاله المنتظم.

[**لعظيم عجزه**] خبر إنّ [**ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره**] وهو القلب، وضعيف القلب جبان.

أنت فكن ذاك إن شئت

قيل: وهذا الكلام من لطيف الحيلة في الخطاب، الموجب للإنفعال، حيث صوّر لهم أفعالهم المذمومة من التخاذل ونحوه في أقبح صورة وأبلغها نكاية بهم، وهو تمكينهم العدوّ من أنفسهم، لأنّ تخاذلهم ونحوه موجب لذلك، ولما كان من عادة ظفر العدوّ اختياره المال والقتل وتفريق الحال، كنّى عن الأوّل بقوله: يعرق لحمه، وعن القتل وسائر أسباب الهلاك يهشم العظم، وعن تمزين الحال المنتظم بفري الجلد، ثمّ لما كانت هذه لاتكون إلاّ عن عجز وجبن، فأثبت العجز وضعف القلب لهم على أبلغ وجه مؤكّداً، بأنّ، والقسم على وجه كلّي، ولم يخصّهم بالخطاب ولا نسب تمكين العدوّ إليهم صريحاً وإن كانوا هم المقصود بذلك لنفارهم عن الدخول تحت هذا العموم بالإنقياد لأمره بالجهاد، ثمّ أردفه بالأمر أن يكونوا ذلك المرء الّذي وصفه بما وصفه أمراً على سبيل التهديد والتنفير، فقال:

[**أنت فكن ذاك إن شئت**] أي: ذاك المرء الموصوف بالعجز والضعف، خطاب للشخص المطلق الصادق، وعلى أيّ واحد منهم كان.

وروى ابن أبي الحديد: إنّ الأشعث بن قيس قال لعليّ عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم هلاّ فعلت فعل ابن عثمان، فقال له: إن فعل ابن عفّان لمخزاة على من لادين له ولا وثيقة معه إن امرء أمكن عدوّه من نفسه يهشم عظمه ويفري جلده لضعيف رأيه مأفون عقله، أنت فكن ذاك إن شئت.

قال بن أبي الحديد: ويمكن أن يكون الرواية صحيحة، والخطاب عام لكلّ من أمكن من نفسه، فلا منافاة بينهما.

فأمّا أنا فو اللّه دون أن أُعطي ذلك ضرب بالمشرفيّة تطير منه فراش الهام وتطيح منه السواعد والأقدام ويغفل اللّه بعد ذلك مايشاء أيّها الناس إنّ لي عليكم حقّاً ولكم عليّ حقّ وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم كي لاتجهلوا

[**فأمّا أنا فو اللّه دون أن أُعطي ذلك ضرب بالمشرفيّة**] سيوف منسوبة إلى مشارف قريبة من أرض العرب، تدنو من الزيف، ولايقال مشارفي كما لايقال صافري لمن ينسب إلى صافر.

[**تطير منه فراش الهام**] هي العظام الرقيقة الّتي تلقي القحف.

[**وتطيح منه السواعد والأقدام**] وكلّ ذلك كناية عن أشدّ المجاهدة.

[**ويغفل اللّه بعد ذلك**] الجهاد والمناجزة [**مايشاء**] من تمكين العدوّ أو عدم تمكينه، فإنّ إليه مصير الأُمور وعواقبها.

[**أيّها الناس إنّ لي عليكم حقّاً ولكم عليّ حقّ**] لكم من الحثّ على مكارم الأخلاق وبيان ما مصالحهم في أُمور معاشهم ومعادهم وبدأ عليه السلام ببيان حقّهم قبل حقّ نفسه، لكونه أجلب لخصم وأوفق بالقبول.

[**وتوفير فيئكم عليكم**] فلا تظلمون في ذلك، ولايصرف في غير وجهه، ولايكون في تقسيمه حيف وميل.

[**وتعليمكم كي لاتجهلوا**] ولم يقل كيما يعلموا، لأنّ ظهور المنيّة عليهم بذكر نفي الجهل عنهم أشدّ من ظهورها في ذكر غرض اتّخاذ العلم لهم، ولذلك كان تأذّي الوجل وأنفته من أن يقال له ياجاهل أشدّ بكثير من تنفّر من يقال له لست بعالم.

وتأديبكم كيما تعلموا وأمّا حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين أمركم

[**وتأديبكم كيما تعلموا**] فهذه أُمور أربعة تجب على الإمام للرعيّة منها، مايرجع إلى صلاح أبدانهم وقوامها كتوفير الفيء بضبطه، وعدم صرفه في غير مصالحهم، ومنها مايرجع إلى صلا حال نفوسهم، إمّا من جهة إصلاح القوّة النظريّة، وهو التعليم لغرض العلم أو من جهة القوّة العمليّة، وهو التأديب للعمل، ومنها ما هو مشترك بين مصلحتي البدن والنفس، ونظام أحوالهما وهو النصيحة لهم، ثمّ أردف ذلك ببيان حقّه عليهم، وذكر أُموراً أربعة فيها صلاح حالهم أيضاً، فقال:

[**وأمّا حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة**] وبدأ بها، لأنّها أهمّ الأُمور، إذ بها النظام الكلّي الجامع بينه وبينهم.

[**والنصيحة في المشهد والمغيب**] وبذلك ينتظم أشمل المصلحة بينه وبينهم.

[**والإجابة حين أدعوكم**] من غير تثاقل، فإنّ في التثاقل عن ذلك فوات مصالح عظيمة، منها استيلاء العدوّ عليهم.

[**والطاعة حين أمركم**] بما فيه صلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم وأولادكم.

....

ومن خطبة له عليه السلام
بعد التحكيم

قال ابن أبي الحديد ما ملخّصه: الّذي دعى إلى التحكيم طلب أهل الشام له واعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت، فعدل أهل الشام عن القراع إلى الخداع، وكان ذلك برأي عمروبن العاص، إذ قال لمعاوية إنّ رجالك لايقومون برجاله، ولست مثله، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لايخافون علياً عليه السلام إن ظفر بهم، ولكن ألق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب اللّه حكماً فيمابينك وبينهم، فصرف معاوية ذلك وقال: صدقت، فربطوا المصاحف في أطراف الرماح واستقبلوا عليّاً عليه السلام بمائة مصحف، ووصفوا في كلّ مجنية مائتي مصحف، فكان جميعها خمسمائة مصحف، ثمّ نادوا: اللّه اللّه يامعشر العرب في النساء والبنات والأبناء من الروم وأهل فارس، غداً إذا فنيتم، اللّه اللّه في دينكم، هذا كتاب اللّه بيننا وبينكم.

فقال عليّ عليه السلام: اللّهم إنّك تعلم أنّهم ماالكتاب يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنّك أنت الحكم العدل المبين، فاختلف أصحاب عليّ عليه السلام في الرأي، فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب، فعند ذلك بطلت الحرب، وقال عليّ عليه السلام:

....

أيّها الناس! إنّي أحقّ من أجاب إلى كتاب اللّه، ولكنّ القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، فجاء من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد سالي سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودّت جباههم من السجود، يتقدّمهم مسعربن مذكى وزيدبن حصين وعصابة من القرّاء الّذين صاروا خوارج، فقالوا: ياعليّ أجب القوم إلى كتاب اللّه إذ دعيت إليه وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفّان، وكلّما اعتذر إليهم لم يقتلوا، ووقع الخصام بينهم وبين مالك الأشتر، حتّى ضربوا وجه دابّته، وضرب وجوه دوابّهم وصاح بهم عليّ: كفّوا، فكفّوا فتصايحوا أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قد قبل الحكومة ورضى بحكم القرآن، وأقبل الناس يقولون ذلك وهو عليه السلام ساكت لايفيض بكلمة مطرق إلى الأرض، ثمّ وقع الخصام في الحكم، فقال أهل الشام: قد رضينا واخترنا عمروبن العاص، وقال الأشعث والقرّاء الخوارج: رضينا واخترنا أباموسى الأشعري، فقال لهم عليّ: فإنّي لاأرضى بأبي موسى، ولا أرى أن أولّيه، فقالوا: إنّا لانرضى إلاّ به، فقال عليه السلام: إنّه قد فارقني وخذل الناس عنّي، ولكن هذا ابن عبّاس، فأبوا.

فقال: إنّي أجعل الأشتر، فأبوا.

فقال: اصنعوا ماشئتم، فاجتمعا وخدع عمرو أباموسى بالحثّ على عزل عليّ ومعاوية، وجعل الأمر شورى بين المسلمين لتحقن بذلك الدماء، ثمّ غرّ أباموسى فتكلّم بذلك وقال: إنّي خلعتُ عليّاً ومعاوية، فقام ابن العاص فقال: إنّ هذا قد قال ماسمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه

الحمد للّه وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل وأشهد أن لاإله إلاّ اللّه، ليس معه إله غيره وأنّ محمّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله، أمّا بعد، فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تورث الحسرة وتعقب الندامة

كما خلعه وأثبتُ صاحبي معاوية في الخلافة، فإنّه وليّ عثمان، والطالب بدمه، وأحقّ الناس بمقامه.

فقال له أبوموسى: قد غدرتَ وفجرَ وشابا، وحجز الناس عنهما، وترتّب على ذلك ماترتّب من الفساد والعناد.

وخطب عليه السلام بهذه الخطبة:

[**الحمد للّه وإن أتى الدهر بالخطب الفادح**] الخطب: الأمر العظيم، وفدحه الأمر: إذا أثقله وأبهظه، وكنّى بذلك عمّا وقع من أمر الحكمين، وكذا قوله:

[**والحدث الجليل**] والمراد الحمد للّه على كلّ حال من سرّاء وضرّاء، وشدّة ورخاء، وإنّ هنا للغاية.

[**وأشهد أن لاإله إلاّ اللّه، ليس معه إله غيره**] تأكيد لما سبق.

[**وأنّ محمّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله، أمّا بعد، فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تورث الحسرة وتعقب الندامة**] هذه الصفات الأربعة من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قوله لأنّ الناصح يصدق الفكر، ويمحض الرأي، والشفيق يحمل على النصح، والباعث على النصح الشفقة

وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري ونخلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر

إمّا الدين أو محبّة المستشير، والعالم نصيب المطلوب لعلمه بوجه المصلحة، بخلاف الجاهل، فإنّه أعمى وإن كان بصيراً، وحيث إنّ العالم ربّما علم وجه المصلحة في أمر قد اشتمل على بعض وجوه المفاسد فلايتمّ ذلك إلاّ بالتجربة، ولامحالة أنّ مخالفة من جمع هذه الأمور خسران الدنيا والآخرة.

ثمّ أردف ذلك ببيان أنّه هو المشير عليهم لمصالحهم، فخالفوه فقال:

[**وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري**] بما مرّت الإشارة إليه.

[**ونخلت لكم**] من نخل الدقيق [**مخزون رأيي**] واستعار لفظ النخل لاستخلاص أسدّ آرائه وأجودها، ووجه الشبه: إنّ أجود ماينتفع به ممّا ينخل من دقيق ونحوه هو المنخول، فكذا الرأي أجوده وأنفعه مااستخلص وصفى من كدورات الشهوة والغضب.

[**لو كان يطاع لقصير أمر**] هذا أصل مشهور، وهو قصير بن سعد اللحمي مولى جذيمة الرش بعض ملوك العرب، وأصل المثل: إنّ جذيمة كان قتل أباه الريا ملكة الجزيزة، فبعث إليه ليتزوّجها حيلة وخدعة، وسألته القدوم عليها، فأجابها إلى ذلك وخرج في ألف فارس، وخلّف باقي جنوده مع ابن أُخته عمروبن عديّ، وكان قصير أشار على جذيمة أن لايتوجّه بل رأيه، فلمّا قرب جذيمة من الجزيرة استقبلته جنود الربا بالعدّة، ولم ير منهم

فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة حتّى ارتاب الناصح بنصحه وضنّ الزند بقدحه

إكراماً له، فأشار عليه قصير بالرجوع عنها، وقال: إنّها امرأة ومن شأن النساء الغدر، فلم يقبل، فلمّا دخل عليها غدرت به وقتلته، فعندها قال قصير لا يطاع لقصير أمر، فذهب مثلاً لكلّ ناصح عصي، وهو مصيب في أمره وجواب لو مقدّر، أي: كنت أمرتكم ونصحتكم، فلو أطعتموني لفعلتم ماأمرتكم به.

[**فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة**] أي: إباء من خالف الناصح وجفاه ونابذه وعصاه.

[**حتّى ارتاب الناصح بنصحه**] وشكّ فيه هل كان صواباً أو خطأ، لأنّ المشير بالصواب إذا كثر مخالفوه اتّهم نفسه، وكلّما كثر الخلاف ازداد الشكّ فيما ظنّه من المصلحة، وعنى عليه السلام بالناصح نفسه أو من رأى رأيه لإطباق أكثر أصحابه على مخالفتهم، كما مرّت الإشارة إليه، وذلك محمول عل المبالغة، لأنّه عليه السلام منزّه عن الشكّ فميا رآه صواباً، وقوله:

[**وضنّ الزند بقدحه**] قيل: هو مثل يقرب لمن ينحل بفوائده إذ لم يجد لها أهلاً أو لم يتمكّن عن إفادتها، فإنّ المشير إذا اتّهم واستغش أو خطى في رأيه ربما باينقدح له بعد ذلك رأي صالح، لتنفّر النفس من المخالفة، وكلالها وملالها، ولمّا كان غرضه عليه السلام أن يقرّر عليهم الندامة في مخالفة رأيه ويريهم ثمرة عصيان أمره الصادر عن معاينة وجه المصلحة كما هو، قال:

فكنت أنا وإيّاكم، كما قال أخو هوازن:

أمـــرتـكـم أمـــري بمنعـــرج اللّوى فلم تستبينوا الرشد إلاّ ضحى الغد

[**فكنت أنا وإيّاكم، كما قال أخو هوازن**] دريد بن الصمة من بني حسم ابن معاوية بن بكربن هوازن، كما قال تعالى: ﴿واذكر أخا عاد﴾ لنسبة إليهم، وكذا: ﴿قال لهم أخوهم لوط﴾ ويكفي في إطلاق لفظ الأُخوّة مجازاً مجرّد الإتّصال والملابسة والبيت من قصيدة في الحماسة، أو لها:

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السواد والقوم سهدى

إلى أن قال:

[**أمـرتكم أمـري بمنعـرج اللّوى فلم تستبينوا الرشد إلاّ ضحى الغد**]

والقصّة فيه: إنّ أخاه عبداللّه غزا بني بكربن هوازن فغنم منهم واشتاق إبلهم، فلمّا كان بمنعرج اللوى قال: لاواللّه لاأبرح حتى انحر النقيعة، وهي ماينحر من النهب قبل القسمة، وأجل السهام، فقال له أخوه دريد: لاتفعل، فإنّ القوم في طلبك، فأبى عليه وأقام ونحر النقيعة وبات، فلمّا أصبح هجم القوم عليه وطعن عبداللّه، فاستغاث بأخيه دُريد فهنه عنه القوم حتّى طعن هو أيضاً، وصرع وقتل عبداللّه وحال الليل بين القوم، فنجى دريد بعد طعنات وجراح حصل له، فقال القصيدة.

ووجه التمثيل بالبيت إنّي كنتُ وإيّاكم في نصيحتي لكم ونهبي عن الحكومة ومخالفتكم أمري المستلزمة لندامتكم على التفريط كهذا القائل مع قومه حيث نصح لهم فعصوه فلحقهم مالحقهم من الندامة والهلاك.

....

ومن خطبة له عليه السلام
في تخويف أهل النهروان

والخطاب للخوارج، الّذين قتلهم بالنهروان.

وقال ابن أبي الحديد: قد تظافرت الأخبار حتّى بلغت حدّ التواتر بما وعد اللّه قاتلي الخوارج من الثواب على لسان رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

وفي الصحاح المتّفق عليها: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله بينا و يقسم قسماً جاءه رجل من بني تميم يدعى ذاالحويصرة، فقال: أعدل يامحمّد، فقال صلى الله عليه وآله: قد عدلت، فقال له ثانية: أعدل يامحمّد فإنّك لم تعدل، فقال صلى الله عليه وآله: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، فقال عمر: يارسول اللّه ائذن لي أن أضرب عنقه، فقال صلى الله عليه وآله: دعه يستخرج من ضيفي هذا، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، يخرجون على حين فرقة من الناس، تحتقر صلواتكم في جنب صلواتهم وصومكم عند صومهم، يقرؤن القرآن لايجاوز تراقيهم، آتيهم رجل أسود أو قال: أدعج، مخدج اليد، إحدى يديه كأنّها ثدي امرأة، أو بضعة قديد.

وفي بعض الصحاح: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال لأبي بكر وقد غاب الرجل عن عينه: قم إلى هذا فاقتله، فقام ثمّ عاد وقال: وجدته يصلّي، فقال لعمر مثل ذلك، فعاد وقال: وجدته يصلّي، فقال لعليّ مثل ذلك، فقال: لم أجده، فقال صلى الله عليه وآله: لو قتل هذا لكان أوّل فتنة وآخرها، أما إنّه

فأنا نذير لكم إن تُصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط على غير نيّة من ربّكم ولا سلطان مبين معكم قد طوّحت بكم الدار وأحبلكم المقدار

سيخرج من ضيفي هذا قوم، الخبر.

وفي بعض الصحاح: يقتلهم أوّل الفريقين بالحقّ.

وعن عائشة، عن النبيﷺ في الخوارج: إنّهم شرّ الخلق والخيقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، أقربهم عند اللّه وسيلة.

قال ﷺ بعد نصحهم ووعظهم:

[**فأنا نذير لكم إن تُصبحوا صرعى بأثناء**] وفي نسخة بأكناف [**هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط**] والأهضام جمع هضم، وهو المطمئنّ من الوادي، والغائط ماسفل من الأرض.

[**على غير نيّة من ربّكم**] ولاحجّة واضحة يحتجّون بها.

[**ولا سلطان مبين**] تتاتلون عليه [**معكم**] وفي ذلك حرمان سعادة الدارين، وسمّيت الحجّة سلطاناً، لأنّ بها الغلبة والتسلّط، وهو من باب الإستعارة.

[**قد طوّحت**] أي: نوّهت [**بكم الدار**] أي: الدنيا، ونسبت إهلاكهم وإبعادهم ورميهم إليها، لأنّ الموجب لذلك اتّباع أهوائهم الباطلة، لأصل تحصيل المال والجاه ونحوهما، ومرجع جميع ذلك إلى حبّ الدنيا، وهو رأس كلّ خطيئة، فكأنّها هي الّتي أوردتهم المهالك، وجعلتهم أهون هالك.

[**وأحبلكم المقدار**] لئن صادكم القضاء والقدر، استعارة لإحاطة القدر النازل عن قضاء اللّه بهم، فهو كحبالة الصائد الّتي لا مخرج للطائر منها،

وقد كنتُ نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتُم عليّ إباء المخالفين المنابذين حتّى صرفتُ رأيي إلى هواكم وأنتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام ولم‌آت لا أبا لكم

إذا نزلت به.

[**وقد كنتُ نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتُم عليّ إباء المخالفين المنابذين حتّى صرفتُ رأيي إلى هواكم**] كما مرّت الإشارة إلى القصّة.

والغرض من ذلك تقرير الحجّة عليهم، بأنّه إن كان الحقّ هو عدم الحكومة فلم طلبتموها وأبيتم عليّ إباء المخالفين المنابذين لما نهيتكم عنها حتّى صرتُ إلى هواكم فيها، وإن كان الحقّ هو إيقاعها، فلِمَ تلومونني على ذلك وتساقون.

[**وأنتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام**] الواو للحال، والعامل صرفت، والإضافة في إخفاء وسفهاء غير محضة، ولذا صحّ كونهما وصفين لمعاشر، وخفّة الهامة كناية عن رذيلة الطيش، المقابلة لفضيلة الثبات، والسفه رذيلة مقابلة للحلم.

[**ولم‌آت لا أبا لكم**] أخرج مخرج الإعتذار إليهم واستدراجهم بتحسين فعله، وعدم قصد الإساءة إليهم ليرجعوا عمّا شبّه لهم وسوّل لأنفسهم، والبجر: الأمر العظيم، ولا أبا لكم معترضة كلمة مدح أو ذمّ، لأنّ عدم اللحوق بالأب يستلزم العار، وقيل: هي دعاء بالذلّ وعدم الناصر، بأن لايكون له أب يعزه ويشدّ ظهره، ونفي الأب يستلزم نفي العشيرة.

فقمت بالأمر حين فشلوا ونطقت بالحقّ حين تتعتعوا وتطلعت حين تقبّعوا

ومن كلام له عليه السلام
يجرى مجرى الخطبة

يبيّن فيه جملة من فضائله ومناقبه ومكارمه، ونحوه مرويّ عن الخضر، خاطبه به عليه السلام عند موته.

وقال ابن أبي الحديد: هذه فصول التقطها الرضيّ من كلام لاميرالمؤمنين عليه السلام طويل منتشر، قاله بعد وقعة النهروان، ذكر فيه حاله من توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى آخر وقت، فجعل الرضيّ ماالتقطه منه سرداً، وصار عند السامع كأنّه يقصد به مقصداً واحداً، قال عليه السلام:

[**فقمت بالأمر**] أي: بأمر في الحروب المشهورة، والمقامات المعدودة [**حين فشلوا**] والفشل الخوف والجبن، والضمير راجع إلى الصحابة، أو قمت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيّام أحداث عثمان وغيرها، حين فشلوا، أو قمت بأوامر اللّه ورسوله بأجمعها حين فشلوا عنها.

[**ونطقت بالحقّ**] وبالعلوم الإلهيّة والمعارف الربّانيّة، والحكم البالغة، والحجج الدامغة، والمواعظ الموقظة للنائمين، والنصائح المنبّهة للغافلين.

[**حين تتعتعوا**] والتعتعة: الإضطراب في الكلام والتردّد فيه من عيّ أو حصر.

[**وتطلعت حين تقبّعوا**] يقال: امرأة طلقة قبعة تطلع ثمّ تقبع رأسها،

ومضيتُ بنور اللّه حين وقفوا وكنت أخفضهم صوتاً و أعلاهم فوتاً فطرت بعنانها واستبددتُ بِرِهانها

أي: تدخل، وقبع القنفذ إذا قبض رأسه بين كتفيه وأدخله في جلده، وتقبّع الرجل أي: تخبّأ، وضدّه: تطلّع، وتطلّع الأمر اختباره وتعرفه، وهو إشارة إلى سبره عليه السلام للأُمور وتطلّعه عليها وتعرّفها واختبارها، ولمّا كان ذلك إلى بصيرة ونقد استعار لفظ التطلّع، ووجه الشبه المعرفة والخبرة.

[**ومضيتُ بنور اللّه حين وقفوا**] أي: مضيتُ في سبيل الحقّ وطريق الهدى والطريق المستقيم بنور اللّه وعلمه وهدايته وإرشاده الّذي لايضلّ من اهتدى به، وذلك حين وقفوا حائرين متردّدين جاهلين طريق الحقّ، متحيّرين في كيفيّة السلوك إليه.

[**وكنت أخفضهم صوتاً**] كناية عن ربط الجأش والثبات في الأُمور، والتصميم على فعل ماينبغي من غير التفات إلى الحوادث والعوائق، فإنّ كثرة الأصوات في الأفعال الّتي هي مظنّة الخوف، دليل الفشل.

[و] من كان كذلك كان [**أعلاهم فوتاً**] أي: أشدّ سبقاً إلى مراتب الكمال، وفضائل الأحوال ممّن كان أضعف فيه.

وقال ابن أبي الحديد: يقول علوتهم وفتهم سبقاً، وأنا مع ذلك خافض الصوت، يشير إلى التواضع ونفي التكبّر.

[**فطرت بعنانها واستبددتُ بِرِهانها**] الضميران للفضيلة المدلول عليها بالمقام، واستعار الطيران للسبق العقلي إلى الفضائل، لما يشتركان فيه من السرعة، واستعار لفظي العنان والرهان من متعلّقات الخيل للفضيلة الّتي حصّلها تشبيهاً لها مع فضائل نفوسهم بخيل الجلبة، ووجه الشبه أنّه عليه السلام

كالجبل لاتحرّكه القواصف ولا تزيله العواصف لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل في مغمز الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له، والقويّ عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه

وخيار الصحابة كانوا يستبقون بالفضائل إلى رضوان اللّه والسعادات الأُخرويّة، كخيل الرهان، ولمّا كانت فضيلته أمل فضائلهم وأتمّها استعار لها السبق والطيران، قال تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ وقال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة﴾ الآية، ثمّ قال عليه السلام:

[**كالجبل**] أي: كنت حين تولّيت أمر الخلافة وقمتُ بأعبائها كالجبل في الثبات على الحقّ.

[**لاتحرّكه القواصف**] أي: الرياح الشديدة.

[**ولا تزيله العواصف**] كالقواصف وزناً ومعنًى، وكنّى بهما عن اتّباع الأهوية المختلفة، والأطباع الغير المؤتلفة، أي: ثابتاً على القانون العدل، لايصل إلى هوى أحد، واتّباع طبع يخالف القانون الإلهي.

[**لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل في مغمز**] أي: لم يكن في عيب اعاب به، والمهمز: موضع الهمز، وهو العيب، وكذا المغمز.

[**الذليل**] الضعيف الّذي لا مساعد له [**عندي عزيز**] أعتني بحاله، وأهتمّ بأمره، وأكون له مساعداً وعوناً ومعاضداً.

[**حتّى آخذ الحقّ له، والقويّ**] المنكر للحقّ، والغاصب له بقوّته [**عندي ضعيف**] أقهره بحكم اللّه باللسان واليد [**حتّى آخذ الحقّ منه**] وربّما يقال: إنّ المفهوم من هذا أنّ التفاته عليه السلام إلى القويّ أكثر، وذلك ليس من العدل، وأُجيب بأنّه لما لم يكن الغرض إلّا أخذ حقّ الضعيف من القويّ،

رضينا عن الله قضاءه، وسلّمنا للّه أمره أتراني أكذب على رسول اللّه ﷺ لأنا أوّل مصدّق به، فلا أكون أوّل من كذب عليه فنظرتُ في أمري فإذا طاعتي قد سبقت، وإذا الميثاق في عنقي لغيري

وعدم التظالم بينهم لاتجب مساواة النظر بينهم، إلاّ من تلك الجهة، ولم يكن إعزازه للقويّ وإكرامه في غير وجه الظلم قبيحاً، لجواز انفراده بفضيلة توجب إعزازه من جهة الدين أيضاً.

قيل: ولمّا تفرّس عليه السلام في طائفة من قومه أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبيّ ﷺ من أخبار الملاحم في الأُمور المستقبلة، كما روي أنه عليه السلام لمّا قال: سلوني قبل أن تفقدوني فواللّه لاتسألوني عن فئة تضلّ مائة وتهدي مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وسائقها، قام إليه أنس النخعي فقال: أخبرني كم في لحيتي ورأسي طاقة شعر، فقال عليه السلام: واللّه لقد حدّثني حبيبي أنّ على كلّ طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأنّ على كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وأنّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول اللّه ﷺ، وكان ابنه سنان بن أنس لعنه اللّه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو، قال عليه السلام:

[**رضينا عن اللّه قضاءه، وسلّمنا للّه أمره**] تسلية لنفسه عن هذا التكذيب، بإسناده إلى القضاء الإلهي، والرضا بالقضاء والتسليم من أفضل الملكات، وأعظم الطاعات، وقوله عليه السلام:

[**أتراني أكذب على رسول اللّه ﷺ لأنا أوّل مصدّق به، فلا أكون أوّل من كذب عليه**] استنكار لما عرّضوا به من التكذيب، فأبطل ذلك بأنّه أوّل مصدّق له، فكيف يكون أوّل من كذب عليه، وقوله عليه السلام:

[**فنظرتُ في أمري فإذا طاعتي قد سبقت، وإذا الميثاق في عنقي لغيري**]

وإنّما سمّيت الشبهة شبهة، لأنّها تشبه الحقّ فأمّا أولياء اللّه

قيل: إنّه كلام مقطوع يذكر فيه حاله بعد وفاة الرسول ﷺ، وأنّه كان معوداً إليه أن لاينازع في أمر الخلافة، بل إن حصل له بالرفق وإلّا فليمسك، بقوله عليه السلام: فنظرتُ فإذا طاعتي لرسول اللّه ﷺ فيما أمرني به من ترْك القتال قد سبقت بيعتي القوم، فلا سبيل إلى الإمتناع منها، وميثاق رسول اللّه ﷺ وعهده إليَّ بعدم المشاقة والمنازعة في عنقي.

وقيل: الميثاق ما لزمه من بيعة أبي بكر، أي: فإذا ميثاق القوم قد لزمني، فلم تمكّنني المخالفة بعده.

وقيل: هذا الكلام تضجّر من ثقل أعباء الخلافة، وتكلّف مداراة الناس على أهوائهم، أي: نظرتُ فإذا طاعة الخلق لي واتّفاقهم عليّ قد سبقت بيعتهم لي، وإذا ميثاقهم قد صار في عنقي، فلم أجد بُدّاً من القيام بأمورهم، ولايسعني الترك، فهو كقوله: أما واللّه لولاحضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر حسبما مرّ.

ومن خطبة له عليه السلام

[**وإنّما سمّيت الشبهة شبهة، لأنّها تشبه الحقّ**] ممّا يحتجّ به، إمّا في صورته أو في مادّته، أو فيهما معاً، ولذا يسمّى مايحتجّ به أهل الحقّ دليلاً، وأهل الباطل شبهة.

[**فأمّا أولياء اللّه**] يحتمل أن يراد به أئمّة الهدى عليهم السلام أو الأعمّ

فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى وأمّا أعداء اللّه تعالى فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى

[**فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى**] لأنّ نفوسهم مشرقة بنور اليقين، وقلوبهم مستنيرة بهدى ربّ العالمين، وإرشاد النبيّ والأئمّة الطاهرين، فتنكشف عن أذهانهم ظلمات الشبهات، وتنجلي غياهب المشتبهات، ويسلكون الصراط المستقيم، والطريق القويم، كما قال تعالى: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾.

ولأنّ الورع التقيّ يقف عند الشبهة ويأخذ بالمحكم المتيقّن، والوقوف عند المشتبه محكم أيضاً، وكذا إذا ردّ المتشابه إلى المحكم فقد اليقين، ولأنّ من اعتبر مقدّماتها بفكر صحيح بعد بذل الجهد وتجريد النفس عن الهوى والعصبيّة وراعى الأُمور اليقينيّة وطلب المقدّمات المعلومة قطعاً انحلّت له الشبهة، وظهر له فسادها.

[**وأمّا أعداء اللّه تعالى فدعاؤهم فيها**] إلى مايدعون إليه [**الضلال**] عن الحقّ، والإضلال للخلق.

[**ودليلهم العمى**] عن الهدى، وقد طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وهم في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أبصر يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل اللّه له نوراً فما له من نور، والكلام فيه عكس سابقه، واستعار عليه السلام لفظ الضياء لليقين باللّه ورسوله، وما جاء به من الغيب باعتبار هدايتهم بذلك في طريق الحقّ كالضياء، ولفظ الدليل والقصد هدى اللّه في سبيله باعتبار هداية القصد لهم كالدليل الهادي، وتجوز بلفظ الضلال في

ما ينجو من الموت من خافه، ولايعطي البقاء من أحبّه

المضلّ، وهو دعاء الكفّار إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه، واستعار لفظ العمى للجهل ولفظ الدليل له باعتبار كونه قائدهم الذي به يقتدون، وقوله:

[**فما ينجو من الموت من خافه، ولايعطي البقاء من أحبّه**] كلام منفصل عمّا قبله، وحاصله التذكير بالموت الّذي لابدّ منه ولامحيص عنه، هادم اللذّات، ومفرّق الجماعات، تنفير عن حبّ الدنيا الّذي هو رأس كلّ خطيئة، والترغيب في الآخرة، وفيه إشارة إل قوله تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ وقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون﴾ وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ وقوله تعالى: ﴿إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم﴾.

ومن خطبة له عليه السلام

روي أنّه خطب بها في غزاة النعمان بن بشير لعين النمر، والسبب أنّ معاوية بعث النعمان في ألفي فارس لإرهاب أهل العراق، فأقبل حتّى دنى من عين النمر، وكان عاملها يومئذ من قِبَل عليّ مالك بن كعب، ولم يكن معه إذ ذاك سوى مائة رجل، فكتب مالك إليه يعلمه الخبر، فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال:

اخرجوا هداكم اللّه إلى مالك بن كعب أخيكم، فإنّ النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام، ليس بالكثير، **فانهضوا إلى إخوانكم**

مُنيتُ بمن لايطيع إذا أمرتُ، ولايجيب إذا دعوتُ لا أبا لكم ماتنتظرون بنصركم ربّكم أما دين يجمعكم ولاحمية تحمشكم

لعلّ اللّه يقطع بكم طرفاً من الكافرين، ثمّ نزل فتثاقلوا، فأرسل إلى وجوههم فأمرهم بالنهوض، فتثاقلوا ولم يجتمع منهم إلّا نفر يسير نحو ثلاثمائة رجل.

ويُروى: إنّ الدائرة كانت لمالك بمن معه على النعمان وجمعه، فقام عليه السلام وقال: ألا إنّي [**مُنيتُ**] أي: بليتُ [**بمن لايطيع إذا أمرتُ، ولايجيب إذا دعوتُ**] وفيه إظهار لعذر نفسه، وأنّ التقصير منهم دونه، وأنّه قد قام بحقوقهم ولم يقوموا بحقّه.

[**لا أبا لكم**] قد مرّ معناها، والمراد بها هنا الذمّ، كناية عن ذلّهم، فإنّ من لا أب له يعرف ذليل.

[**ماتنتظرون بنصركم ربّكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إن تنصروا اللّهَ ينصركم﴾ انكار عليهم بسبب تثاقلهم عن نصرة الدين والمبادرة إلى أمر ربّ العالمين، ثمّ نبّههم عليه السلام على الأسباب الّتي توجب اجتماعهم لنصرة اللّه والغضب له، بسؤالهم عنها هل هي موجودة أم لا على سبيل الإستفهام الإنكاري، إذ هم يدعون وجودها عندهم، فقال:

[**أما دين**] أمركم اللّه بلزومه والإتّحاد فيه [**يجمعكم**] على تشييد دين اللّه وقتل أعداء اللّه، قال تعالى: ﴿وما أُمِروا إلّا ليعبدوا اللّهَ مخلصين له الدين﴾.

[**ولاحمية تحمشكم**] أي: تغضبكم، يقال: أحمشته أي: بغضته، والحميّة ملكة تحت الشجاعة.

أقوم فيكم مستصرخاً وأناديكم متغوّثاً فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً حتّى تكشف الأمور عن عواقب المساءة فما يدرك بكم ثار ولايبلغ بكم مرام دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسرّ

[**أقوم فيكم مستصرخاً**] والمستصرخ المستنصر والمستجلب حبوته من ينصره.

[**وأناديكم متغوّثاً**] والغوث الصوت يستصرخ به، وقيل: هو قول الرجل واغوثاه.

[**فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً**] كأنّكم صمّ لاتسمعون، وبكم فلا تجيبون، وعمى فلا تبصرون، وبهائم فلا تعقلون ﴿إنّ شرّ الدوابّ عند اللّه الصمّ البكم الّذين لايعقلون﴾، ﴿ولو علم اللّه فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون﴾، وقوله:

[**حتّى تكشف الأمور عن عواقب المساءة**] بيان لغاية تثاقلهم عن دعوته، وتنبيه بذكر استعقابه للمساءة على الخطأ فيه، أي: تقاعدكم يكشف ذلكم بعد ذلك، وتسلّط عدوّكم عليكم ونحو ذلك ممّا يسوؤكم.

فما يدرك بكم ثار] أي: دخل [**ولايبلغ بكم مرام**] وهو عتاب وتوبيخ يبعث طباع العرب على التألّف في النصرة والثوران لجهاد الأعداء.

[**دعوتكم إلى نصر إخوانكم**] في الدين، حيث دهمهم أعداء ربّ العالمين.

[**فجرجرتم جرجرة الجمل الأسرّ**] والجرجرة: ترديد صوت البعير في حنجرته، والسرّ رداء يأخذ البعير في سرته، ومنه جمل أسرّ.

وتثـاقلتم تـثـاقل الـنضـو الأدبر ثمّ خـرج إلـيّ منكم جند مـتـذائب ضعيف كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون كلمة حقّ يراد بها باطل

وقال ابن أبي الحديد: الجمل الأسرّ الّذي بكر كرته دبره، واستعار عليه السلام لفظ الجرجرة لكثرة تمليلهم وشدّة تضجّرهم من ثقل مايدعوهم إليه، وشبّه ذلك بصوت الجمل الأسرّ لأنّها أشدّ من جرجرة غيره.

[**وتثاقلتم**] عن إجابة دعوتي [**تثاقل النضو**] وهو البالي الضعيف من الإبل، من بعث السير [**الأدبر**] الذي به دبر، وقروح في ظهره، ووجه الشبه شدّة التضجّر والضعف.

[**ثمّ خرج إليّ منكم جند متذائب**] إشارة إلى عدم ثباتهم واستمساكهم كالأشياء الّتي يسرع ذوبانها.

[**ضعيف كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**] شبّه حالهم بحال من يساق إلى الموت، وهو ينظر في تثاقله واضطرابه وضعفه عن الحركة إلى مايُساق إليه لشدّة خوفه، وفيه ذمّ بليغ لهم، وتوبيخ لما هم عليه من عدم البادرة إلى طاعته، ومن التثاقل في أمره.

ومن كلام له عليه السلام
في معنى الخوارج لمّا سمع قولهم «لا حكم إلاّ للّه»

فقال عليه السلام:

[**كلمة حقّ يراد بها باطل**] لما مرّ أنّ المقصود معاوية وأصحابه لمّا رفعوا المصاحف ودعوا إلى المحاكمة إلى الكتاب ما كان غرضهم إلاّ فتور الحرب

نعم إنّه لا حُكم إلاّ للّه ولكن هؤلاء يقولون لاإمرة وإنّه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر

عنهم ورفع قوارع السيوف عن رقابهم، ولم يريدوا بذلك الحقيقة، وإلاّ فأمير المؤمنين عليه السلام هو كتاب اللّه الناطق، وهو أعلم الناس وأعلمهم بكتاب اللّه، وهو مع الحقّ، والحقّ معه، يدور حيثما دار، وهو الّذي لايفارق الكتاب، ولا الكتاب يفارقه، كما أُشير إليه في النبويّ المتّفق عليه: إنّي مخلّف فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض.

[**نعم إنّه لا حُكم إلاّ للّه**] الواحد القهّار، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأُولئك هم الكافرون... هم الفاسقون... هم الظالمون﴾.

[**ولكن هؤلاء**] الخوارج [**يقولون لاإمرة**] وهذا أمر ولا حكم إلاّ للّه أمر آخر.

قال ابن أبي الحديد: قيل إنّهم كانوا في بدوّ أمرهم يقولون ذلك ويذهبون إلى أنّه لاحاجة إلى الإمام، ثمّ رجعوا عن ذلك القول لمّا أمّروا عليهم عبداللّه بن وهب، ثمّ ردّ عليه السلام في نفي الإمرة فقال:

[**وإنّه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر**] لأنّ النفوس أمّارة بالسوء، وأهواء الناس مختلفة وآراؤهم متشتّتة، والنفس من طبيعتها العدوان والمغالبة والإستعلاء لابدّ لها من قاهر ورادع، لما عقل زاجر، أو دين حاجز، أو عجز مانع، أو سلطان رادع، وهو أبلغها نفعاً، لأنّ العقل والدين مغلوبان غالباً بدواعي الهوى، ولاينافي ذلك كونه حائراً عقلاً ونقلاً.

ففي النبوي صلى الله عليه وآله: إنّ اللّه ليؤيّد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم في

يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر ويلغ اللّه فيها الأجل ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدوّ، وتأمن به السُّبُل، ويؤخذ للضعيف من القويّ

الآخر.

وفي آخر: إنّ اللّه ليؤيّد هذا الدين بالرجل الفاسق.

وقال: المتبني والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذاعفّة فلعلّة لايظلم.

وقال غيره: تهدى الأُمور بأهل الرأي ماصلحت، فإن تولّت فبالأشرار تنقاد، وقوله:

[**يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر**] الضمير في إمرته للأمير، وحيث كان مقولاً على البرّ والفاجر فلابُعد في كون الإمرة الّتي يعمل فيها المؤمن امرته من حيث هو برّ، فإنّه متمكّن من العمل بأوامر اللّه، واجتناب نواهيه، وبالّتي يستمتع بها الكافر إمرته من حيث هو فاجر بانهماكه في شهوات الدنيا، قال تعالى: ﴿قل تمتّعوا فإنّ مصيركم إلى النار﴾، وقوله:

[**ويلغ اللّه فيها الأجل**] أي: في امرة الأمير المطلق، والمقصود تذكير العصاة ببلوغ الأجل وانقطاع العمل، وكذا قوله:

[**ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدوّ، وتأمن به السُّبُل، ويؤخذ للضعيف من القويّ**] جميع الضمائر المجرورة راجعة إلى الأمير المطلق، لإمكان حصولها في أمارة الفاجر.

قال ابن أبي الحديد: وقد اتّفقت المعتزلة إنّ أُمراء بني أُميّة كانوا فجّاراً، عدا عثمان وعمروبن عبدالعزيز ويزيدبن الوليد، وكان الفيء يجمع

حتّى يستريح برّ، أو يُستراح من فاجر وفي رواية أُخرى: أنّه عليه السلام لمّا سمع تحكيمهم قال: حكم اللّه أنتظر فيكم، وقال عليه السلام: أمّا الإمرة البرّة فيعمل فيها التقيّ، وأمّا الإمرة الفاجرة فيتمتّع فيها الشقيّ، إلى أن تنقطع مدّته وتدركه منيّته

بهم، والبلاد فتح في أيّامهم، والثغور الإسلاميّة محصّنة محفوظة، والسبل آمنة، والضعيف منصور على القويّ الظالم له، وما ضرّ فجورهم شيئاً في هذه الأُمور، وقوله:

[**حتّى يستريح برّ، أو يُستراح من فاجر**] غاية من الأُمور المذكورة أنّ غاية صدور هذه الأُمور أن يستريح برّ بوجودها، ويُستراح من تعدّي الفاجر وبغيه.

وقيل: أراد أنّ هذه الأُمور لاتزال تحصل بوجود الأُمّة برّاً كان أو فاجراً، إلى أن يستريح برّ بموته، ويُستراح من فاجر بموته أو بعزله.

[**وفي رواية أُخرى: أنّه عليه السلام لمّا سمع تحكيمهم**] وقوله لاحكم إلاّ للّه، [**قال: حكم اللّه أنتظر فيكم، وقال عليه السلام: أمّا الإمرة البرّة فيعمل فيها التقيّ، وأمّا الإمرة الفاجرة فيتمتّع فيها الشقيّ، إلى أن تنقطع مدّته وتدركه منيّته**].

وروى العامّة والخاصّة أنّه عليه السلام كان يوماً يؤمّ الناس وهو يجهر بالقراءة، فجهر ابن الكوا من خلفه: ﴿ولقد أُوحي إليك وإلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾، فسكت عليّ عليه السلام، فلمّا أنهاها عاد عليه السلام فأتمّ القراءة، فأعاد ابن الكوا الجهر بتلك الآية فسكت عليّ عليه السلام فلم يزالا كذلك يسكت وذاك يقرأ مراراً حتّى قرأ عليّ عليه السلام: ﴿فاصبر إنّ وعد اللّه حقّ ولايستخفنّك الّذين لايوقنون﴾ فسكت ابن الكوا، وعاد عليّ عليه السلام إلى قراءته.

إنّ الوفاء توأم الصدق ولا أعلم جُنّة أوقى منه ومايغدر من علم كيف المرجع

ومن خطبة له عليه السلام

[**إنّ الوفاء توأم الصدق**] الوفاء فضيلة نفسانيّة، ينشأ من لزوم العهد الّذي ينبغي، والبقاء عليه، والتوأم هو الولد المقارن لولد آخر في بطن واحد، أشبهه الوفاء لمقارنته الصدق تحت العفّة، فاستعار عليه السلام لفظة له، ثمّ لما كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر، وفضيلة الصدق مقارنة برذيلة الكذب كانت رذيلتا الغدر والكذب أيضاً توأمين، تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفّة.

[**ولا أعلم جُنّة أوقى منه**] أي: لاأعلم في الفضائل النفسانيّة المتعلّقة بالمعاملات والمشركة الدنيّة ورعاً أشدّ وقاية وحفظاً من العقوبات الدنيويّة والأخرويّة من الوفاء، أمّا في الدنيا فلأنّه جنّة من السبّ والعار ونحوهما، وأمّا في الآخرة فمن العقاب والجنّة ما استترت به من سلاح وغيره، وهو مستعار كما عرفت، وقد مدح اللّه الوفاء في مواضع فقال: ﴿الّذين يوفون بعهد اللّه ولاينقضون الميثاق﴾ وقال: ﴿الّذين يوفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ وقال: ﴿ومن أوفى بعهده من اللّه﴾ وقال: ﴿ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾، وقوله عليه السلام:

[**ومايغدر من علم كيف المرجع**] إشارة إلى أنّ علم الإنسان بكيفيّة المعاد إلى اللّه يستلزم امتناعه من العذر ونحوه، لما فيه من العقوبات

ولقد أصبحنا في زمان اتّخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة مالهم قاتلهم اللّه قد يرى الحُوَّل القُلَّب وجه الحيلة

الأخرويّة، مضافاً إلى سخط اللّه، وكيف يلقى اللّه ساخطاً عليه، وإنّما خصّ الغدر مع أنّ سائر أضداد الفضائل كذلك، لأنّه في معرض مدح الوفاء، والضدّ يظهر حُسنه بضدّه، كما قيل: تعرف الأشياء بأضدادها. ثمّ قال عليه السلام:

[**ولقد أصبحنا في زمان اتّخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً**] أي: فطنة وذكاءً.

[**ونسبهم أهل الجهل فيه**] أي: في الغدر [**إلى حسن الحيلة**] فيقولون في أرباب الخديعة والغدر والجربة والمكر أنّهم أذكياء أكياس، كما كانوا يقولون في عمرو بن العاص والمغيرة، وينسبونهم إلى حسن الحيلة وصحّة التدبير لعدم تميز أكثرهم بين الغدر والكَيْس من حيث اشتراكهما في التفطّن، لوجه الحيلة والخداع، إلّا أنّ تفطّن الغادر يستعمله في الحيلة المخالفة للقانون الشرعي المفوتة للمصالح الكلّية والمنافع الدائميّة في جنب مصلحة جزئيّة فانية، وتفطّن الكَيْسُ إنّما يستعمله في إيقاع رأي أو مصلحة كلّية تنظم أمر العالم، وتوافق القوانين الشرعيّة، ولا خير في حيلة تجرّ إلى رذيلة، ولذا قال عليه السلام منكراً داعياً عليهم:

[**مالهم**] قد جعلوا الرذيلة فضيلة [**قاتلهم اللّه**] أنّى يؤفكون؟ دعا عليهم بالإبعاد عن الرحمة.

[**قد يرى الحُوَّل القُلَّب**] الّذي يكثر تحوّله وتقلّبه في اختبار الأُمور، وتعرف وجوهها واستنباط الآراء الصالحة ووجوه المصالح [**وجه الحيلة**] في

ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها وينتهز فرصتها من لاجريحة له في الدين أيّها الناس! إنّ أخوف ماأخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى، وطول الأمل

وجه الغدر والحيلة.

[**ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه**] عن ارتكابها [**فيدعها رأي عين**] أي: يتركها رأي عينه [**بعد القدرة عليها**] تخوّفاً من اللّه تعالى.

[**وينتهز فرصتها**] أي: يبادر فرصتها إلى وقت الإمكان.

[**من لاجريحة له في الدين**] والجريحة التحرّز من الجرح، وهو الإثم، والحريجة التقوى، وهذه سجيّته عليه السلام، كما أنّ تلك سجيّة أعدائه، فقد ملك أهل الشام شريعة الماء بصفّين فمنعوه وأصحابه منها وأرادوا إهلاكهم عطشاً، فلمّا استولى عليه السلام عليها أشار عليه أصحابه بذلك فقال: إنّ في حدّ السيف لغنى عن ذلك، ثمّ قاسمهم الشريعة شطرين بينهم وبينه وكان الأشتر يستأذنه أن يبيت معاوية وأصحابه فيقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله نهى أن يبيت المشركون.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أيّها الناس! إنّ أخوف ماأخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى، وطول الأمل**] في الدنيا، فإنّهما من أشدّ الهلاك، كما أنّ ضدّهما من أعظم أسباب النجاة.

فأمّا اتّباع الهوى فيصُدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة ألا وإنّ الدنيا قد ولّتْ حذّاء

[**فأمّا اتّباع الهوى فيصُدّ عن الحقّ**] لانّ الهوى ميل النفس الامّارة بالسوء إلى مقتضى طباعها من اللذّات الدنيويّة إلى حدّ الخروج عن حدود الشريعة، وحيث أنّ السعادة التامّة لقاء اللّه ومجاورة الملأ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وكان اتّباع النفس الأمّارة في انهماكها في لذّاتها الفانية أشدّ مهلك جاذب للإنسان عن قصد الحقّ، وصاد له عن سلوك سبُله وعن الترقّي في ملكوت السماوات إلى حضيض جهنّم، كما قال عليه السلام: ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه، وكما قال عليه السلام: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى﴾.

[**وأمّا طول الأمل**] لما لاينبغي أن يمدّ الأمل فيه [**فيُنسي الآخرة**] لانّ طول توقّع الأمور المحبوبة الدنيويّة توجب دوام ملاحظتها، ودوام ملاحظتها مستلزم لدوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة، وهو مستعقب لانمحاء ماتصوّره في الذهن منها، وهو معنى النسيان، وإنّما نسب الخوف إلى نفسه لأنّه عليه السلام هو المتولّي لإصلاح حال الخلق في أُمور معاشهم ومعادهم، والمهتمّ بذلك.

[**ألا وإنّ الدنيا قد ولّتْ حذّاء**] بالحاء المهملة والذال المعجمة، يقال: رجل أحذّ أي: خفيف مسرع.

وروي: جذّاء بالجيم من الجذّ القطع، أي: قد انقطع خيرها ودرّها،

فلم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء أصطبّها صابّها ألا! وإنّ الآخرة قد أقبلَتْ ولكلّ واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولاتكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كلّ ولد يستلحق بأُمّه يوم القيامة

والأوّل أظهر، أي: خفيفة مسرعة لايتعلّق أحد منها بشيء.

[**فلم يبق منها**] بالقياس إلى ماذهب منها [**إلاّ صبابة**] وهي بقيّة الماء في الإناء، استعارة لبقيّتها القليلة، ووجه الشبه القلّة.

[**كصبابة الإناء أصطبّها صابّها**] هو مثل قولك: أبقاها مستبقيها وتركها تاركها.

[**ألا! وإنّ الآخرة قد أقبلَتْ**] لأنّ العمر في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى.

[**ولكلّ واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولاتكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كلّ ولد يستلحق بأُمّه يوم القيامة**] قيل هو من لطائف كلامه عليه السلام، فاستعار الأبناء للخلق بالنسبة إلى الدنيا والآخرة، ولفظ الأب لهما ووجه الإستعارة أنّ الإبن لما كان من شأنه الميل إلى والده إمّا ميلاً طبيعيّاً، أو بحسب تصوّر المنفعة منه، وكان الخلق منهم من يُريد الدنيا ومنهم من يريد الآخرة، ويميل كلّ منهما إلى مراده مع مايحصل من طرف الدنيا للراغبين فيها، ممّا يتوهّمونه لذّة وخيراً، ومايحصل من طرف الآخرة للراغبين فيها من اللذّة والسعادة أشبه كلّ بالنسبة إلى مارغب فيه واستفا منه الإبن بالنسبة إلى الأب، فاستعير لفظه لتلك المشاهدة.

ولمّا كان غرضه عليه السلام حثّ الخلق على السعي للآخرة والميل إليها والإعراض عن الدنيا قال عليه السلام: فكونوا أبناء الآخرة، ولاتكونوا من أبناء

وإنّ اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب ولاعمل وقد أشار عليه أصحابه بالإستعداد لحرب أهل الشام، بعد إرساله إلى معاوية جريربن عبدالله البجلي

الدنيا، ثمّ ذكر الثمرة، وهي أنّ كلّ ولد سيلحق بأبيه، ونبّه على ذلك بضمير صغراه قوله فإنّ إلى قوله القيامة، ولمّا كانت الدنيا يومئذ منقطعة عن الخلق كان اختيارها معها لاستلزام ذلك عزّة أهلها وشقاهم ببُعدها، وتقدير الكبرى وكلّ من سيلحق بأُمّه يوم القيامة، فلابدّ أن يستعدّ لها بما يقربه منها، ويُصلح حاله معها ليأمن سوء الحظّ، ويزول عنه بؤس الغربة.

[**وإنّ اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب ولاعمل**] كنّى باليوم عن مدّة الحياة، وبغد عمّا يعدها، وراعى المقابلة اللطيفة في العمل والحساب، واليوم إسم إن، وعمل قام مقام الخبر استعمالاً للمضاف إليه مقام المضاف، أي: وقت العمل، ويحتمل أن يكون اسم إنّ ضميرالشأن، وجملة اليوم عمل خبر، وخبر هي خبرها، وكذا قوله: وغداً حساب ولاعمل، والغرض من ذلك التنبيه على وقت العمل ومدّته لغاية المبادرة إليه وقت إمكانه اغتناماً للفرصة.

ومن كلامه له ﷺ

[**وقد أشار عليه أصحابه بالإستعداد لحرب أهل الشام، بعد إرساله إلى معاوية جريربن عبدالله البجلي**] وقال له جرير: والله ماادّخرك من نصرتي شيئاً، وماأطمع لك في معاوية، فقال: قصدي حجّة أقمتها، ثمّ كتب ﷺ معه مالخّصه:

....

أمّا بعد، فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتك، وأنت بالشام، لأنّه بايعني القوم الّذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على مابايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولاللغايب أن يرد، إلى أن قال: وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثمّ نقضا بيعتي، فكان نقضهما كردّتهما، فجاهدتهما على ذلك حتّى جاء الحقّ وظهر أمر اللّه وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأُمور إليّ فيك العافية، إلاّ أن تتعرّض للبلاء، فإنْ تعرّضتَ له قاتلتُك واستعَنْتُ باللّه عليك، وقد أكثرت في قتلة عثمان، فاخل فيما دخل فيه الناس، ثمّ حاكم القوم إليّ أحملكم وإيّاهم على كتاب اللّه، فأمّا تلك الّتي تريدها فخدعة الصبيّ عن اللبن، ولعمري إن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان.

واعلم إنّك من الطلقاء الّذين لاتتحلّى لهم الخلافة، ولاتعرض فيهم الشورى، وقد أرسلتُ إليك جريربن عبداللّه وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع، ولاقوّة إلاّ باللّه.

فأجابه معاوية:

أمّا بعد، فلعمري لو بايعك القوم الّذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنّك أعزبت بعثمان، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك، حتّى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمري ماحجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير، لأنّهما بايعاك ولم أُبايعك، وماحجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، لأنّهم

إنّ استعدادي لحرب زهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير إن أرادوا ولكن قد وقّتُّ لجرير وقتاً ولايقيم بعده إلّا مخدوعاً أو عاصياً

أطاعوك ولم يطيعك أهل الشام، فأمّا شرفك في الإسلام وقرابتك من النبيّ ﷺ وموضعك من قريش فلستُ أدفعه.

وفي رواية: إنّ الكتاب الّذي كتبه عليه السلام مع جرير كانت صورته: إنّي قد عزلتُك، ففوّض الأمر إلى جرير، والسلام.

وقال لجرير: صُن نفسك عن خداعه، فإن سلّم إليك الأمر وتوجّه إليّ فقم أنت بالشام، وإن تعلّل بشيء فارجع، فلمّا عرض جرير الكتاب على معاوية تعلّل بمشاورة أهل الشام وغير ذلك، فرجع جرير، فكتب معاوية في أثره فط ظهر كتاب عليّ عليه السلام: مَن ولاك حتّى أمرتني والسلام، ولنرجع إلى تفسير كلامه عليه السلام، قال:

[**إنّ استعدادي**] والإستعداد: التهيّؤ للأمر [**لحرب زهل الشام وجرير عندهم**] جملة حاليّة، أي: حال كون جرير عندهم وهم في مقام التروي والفكر في اتباعه أو مخالفته.

[**إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير إن أرادوا**] إذ الإعتداد للحرب في تلك الحال يبلغهم، فيحتاجون إلى الإستعداد والتأهّب للقائه، فكان ذلك سبباً لغلق الشام بالكلية، وصرفاً لمن يكون في ذهنه تردّد في هذا الأمر، أو في قلبه اللحوق به عمّا يريدون، وذلك مضادّ للحزم.

[**ولكن قد وقّتُّ لجرير وقتاً**] يصل إلينا فيه [**ولايقيم بعده**] ولايتخلّف عنه [**إلّا مخدوعاً**] منهم بمواعيد مخلفة ليتأهّبوا في تلك المدّة [**أو عاصياً**]

والرأي عندي مع الإناة فأرْوِدوا ولا أكره لكم الإعداد ولقد ضربتُ أنف هذا الأمر وعينَه وقلّبْتُ ظهرَه وبطنَه، فلم أر لي إلّا القتال، أو الكفر بما أُنزل على محمّدﷺ

وإنّما خصّ عليه السلام تأخّر جرير في المانعين المذكورين مع جواز تخلّفه لمرض ونحوه، لأنّ الكلام ليس في الموانع الإضطراريّة، بل الإختياريّة، وهي إمّا منهم وغالب الظنّ هو خداعه حتّى يستحكم أمرهم، وإمّا منه وغالب الظنّ عصيانه، إذ لايتصوّر من جرير في مثل هذا الأمر المهمّ أن يعدل عنه إلى شغل اختياريّ لنفسه أو لغيره، إلّا أن يكون عاصياً.

[**والرأي عندي مع الإناة**] فإنّ إصابة المطالب والظفر بها في الغالب إنّما هو مع التثبّت والتأنّي في الطلب وغير المتأنّي إن أصاب فأصابته نادرة، والنادر لايلتفت إليه.

[**فأرْوِدوا**] أي: أمهلوا وتأنّوا في الأُمور سيّما في هذا الأمر.

[**ولا أكره لكم الإعداد**] والإستعداد، حتّى يكونوا على يقظة من هذا الأمر، فإذا دعاهم إلى الحرب بادروا بلامانع، ولئلاّ يتوهّم في حقّهم الضعيف.

وقيل: إنّه عليه السلام كره الإستعداد ظاهراً، وأراد منهم الإستعداد باطناً.

[**ولقد ضربتُ أنف هذا الأمر وعينَه وقلّبْتُ ظهرَه وبطنَه، فلم أر لي إلّا القتال، أو الكفر بما أُنزل على محمّدﷺ**] ووجه لزوم الكفر من ترك القتال: أنّ النبيّﷺ قد كان أمره أمر حتم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فلو ترك قتالهم لكان مخالفاً لهﷺ، ويلزم من ذلك عدم اعتقاد صحّة أوامره، وذلك جحد به وكفر، ولأنّه حينئذ يكون راضياً بوقوع المنكرات مع قدرته

قد كان على الأُمّة وال أحدث أحداثاً وأوجد الناس مقالاً فقالوا، ثمّ نقموا فغيّروا

على إنكارها وتهاوناً بأمر اللّه ورسوله، وذلك كفر، واستعار عليه السلام لفظ العين والأنف والظهر والبطن الّتي هي حقائق في الحياة لحاله وأمره مع معاوية في الخلافة، وفي خلاف أهل الشام استعارة على سبيل الكناية، فكنّى بالعين والأنف عن المهمّ من هذا الأمر وخالصه، فإنّ العين والأنف أعزّ مافي الوجه، وكنّي بالضرب لهما عن قصده المهمّ منه على سبيل الإستعارة، وكنى بالظهر والبطن عن ظاهر هذا الأمر وباطنه، ووجوه الرأي فيه، ولفظ التقليب لتصفّح تلك الوجوه وعرضها على العقل واحداً واحداً.

ثمّ نبّه عليه السلام على بيان غدره عمّا نسب إليه معاوية وأصحابه، وجعلوه سبباً للعصيان، وهو الطلب بدم عثمان، فقال:

[**قد كان على الأُمّة وال**] وهو عثمان [**أحدث أحداثاً**] أنكرها الناس عليه [**وأوجد الناس مقالاً**] أي: جعل لهم بتلك الأحداث محلّ قول في حقّه.

[**فقالوا، ثمّ نقموا فغيّروا**] والمشهور من تلك الأحداث عشرة:

أ: تولية أُمور المسلمين من ليس أهلاً من الفسّاق، مراعاة للقرابة، دون حرمة الإسلام، كالوليدبن عقبة، حين ظهر منه شرب الخمر، وسعيدبن العاص، حتّى ظهرت منه الأُمور الّتي أخرجه أهل الكوفة بسببها، وعبداللّه بن أبي سرح، مع قوّة ظلم وتظلّم المصريّين منه، وهو الّذي اتّهمه المسلمون بمكاتبته بقتل محمّدبن أبي بكر حتّى ظفروا بالكتاب، ولأجله عظم التظلّم، وكثر الجمع، واشتدّ الحصار عليه.

....

ب : ردّه للحكم بن العاص طريد رسول اللّه ﷺ إلى المدينة مع امتناع الشيخين من ردّه مخالفاً للنبيّ ﷺ وسيرة الشيخين.

ج : إيثار أهله من مال المسلمين بالأموال العظيمة، حتّى دفع إلى أربعة نفر من قريش زوجهم ببناته أربعمائة ألف دينار، وأعطى مروان مائة ألف دينار.

د : أنّه حمى الحمى عن المسلمين بعد تسوية الرسول ﷺ بينهم في الماء والكلاء، هي أنّه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها، وذلك ممّا لايجوز في الدين.

هـ : ضربه لعبداللّه بن مسعود وهو من أكبر الصحابة وعلمائها، حتّى كسر بعض أضلاعه.

و : جمعه الناس على قرائة زيد بن ثابت، خاصّة وإحراق المصاحف عدا مصحفه.

ز : إقدامه على عمّاربن ياسر بالضرب مع كونه من أشرف الصحابة، وعلمه بقول النبيّ ﷺ فيه عمّار جلدة بين عينيّ تقتله الفئة الباغية، لاأنالها اللّه شفاعتي أصابه العنق، وكان عمّار ممّن أعان على قتله، وكان يقول قتلناه كافراً.

ح : إهانته لأبي ذر وأُذينة، ونفيه إلى الربذة مع علمه بقول النبيّ ﷺ فيه: ماأقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ.

ح : تعطيله الحدّ الواجب على عبداللّه بن عمر، حيث قتل الهرمزان مسلماً بمجرّد تهمته أنّه أمر أبالؤلؤ بقتل أبيه، ثمّ لم يفده به، وقد كان عليّ ﷺ يطلبه بذلك.

وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أميرالمؤمنين وأعتقهم، فلمّا

ومن كلام له عليه السلام
لمّا هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية

وكان عاملاً لعليّ على اردشير وسبب هروبه أنّ الخريت أحد بني ناجية، كان قد شهد مع عليّ عليه السلام صفّين، ثمّ استهواه الشيطان، فصار من الخوارج لسبب التحكيم، وخرج هو وأصحابه إلى المدائن، مفارقاً لعليّ عليه السلام، فوجّه إليه معقل بن قيس في ألفي فارس من أهل البصرة، ولم يزل يتبعهم بالعسكر بعد العسكر حتّى ألحقوهم بساحل فارس، وكان به جماعة كثيرة من قوم الخريت، وكان فيهم من أسلم عن النصرانيّة، فلمّا رأوا ذلك الإختلاف ارتدّوا واجتمعوا عليه، فزحف إليهم معقل، فقتل الخريت وجماعة منهم وسبى من كان أدرك فيهم من الرجال والنساء، ونظر فيهم فمن كان مسلماً أخذ بيعته وخلّى سبيله، واحتمال الباقين من النصارى وعيالهم معه، وكانوا خمسمائة نفر حتّى مرّوا بمصقلة، فاستغاث إليه الرجال والنساء ومجّدوه، فطلبوا منه أن يعتقهم، فأقسم ليتصدّقنّ عليهم بذلك، ثمّ بعث إلى معقل بن قيس فابتاعهم منه بخمسمائة ألف درهم، كما أشار إليه بقوله:

[وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أميرالمؤمنين وأعتقهم، فلمّا] قدم معقل على عليّ عليه السلام وأخبره بالقصّة شكر سعيه، وانتظر المال من يد مصقلة فأبطأ به، فكتب إليه باستعجاله أو بقدومه عليه، فلمّا قرأ كتابه قدم

فلمّا طالبه بالمال وخاس به وهرب إلى الشام قبّح اللّه مصقلة فَعَل فِعْلَ السادة وفرّ فرار العبيد فما أنطق مادحه، حتّى أسكته ولا صدق واصفه

عليه وهو بالكوفة فاقرّه أيّاماً.

[**فلمّا طالبه بالمال**] فأدّى منه مائتي ألف دينار، وعجز عن الباقي.

[**وخاس به**] أي: لم يقف، وخاس: غدر ونكت وخاف، فلحق معاوية [**وهرب إلى الشام**] فبلغ ذلك عليّاً عليه السلام فقال:

[**قبّح اللّه مصقلة**] أي: نحّاه عن الخير.

[**فَعَل فِعْلَ السادة**] دوي المروّة والحميّة، حيث اشترى القوم وأعتقهم [**وفرّ فرار العبيد**] فإنّ الفرار شيمتهم، ثمّ أكّد عليه السلام ذلك بمثلين، أحدهما:

[**فما أنطق مادحه، حتّى أسكته**] بتكت له بسرعة إلحاق الفضيلة بالرذيلة، حتّى كأنّه جمع بينهما، وهما أنطاق مادحة بفدائه الأسرى مع هربه قبل إتمام انطاقه، كما تقول في وصف سرعة تفرّق الاحباب عن اجتماعهم مااجتمعوا حتّى افترقوا، كأنّ الدهر قد جمع لهم بين الإجتماع والإفتراق.

[**ولا صدق واصفه**] بفعل الجميل مع فعل القبيح، الّذي كأنّه كذّبه به، ولامه على مدحه حتّى بكته، والتكبيت كالتقريع والتعنيف، ولمّا أشار إلى خطائه أردفه بما يصلح جواباً لما عساه يكون عذراً له لو اعتذر، وهو توّهمه التسديد عليه في أمر الباقي من المال، حتّى كان ذلك الوهم سبب هزيمته، فقال:

ولو أقام لأخذنا منه ميسوره وانتظرنا بماله وفوره الحمد للّه غير مقنوط من رحمته

[ولو أقام] ولم يفرّ [**لأخذنا منه ميسوره**] الّذي يقدر عليه [**وانتظرنا** بماله وفوره] أي: زيادته.

وفي رواية: ولو أقام لأخذنا منه ماقدر عليه، فإن أُعسر أنظرناه، فإن عجز لم نأخذه بشيء.

ومن خطبة له عليه السلام

قيل: هذا الفصل ملتقط من خطبة طويلة له عليه السلام خطب بها يوم الفطر، وهو غير متّسق بل بين قوله نعمه وقوله والدنيا فصل طويل.

وقال ابن أبي الحديد: هذا الفصل يشتمل على فصلين من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام، أحدهما: حمد اللّه والثناء عليه إلى قوله: ولايفقد له نعمة. والثاني: ذكر الدنيا إلى آخر الكلام، وأحدهما غير مختلط بالآخر، ولكن الرضي(ره) يلتقط كلام أميرالمؤمنين التقاطاً، ولايقف مع الكلام المتوالي، لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لاغير، ولو أتى بخطبته عليه السلام كلّها على وجهها لكانت أضعاف كتابه الّذي جمعه.

[**الحمد للّه غير مقنوط من رحمته**] إشارة إلى استحقاقه الحمد ودوامه باعتبار أُمور ستّة:

منها: سعة رحمته، والقنوط الإياس فهو مقرّر لقوله تعالى:

ولا مخلوّ من نعمته ولامأيوس من مغفرته ولا مستنكف عن عبادته الذي لاتبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة

﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾ وقوله: ﴿لاتيأسوا من رَوْحِ اللّه إنّه لاييأس من روح اللّه إلاّ القوم الكافرون﴾.

وأشار إلى الثانية بقوله:

[**ولا مخلوّ من نعمته**] لسبوغها وشمولها للبرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فهو تقرير لقوله تعالى: ﴿ومالكم من نعمة فمن اللّه وإن تعدّوا نعمة اللّه لاتحصوها﴾.

وأشار إلى الثالثة بقوله:

[**ولامأيوس من مغفرته**] تقرير لقوله تعالى: ﴿ياعبادي الّذين أسرَفوا على أنفسهم لاتَقْنَطوا من رحمة اللّه إنّ اللّهَ يغفر الذنوب جميعاً﴾.

وأشار إلى الرابعة بقوله:

[**ولا مستنكف عن عبادته**] تقرير لقوله تعالى: لايستنكفون عن عبادته ولايستحسرون﴾ وقوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكونَ عبداً للّه ولا الملائكة المقرّبون﴾، ولفظ غير مع سائر المنفيات المتعاقبة منصوبة على الحال، وقوله:

[**الذي لاتبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة**] اعتباران آخران توجب ملاحظتهما شكوة تعالى لدوام رحمته، وعدم فقدان نعمته.

وقال ابن أبي الحديد ماحاصله: لفصل يشتمل على باب كبير من علم البيان، يُعرَف بالموازنة، وذلك قوله غير مقنوط، حيث وازنه في الفقرة الثانية بقوله: ولاتخلو كلّ منهما وزن مفعول، وفي الفقرة الثالثة

والدار دار مُنِيَ الفناء، ولأهلها منها الجَلاء وهي حلوة خضرة

ولامأيوس، وفي الرابعة: ولامستنكف، وزن مستفعل غير خارج عن المفعول أيضاً، ثمّ وازن عليه السلام بين قوله لايبرح وقوله لايفتقد، وبين رحمته ونعمته، فأعطى بهذه الموازنات من اللطافة والصفة ما لاتجده عليه لو قال: الحمد للّه غيرمخلوّ من نعمته، ولا مبعّد عن رحمته، لأنّ مبعّداً بوزن مفعل غير مطابق لمفعول، وكذا لو قال لاتزول منه منه رحمة ليس مماثلاً ليعقد كبترح، ألا ترى أنها معتلّة وتلك صحيحة، وكذا لو قال ولايفتقد له انعام، فإنّه ليس في وزن رحمة، والموازنة أعمّ من السجع، لأنّه تماثل أجزاء الفواصل بحرف واحد، كالقريب والغريب والنسيب، وهي ما كان على الوزن وإن لم يكن الحرف الأخير واحد، فكلّ سجع موازنه ولاعكس، ومثال الموازنة في القرآن: ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم﴾. وقوله: ﴿ليكونوا لهم عزّاً﴾. ثمّ قال: ﴿ويكونون عليهم ضدّاً﴾. ثمّ قال: ﴿نورهم أزّاً﴾. ثمّ قال: ﴿نعدّ لهم عدّاً﴾.

ثمّ أشار إلى ذمّ الدنيا والتنبيه على معايبها للتنفير عنها فقال:

[والدار دار مُنِيَ] أي: قدّر لها **[الفناء، ولأهلها منها الجَلاء]** بفتح الجيم، الخروج عن الوطن، قال سبحانه: ﴿ولولا أنْ كتب اللّهُ عليهم الجلاء﴾.

[وهي حلوة خضرة] إشارة إلى جهتين من جهات الميل:

احداهما: منسوب إلى القوّة الذائقة وهي حلاوتها.

والأُخرى: إلى الباصرة، وهي خضرتها، وكنّى بهما عن جهات الميل من إطلاق الجزء على الكلّ، وإيرادهما مع كونهما وصفي مدح في معرض

وهي حلوة خضرة قد عجلتُ للطالب والتبسَتْ بقلب الناظر تحلوا عنها بأحسن مابحضرتكم من الزاد

الذمّ كتقدير اعتراض على ذمّها لغرض الجواب عنه، ولذا عقّب ذكرهما بما يصلح جواباً، وبيّنه على مايصرف عن الميل إليها من هاتين الجهتين، فقال:

[**قد عجلتُ للطالب**] إذ كان من شأن المعجّل أن ينتفع به في حال تعجيله دون مابعده، خصوصاً في حقّ من أحبّ ذلك المعجّل، ولم يلتفت إلى ماسواه، والدنيا كذلك، كما أشار إليه بقوله:

[**والتبسَتْ بقلب الناظر**] أي: خالطت قلبه بمحبّتها، وإنّما خصّ الناظر لتقدّم ذكر الخضرة الّتي هي من حظّ النظر، فمن عجلت له منحه والتبست بقلبه، وكان لابدّ له من مفارقتها لم ينتفع بمابعدها، وبقي في عذاب الفراق منكوساً، وفي ظلمة الوحشة محبوساً، كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿من كان يُريد العاجلة عجّلنا له فيها مايشاء لمن يريد ثمّ جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾.

ثمّ لمّا نبّه على معايبها أمر بالإرتحال عنها فقال:

تحلوا عنها] اختياراً، قبل أن ترتحلوا عنها اضطراراً، وأخرجوا من هذه القرية الظالم أهلها متلبّسين [**بأحسن مابحضرتكم من الزاد**] وهو التقوى، والأعمال الصالحة، والملكات الفاضلة، قال تعالي: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

وقوله: مابحضرتكم إشارة إلى مايمكن أن يؤتى به من الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا.

ولاتَسألوا فيها فوق الكفاف، ولاتطلبوا منها أكثر من البلاغ اللّهمّ إنّي أعوذُ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد

[**ولاتَسألوا فيها**] أي: في الدنيا من متاعها وحطامها [**فوق الكفاف، ولاتطلبوا منها أكثر من البلاغ**] الّذي يبلغكم إلى الآخرة، فإنّ البدن بمنزلة مركوب تقطع به النفس مراحل طريقها وسيرها إلى اللّه تعالى، فالزيادة على الكفاف ممّا يحوج الراكب إلى الإهتمام به، والإعتناء بحفظه، والميل إليه، وكلّ ذلك مثقل للظهر، ومشغل عن الجهة المقصودة للسائر، وعايق عن السير.

ومن كلام له عليه السلام
عند مسيره إلى الشام

وروي أنّه عليه السلام دعى به عند وضع رجله في الركاب، متوجّهاً إلى حرب معاوية:

[**اللّهمّ إنّي أعوذُ بك من وعثاء السفر**] مشقّته، وأصل الوعث: المكان المتعب لكثرة رمله، وغوص الأرجل فيه، يقال: أوعث القوم أي: وقفوا في الوعث.

[**وكآبة المنقلب**] الكآبة الحزن، والمنقلب مصدر من انقلب منقلباً، أي: رجع.

[**وسوء المنظر**] أي: قبح المرأى [**في الأهل والمال والولد**] بأن لايرى

اللّهمّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ولايجمعها غيرك، لأنّ المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لايكون مستخلقاً .

قال السيّد (ره): وابتداء هذا الكلام مرويّ عن رسول اللّهﷺ وقد قفاه عليه السلام بأبلغ كلام وتمّمه بأحسن تمامه من قوله: ولايجمعهما غيرك إلى آخر الفصل

الإنسان فيهم مايكره، والمقصود الإلتجاء إلى اللّه تعالى في خلاص طريقه المتوجّه فيها بدءاً من الموانع الصارفة عن تمام المقصود وسلامة الأحوال المهمّة الّتي تتعلّق النفس بها من المشغلات البدنيّة المعوقة عن عبادة اللّه، وأعظمها أحوال النفس، ثمّ مايصلحكم من أهل ومال وولد.

[**اللّهمّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**] تقرير لقوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم، وقوله تعالى: ﴿مايكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا﴾.

[**ولايجمعها غيرك، لأنّ المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لايكون مستخلقاً**].

[**قال السيّد (ره): وابتداء هذا الكلام**] وهما الفقرتان الأوّلتان مرويّ عن **رسول اللّه**ﷺ] في المسانيد الصحيحة.

[**وقد قفاه عليه السلام بأبلغ كلام وتمّمه بأحسن تمامه من قوله: ولايجمعهما غيرك إلى آخر الفصل**] من التنزيه عن الجهة والجسميّة، إذ كان اجتماعهما ممتنعاً للأجسام، إذ لايكون جسم واحد مستصحباً مستخلفاً في حال واحد،

كأنّي بكِ يا كوفة تمدّين مدّ الأديم العُكاظيّ وتعركين بالنوازل

وحيث أنّه تعالى منزّه عن وصمة الإمكان من زمان ومكان، فهو في كلّ مكان وليس في مكان، وبكلّ شيء محيط ولايحيطون به علماً، فالمراد بكونه في كلّ مكان علمه وإحاطته ونفوذ حكمه وقضائه وقدرته، فذا يكون مستخلفاً ومستصحباً في آن واحد.

ومن كلام له عليه السلام
في ذكر الكوفة

[كأنّي بكِ يا كوفة تمدّين مدّ الأديم العُكاظيّ] عكاظ: بالضمّ اسم موضع أو سوق للعرب، بناحية مكّة كانوا يجتمعون بها في كلّ سنة يقيمون شهراً، ويتبايعون ويتناشدون بالأشعار ويتفاخرون في ذلك، قول أبي ذويب: إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف، فلمّا جاء الإسلام هدم ذلك وأديم عكاظيّ منسوب إليها لكثرة ماكان يباع بها، والأديم واحد جمعه أدم، وربّما جمع على أدمة كرغيف وأرغفة وتمدين وتعركين حال، والخطاب لشاهد حال الكوفة، أي: كأنّي حاضر بك، ومشاهد لحالكِ المستقبلة، تمدّين مدّ الأديم أي: تجاذب أيدي الظالمين زهلك بأنواع الظلم، وهو المكنّى عنه بمدّها، ووجه شبهه بمدّ الأديم شدّة مايقع بهم من الظلم والبلاء، كما أنّ الأديم مستحكم الدباغ يكون شديد المدّ.

[وتعركين بالنوازل] من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتّى أبقتهم كناية عن فعل الظلمة بأهلها، والنوازل ماينزل بهم من البلايا والمحنة.

وتركبين بالزلازل وإنّي لأعلم أنّه ماأراد بك جبّار سوء إلّا ابتلاه اللّه بشاغل ورماه بقاتل

[وتركبين بالزلازل] استعار لفظ الركوب ملاحظة لتشبّهها بالمطيّة، ولفظ الزلازل ملاحظة لشبهها فيما يقطع لهم من الظلم الموجب لاضطرابها الأرض بالزلازل.

ثمّ أشار عليه السلام إلى مشاهدة ثانية، لما يقع بمن أراد بهم سوء، وأوقع بهم ماأوقع من البلاء، فقال:

[وإنّي لأعلم أنّه ماأراد بك جبّار سوء إلّا ابتلاه اللّه بشاغل] يشغله عنك.

[ورماه بقاتل] يقاتله أو يقتله فيصرف منك، وذلك لأنّها قبّة الإيمان، ومنها الشيعة والأنصار والأعوان وقصّروا جملة من أهلها، ولذا ورد عنهم عليهم السلام: ياأهل الكوفة أنتم الشعار دون الدثار.

قال ابن أبي الحديد: وقد جاء في فضل الكوفة عن أهل البيت شيء كبير نحو قول أميرالمؤمنين عليه السلام: نعمت المدرة.

وقوله عليه السلام: إنّه يحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً وجوههم على صورة القمر.

وقوله عليه السلام: هذه مدينتنا وشيعتنا.

وقول جعفر بن محمد عليه السلام: اللّهم ارم من رماها، وعاد من عاداها.

وقوله عليه السلام: تحبّنا ونحبّها، فأمّا ما هم به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء ودفاع اللّه عنها فكثير.

وقال المحقّق البحراني: وأمّا الجبابرة الّذين أرادوا بها سوء وطغوا فيها

الحمد للّه كلّما وقب ليل وغسق

فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب، وأخذهم بذنوبهم، وما كان لهم من اللّه من واق، فجماعة فمن ابتلى بشاغل فيها زياد.

وروي أنّه كان قد جمع الناس في المسجد ليأمرهم بسبّ عليّ، والبراءة منه، ويقتل من يعصيه فبيناهم مجتمعون إذ خرج صاحبه فأمرهم بالإنصراف.

وقال: إنّ الأمير الأمير مشغول عنكم، وكان في تلك الساعة تدري بالفالج، ومنهم ابنه عبيداللّه، وقد أصابه الجذام. ومنهم الحجّاج، وقد تولّدت في بطنه الحيّات، واحترقت دبره حتّى هلك. ومنهم عمروبن هبيرة، ويوسف ابنه، وقد أصابهما البرص، ومنهم خالد القسري، وقد ضرب وحبس حتّى مات جوعاً، وأمّا الّذين رماهم اللّه بقاتل فعبيداللّه بن زياد ومصعب بن الزبير، والمختاربن أبي عبيدة الثقفي، ويزيدبن المهلب، وأحوالهم مشهورة من رامها طالع التاريخ.

ومن خطبة له عليه السلام
عند المسير إلى أهل الشام.

روي إنّ هذه الخطبة خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة، متوجّهاً إلى صفّين، لخمس بقين من شوّال سنة سبع وثلاثين، فقال:

[**الحمد للّه كلّما وقب ليل وغسق**] وقب اللّيل: دخل، وغسق: أظلم، قال تعالى: ﴿ومن شرّ غاسق إذا وقب﴾ والمقصود حمده دائماً، وفي

والحمد للّه كلّما لاح نجم وخفق والحمد للّه غير مفقود الأنعام ولا مكافيء الأفضال أمّا بعد، فقد بعثت مقدّمتي وأمرتم بلزوم هذا الملطاط إلى أن يأتيهم أمري

كلّ آن وزمان، وفيه تنبيه على كمال قدرة اللّه في تعاقب اللّيل والنهار، واستحقاقه دوام الحمد بما يلزم ذلك من ضروب الإمتنان.

[**والحمد للّه كلّما لاح نجم وخفق**] أي: غاب، وفيه إشارة إلى مايلزم طلوع الكواكب وغروبها من الحكمة وكمال النعمة.

[**والحمد للّه غير مفقود الأنعام**] إذ نعمه لاتحصى، ﴿وإنْ تعُدّوا نعمة اللّه لاتحصوها وما بكم من نعمة فمن اللّه﴾.

[**ولا مكافيء الأفضال**] ومن الذي يكافىء عشر معشار فضله، أو يقابله بجزء أو يشكر نعمه، كما قال عليه السلام: وماقدر لساني في جنب شكوك، وماقدر عملي في جنب نعمك، وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك، إذ كانت القدرة على الحمد والثناء والعبادة نعمة ثانية يجب شكرها، وفضل آخر يلزم مكافئته.

[**أمّا بعد، فقد بعثت مقدّمتي وأمرتم بلزوم هذا الملطاط**] أي: السمت، أي: سمت شاطيء الفرات.

[**إلى أن يأتيهم أمري**] فإنّه عليه السلام لمّا أراد التوجّه إلى صفّين بعث زيادبن النصر وشريح بن هاني في إثني عشر ألف فارس مقدّمة له، وأمرهم أن يلزموا شاطيء الفرات، فأخذوا شاطها من قبل البرّ، ممّا يلي الكوفة حتّى بلغوا عانات، فذاك معنى أمره لهم بلزوم الملطاط، وهو سمت شاطيء الفرات.

وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة إلى شرذمة موطئين أكناف دجلة فأنهضم معكم إلى عدوّكم واجعلهم من أمداد القوّة لكم.

قال السيّد الرضي:

وأمّا هو عليه السلام فلمّا خرج من الكوفة انتى إلى المدائن فحذّرهم ووعظهم، ثمّ سار عنهم وخلّف عليهم عديّ بن حاتم فاستخلص منهم ثمانمائة رجل فسار بهم، وخلّف ابنه زيداً، فلحقه في أربعمائة رجل منهم، وهو الّذي أشار إليه بقوله:

[**وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة**] أي: الفرات [**إلى شرذمة**] أي: نفر قليل [**موطئين أكناف دجلة**] أي: قد جعلوا أكنافها وطئاً، والأكناف الجوانب واحدها كنف، وعنى بهم أهل المدائن.

[**فأنهضم معكم إلى عدوّكم واجعلهم من أمداد القوّة لكم**] والأمداد جمع مدد، وهو مايمدّ به الجيش تقوية له، فأمّا المقدّمة فإنّه لما بلغهم أنّه عليه السلام سار على طريق الجزيرة، وأنّ معاوية خرج في جموعه لاستقباله كرهوا أن يلقوهم وبينهم وبين على الفرات مع قلّة عددهم، فرجعوا حتّى عبروا الفرات من هيت، ولحقوا به فصوّب آراءهم في الرجوع إليه.

[**قال السيّد الرضي**] رضي اللّه عنه، يعني عليه السلام بالملطاط، ههنا السمت الّذي أمرهم بلزومه، وهو شاطيء الفرات، ويقال: ذلك أيضاً الشاطيء البحر، وأصله ماستوى من الأرض ويعني بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

الحمد للّه الّذين بطن خفيّات الأُمور ودلّت عليه أعلام الظهور

من خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الّذين بطن خفيّات الأُمور**] يقال: بطنت الوادي دخلته، وبطنت الأمر علمت باطنه، أي: نفذ علمه في بواطن خفيّات الأُمور، فهو يعلم السرّ وأخفى، ولايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم دبيب النملة على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء أن يكون المراد أنّه داخل في بواطن الأُمور الخفيّة الّتي هي أخفى من ظواهرها لتقدّسه عن الجسميّة والوضع والجهة، فلاتدركه الحواسّ الظاهرة، ولاالباطنة، ولتنزّهه عن أنحاء التركيب، فلامجال للعقل في إدراكه، فسبحان من جعل الأفهام والأوهام في بيداء كبريائه حيرى، ولم يجعل للعقول إلى سبيل عظمته ومعرفته مجرى، قال تعالى: ﴿ولايُحيطون به علماً﴾ وقال تعالى: ﴿لاتدركه الأبصار﴾.

وفي الحديث: إنّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار.

[**ودلّت عليه أعلام الظهور**] من الآيات الباهرة، والآثار الظاهرة، فما من موجود من الموجودات، بل ولا ذرّة من الذرّات إلاّ وهي تنادي بأفصح لسان وأوضح بيان بوجوده، فواعجباً كيف يعصى الإله وكيف يجحده الجاحد، وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد، وإلى ذلك أُشير في التنزيل بقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾.

وامتنع على عين البصيرة فلا عين من لم تره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره

وهذه طريقة الملّيين المستدكّين بالاثر على المؤثّر واعلا منها طريقة الصديّقين الّذين يستدلّون بوجوده على وجود كلّ شيء، إذ هو منه، ولايستدلّون عليه بوجود شيء، إذ هو تعالى أظهر وجوداً من جميع الأشياء، كما قال: ﴿اللّهُ نور السماوات والأرض﴾ والنور وهو الّذي يستبين به الأشياء، وإلى ذلك أشار سيّد الشهداء وخامس أصحاب الكساء بقوله: «سبحانك كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهر ماليس لك حتّى يكون هو المُظهر لك؟ متى غبتَ حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعُدتَ حتّى تكون الآثار هي الموصلة إليك، عميَتْ عينٌ لاتراك ولاتكون عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً، فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم بشدّة ظهوره».

[**وامتنع على عين البصيرة**] فـ﴿لاتُدركه الأبصارُ وهو يُدرك الأبصارَ وهو اللّطيف الخبير﴾.

[**فلا عين من لم تره تنكره**] إذ كانت فطرته شاهدة بظهور وجوده في جميع آثاره، فكيف يكون له سبيل إلى إنكاره، والعين إنّما تدرك الاجسام والأعراض، وهو تعالى منزّه عنها.

[**ولا قلب من أثبته يبصره**] أي: من أثبته مع كونه مثبتاً له بقلبه لاببصره، والفرض ردع الأوهام الفاسدة، والخيالات الكاسدة القائلة، كيف لاتنكر العين شيئاً لاتراه، وكيف يثبت القلب مالم يبصر، ويحتمل أن يكون

سبق في العلوّ فلا شيء أعلا منه وقَرُب في الدنوّ فلا شيء قرب من

المراد بالفقرة الثانية أنّ القلب وإن أثبته من جهة وجوده، ولكنّه لايحيط به علماً، ولايُعرف الكنه والحقيقة.

[**سبق في العلوّ**] العقلي [**فلا شيء أعلا منه**] ولارتبة فوق رتبته، بل جمع المراتب العقليّة منحطّة عنه، اللّه أكبر وأجلّ وأعظم وأقدر، لأنّه علّة العلل، وإليه مرجع جميع الكمال، منه بدؤها، وإليه منتهاها، فكيف يمكن أن يكون شيء أعلا منه.

[**وقَرُب في الدنوّ**] من قولك فلاأقرب إلى فلان إذا كان خصيصاً به مطّلعاً على أحواله أكثر من غيره.

والمراد بقربه من الأشياء نفوذ علمه وإحاطة قدرته بها.

[**فلا شيء قرب من**] ﴿لايعزُبُ عنه مثقال ذرّةٍ في الأرضِ ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾.

وقال تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾. و

قال تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتُبصرون﴾.

وقال تعالى: ﴿فإنّي قريب أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعان﴾.

أقول: والعلوّ والدنوّ يُطلقان على معان:

منها: العلوّ الحسّي المكاني، كعلوّ بعض الأجسام على بعض، وهو ممتنع عليه تعالى، لتنزّهه عن الجسميّة.

ومنها: العلوّ التخيّلي، كما يقال الملك أعلى الناس في الرتبة المتخيّلة، وهو ممتنع عليه تعالى، لتقدّسه عن الكمالات الخياليّة، إذ هي

فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ولاقربه ساواهم في المكان به لم تطّلع العقول لى تحديد صفته

إضافة تتغيّر وتتبدّل بحسب الأشخاص والازمان.

ومنها: العلوّ العقلي، كما يقال السبب أعلى من المسبّب، وبهذا المعنى يطلق عليه تعالى.

والدنوّ يطلق على مقابل المعاني الثلاثة، فيقال: مكان فلا أدنى من مكان فلان إذا كان أسفل منه، وهو ممتنع، لتنزّهه عن الجسميّة والمكانيّة.

ويقال: رتبة فلان أدنى من رتبة فلان.

وعلى العقليّ كما يقال: رتبة المعلول أدنى من مرتبة العلّة.

وهذه الثلاثة تمتنع إطلاقها عليه تعالى.

والّذي يصحّ معنى رابع، مرّ ذكره، ولمّا كانت الأوهام تتخيّل إنّ ماستعلى على الأشياء كان بُعده منها بقدر علوّه عليها، وماقرب منها فقد ساواها في أمكنتها.

ردع عليه السلام هذا الوهم وأبطل هذا الخيال بقوله:

[فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ولاقربه ساواهم في المكان به] بل الإستعلاء والقرب مجتمعان له في آن واحد.

[لم تطّلع العقول لى تحديد صفته] لأنّه إمّا لا صفة له فتحدّ، أو لأنّه كما يمتنع إدراك كنه ذاته فكذا يمتنع إدراك صفات، إذ صفاته عين ذاته، قال تعالى: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾.

وقال تعالى: ﴿وما قدروا اللّهَ حقّ قدره﴾.

وفي النبويّ: «سبحانك لاأصفك إلاّ بما وصفتَ به نفسك».

ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذوي الجحود

[**ولم يحجبها عن واجب معرفته**] لأنّه تعالى وهب لكلّ نفس قسطاً من معرفته هو الواجب لها بحسب استعدادها، لقبول حتّى نفوس الجاحدين له، فإنّها أيضاً معترفة بوجوده الشهادة نطقها بوجود صانعها، وهو القدر الواجب الضروريّ لها.

[**فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود**] استعارة لإثارة الدالّة على وجوده وكمال قدرته وعلمه، كما قال تعالى: ﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأُولي الألباب﴾.

[**على إقرار قلب ذوي الجحود**] لأنّ كثيراً من الناس ربّما جحده بطريق العادة أو التقليد، كالمعطّلة وعَبَدة الأوثان والأصنام، فإذا راجع قلبه أو نبّه عليه عاد معترفاً بوجوده. قال تعالى: ﴿وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه فلمّا نجّيٰكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾.

وقال تعالى: ﴿حتّى إذا كنتم في الفلك وجرَيْن بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنّه أُحيط بهم دَعَوا اللّهَ مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين فلمّا نجّاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ﴾.

وروي إنّ زنديقاً دخل على الصادق عليه السلام فسأله عن دليل إثبات الصانع، فأعرض عنه ثمّ التفت إليه وسأله من أين أقبلت؟ وماقصّتك؟ فقال: إنّي كنتُ في البحر فعصفتْ علينا الريح وبلغتْ بنا الأمواج فانكسرت سفينتنا فتعلّقتُ بساحة منها، ولم يزل الموج يُقلبها حتّى قذفت بي إلى

إنّما بدؤ وقوع الفتن أهواء تُتَّبَع وأحكام تُبْتَدَع يخالَف فيها كتاب اللّه

الساحل فنجوتُ عليها، فقال: أرأيت الّذي كان في قلبك إذا انكسرت السفينة وتلاطمت الأمواج فزعاً إليه مخلصاً له في التضرّع طالباً منه النجاة فهو إلهك، فاعترف الزنديق بذلك، وحسن اعتقاده.

ومن خطبة له عليه السلام

[إنّما بدؤ] أي: ابتداء **[وقوع الفتن]** الّتي انتجت المذاهب الفاسدة والآراء الكاسدة الّتي يفتتن الناس بها **[أهواء تُتَّبَع وأحكام تُبْتَدَع]** خارجة عن الكتاب والسنّة، كالعمل والقياس والإستحسان ونحوها.

[يخالَف فيها كتاب اللّه] خصوصاً كما ترد الأخبار الصحيحة، والآثار الصريحة في مقابلة قاعدة اخترعوها، وكلّية ابتدعوها، وكما كان يقول من قال قال عليّ وأقول أنا أو عموماً، فإنّ اللّهَ تعالى قد نهى في كتابه عن الحكم بغير حكمه، فالحاكم بغير الكتاب والسنّة مخالف لكتاب اللّه، قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون ... هم الفاسقون ... هم الظالمون﴾.

وقال تعالى: ﴿أفحُكمَ الجاهليّة يبغون ومَن أحسن مِن اللّه حُكماً لقوم يوقنون﴾.

وقال تعالى: ﴿ألم يؤخذ عليكم أن لاتقولوا على اللّه إلاّ الحقّ﴾.

وقال: ﴿وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال﴾.

ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين اللّه فلو أنّ الباطل خلص من مــزاج الحقّ لم يخف على المرتادين ولو أنّ الخلق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث فيمزجان

[**ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين اللّه**] كما فعل أئمّة الضلال وخلفاء الجور.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أسباب تلك الآراء الفاسدة فقال:

[**فلو أنّ الباطل خلص من مــزاج الحقّ لم يخف على المرتادين**] أي: الطالبين [**ولو أنّ الخلق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين**].

قيل: وجه الملازمة في المقدّمة الأُولى أنّ مقدّمات الشبهة إذا كانت كلّها باطلة أدرك طالب الحقّ وجه فسادها بأدنى سعي، ولم يخف عليه بطلانها، ولما خفي وجه البطلان فيها على طالب لم يكن الباطل فيها خالصاً من مزاج الحقّ، فكان ذلك هو سبب الغلط واتّباع الباطل.

وفي الثانية: إنّ مقدّمات الحجّة الّتي استعملها المبطلون لو كانت كلّها حقّة لكانت النتيجة حقّاً تقطع ألسنتهم عن العناد فيه والمخالفة.

[**ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث**] والضغث: القبضة من الجيش ونحوه، فاستعير لفظه للنصيب من الحقّ والباطل.

[**فيمزجان**] فيشبه الحال على الجاهل، وكذلك كشبهة قتل عثمان الّتي يتمسّك بها الناكثون والقاسطون، فإنّ فيها مقدّمة صادقة هي كون من قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً، ومقدّمة كاذبة عند الخصم، وهي كونه قُتل مظلوماً، وعند القوم المقدّمة الصادقة هي كون إمام المسلمين قتل مظلوماً،

فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو من سبقت لهم من اللّه الحسنى قد استطعموكم القتال فأقرّوا على مذلّة وتأخير محلّة روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء

ومقدّمة كاذبة وهي نسبة ذلك القتل إليه.

[**فهنالك**] أي: عند امتزاج الحقّ بالباطل [**يستولي الشيطان على أوليائه**] فزيّن لهم اتّباع من ينعق بتلك الشبهة ونحوها.

[**وينجو من سبقت لهم من اللّه الحسنى**] والعناية له بتميز الحقّ من الباطل.

ومن كلام له عليه السلام
لمّا غلب أصحاب معاوية أصحابه على شريعة الفرات بصفّين ومنعوهم من الماء

[**قد استطعموكم القتال**] استعار لفظ الإطعام لتحرّشهم بالقتال في منعهم للماء، ووجه الإستعارة استسهالهم للقتال، وطلبهم له بمنع الماء الّذي هو في الحقيقة أقوى جذباً للقتال من طلب المأكول بالأقوال، ولأنّهم لمّا حازوا الماء أشبهوا في ذلك من طلب الطعام له، ولمّا استلزم ذلك المنع طلبهم للقتال تعيّن أن يشبه ماطلبوا طعامه.

[**فأقرّوا على مذلّة**] وهي مذلّة ترك القتال والإستسلام للعدوّ.

[**وتأخير محلّة**] والمحلّة: المنزلة، وتأخيرها عن رتبة أهل الشرف والشجاعة.

[**روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء**] قال المحقّق البحراني

فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين

ماحاصله:

أمرهم بأحد لازمين عن منعهم الماء واستطعامهم القتال به: إمّا ترك القتال أو إيقاعه، وإنّما أورد الكلام بصورة التخيير بين هذين اللازمين وإن لم يكن مراده إلاّ القتال لعلمه بأنّهم لايختارون ترك القتال مع مايلزم من الإقرار بالعجز والمذلّة والإستسلام للعدوّ، وتأخير المنزلة عن رتبة أهل الشرف والشجاعة، وإنّما أورد الوصفين اللازمين لترك القتال وهما الإقرار على المذلّة، وعلى تأخير المحلّة، لينفر بهما عنه، ويظهره لهم في صورة كريهة، وإنّما جعل الريّ من الماء الّذي هو مشتهى أصحابه في ذلك الوقت، لأنّ مالترويتهم السيوف من الدماء الّتي يلزمها القتال ليريهم القتال في صورة محبوبة تميل طباعهم إليها، ونسبة التروّي إلى السيوف نسبة مجازيّة، وقال في شرح قوله:

[فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين] من لطائف الكلام ومحاسنه، وهو جذب إلى القتال بأبلغ مايمكن من البلاغة، فجذبهم إليه بتصويره لهم، إذ الغاية الّتي عساهم يفرّون من القتال خوفاً منها هي الموت موجودة في الغاية الّتي عساهم يطلبونها من ترك القتال، وهي الحياة البدنيّة حال كونهم مقهورين، وتجوّز بلفظ الموت في الشدائد والأهوال الّتي تلحقهم من عدوّهم لو قهرهم، وهي عند العاقل أشدّ بكثير من موت البدن، وأقوى مقاساة، فإنّ المنزلة وسقوط المنزلة والهضم والإستيعاض عند ذي اللبّ موتات متعاقبة.

ألا وإنّ معاوية قاد لُمَةَ من الغواة وعمّس على الخير

ويحتمل أن يكون مجازاً في ترك عبادة اللّه بالجهاد، فإنّه موت للنفس، وعدم لحياتها، وكذلك جذبه لهم، إذ الغاية الّتي يفرّون إليها بترك القتال وهي الحياة موجودة في الغاية الّتي يفرّون منها، وهي الموت البدني، حال كونهم قاهرين، أمّا في الدنيا فمن وجهين:

أحدهما: الذكر الجميل الباقي الّذي لايموت، ولايفنى.

والثاني: إنّ طيب حياتهم الدنيا إنّما يكون بنظام أحوالهم بوجود الإمام العادل، وبقاء الشريعة كما هي، وذلك إنّما يكون بإلقاء أنفسهم في غمرات الحرب محافظة على الدين، وموت بعضهم فيها، ولفظ الموت مهمل تصدق نسبته إلى الكلّ، وإن وجد البعض، وأمّا في الآخرة فالبقاء الأبدّ بالمحافظة على وظائف اللّه والحياة التامّة في جنّات عدن، كما قال تعالى: ﴿ولاتحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾ الآية.

وفي الفقرتين الأولتين السجع المتوازي، وفي اللتين بعدهما السمج المطرف، وفي اللذين بعدهما المقابلة. وقوله:

[**ألا وإنّ معاوية قاد لُمَةَ من الغواة**] واللمة بالتخيف: الجماعة، والغواة: جمع غاو، كقضاة جمع قاض الضلال.

[**وعمّس**] بالتخفيف والتشديد أي: عمروا بهم [**على الخير**] إشارة إلى شبهة قتل عثمان، ذكر لكلّ من الضال والمضلّ رذيلتين، فاللتان فيه قودهم إلى الضلال، بل النار كما قال تعالى: ﴿يقدم قومه فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾، ويلتبس الحقّ بالباطل عليهم، واللتان في قومه كونهم غواة

حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة ألا وإنّ الدنيا قد تصرّمت وآذنت بانقضاء وتنكّر معروفها

عن الحقّ، وكونهم انقادوا الباطل عن شبهة حتّى صار جهلهم مركّباً، والمقصود التنفير عنهم، ثمّ أشار إلى تلبيس الحقّ عليهم بقوله:

[**حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة**] كناية عن تصدّيهم للموت، ولفظ الغرض مستعار لنحورهم، ووجه المشابهة جعلتهم النحور معرضة لسهام المنيّة من الطعن والضرب، كالهدف الّذي ينصبه الرامي، وهي استعارة بالكناية، كأنّه حاول أن يستعير للمنيّة لفظ الرامي.

ومن كلام له عليه السلام
يجري مجرى الخطبة

قد تقدّم مختارها برواية، ونذكرها هنا برواية أُخرى لتغاير الروايتين:

[**ألا وإنّ الدنيا قد تصرّمت**] انقطعت وفُنِيَتْ.

[**وآذنت**] أي: أعلمت [**بانقضاء**] يقال: أذنته بكذا، أي: أعلمته، وعنى بتصرّمها يقتضي أحوالها الحاضر شيئاً فشيئاً، بالنسبة إلى من وجد فيها في كلّ حين وبإذنها، بالإنقضاء إعلامها بلسان حالها، أنّها لاتبقى لأحد، فلا الدنيا بباقية لحيّ، ولا حيّ على الدنيا بباقي.

[**وتنكّر معروفها**] أي: جهل منها ما كان معروفاً أو تغيّر وتبدّل معروفها، أي: خيرها ولذّاتها، فإنّ الإنسان إذا أصاب لذّة من لذّاتها كصحّة وأمن ومال وجاه ونحوه، أنس إليه وتوهّم بقاءه له، وكان ذلك

وأدبرت حذّاء فهي تحفز بالفناء سكّانها وتحدو بالموت جيرانها وقد أمرّ منها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً

معروفها الّذي أسندته إليه، وعرفه وألفه منها، وعن قليل يزول ويتبدّل بضدّه، أو المراد أنّ كلّ شيء من الدنيا مبدئه حلو نضر خضر، ويؤل إلى أن يصير منكراً بشعاً، فإنّ المأكل الجيدة تستحيل إلى الغائط، والمشارب اللذيذة إلى البول، والملبوسات الفاخرة إلى الخلقان، وهكذا.

[**وأدبرت حذّاء**] بالحاء المهملة أي: سرعية خفيفة، ويروى بالجيم أي: منطقة الدرّ والخير، واستعار لفظ الإبار لانتقال خيراتها عمّن انتقلت عنه بموت ونحوه ملاحظاً لشبهها بملك أعرض عن بعض رعيّته برفده وبرّه.

[**فهي تحفز**] والحفز: السوق الحثيث والظعن [**بالفناء سكّانها وتحدو**] من حدي الإبل [**بالموت جيرانها**] استعار لها وصفي السابق والحادي استعارة بالكناية، ووجه الشبه كونهم قاطعين لمدّة العمر بالفناء والموت، فهي قد أصحبتهم بذلك كما يصحب السائق والحادي الإبل بالسوق والحداء، وإن أُريد بالحفز الظعن فيكون قد تجوز بنسبته إلى البلاء ملاحظاً نسبة مصاحب الدنيا بالرمح والقناة، واستعار لفظ الفناء والموت لآلة السوق والحداء، والشبه كون الموت سبباً في انتقال الإنسان إلى الدار الآخرة، كما أنّ الصوت والسوط مثلاً الذَيْن آلتا الحداء والسوق هما اللتان بهما يحصل انتقال الإبل من موضع إلى موضع.

[**وقد أمرّ**] أي: صار مرّاً [**منها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً**] وذلك بالنسبة إلى كلّ شخص شخص من أهلها، فتتبدّل الصحّة بالسقم، واللذّة بالألم، والشباب بالهرم، والغنى بالفقر، والعزّ بالذلّ وهكذا، وذلك

فلم يبق منها إلاّ سملة كسملة الإداوة، أو جرعة كجرعة المقلة لو تمزَّزَها الصَّدْيان لم ينقع فأزمِعُوا يا عبادَ اللّه على الرحيل عن هذه الدار المقدور

مشاهد بالوجدان غنيّ عن البيان، فلا تجد أحد أصفى له صفوها.

كلّ من تلقاه يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن

هذه الدنيا لمن طلّقها ... ورضى منها بقوت أو كفن

[**فلم يبق منها إلاّ سملة كسملة الإداوة، أو جرعة كجرعة المقلة**] والسملة بفتح الميم: البقيّة من الماء في الإناء، والمقلة بفتح الميم وسكون القاف: حصاة يقسم بها الماء عند قلّته، يعرف بها مقدار مايسقى كلّ شخص، وهو إشارة إلى تحقير مابقى منها لكلّ شخص شخص من الناس، فإنّ بقاءها له على حسب بقائه فيها، وكلّ شخص فيها يسير بقاؤه، قصير مدّته، واستعار لفظ السملة لبقيّتها وشبّهها ببقيّة الماء في الإداوة وبجرعة المقلة، ووجه الشبه ماأشار إليه بقوله:

[**لو تمزَّزَها الصَّدْيان لم ينقع**] والتمزّز: تمصيص الشراب قليلاً قليلاً، والصديان: العطشان، أي: كما أنّ العطشان الواجد لبقيّة الإداوة وللجرعة لو تمصّصها لم ينقع عطشه، كذلك الطالب للدنيا المتعطّش إليها الواجد لبقيّة عمره ولليسير من الإستمتاع فيه بلذّات الدنيا لايشفى ذلك غليله، ولايسكن عطشه، وحينئذ فصلاحه أن يفطم عنفسه عن لذّاتها، وأن يعوّد نفسه على ترك شواتها، ولذا فرغ عليه قوله:

[**فأزمِعُوا**] والأزماع تصميم العزم، أي: صمّموا عزمكم.

[**يا عبادَ اللّه على الرحيل عن هذه الدار المقدور**] أي: المقدّر الّذ لابدّ

على أهلها الزوال ولايغلبنّكم فيها الأمل ولايطولنّ عليكم الأمد فواللّه لو حننتم حنين الولّه العجال ودعوتم بهديل الحمام

من كونه [**على أهلها الزوال**] بالتوجّه إلى اللّه والإقبال إلى مايقرب إليه من الطاعات وتزوّدوا القربات وأخرجوا عن هذه القرية الظالم أهلها، وموتوا بالموت الإختياري قبل أن تموتوا بالموت الإضطراري، واحيوا نفوسكم بإماتتها عن الشهوات وإعراضها عن اللذّات، متوجهين إلى وطنكم الأصليّ، وسائرين إلى مسكنكم الحقيقي، ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾.

ثمّ أعقب ذلك بالنهي عن متابعة الآمال بطوال المُنية للرجال بقوله:

[**ولايغلبنّكم فيها**] وفي لذّاتها [**الأمل**] فإنّه يُنسي الآخرة، والبُعد عن المقامات الفاخرة.

[**ولايطولنّ عليكم الأمد**] والأمد الغاية، نهاهم عن توهّم طول مدّة الحياة واستبعاد الغاية الّتي هي الموت، فإنّه يقسي القلب ويورث الغفلة عن ذكر اللّه، كما قال تعالى: ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾.

ثمّ نبّه على عظم ثواب اللّه ومايبنغي أن يُرجى منه، وعلى عظيم عقابه، ومايبنغي أن يُخاف منه، فقال:

[**فواللّه لو حننتم حنين الولّه العجال**] جمع واله وعجول، وهما من الإبل النوق تفقد أولادها.

[**ودعوتم بهديل الحمام**] هديل الحمامة: نوحها، كنّى بذلك عن الدعاء والتضرّع إلى الله والإلتجاء إليه والإستعانة به، والتعويل عليه.

وخرجتم إلى اللّه من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجةعنده، أو غفران سيّئة أحصتها كتبته وحفظها رسله لكان قيلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه

[**وخرجتم إلى اللّه من الأموال والأولاد**] كناية عن الزهد في الدنيا، والإقبال بالكلية إلى اللّه، والإلتفات عمّاسواه.

[**التماس القربة إليه في ارتفاع درجةعنده، أو غفران سيّئة أحصتها كتبته وحفظها رسله**] من الكرام الكاتبين الحافظين ﴿ومايلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ ﴿في كتاب لايضلّ ربّي ولاينسى﴾.

[**لكان**] جميع ذلك [**قيلاً فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه**].

والحاصل: إنّكم لو أتيتم بجميع أسباب القربات وأنفذتم مدّة عمركم في الطاعات ملتمسين بذلك التقرّب إلى ربّ البريّات في أن يرفع لكم عنده درجة أو يغفر لكم سيّئة أحصتها ملائكته وكتبه، لكان الذي أرجوه من ثوابه للمتقرّب إليه في أن يرفع منزلته من حضرة قدسه أكثر ممّا يتصوّر المتقرّب إليه أنّه يصل إليه بتقرّبه، ولكان الّذي أخافه من عقابه على المتقرّب في غفران سيّئته عنده أكثر من العقاب الذي يتوهّم أنّه يدفعه عن نفسه بتقرّبه.

وحينئذ فينبغي لطالب الزيادة في المنزلة عند اللّه أن يخلص بكليّته في التقرّب إليه ليصل إلى ماهو أعظم ممّا يتوهّم أنّه يصل إليه من المنزلة عنده، فنيبغي حينئذ للهارب عن ذنبه إلى اللّه أن يخلص بكلّيته في الفرار إليه ليخلص من هول ماهو أعظم ممّا يتوهّم أنه يدفعه عن نفسه بوسيلة إليه، فإنّ الأمر في معرفة ماأعدّه اللّه لعباده الصالحين من الثواب العظيم والأجر الجسيم.

وتاللّه لو انماثت قلوبكم انمياثاً وسالت عيونكم من رغبة إليه ورهبة منه دماً ثمّ عمرتم في الدنيا، ماالدنيا باقية ماجزت أعمالكم، ولو لم تُبقوا شيئاً من جهدكم أنعمه عليكم العظام وهداه إيّاكم للإيمان

والحاصل: إنّ ماأعدّ اللّه لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب أجلّ من أن تتخيّله الأوهام، أو تدركه العقول والأفهام، ثمّ نبّه على قصورهم عن شكر نعم اللّه بقوله:

[**وتاللّه لو انماثت قلوبكم انمياثاً**] يقال: انماث الشيء تحلّل وذاب، أي: ذابت قلوبكم خوفاً من اللّه ووجداً، وكنّى بذلك عن أقصى حال الخائف الراجي، وكذا قوله:

[**وسالت عيونكم من رغبة إليه ورهبة منه دماً**] كسابقه.

[**ثمّ عمرتم في الدنيا، ماالدنيا باقية**] أي: مدّة بقاؤها [**ماجزت أعمالكم، ولو لم تُبقوا شيئاً من جهدكم أنعمه عليكم العظام وهداه إيّاكم للإيمان**] وأنعمه بالنصب مفعول جزت، وهداه في محلّ النصب عطفاً عليه، وإنّما أفرد الهدى بالذكر وإن كان من الأنعم لشرفه، إذ هو غاية المطلوبة من العبد بكلّ نعمة أُفيضت عليه، فإنّه لم يخلق عبثاً، ولم تقض عليه أنواع النعم الإلهيّة إلاّ ليتأهّل قلبه ويستعدّ نفسه لقبول صورة الهدى.

في صفة الأضحية ومن تمام الأُضحية استشراف أُذُنها وسلامة عينها فإذا سلمت الأذن والعين سلمت الأضحية وتمت، ولو كانت عضباء القرن تجرّ رجلها إلى المنسك

ومن كلام له عليه السلام
يوم النحر

سمي بذلك لنحر الأضحية وذبحها.

[**في صفة الأضحية**] منسوبة إلى الأضحى، إذ كان ذبحها في ضحى ذلك اليوم.

[**ومن تمام الأُضحية استشراف أُذُنها**] أي: طولها، وكنّى بذلك عن سلامتها من القطع أو نقصان الخلقة.

[**وسلامة عينها**] من العمى والود [**فإذا سلمت الأذن والعين سلمت الأضحية وتمت، ولو كانت عضباء القرن**] أي: مكسورته، وقيل: القرن الداخل [**تجرّ رجلها إلى المنسك**] أي: موضع النسك والتقرّب بذبحها، كناية عن عرجها.

قيل: المعتبر في الأضحية سلامتها عمّا ينقص قيمتها، وظاهر أنّ العمى والعور والهزل وقطع الأذن تشويه في خلقها ونقصان قيمتها دون العرج وكسر القرن.

وفي فضل الأضحية أخبار كثيرة.

فتداكّوا عليّ تداكّ الإبل الهيم يوم ورودها، قد أرسلها راعيها وخُلِعَتْ مثانيها حتّى ظننتُ أنّهم قاتليّ، أو بعضهم قاتل بعض لديّ

ففي النبويﷺ: ما من عمل يوم النحر أحبّ إلى اللّه عزّوجلّ من إراقة دم، وإنّها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأنّ الدم ليقع من اللّه بمكان قبل أن يقع إلى الأرض، فطيبوا بها نفساً.

وفي آخر: إنّ لكم بكلّ صوفة من جلدها حسنة وبكلّ قطرة من دمها حسنة، وإنّها لتوضع في الميزان، فأبشروا.

ولعلّ السرّ في تأكّد الأضحية والمداومة عليها ومراعاة نفاستها وعلوّ قيمتها تذكر قصّة إبراهيمعليه السلام بذبح ولده، وقوّة صبره، وتطهير النفس وتزكيتها عن رذيلة البخل، وتزيينها بجمال التعظيم للّه، ﴿فلن ينال اللّه لحومها ولا دمائها ولكن يناله التقوى منكم﴾.

ومن كلام له عليه السلام

لما منع أصحابه في قتال أهل الشام قبل أن يدنوهم بالقتال، إتماماً للحجّة، واستيضاحاً للمحجّة، وانتظاراً لفيء بعضهم إلى الحقّ.

[**فتداكّوا**] أي: تزاحموا [**عليّ تداكّ الإبل الهيم**] العطاش [**يوم ورودها، قد أرسلها راعيها وخُلِعَتْ مثانيها**] أي: عقالها الّتي تعقل به.

[**حتّى ظننتُ أنّهم قاتليّ، أو بعضهم قاتل بعض لديّ**] شبّهعليه السلام ازدحامهم عليه حينئذ بازدحام الإبل العطاش على الماء حال إطلاق رعاتها لها من مثانيها يوم ورودها، ووجه الشبه شدّة الزحام، وغاية ذلك الزحام

وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتّى منعني ذلك النوم فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد ﷺ فكانت معالجة القتال أهون عليّ عن معالجة العقاب وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة

ظنّه عليه السلام أن يقتلوه، أو يقتل بعضهم بعضاً، يقال: دكّ بعضهم بعضاً، أي: دقّه بالضرب والهيم الإبل العطاس، والمثاني جمع مثناة، وهي الحبل يثنى، ويعقل به البعير، وحيث كان كله من القتال وتركه محتاجاً إلى نظر وفكر وتدبّر، فإنّ القتال فيه التعريض للقتل، وهلاك جملة من المسلمين، وفي الإمساك عنه اختلال أمر الدين ونظام المسلمين وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومخالفة أوامر الله ورسوله، قال عليه السلام:

[**وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره**] وأجلت الفكر في تقليب وجوه الآراء والمصالح في القتال وتركه.

[**حتّى منعني ذلك النوم**] والرقاد [**فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد ﷺ**] ومخالفة أوامر الله ورسوله والتهاون بذلك الموجب للكفر.

[**فكانت معالجة القتال أهون عليّ عن معالجة العقاب**] الأليم والعذاب العظيم.

[**وموتات الدنيا**] كناية عن أهوالها وشدائدها.

[**أهون عليّ من موتات الآخرة**] كناية عن تكرّر عذابها، فإنّ الأول قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدّته، والثاني تطول مدّته، ويدوم مقامه، ولايخفّف عن أهله، ولاخير بخير بعده النار، ولا شر بشرّ بعده الجنّة.

أمّا قولكم: أكُلُّ ذلك كراهية الموت؟ فواللّه ماأُبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشام، فو اللّه مادفعت الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوءتي

ومن كلام له عليه السلام
وقد استبطأ أصحابه إذنه لم في القتال بصفّين

لما حال منعه لهم عن قتالهم، حتّى نسبه بعض إلى العجز وكراهية الموت وآخرون إلى الشك في وجوب قتالهم، فأشار عليه السلام إلى ردّ شبهتهم، وقال:

[**أمّا قولكم: أكُلُّ ذلك كراهية الموت؟ فواللّه ماأُبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ**] فإنّ أولياء اللّه يحبّون الموت، لأنّه جسرهم إلى الجنان والرضوان، والدنيا سجن لهم، والآخرة نعيمهم وموطنهم، ومَن الذي يكره الإنتقال من السجن إلى النعيم، قال تعالى: ﴿إن زعمتم أنّكم أولياء اللّه من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾.

وفي التوراة: إنّ أولياء اللّه يحبّون الموت.

وهو عليه السلام سيّد الأولياء، وقد قال في مقام آخر: واللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بالثدي.

[**وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشام، فو اللّه مادفعت الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوءتي**] يقال: عشى إلى

وذلك أحبّ إليَّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوأُ بآثامها ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ

النار استدلّ عليها ببصير ضعيف، وفيه كناية عن ضعف بصيرتهم عن أنوار علوم ومعارفه وكمالاته.

[**وذلك أحبّ إليَّ من أن أقتلها على ضلالها**] وآثامها [**وإن كانت تبوأُ**] أي: ترجع [**بآثامها**] إذ كلّ ضالّ إنّما يرجع بإثمه إلى ربّه، ويكون رهين عمله، كما قال تعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾.

ولكنّه حيث كان كالأب الشفيق لهم فمن هلك منهم إنّما يهلك عليه.

ومن كلام له عليه السلام

إنّه عليه السلام تكلّم به يوم صفّين حين أقرّ الناس بالصلح، فقال:

إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا لينيبوا إلى الحقّ، ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء، حتّى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتّى يرجموا بالكتائب تقفوها الجلائب، وحتّى يجير ببلادهم الخميس يتلوه الخميس، وحتّى تدعق الخيول في نواحي أرضهم وبأحناء مشاربهم ومسارحهم، وحتّى تشقّ عليهم الفاران من كلّ فج، وحتّى يلقاهم قوم صدق صبّر لا يزيدهم هلاك من هلاك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلّا جدّاً في طاعة رسول الله وحرصاً على لقاء ربّهم.

[ولقد كنّا] معاشر الصحابة والانصار [**مع رسول الله ﷺ**] نجاهد بين

نقتل آباءنا وإخواننا وأعمامنا مايزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ومُضياً على اللقَم وصبراً على مضض الألم، وجداً على جهاد العدوّ ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين يترخالسان أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون فمرّة لنا من عدوّنا ومرّة لعدوّنا منّا

يديه [**نقتل آباءنا وإخواننا وأعمامنا**] وسائر أرحامنا، طلباً لرضا اللّه، وذبّاً عن دينه.

[**مايزيدنا ذلك إلاّ إيماناً**] باللّه [**وتسليماً**] لأمره وقضائه.

[**ومُضياً على اللقَم**] وهو منهج الطريق إلى اللّه.

[**وصبراً على مضض**] أي: حرقة [**الألم، وجداً على جهاد العدوّ**] ولايمنعنا من ذلك الرحم والقرابة، بل نحبّ في اللّه، ونبغض في اللّه، كما قال تعالى: ﴿لاتجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم وأبناءهم﴾ الآية.

[**ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان**] أي: يتحاملان ويتطاولان [**تصاول الفحلين**] البعيرين المتعلّمين [**يترخالسان**] أي: ينتهز كلّ منهما فرصة صاحبه [**أيّهما يسقي صاحبه كأس المنون**] فيحمل كلّ منهما على الآخر لختطف كلّ منهما روح صاحبه، وأراد بالكأس مايتجرّعه الإنسان من غصص الألم حال القتل مجازاً، وقوله:

[**فمرّة لنا من عدوّنا ومرّة لعدوّنا منّا**] تنبيه على أنّ إقدامهم على القتال يومئذ لم يكن عن عِدّة وعُدّة وقوّة، بحيث يتيقّنون الغلبة على العدوّ، بل ربّما كان الأمر بالعكس، ومرّة منصوب على الظرف، والتقدير فمرّة الأدلّة

فلمّا رأى اللّه صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت وأنزل علينا النصر حتّى استقرّ الإسلام ملقياً جرانه ومتبوّءاً أوطانه ولعمري لو كنّا نأتي ماأتيتم ما قام للدين عمود ولااخضرّ له عود

تكون لنا من عدوّنا ومرة تكون له منّا.

[**فلمّا رأى اللّه صدقنا**] في عملنا، وبذل جدّنا وجهدنا، وخلوص نيّتنا [**أنزل بعدوّنا الكبت**] الإذلال والإهانة، فصرفه عنّا.

[**وأنزل علينا النصر**] بمقتضى وعده: ﴿إن تنصروا اللّهَ ينصُركم ويثبِّتْ أقدامكم﴾ ﴿إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

[**حتّى استقرّ الإسلام ملقياً جرانه**] جران البعير: مقدّم عنقه من مذبحه إلى منحره.

[**ومتبوّءاً أوطانه**] يقال تبوّء وطنه: سكن فيه، إشارة إلى حصول غايتهم الّتي قصدوها بجهاد العدوّ، وهي استقرار الإسلام في قلوب العباد، وانتظام الأمر ورفع الفساد، فاستعار له لفظ الجران، ورشح تلك الإستعارة بالإلقاء ملاحظة لشبهه بالبعير، الّذي أخذ مكانه، وكذا استعار لفظ التبوّء ونسبته إلى الاوطان تشبيهاً له بمن كان من الناس خائفاً متزلزلاً لامستقرّ له، ثمّ اطمأنّ واستقرّ في وطنه، واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين، وكنّى بتبوّء أوطانه عن استقراره فيها، وقوله عليه السلام:

[**ولعمري لو كنّا نأتي ماأتيتم ما قام للدين عمود ولااخضرّ له عود**] رجوع إلى المقصد الأصليّ من تقصيرهم في أمر الجهاد، أي: لو قصرنا ذلك الوقت كتقصيركم الآن لما استقام الدين، وكنّى بالعمود للدين عن قوّته ومعظمه، وباخضرار العود للإيمان عن نضارته في النفوس، ولاحظ في

وأيم اللّه لتحلبنّها دماً، ولتتبعنّها ندماً أما إنّه سيظهر عليكم بعيد رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل مايجد ويطلب ما لايجد فاقتلوه ولن تقتلوه

الفقرة الأُولى تشبيه الإسلام بالبيت ذي العمود، وفي الثانية بيه الإيمان بالشجرة ذات الأغصان.

[**وأيم اللّه**] قسم، كما مرّ.

[**لتحلبنّها دماً، ولتتبعنّها ندماً**] مرجع الضمير المؤنّث إلى أفعالهم المدلول عليها بالمعنى، أي: إنّ أفعالكم تشبه الناقة الّتي أُصيب ضرعها بآفة من تفريط صاحبها، فاستعار لفظ حلب الدم لثمرة تقصيرهم وتخاذلهم عمّا يدعوهم إليه من الجهاد ودماً مذموماً منصوبان على التميز.

ومن كلام له عليه السلام

[**أما إنّه سيظهر عليكم**] يا أهل الكوفة [**بعيد رجل رحب البلعوم**] أي: واسع مجرى الحلق كناية عن كثرة أكله، وكذا قوله:

[**مندحق البطن**] يقال: بطن مندحق، أي: نأتي بارز، وكذلا قوله:

[**يأكل مايجد ويطلب ما لايجد**] كناية عن كثرة أكله، وجعل ذلك علامة له.

[**فاقتلوه**] حسماً لفساده، وقطعاً لعناده، حتّى ينتظم أمر الإسلام والإيمان، ويرتفع الجور والطغيان، ويذهب الظلم والعدوان.

[**ولن تقتلوه**] علم ذلك بعلم ربّاني، ولامنافاة بين الأمر كما قال

ألا وإنّه سيأمركم بسبّي، والبراءة منّي، فأمّا السبّ فسبّوني، فإنّه لي زكاة

تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النار﴾.

وقد اختلف في تعيّن هذا الرجل في كلامه ﷺ، فقيل هو معاوية، لأنّه كان بطيناً كثير الأكل، وروي أنّه كان يأكل فيملّ فيقول ارفعوا فواللّه ماشبعت، ولكن مللت وتعبتُ، وكان ذلك داء أصابه بدعاء الرسول ﷺ.

روي أنّه بعث إليه مرّة، فوجده يأكل فبعث إليه ثانية، فوجده كذلك، فقال: اللّهمّ لاتشبع بطنه، ولبعضهم في وصف آخر بالأكل وصاحب لي بطنه كالهاوية كان في أمعائه، وقيل: هو زيادبن أبي سفيان، وهو زيادبن أبيه، وقيل: هو الحجّاج، وقيل: المغيرةبن شعبة، ثمّ قال ﷺ:

[ألا وإنّه سيأمركم بسبّي، والبراءة منّي، فأمّا السبّ فسبّوني، فإنّه لي زكاة] لما روي أنّ ذكر المؤمن بسوء زكاة له وذمّه بما ليس فيه زيادة في جاهه وشرفه، ولأنّ الطباع تحرص على مايمنع منه وتلح فيه، والناس لما منعوا من ذكر فضائله، والموالاة له والزموا سبّه وبغضه، ولاازداد الناس في محبّته إلاّ علوّاً، حتّى رفع ذلك عمربن عبدالعزيز ووضع مكانه ﴿إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾.

وفيه يقول السيّد الرضي (رض):

يابن عبدالعزيز لو بكت العين فتى من أُميّة، لبكتك أنت نزهتنا عن السبّ والشتم، ولو كنت مجزياً لجزيتك، غير أنّي أقول إنّك قد طبت ولم يطب ولم يزك بيتك.

وقال كثيربن عبدالرحمن:

ولكم نجاة وأمّا البراءة فلا تتبرّءوا منّي فإنّي ولدتُ على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة

وليت فلم تشتم عليّاً ولم تخف بريئاً ولم تقبل إساءة مجرم

وقوله عليه السلام: [**ولكم نجاة**] واضح، لأنّهم ينجوا بذلك من القتل، وقوله:

[**وأمّا البراءة فلا تتبرّءوا منّي**] نهى عن التبرّي منه معلّلاً ذلك بقوله:

[**فإنّي ولدتُ على الفطرة**] الّتي فطر الناس عليها وهي بعثهم إلى عالم الأجسام مأخوذاً عليهم ميثاق العبوديّة والإستقامة على سنن العدل في سلوك صراط المستقيم، وقوله:

[**وسبقت إلى الإيمان والهجرة**] أي: إلى طاعة اللّه ورسول، فيما جاء به من الدين، وصحب له ومهاجرته معه مستقيماً في كلّ ذلك على فطرة اللّه لم يدنو نفسه بشيء من الملكات الرديّة، ولم يرتضع من أُمّه ولا من أُنثى قطّ، بل كان النبيّ صلى الله عليه وآله يوجر لسانه في فيه فيمصّه إلى أن يروى، حتّى نبت لحمه من لحم رسول اللّه صلى الله عليه وآله، ودمه من دمه، وملعوم أنّ من كان كذلك كان التبرّي منه تبرّياً من اللّه ورسوله.

وقال المحقّق البحراني: رخّص عليه السلام في سبّه عند الإكراه، ولم يرخّص في التبرّي منه، وفي الفرق بينهما لطف، وذلك أنّ السبّ من صفات القول اللساني، وهو أمر يمكن إيقاعه من دون اعتقاده مع احتماله التعريض، ومع مايشتمل عليه من حقن دماء المأمورين ونجاتهم بامتثال الأمر به.

فأمّا التبرّي فليس بصفة قوليّة، بل يعود إلى المجانبة القلبيّة، والمعاداة والبغض، وهو المنهي عنه هنا، فإنّه أمر باطنيّ يمكنهم الإنتهاء عنه،

أصابكم حاصب ولابقي منكم آثر

ولايلحقهم بسبب تركه وعدم امتثال الأمر به ضرر، وكأنّه لحظ فيهما قوله تعالى: ﴿إلاّ من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليه غضب﴾ الآية، انتهى.

وفيه نظر، لأنّ الظاهر إنّ الكلام إنّما هو في البراءة اللسانيّة لا القلبيّة، وإنّها هل تسوغ مع الإكراه أو لا؟ وظاهر جملة من الأدلّة عموماً وخصوصاً جوازها، إلاّ أنّ التحقيق الّذي حقّقه(ره) وجه وجيه جامع بين مادلّ على النهي ومادلّ على الجواز.

ومن كلام له عليه السلام
كلّم به الخوارج

لّما كتب عهد التراضي بالحكمَين بين عليّ ومعاوية، فاعتزل الخواج وتنادوا من كلّ ناحية لاحُكْمَ إلاّ للّه، الحكم للّه، ياعليّ لالك، إنّ اللّهَ قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يدخلوا تحت حكمنا، وقد كنّا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالتحكيم، وقد بان لنا زللنا وخطئنا ورجعنا إلى اللّه وتبنا فارجع أنت كما رجعنا وتب إليه كما تبنا، وقال بعضهم: إنّك أخطأتَ فاشهد على نفسك بالكفر، ثمّ تب عنه حتّى نطيعك، فقال عليه السلام داعياً عليهم:

[**أصابكم حاصب**] أي: ريح شديدة ترمي بالحصاء، وهي صغار الحصى [**ولابقي منكم آثر**] دعاء بالفناء، غضباً من مقالتهم، ثمّ أخذ في تقريعهم وإنكار مقالتهم، بقوله:

أبعد إيماني بالله وجهادي مع رسول الله ﷺ أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللتُ إذاً، وما أنا من المهتدين فأُوبوا شرّ مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب أما إنّكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً وأثَرَةً يتّخذها الظالمون فيكم سنّة

[**أبعد إيماني بالله**] قبل كلّ أحد [**وجهادي مع رسول الله ﷺ أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللتُ** إذاً، وما أنا من المهتدين] فإنّ شهادة الإنسان على نفسه بالكفر ضلال عن الحقّ، وعدم اهتداء في سبيل الله.

[**فأُوبوا شرّ مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب**] جذب لهم بالغضب والقهر، وأمر لهم بالرجوع إلى الحقّ من حيث خرجوا الحقّ وفارقوه، ولعلّ فيه إشارة إلى دخولهم تحت قوله تعالى: ﴿**وما محمّد إلاّ** رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّهَ شيئاً﴾.

أما إنّكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً] وهو كناية عمّن يقتلهم بعده.

[**وأثَرَةً**] بالتحريك، أي: استبداداً.

[**يتّخذها الظالمون فيكم سنّة**] إشارة إلى مايستأثر به الملوك والعمّال عليهم وعلى غيرهم من الرعيّة من الفيء والغنائم، وقد استجيب دعاؤه عليه السلام فيهم، فإنّهم لم يزالوا بعده في ذلّ شامل، وقتل ذريع حتى انقرضوا، أو كادوا أن ينقرضوا، ولله الحمد ﴿فقُطِع دابر القوم الّذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين.

قال السيّد الرضي (ره): قوله عليه السلام ولا بقي منكم أبر يروى على ثلاثة أوجه:

مصارعهم دون النطفة، والله لايفلت منهم عشرة، ولايهلك منكم عشرة

أحدها: أن يكون كما ذكرنا بالباء من قولهم رجل أبر للّذي يؤبر النخل، أي: يصلحه.

ويروى: ولابقي منكم آثر، يراد به الّذي يأثر الحدث، أي: يحكيه ويرويه، وهو أصحّ الوجوه عندي، كأنّه قال: ولابقي منكم مخبر.

ويروى: أبز بالزاي المعجمة، وهو الواثب والهالك أيضاً، يقال له أبز.

وقال عليه السلام
لمّا عزم على قتال الخوارج

وقيل له: إنّ القوم قد عبروا جسر النهروان:

[**مصارعهم دون النطفة، والله لايفلت منهم عشرة، ولايهلك منكم عشرة**].

قال السيّد (ره): ويعني بالنطفة ماء النهطر، وهي أفصح كناية عن الماء، وإن كان كثيراً جمّاً، وقد أشرنا إلى ذلك فيماتقدّم عند مضي ماأشبهه.

روي أنّه عليه السلام لمّا خرج إلى أصحاب النهروان جاء به رجل من أصحابه فقال: البشرى ياأميرالمؤمنين، إنّ القوم عبروا النهر لما بلغهم وصولك، فأبشر فقد منحك الله أكنافقهم، فقال: اللّه، أنت رأيتهم قد عبروا، فقال عليه السلام: والله ماعبروه ولن يعبروه، وإنّ مصارعهم دون النطفة والّذي فلق

....

الحبّة وبرأ النسمة لن يبلغوه الأفلات، ولا بصر ثوران حتّى يقتلهم اللّه، وقد خاب من افترى.

قال: ثمّ جاءه جماعة من أصحابه واحد بعد آخر كلّهم يخبره بما أخبره الأوّل، فركب عليه السلام وسار حتّى انتهى إلى النهر، فوجد القوم بأسرهم قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيولهم وجثوا على الركب، وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم ل رجل.

وروي إنّ شابّاً من أصحابه قال في نفسه حين حكم عليه السلام بماحكم من أمرهم واللّه لأكونن قريباً منه، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سنان رمحي في عينه، أيدّعي علم الغيب، فلمّا وجدهم لم يعبروا نزل عن فرسه وأخبره بما في نفسه وطلب منه أن يغفر له، فقال عليه السلام: إنّ اللـه يغفـر الذنوب جميعاً.

وروي أنّه عليه السلام قال لأبي أيّوب الأنصاري، وكان على ميمنته لمّا بدأت الخوارج بالقتال: احملوا عليهم فواللّه لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة، فلمّا قتلهم وجدوا المفلت منهم تسعة، والمقتول من أصحابه ثمانية، وهذان الحكمان من جملة كراماته عليه السلام.

كلاّ والله إنّهم نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء كلّما نجم منهم قرن قُطِع حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلاّبين

وقال عليه السلام
لمّا قتل الخوارج
وقيل له ياأميرالمؤمنين هلك القوم بأجمعهم:

[**كلاّ**] ردّ لما قالوه وزجر عنه.

[**والله إنّهم نطف في أصلاب الرجال، وقرارات النساء**] أرحامهم الّتي يقرّ فيها النطفة والولد، إشارة إلى أنّه لابدّ من وجود قوم يقولون بمثل مقالتهم، وأنّهم الآن موجودون في الأصلاب والأرحام بالقوّة، فمنهم نطفة برزت إلى الأرحام، وبعضها باق في الأصلاب [**كلّما نجم**] أي: ظهر [**منهم قرن**] أي: رئيس [**قُطِع**] أي: قتل، واستعار لفظ القرن لمن يظهر من رؤسائهم ورشحّها، بقوله: نجم وقطع لكونهما حقيقتين في الثبات، وجعل لتراذلهم غاية، فقال:

[**حتّى يكون أخرهم لصوصاً سلاّبين**] أي: قطاعاً للطريق، نقل إنّ التسعة الّذين سلموا تفرّقوا في البلاد اثنان في عمان وآخران في كرمان، واثنان في سجستان، واثنان في الجزيرة، وواحد إلى تل مودون، وقد كان منهم جماعة لم يظفر بهم عليه السلام ظهرت بدعهم في أطراف البلاد بعده، وكبار فرقهم ستّ:

الأزارقة، وهي أكبر الفرق أصحاب نافع بن الأرزق، خرجوا من البصرة إلى الأهواز وغلبوا عليها وعلى ماورائها من بلدان فارس وكرمان في

لاتقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه

أيّام عبداللّه بن الزبير، وكان مع نافع من أُمراء الخوارج عشرة في نيف وثلاثين ألف فارس، فأنفذ إليهم المهلّب، ولم يزل في حربهم هو وأولاده تسع عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم في أيّام الحجّاج.

الثانية: النجدات، رئيسهم نجدة بن عامر الحنفي، قتل في زمن عبدالملك بن مروان.

الثالثة: البهيسيّة، أصحاب أبي بيهس، وكان بالحجاز، وقتله عثمان بن حيان المزني بالمدينة بعد أن قطع يديه ورجليه في زمن الوليد بإشارة منه.

الرابعة: العجاردة، أصحاب عبدالكريم بن عجرد.

الخامسة: الأباضيّة، أصحاب عبداللّه بن أباض في أيّام مروان بن محمّد، فوجّه إليه عبداللّه بن محمّد بن عطيّة فقاتله فقتله.

السادسة: الثعالبة، أصحاب ثعلبة بن عامر، وكان جملة منهم في أطراف البلاد باصبهان والأهواز وسواد العراق، ينهبون الأموال والخراج، ويقتلون غيلة وجهراً.

وقال عليه السلام:

[لاتقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه] قال السيّد(ره): يعني بمن أدركه معاوية، والفرق بينهم وبين معاوية أنّ القوم طلبوا الحقّ بالذات، فوقعوا في الباطل بالعرَض، ومعاوية طلب الباطل بالذات في صورة تشبه الحقّ، وإنّما نهى عليه السلام عن قتلهم بعده على تقدير أن يلزموا حدودهم ويكفّوا عن العبث والفساد في الأرض، أو

وإنّ عليَّ من اللّه جُنَّة حـصـينة فـإذا جـاء يومي انفـرجت عنّي وأسلمتني

لانه عليه السلام علم أنّه لايلي الأمر بعده من له بحكم الشريعة أن يقتل ويتولّى أمراً محدود، ولا مَن يعرف مواضعها، وقيل: إنّما قتلهم لأنّه إمام عادله، أي: وجوب قتالهم.

ومن كلام له عليه السلام
لمّا خوّف من الغيلة

وهي القتل على غفلة وعزه، وكان عليه السلام قد خوّف من غيلة ابن ملجم مراراً، وروي إنّ الأشعث رآ متقلّداً سيفه، فقال له: ماتقلّدك السيف وليس بأوان حرب، فقال: أردتُ أن أنحر به جزوراً لقربة، فأخبر الأشعث عليّاً بذلك، وقال قد عرفت ابن ملجم وفتكه، فقال عليه السلام: ماقتلني بعد.

وروي إنّ عليّاً عليه السلام كان يخطب مرّة ويذكّر أصحابه وابن ملجم تلقاء المنبر، فسمع وهو يقول: واللّه لأريحنّهم منك، فلمّا انصرف عليّ أتوا به ملبّياً فأشرف عليهم وقال: ماتريدون؟ فخبروه بما سمعوا منه، فقال: ماقتلني بعد خلّوا عنه.

[**وإنّ عليَّ من اللّه جُنَّة**] بالضمّ مايُستتر به من سلاح وغيره [**حصينة**] تحصنني وتمنعني من فتك العدوّ وغيلته.

[**فإذا جاء يومي**] الّذي كتب في أجلي وانقطع عملي [**انفرجت عنّي**] تلك الجنّة [**وأسلمتني**] كنّى بالجنّة عن عناية اللّه بحفظ أسباب حيات في

فحينئذ لايطيش السهم ولايبرأ الكَلْم

المدّة الممكنة له في القضاء الإلهي، كناية بالمستعار، ووجه الإستعارة إنّ مع بقاء أسباب الحياة محفوظة لايؤثّر في الإنسان شيء من سهام المنيّة أبداً، كما أنّ لابس الجنّة محفوظ بها من آثار سهام الأعداء ونحوها، ووصفها بالحصينة ترشيحاً للإستعارة، وكنّى بها أيضاً عن قوّة ذلك الحفظ، وكنّى بيومه عن وقت ضرورة موته وبانفراج الجنّة عنه عن عدم بعض أسباب الحياة المستلزم لعدم الحياة، ولحوق سهام الأمراض، وهو ترشيح للإستعارة أيضاً، ونسب إلها إسلامها له ملاحظة لتشبيهها بمن يحفظ، ثمّ يسلّه للقتل، وقوله:

[**فحينئذ لايطيش السهم ولايبرأ الكَلْم**] يقال: طاش السهم انحرف عن الغرض، والكَلْم الجرح، واستعار لفظ السهم للأمراض الّتي هي سبب الموت، وكنّى بعدم طيشه عليه السلام عن ايكاله وحصول الموت عنه، واستعار لفظ الكلم للأثر الحاصل عن تلك الأسباب، ووجه الشب في الأولى كونهما سببين للهلاك، وفي الثانية: مايستلزمانه من التألّم، ورشح الأُولى بذكر الطيش، والثانية بذكر البرء، وجميع ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن اللهه كتاباً مؤجّلاً﴾ ﴿ولكلّ أُمّة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون﴾.

وممّا ينسب إليه عليه السلام أي يومي من الموت أقرا يوم لاقدر أم يوم قدر فيوم ماقدر لاأرهبه، ويوم قد قدّر لايغني الحذر.

ألا وإنّ الدنيا دار لايسلم منها إلّا فيها ولاينجى بشيء كان لها ابتُلي الناس بها فتنة فما أخذوه منها لها

ومن خطبة له عليه السلام

في ذمّ الدنيا وأهلها، والتزهيد فيها، والترغيب في الآخرة وطلبها:

[**ألا وإنّ الدنيا دار لايسلم منها إلّا فيها**] أي: لايسلم من عقاب ذنوبها، والأفعال السيّئة الّتي وقعت فيها إلّا فيها، إذ لا دار الّا الدنيا والآخرة، وأسباب السلامة من العقوبات الطالحات والملكات الفاضلة وكلّها زعمال لاتتحقّق إلّا في الدنيا فينبغي المبادرة إليها واغتنام الفرصة.

[**ولاينجى بشيء كان لها**] إشارة إلى أنّ مايصدر من العباد للأغراض الدنيويّة كالرياء والسمعة لايحصل به النجاة من عقوبات الآخرة، وإنّما يترتّب عليه ماقصده من الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، بل لاينفع إلّا العمل الخالص لوجه اللّه.

وفي النبويّ: هلك الناس إلّا العالمون، هلك العالمون إلّا العاملون، هلك العاملون إلّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

[**ابتُلي الناس بها فتنة**] نصب مفعولاً له أو مصدراً سدّ مسدّ الحال، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالخير والشرّ فتنة وإلينا تُرجَعون﴾.

ثمّ أوضح ذلك بقوله عليه السلام:

[**فما أخذوه منها لها**] الضميران راجعان إلى الدنيا، كالّذي يكتب الأموال في الدنيا ويدّخرها لملاذه وينفقها في شهواته.

أُخرِجوا منه وحوسبوا عليه وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه

[**أُخرِجوا منه**] قهراً بالموت الّذي لامفرّ منه.

[**وحوسبوا عليه وما أخذوه منها لغيرها**] كالّذ يكتسب الأموال وينفقها في سبيل الخير والمعروف والطاعات، أو يصل بها الأرحام، ويعين الأرامل والأيتام.

[**قدموا عليه**] أي: على الّذي قدموا [**وأقاموا فيه**] وفي ذلك تنبيه على وجوب قصد الآخرة لما يؤخذ من الدنيا ويتصرّف فيه وتنفير أن يجعل المأخوذ منها المجرّد التمتّع بها بذكر وصفين:

أحدهما: وجوب مفارقة المأخوذ منها، والإخراج منه.

والثاني: الحساب عليه في الآخرة، وينبغي أن يعلم أنّ الإبتلاء والإفتتان بالنسبة إلى اللّه تعالى ليس على الحقيقة، إذ هو تعالى عالم بأحوال العباد ومبدئها، ومآلها ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾ ولكن لمّا كانت الشرائع الإلهيّة جاذبة للخلق عنها إلى الغاية الّتي خلقوا لها وكانت بحاضر لذّاتها جالبة لهم بحسب نفوسهم الأمّارة إليها، فمن أطاع داعي اللّه وصوارفه عنها، فاز فوزاً عظيماً، ومن اتّبع هواه بغير هدى من اللّه خسر خسراناً مبيناً، فأشبه ذلك صورة ابتلاء من اللّه لخلقه بها، فاستعير لذلك وصف الإبتلاء، ولفظ الفتنة وماأخذ منها لغيرها هو مايُقصَد به وجه اللّه والدار الآخرة من مال يتصدّق به وتصرّف في سبيل اللّه أو جاه أو عمل للّه، وليس مايقدمون عليه في الآخرة هو عين ماأُخذ من الدنيا، بل ثمرته، وإذا بنينا على تجسّم الاعمال فهو هو.

وإنّها عند ذوي العقول كفَيْء الظلّ بينا تراه سابغاً حتّى قلص وزائداً حتّى نقص ومن خطبة له عليه السلام واتّقوا عباد اللّه ربّكم وبادروا آجالكم بأعمالكم

[**وإنّها عند ذوي العقول كفَيْء الظلّ**] ووجه الشبه سرعة زوالها، وإنّما خصّ ذوي العقول بذلك لأنّ المعتبر لزوالها عامل بمجرّد عقله دون هواه، فلذا نُسب إلى العقل، ولأنّ حال ذوي العقول مرغوب فيه لمن سمعه، فنُسب إليهم ليقتفي السامعون أثرهم.

ثمّ أشار إلى وجه الشبه بالظلّ بقوله:

[**بينا تراه سابغاً**] أي: وافراً.

[**حتّى قلص**] نقص [**وزائداً حتّى نقص**] أي: إنّها يسرع زوالها، كما يسرع زواله، وبينا هي بين الظرفية بمعنى الوسط فأُشبعت الفتحة فحدفت الألف، وقد تزاد ما فيقال: بينما، والمعنى واحد، وتحقيق الظرفيّة هنا: إنّ الظلّ دائر بين السبوغ والتقلّص، والزيادة والنقصان.

ومن خطبة له عليه السلام

[**واتّقوا عباد اللّه ربّكم**] فبالتقوى تكون النجاة وترفع الدرجات.

[**وبادروا**] أي: سابقوا وعاجلوا [**آجالكم بأعمالكم**] لتوقّع سرعة الأجل وانقطاع العمل فاغتنموا شبابكم قبل هرمكم، وصحّتكم قبل سقمكم، وغناكم قبل فقركم، وحياتكم قبل موتكم، وقوّتكم قبل ضعفكم، ونسب المسابقة إلى الآجال ملاحظة لشبهها بالمراهن، إذ كان

وابتاعوا مابقي لكم بما يزول عنكم وترحَّلوا فقد جدّ بكم واستعدّوا للموت فقد أظلّكم وكونوا قوماً صبح بهم فانتبهوا وعلموا أنّ الدنيا ليست لهم بدار

لحوقها لهم حائلاً بينهم وبين الأعمال الصالحة الشبيهة بما يستبق عليه من الرهن.

[**وابتاعوا مابقي لكم**] من ثواب الآخرة الباقية [**بما يزول عنكم**] من متاع الدنيا الفانية، والقيد في المقامين ترغيب النفوس، فإنّها تحبّ ما له بقاء وتكره ما له فناء، واحتجاج بها عليها.

[**وترحَّلوا**] عن هذه الدنيا الغادرة إلى تلك الدار الآخرة.

[**فقد جدّ**] أي: حثّ [**بكم**] المنادي على الرحيل، هو كناية عن سرعة توارد أسباب خراب البدن من الهموم والسقم والفقر والهرم.

[**واستعدّوا للموت**] وللقاء اللّه بالأعمال الزكيّة، والملكات البهيّة، والكمالات النفسانيّة الّتي لايضرّ معها موت البدن.

[**فقد أظلّكم**] أي: أشرف عليكم الموت إشارة إلى فريه، وشبّهه بالسحاب أو الطير، واستعار له لفظ الإظلال.

[**وكونوا قوماً**] كقوم نيام [**صبح بهم فانتبهوا**] تنبيهاً، أنّهم في مراقد الطبيعة رافلون، وفي مهاد الشهوات النفسانيّة ملتحفون، فليستفتوا إلى مناديَ اللّه تعالى وهو أنبياءه ورسله وحججه وكتبه ولينتبهوا بندائهم من مراقد غفلتهم.

[**وعلموا**] عطف على صبح بهم أي: وكونوا كقوم علموا [**أنّ الدنيا ليست لهم بدار**] قرار حتّى يركنوا إليها ويطمئنّوا بها، بل هي زوال، ومحلّ هموم وغموم ووبال.

فاستبدلوا فإن لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى ومابين أحدكم وبين الجنّة والنار إلاّ الموت أن ينزل بكم وإنّ غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدّة

[**فاستبدلوا**] بها دار السلام والنعيم والإكرام، ويمكن قراءته بصيغة الماضي والأمر، ثمّ نبّه على وجوب العمل لذلك البدل بقوله:

[**فإن لم يخلقكم عبثاً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لاترجعون﴾.

[**ولم يترككم سدى**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سدى﴾ أي: مهملاً، بل خلقكم لحكمة ومصلحة راجعة إليكم، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾ فالغرض من الخلق العبادة، والغرض منها استكمال النفس حتّى تصل إلى رضوان اللّه وثوابه، والحائل بينهم وبين ذلك الموت، فأشار عليه السلام إلى ذلك بقوله:

[**ومابين أحدكم وبين الجنّة**] إن كان من حزب اللّه المخلصين [**والنار**] إن كان من حزب الشيطان الخاسرين [**إلاّ الموت أن ينزل بكم**] بدل من الموت، أي: إلاّ نزول الموت بكم، إذ به ينكشف للإنسان عمّا يستحقّه من جنّة أو نار، ﴿لقد كنتُ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد﴾.

[**وإنّ غاية**] كناية عن أجل الإنسان [**تنقصها اللحظة**] أي: النظرة، لأنّ كلّ جزء من الزمان فرضته قد مضى من مدّة الإنسان منقص لها بالبديهة.

[**وتهدمها الساعة**] كناية عن وقت الموت [**لجديرة**] أي: حقيقة تلك الغاية [**بقصر المدّة**] فإنّ الآن الّذي تنقطع فيه علاقة النفس مع البدن غاية

وإنّ غـائباً يحدوه الجديدان: اللّيل والنهـار، لحريّ بسرعة الأوبة وإنّ قـادماً يقدم بالفوز أو الشقـوة لأفضل العدّة فتزوّدوا من الدنيا في الدنيا

لأجل الإنسان، وغاية الشيء هي ماينقطع عندها الشيء، فكنّى بالهدم عن ذلك الإنقطاع والإنتهاء كناية بالمستعار، وظاهر أنّ مدّة هذا شأنها في غاية القصر، وقوله عليه السلام:

[**وإنّ غائباً يحدوه الجديدان: اللّيل والنهار، لحريّ بسرعة الأوبة**] والغائب إشارة إلى الإنسان، إذ كان الدنيا عالمغربة، ومحلّ سفره، ومنزله الحقيقي الّذي منه مبدئه وإليه مرجعه الآخرة، واستظهر ابن أبي الحديد أنّ المراد بالغائب الموت، يسوقه اللّيل والنهار، وفيه أنّه لايطابق لفظ الأوبة، لأنّه لم يكن حتّى يرجع، وسمّي الليل والنهار جديدين لتعاقبهما وتجدّدهما، فليس أحدهما مخلقاً للآخر، واستعار لفظ الحدو لما يستلزمانه من إعداد الإنسان لقرب أجله المشبه لصوت الحادي الّذي يعد الإبل لسرعة سيرها وقربها من المنزل المقصود لها، وظاهر إنّ من كان الليل والنهار حاديته فهو في غاية سرعة الرجوع إلى وطنه الأصليّ.

[**وإنّ قادماً**] إشارة إلى حال الإنسان حال قدومه على ربّه [**يقدم**] على ربّه بعد مفارقة الدنيا [**بالفوز**] بالفضل العظيم، والثواب الجسيم.

[**أو الشقوة**] بنار الجحيم، والبُعد من ربّ رحيم.

[**لأفضل العدّة**] أي: مَن كان هذا شأنه، فالواجب عليه أن يستعدّ بأفضل عدّة ليصل بهما إلى أحبّهما لديه، ويتباعد بها عن أبغضهما عنده، ثمّ أشار عليه السلام إلى تفضيل أفضل العدّة بقوله:

[**فتزوّدوا من الدنيا في الدنيا**] من تقوى اللّه، فإنّ خير الزاد التقوى.

ماتحرزون به نفسكم غداً فاتّقى عبد ربّه نصح نفسه، قدّم توبته، غلب شهوته

[ماتحرزون به نفسكم] وتحفظونا به من عذاب اللّه وعذابه.

[غداً] في القيامة، وقد أشرنا سابقاً في شرح مثل هذه الفقرة أو الأعمال الصالحة، والملكات الفاضلة إنّما تحصل في الدنيا، وأمّا كونها من الدنيا فلأنّ تلك الآثار الحاصلة للنفس من الحالات والملكات كالخشية والخوف وسائر مايتزوّده الإنسان ويستصحبه بعد المفارقة إنّما حصلت عن هذا البدن واستفيدت من الدنيا بواسطته، والمشابهة الّتي لأجلها استعار لفظ الزاد هنا هو مايشترك فيه الزاد المحسوس والتقوى من سلامة المتزوّد بهما كلّ في طريقه، فذاك في المنازل المحسوسة من عذاب الجوع والعطش المحسوس، وهذا في المنازل المعقولة ومراتب السلوك ومراحل السفر إلى اللّه من عذاب الجوع المعقول، وقوله:

[فاتّقى عبد ربّه نصح نفسه، قدّم توبته، غلب شهوته] أوامر وردت بلفظ الماضي، خالية عن العطف، وي بلاغة تريك المعنى في أحسن صورة، فالأمر بالتقوى تغيير للأمر بالزاد، كما قال تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ والأمر بنصيحة النفس أمر بالنظر في مصالحها، والشور عليها أن تعمل ما، والأولى بها من التمسّك بحدود اللّه والوقوف عندها والأمر بتقديم التوبة وغلب الشهوة هو من جملة الأمر بالنصيحة، كالتفسير له، ومن لوازم التقوى، وأراد بتقديم التوبة تقديمها على الموت، أو بالنسبة إلى كلّ وقت سيحضر، كناية عن المبادرة بها.

ثمّ حثّ عليه السلام على المبادرة إلى أوامر اللّه قبل التوبة بقوله:

فإنّ أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به، يزيّن له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، حتّى تهجم منيّته عليه أغفل مايكون عنها فيالها حسرة على كلّ ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجّة، وأن تؤدّيه أيّامه إلى شقوة

[فإنّ أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به، يزيّن له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، حتّى تهجم منيّته عليه أغفل مايكون عنها] فإن ستر أجل الإنسان عنه موجب للغفلة، فإذا انضاف إلى ذلك خداع الأمل الناشي عن الوساوس الشيطانيّة، والتسويلات النفسانيّة في تزيين المعصية وتسويف التوبة مع كون الشيطان موكّلاً به وقريناً له كما في النبوي مامن مولود إلاّ ويولد معه قرين من الشيطان، كانت الغفلة أشدّ، والنسيان أكّد، واستعار لفظ الخداع لصورته من النفس الأمّارة بالسوء كان تسوّل له مثلاً تمتع من شبابك، واغتنم لذّة العيش مادمت في مهلة، وسوف تتوب بعد أن تقضي وطرك من لذّات الدنيا ونحو ذلك، ونسبة ذلك إلى الأمل لأنّه من أسباب الإنخداع، وجعل ذلك الخداع هو أن تهجم على المخدوع منيّته حال ماهو في أشدّ غفلة عنها، واشتغال بما يؤمله، فيكون ذلك مستلزماً لأعظم حسرة وأكبر ندامة على أن يكون عمره عليه حجّة شاهداً بلسان حاله على مااكتسب فيه من الآثام، فصار بعد أن كان وسيلة لسعادته سبباً لشقاوته، كما قال:

[فيالها حسرة على كلّ ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجّة، وأن تؤدّيه أيّامه إلى شقوة] ونصب حسرة على الغميز للتعجّب منه، المدعوّ واللام في لها كأنّه قال: ياحسرة على الغافلين، ماأكثرك أرأيتها الحسرة احضري فهذا

نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لاتبطره نعمة ولاتقصر به عن طاعة ربّه غاية بأن لايقصر عن غاية من غايات الطاعات، يقال: قصرت هذه الغاية بفلان إذا لم يبلغها. ولايحلّ به بعد الموت ندامة ولا كآبة الحمد للّه الّذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً

أوانك، وقبل بل لام البحر فتحت لدخولها على الضمير، والمنادى محذوف تقديره ياللرجال للحسرة، أو ياقوم ادعوكم لها حسرة، وان في أن يكون في محلّ النصب بحذف الجار، كأنّه قيل فعلى مَ تقع عليهم الحسرة، فقال: على كون أعمارهم حجّة عليهم يوم القيامة، ثمّ ختم الخطبة بقوله:

[نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لاتبطره نعمة] بأن لانفرح بنعم الدنيا، فإنّه من لوازم محبّتها المستلزمة للهلاك الأبديّ، وبدأ بالدعاء لنفسه لما روي أنّ النبيّ ﷺ كان إذا دعى بدء بنفسه.

[ولاتقصر به عن طاعة ربّه غاية] بأن لايقصر عن غاية من غايات الطاعات، يقال: قصرت هذه الغاية بفلان إذا لم يبلغها.

[ولايحلّ به بعد الموت ندامة ولا كآبة] أي: حزن كأنّه سأل قطع أسباب الندامة والحزن، وهو اتّباع الهوى والعدول عن طاعة اللّه.

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الّذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً] لأنّ السبق والمقارنة والقبليّة

كلّ مسمّى غيره بالوحدة قليل

والبعديّة أُمور تلحق الزمان لذات، وتلحق الزمانيات به، وقد صحّ بالبراهين القاطعة أنّه تعالى منزّه عن الزمان، لأنّ الزمان من لواحق الحركة، أي: حركة الفلك المتأخّرة عن وجوده المتأخّر عن وجود الصانع، نعم قد تطلق القبليّة والبعديّة على غير الزمانيّة، كالقبليّة بالشرف والفضيله، والذات والعلية، كما يقال العلّة قبل المعلول.

وبالجملة: فكلّما يلحق ذاته المقدّسة من الصفات، فهي اعتبارات ذهنيّة تحدثها العقول عند مقايسته إلى مخلوقاته وشيء من تلك الإعتبارات لايتفاوت أيضاً بالقبليّة والبعديّة بأحد المعاني المذكورة بالنظر إلى ذاته المقدّسة فلايقال مثلاً هو مستحقّ لهذا الإعتبار قبل هذا الإعتبار أو بعده، وإلّا لكانت كمالاته قابلة للزيادة والنقصان، بل استحقاقه بالنظر إلى ذاته، فلا حال يفرض إلّا وهو يستحقّ فيه أن يعتبر له الأولية والأُخرويّة معاً استحقاقاً أولياً ذاتياً على وجه الترتيب وإن تفاوتت الإعتبارات بالنظر إلى اعتبارنا، وهذا بخلاف غيره من الأُمور الزمانيّة، فإنّ الجوهر مثلاً يصدق عليه كونه أوّلاً من العرض ولايصدق عليه مع ذلك أنّه آخر له حتّى لو فرضنا عدم جميع الأعراض وبقاء الجوهر بعدها لم يكن استحقاقه للإعتبارين معاً، بل استحقاقه لاعتبار الأوّلية متقدّم إذ كانت بعض أحواله سابقة على بعض، ولاستحقاقه لهما لذاته بل بحسب بقاء أسبابه، ولأنّ العرض لماصدق عليه أنّه بعد الجوهر يصدق عليه أنّه قبله باعتبار ما فأوّليّته تعالى باعتبار أنّه كونه مبدء لكلّ وجود وأُخريته هو كونه غاية لكلّ ممكن.

[كلّ مسمّى غيره بالوحدة قليل] يريد أنّه تعالى لايوصف بالقلّة، وإن

وكلّ عزيز غيره ذليل

كان واحداً، والواحد يقال لمعاني المشهور منها: هو كون الشيء مبدء لكثرة يكون عاداً لها، ومكيالاً، وهو الّذي يلحقه القلّة والكثرة الإضافيتان، فإنّ كلّ واحد بهذا المعنى هو قليل بالنسبة إلى الكثرة التي تصلح أن تكون مبدء لها والمتصوّر لأكثر الناس كونه تعالى واحداً بهذا المعنى، ولما كان تعالى منزّهاً عن القلّة والكثرة، لمايستلزمانه من الحاجة والنقصان اللازمين لطبيعة الإمكان أثبتت القلّة لكلّ ماسواه، فاستلزم إثباتها لغيره في معرض المدح له نفياً عنه، واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن الواحديّة بالمعنى المذكور إذ سلب اللازم لب ملزومه، بل الوحدة الّتي تطلق عليه تعالى إمّا بمعنى تنزه ذاته، وعن وصمة التركيب والتكثّر والأجزاء أو بمعنى نفي للشريك عند تعاقبهما على محلّ من شأنه قبولهما، وربّما فسّر القليل هنا بالحقير، ولايخفى بعد لعدم مناسبته لذكر الوحدة، وإنّما قال عليه السلام كلّ مسمّى بالوحدة، ولم يقل كل واحد للإشعار بأنّ قول الوحدة على واحديّته تعالى وواحدية غيره قول بحسب اشتراك الإسم، وقوله:

[وكلّ عزيز غيره ذليل] فإنّ العزيز هو الخطير الّذي يقلّ وجود مثله، وتشتدّ الحاجة إليه ويصعب الوصول، ثمّ في كلّ واحد من هذه القيود الثلاثة كمال ونقصان، فالكمال في قلّة الوجود أن يرجع إلى واحد، ويستحيل أن يوجد مثله، وليس ذاك إلّا اللّه سبحانه وتعالى، وكلّ موجود سواه ففي ذلّ الحاجة إليه وحقارة العبوديّة بالنسبة إلى كمال عزّه، والعزيز من الخلق الّذي توجد له تلك الإعتبارات بالقياس إلى من هو دونه فيها فهو عزيز بالنسبة إلى الأدنى دليل باعتبار الحاجة إلى الأعلى، وهكذا بالنسبة إلى مَن هو أعلى

وكلّ قويّ غير ضعيف وكلّ مالك غيره مملوك وكلّ عالم غيره متعلّم وكلّ قادر غيره يقدر ويعجز وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات وكبيرها، ويذهب عنه مابعُد منها

منه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى العزيز المطلق، وكذا قوله:

[**وكلّ قويّ غير ضعيف**] إذ القوّة تعود إلى تمام القدرة، ويقابلها الضعف، ولمّا كان استناد جميع الموجودات إلى قدرته فلا أتمّ من قدرته، فكلّ قوّة وصف بها غيره فبالنسبة إلى ضعف يقابلها لمن هو دونه، فإذا قيس بالنسبة إلى من فوقه كان ضعيفاً بالنسبة إليه، وكذا من هو فوقه إلى أن ينتهي إلى تمام قدرة فهو القويّ المطلق الّذي لايلحقه ضعف بالقياس إلى أحد غيره، وكذا قول:

[**وكلّ مالك غيره مملوك**] لدخوله تحت الملك المطلق الّذي تنفذ مشيّة مالكه في جميع الموجودات باستحقاق دون غير نكل ماسواه مملوك له، وإن سمّي مالكاً فبالقياس إلى من دونه.

[**وكلّ عالم غيره متعلّم**] ومن بعد جهل علم واستفاد عمله من غيره، وذلك الغير من الغير، وهكذا إلى أن ينتهي إليه تعالى ﴿وفوق كلّ ذي علم عليم﴾ وهو تعالى العالم المطلق لم يزل عالماً، ولم يحتجّ في العلم إلى غيره.

[**وكلّ قادر غيره يقدر**] على بعض الأشياء [**ويعجز**] عن بعض، وهو تعالى على كلّ شيء قدير لايجزه شيء، وهو مبدأ قدرة كلّ قادر.

[**وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات وكبيرها، ويذهب عنه مابعُد منها**] ومعنى كونه تعالى سميعاً أنّه عالم بالمسموعات لتنزّهه عن الآلة الّتي من شأنها أن يصمه لأنّ إدراك القوّة السامعة للصوت على قرب وبعد

وكلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام

وحد من القوّة والضعف مخصوص، فإذا كا الصوت ضعيفاً جداً أو بعيداً جداً، لم يصل إلى الصماخ فلم تدركه القوّة السامعة فلذلك كانت تصمّ عن لطيف الأصوات، ويذهب عن السامع مابعد منها وإن كان في غاية من القوّة والقرب، فربّما اشتدّ قرعه للصماخ فتفرق اتّصال الروح الحامل لقوّة السمع عنه بحيث يبطل استعدادها لتأدية القوّة إلى الصماخ، وكلّ ذلك من نقصان الحيوان وضعفه، ولما كان الباري تعالى منزّهاً عن الجسميّة وتوابعها لاجرم منزّهاً كان منزّهاً عن هذه الآلة ومايلحقها لم يعزب عنه ماخفي من الأصوات، ولم يذهب عليه مابعد منها، ولم تلحقه لواحقها من الصمم والنقصان، ولعلّه عليه السلام خصّ اللّطيف بالصمّم عنه، والبعيد بالذهاب عليه، لأنّ البعيد في مظنّته أن يسمع وإنّما يفوته عدم وصول الهواء الحامل له الشيء.

وأمّا الخفيّ فلمّا لم يكن من شأنه أن تدركه القوّة السامعة استعير له لفظ الصمم، تشبيهاً بالعجز.

[**وكلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان**] كالنور في الظلمة.

[**ولطيف الأجسام**] واللطيف قد يكون بمعنى عديم اللون كالهواء، وبمعنى رقيق القوام كالجور الفرد عند المتكلّمين وكالذرّة واللطيف بالمعنين غير مدرك للحيوان، وأطلق اسم العمى على عدم الأبصار مجازاً لكونه من أسباب عدم الروّية، وكونه تعالى بصيراً يعود إلى علمه بالمبصرات لم يعزب عن شيء منها يبصر ماتحت الثرى، ولايلحقه من لواحق الآلات شيء كالعمى ونحوه.

وكلّ ظاهر غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر

[**وكلّ ظاهر غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر**] يريد أنه تعالى هو المفرد بالجمع بين وصفي البطون والظهور، فيقال له الظاهر والباطن دون غيره، لأنّ ظهور الأشياء عبارة عن انكشافها للحسّ أو العقل، ويقابله بطونها وهو خفاؤها عن أحدهما، وحيث كان تعالى منزّهاً عن الجسميّة ولواحقها علم كونه منزّهاً عن إدراك الحواسّ، ولمّا كان تعالى مقدّساً عن أنحاء التراكيب الخارجيّة والعقليّة، وجب تنزّه ذاته المقدّسة عن اطلاع العقول عليها، فعلم أنّه لايشارك الأشياء في ظهورها وخفائها، بل ظهوره تعالى عبارة عن انكشاف وجوده لأبصار بصائر العباد بآثاره وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنه الحقّ ولايشاركه شيء في هذا المعنى، فإنّ بعض الأشياء وإن انكشفت للعقل والحسّ، إلّا أنّ الّذي خفي عنه أكثر ممّا اطّلع عليه، فكلّ ظاهر غيره باطن بالنسبة إليه، وهو تعالى الظاهر لكلّ شيء وفي كلّ شيء لكونه مبدأ كلّ شيء ومرجع كلّ شيء، ومعنى بطونه خفاء ذاته عن اطّلاع العقول على كنهها أو بمعنى خبرته وعلمه بجميع الأشياء، فكلّ باطن خفيّ على الخلق ظاهر له معلوم، وكلّ عالم وإن جلّ قدره لاإحاطة له بكلّ المعلومات، بل هو قاصر عن جلّها، وهو تعالى الّذي لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولافي السماء، ولاأصغر من ذلك ولاأكبر﴾.

وفي بعض النسخ: وكلّ ظاهر غيره غير باطن.

ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ فعله تعالى منزّه عن الغرض وبرهانه، أنّه لو فعل ذلك لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إمّا على حدّ سواء

لم يخلق ماخلقله لتشديد سلطان ولاتخوّف من عواقب زمان ولاندّ مثاور ولاشريك مكاثر ولا ضد منافر

أو لا ، والأوّل باطل، للزوم الترجيح بلا مرجّح، وكذا الثاني، لأنّهما إذا لم يستويا كان حصول الغرض أولى به، فيكون معتبراً في كماله وبدونه ناقصاً تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، وأمّا مايتوهّم من أنّ أولويّة الغرض ليس بالنسبة إلى ذاته، بل بالنسبة إلى العبد، إذ غرضه الإحسان إليه ففاسد، لأنّ غرض الإحسان إلى الغير وعدمه إن كانا بالنسبة إليه على حدّ سواء لزوم الترجيح بلامرجّح، وإن كان أحدهما أولى به عاد حديث الكمال والنقصان، فلذا قال عليه السلام:

[**لم يخلق ماخلقله لتشديد سلطان**] لأنّه إنّما يحتاج إليه ذوالنقصان في ملكه وهو تعالى الغنيّ المطلق عن كلّ شيء.

[**ولاتخوّف من عواقب زمان**] لأنّ التضرّر والإنتفاع ولواحقهما من الخوف والرجاء ونحوهما إنّما هي من لواحق الممكنات القابلة للنقصان والكمال، وماهو في معرض التغيّر الزوال، وهو تعالى منزّه عن جميع ذلك.

[**ولاندّ**] أي: مثل ونظير [**مثاور**] أي: موانث [**ولاشريك مكاثر**] أي: مفتخر بالكثرة.

[**ولا ضد منافر**] محاكم في الحسب، يقال: نفرت زيداً فنفرته أي: غلبته، أي: لم يخلق الأشياء للإستعانة على الندّ والضدّ والشريك، لأنّ الإستعانة طلب العون من الغير، وهو من لوازم الضعف والعجز والخوف، وإذ لاعجز فلاندّ ولاشريك ولاضدّ، والغرض تنزيهه تعالى عن صفات المخلوقين.

ولكن خلائق مربوبون وعباد آخرون لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ولم ينأ عنها فيقال: هو منها بائن لم يؤدّه خلق ماابتدأ ولا تدبير ماذرأ

[**ولكن خلائق مربوبون**] أي: مملوكون [**وعباد آخرون**] ذليلون خاضعون، أي: بل هم خلائق خلقهم بمحض جوده، وهو فيضان الخير عنه على كلّ قابل بقدر مايقبله من غير بخل ولامنع وتعويق، وباعتبار ذلك كان كل شيء مربوباً له وهو ربّ كلّ شيء، وكلّ عبد ذليل وهو مالكه ومولاه.

[**لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن**] إشارة إلى تنزيهه تعالى عن المحلّ، فإنّ الحلول الذي هو قيام موجود بموجود على سبيل التعبيّة له ممتنع عليه تعالى، لأنّ كونه تبعاً للغير يستلزم حاجته إليه، وكلّ محتاج ممكن.

[**ولم ينأ عنها**] أي: لم يبعد عن الأشياء [**فيقال: هو منها بائن**] إذ الكون في المحلّ والبُعد عنه أُمور، إنّما يقال على مايصحّ حلوله فيه وهو تعالى منزّه عنه، وحيث لم يكن تعالى كائناً في الأشياء فليس بناء عنها ولامباين لها، قال المحقّق الطوسي: والحقّ أنّ حلول الشيء في الشيء لايتصوّر إلاّ إذا كان الحال بحيث لايتعيّن لابتوسّط المحلّ، وإذ لايمكن أن يتعيّن واجب الوجود بغيره، فإذاً يستحيل حلوله في غيره.

[**لم يؤدّه**] أي: لم يتعبه [**خلق ماابتدأ ولا تدبير ماذرأ**] أى: خلق، لأنّ الأعياء إنّما يعرض لذي الأعضاء من الحيوان، وهو منزّه عن الجسميّة، فلايلحقه الأعياء، وفي قوله: ماابتدأ دون ماخلق ونحوه لطف وإشارة إلى كون سلب الأعياء عنه حينئذ أبلغ إذ المبتدأ من الأفعال تكون المشقّة فيه أتمّ، وفي الفقرتين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنّ اللّهَ الذي خلق

ولا وقف ب عجز عمّا خلق ولاولجت عليه شبهة فيما قضى وقدّر بل قضاء متقن، وعِلْم محكم وأمر مبرم المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم.

السماوات والأرض ولم يعي بخلقهنّ﴾. وقوله عليه السلام:

[**ولا وقف به عجز عمّا خلق**] إشارة إلى كمال قدرته، واستحالة العجز عليه، كما مرّ، وقوله:

[**ولاولجت**] أي: دخلت [**عليه شبهة فيما قضى وقدّر**] لأنّ الشبهة إنّما تدخل على العقل في الأُمور المعقولة الصرفة غير الضروريّة، والوهم لايصدق حكمه إلاّ في المحسوسات، فأمّا الأُمور المعقولة الصرفة، فحكمه فيها كاذب، فالمعقل حال استفصاله وجه الحقّ فيها يكون معارضاً بالأحكام الوهميّة، فإذا كان المطلوب معنا فربّما كان في الأحكام الوهميّة مايشبه بعض أسباب المطلوب، فتتصوّره النفس بصورته، ويعتقده مبدأ فينتيج الباطل في صورة المطلوب، وليس به، ولمّا كان الباري تعالى منزّهاً عن القوى البدنيّة، وكان علمه لذاته لم يجز أن دره شبهة، أو يدخل عليه فيه شكّ، لكونهما من عوارضهما.

[**بل**] فعله [**قضاء متقن، وعِلْم محكم**] أي: بريء من فساد الشبهة الغلط.

[**وأمر مبرم**] أي: محكم، إشارة إلى قدره الّذي هو تفصيل قضائه المحكم، وظاهر أنّ تفصيل المحكم لايكون إلاّ محكماً، وقوله:

[**المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم**] إيماء إلى تنزيهه تعالى عن حال البشر، فإنّ المنتقم من الناس حين انتقامه لايكون مأمولاً حين إنعامه لايكون مرهوباً ومخوفاً، وهذا هو الكمال الذاتي والجود المطلق.

معاشر الناس استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة وعضّوا على النواجذ فإنّه أنبى للسيوف عن الهام

ومن كلام له عليه السلام
كان يقوله لأصحابه في بعض أيّام صفّين

وروي أنّه قال في اليوم الّذي مساءه ليلة الهرير، وقيل: قاله في أوّل أيّام اللقاء بصفّين:

[**معاشر الناس استشعروا الخشية**] أي: اتّخذوا خشية اللّه شعاراً، كما يلزم الشعار الجسد، وللشعار مابلي الجسد من الثياب، وفيه إشارة إلى الصبر على الحرب، وامتثال جميع الأمور الباقية، إذ خشية اللّه مستلزمة لامتثال أوامره.

[**وتجلببوا السكينة**] الجلباب: الملحفة، والسكينة: الثبات، استعارة للثبات الشامل للإنسان منزلة الملحفة في شمولها للبدن، والشمول هو وجه الإستعارة، وفائدة هذا الأمر طرد الفشل، وإذهاب العدوّ، فإنّ الطيش والإضطراب يستلزمان الفشل وطمع العدوّ.

[**وعضّوا على النواجذ**] وهي أفاصي الأضراس، وعلّله بقوله:

[**فإنّه**] الضمير للمصدر المدلول عليه بعضّوا [**أنبى للسيوف عن الهام**] يقال: نبأ السيف إذا رجع في الغربة ولم يعل، يعني: إنّ العضّ على الناجذ يستلزم تصلّب العضلات والأعصاب المتّصلة بالدماغ، فيقاوم ضربة السيف، وتكون نكايته فيه أقلّ، وقيل: هو كناية عن تسكين القلب وطرد الرعدة.

وأكملوا اللأْمَةَ وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها والحظوا الخَزَر واطعنوا شَزْراً ونافحوا بالظُّبىٰ

وأكملوا اللأْمَةَ] بالهمزة الساكنة: الدرع، وإكمال الدرع البضة والسواعد ونحوها، وبالممدودة مع تضعيف الميم جمع آلات الحرب من الدرع والرمح والسيف والجُنّة ومايحتاج إليه فيه، وفائدته شدّة التحصّن.

[**وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها]** القلقلة: التحريك، وفائدته سهولة جذبها حال الحاج إليها، فإنّ طول مكثها في الإغماد يوجب صداها، وصعوبة إخراجها حال الحاجة.

[**والحظوا الخَزَر]** بفتح الزاي: ضيق العين وصغرها، وكذلك تضييقها والنظر بمؤخّرها، وهو أمارة الغضب، فإنّ الإنسان إذا نظر من غضب عليه نظره خزراً، وفائدته إحماء الطبع، وترهيب العدوّ، وإنّ النظر بكليّة العين أمارة الفشل، ومن عوارض الطيش والخوف الموجب وطمع العدوّ وإنّ النظر بكلتيهما إليه يوجب التفطّن والحذر وأخذ الأهبّة والتخزّر والنظر خزراً استفعال له، ومظنّة لأخذ عزّته، ولأنّ النظر خزراً أمارة استحقار المنظور إليه.

[**واطعنوا شَزْراً]** بسكون الزاي وهو الضرب على غيراستقامة، بل يميناً وشمالاً، لأنّ الطعن يميناً وشمالاً يوسع الحال على الطاعن، ولأنّ أكثر المناوشة للخصم في الحرب يكون عن يمينه وشماله.

[**ونافحوا بالظُّبىٰ]** جمع ظبة، وهي طرف السيف، والمنافحة: التناول بأطراف السيوف، وفائدته أنّ مخالطة العدوّ والقرب الكثير منه يشغل عن التمكّن من ضربه.

وصلوا السيوف بالخُطا واعلموا أنّكم بعين اللّه ومع ابن عمّ رسول اللّه عليه السلام فعاودوا الكرّ واستحيوا من الفرّ فإنّه عار في الأعقاب

[**وصلوا السيوف بالخُطا**] وفائدته أنّ السيف ربّما يكون قصيراً فيطول بالخطوة ومدّ اليد، ولأنّ فيه الإقدام على العدوّ والزحف إليه، وذلك ممّا يوجب الإنفعال والتأخّر، وفيه قول الشاعر:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها   خطانا إلى أعدنائنا فنضارب

وقال الآخر:

نصل السيوف إذا قصرنا بخطونا   يوماً ونلحقها إذا لم تلحق.

ثمّ أردف تلك الأامر بما يؤكّدها، فقال:

[**واعلموا أنّكم بعين اللّه**] يراكم، ويعلم أعمالكم وأفعالكم، وسرّكم وجهركم، فجدّوا واجتهدوا في العمل بمرضاته، وكونوا بمحذر منه، والباء هنا كالباء في قوله: وأنت بمرئى منّي وبمسمع.

[**ومع ابن عمّ رسول اللّه عليه السلام**] الّذي قال فيه عليه السلام: ياعليّ سلمك سلمي، وحربك حربي، وقال فيه: عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ، يدور معه كيفمادار، فاثبتوا معه على قتال الأعداء.

[**فعاودوا الكرّ**] أي: إذا كررتم على عدوّكم كرّة فلا تقتصروا عليها، بل كرّوا كرّة أُخرى بعدها، وذلك عند التحرّف للقتال والإنحياز إلى الفئة.

[**واستحيوا من الفرّ**] أي: الفرار [**فإنّه عار في الأعقاب**] جمع عقب، وهو العاقبة ومايؤل إليه الأمر، قال سبحانه: ﴿خير ثواباً وخير عُقباً﴾ أي: عاقبة، يعني: إنّ الفرار عار في عاقبة أمركم، ومايتحدّث به الناس في مُستقبل الزمان عنكم، ويحتمل أن يكون المعنى أنّه موجب لبقاء العار في

ونار يوم الحساب وطيبوا عن أنفسكم نفساً وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحاً

ذرّياتكم وأولادكم.

[**ونار يوم الحساب**] لأنّه من الكبائر الّتي توجب استحقاق النار، وجعله ناراً مجازاً تسمية له باسم غايته، أو إشارة إلى تجسّم الأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ قال تعالى: ﴿ومن يولّهم يومئذ دُبُرَهُ إلاّ متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من اللّه ومأواه جهنّم وبئس المصير﴾.

[**وطيبوا عن أنفسكم نفساً**] تسهيل للموت عليهم، الّذي هو غاية مايلقونه من الشدائد في الحرب بالبشارة بما هو أعظم وأجلّ من الحياة الدنيا المطلوبة بترك القتال، وهو ماأعدّ لهم من الثواب الباقي، ونفساً منصوبة على التميز ووحّدت، لأنّ المميّز لايكون إلاّ واحداً، وإن كان في معنى الجمع، كما يقال: أنعموا بالاً وضيقوا ذراعاً، وأبقى الأنفس على جمعها لما لم يكن حاجة إلى توحّدها، تقول: وطّنوا أنفسكم على الموت، ولاتكرهوه، وهوّنوه عليكم، وأشار بالنفس الأوّل إلى الشخص الزائل بالقتل، وبالثانية إلى النفس المدبّرة لهذا البدن.

[**وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحاً**] أي: سهلاً، وروي سمحاً، وهو بمعناه، أي: مشياً لاتكلّف فيه ولاتجشع، فإنّ المتكلّف سريع الفرار، وهو أمر لهم بالمشي إلى غاية مايخافون من القتال ليوطنوا أنفسهم عليه، أو لينفروا بسرعة إلى الحرب، إذ من العبادة أن يستنفر الشجاع بمثل ذلك، فيسارع إلى داعيه لما يتصوّره فيه من جميل الذكر وحسن الأُحدوثة.

وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطنب فاضربوا ثبجه فإنّ الشيطان كامن في كسره قد قدّم للوثبة يداً، وأخّر للنكوص رِجْلاً

[**وعليكم بهذا السواد الأعظم**] أي: العدوّ الكثير، لما شحذهم بالأوامر المذكورة عين مقصدهم في مجاهدة هذا السواد الأعظم، يعني به جمهور أهل الشام مجتمعين.

[**والرواق المطنب**] الرواق: بيت كالفسطاط يعمل على عمود واحد، يريد به مضرب معاوية، فإنّه كان في مضرب عليه قبّة عالية، وحوله من صناديد أهل الشام مائة ألف، كانوا تعاهدوا أن لاينفرجوا عنه حتّى يُقتَلوا.

[**فاضربوا ثبجه**] أي: وسطه، وثبج الإنسان مابين كاهله إلى ظهره، عيّن لهم وسط الرواق وأغراهم به معلّلاً بقوله:

[**فإنّ الشيطان كامن في كسره**] والكسر جانب الخبأ، وأراد بالشيطان معاوية، وقيل: عمروبن العاص، وذلك أنّ الشيطان لمّا كان عبارة عن شخص يضل الناس عن سبيل اللّه، وكان معاوية في أصحابه كذلك عنده عليه السلام، لاجرم أطلق عليه لفظ الشيطان، ويحتمل إرادة الشيطان المطلق، إذ لمّا ضرب الرواق على غير طاعة اللّه كان محلاً للشيطان، ولذا استعار له لفظ الجلوس في كسره.

[**قد قدّم للوثبة يداً، وأخّر للنكوص رِجْلاً**] كناية عن تردّد معاوية وانتظاره لأمرهم إن جبنوا وإن شجعوا نكص وهرب، أو عن الشيطان على سبيل استعارة الوثبة والنكوص واليد والرجل، ويكون تقديم يده للوثبة كناية عن تزيينه، لأصحاب معاوية الحرب والمعصية، وتأخيره النكوص للرجل كناية عن تهيئته للفرار إذا التقى الجمعان، كما حكى اللّه سبحانه عنه:

فصمداً صمداً حتّى يتحلّى لكم عمود الحقّ ﴿وأنتم الأعلون﴾ واللّه معكم ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾

﴿فلمّا تراءى الجمعان نكص على عقبيه وقال إنّي بريء منكم﴾.

[**فصمداً صمداً**] أمرهم بقصد عدوّهم مؤكّداً له بتكريره، أي: أصمدوا لهم صمداً، أي: اقصدوا العدوّ قصداً.

[**حتّى يتحلّى لكم عمود الحقّ**] أي: إلى غاية أن يظهر لكم نور الحقّ بالنصر، واستعار لفظ العمود للحقّ الظاهر عن الصبح للمشاركة بينهما في الوضوح والجلاء والتجلّي ترشيح للإستعارة، كنى به عن ظهوره ونصوحه، أي: إلى أن يتّضح لكم أنّ الحقّ معكم بظفركم بعدوّكم وقهره، إذ الطالب لغير الحقّ سريع الإنفعال، قريب الفرار في المقاومة، وقوله:

[**﴿وأنتم الأعلون﴾**] تسكين لنفوسهم، وبشارة بالمطلوب بالحرب وهو العلوّ والقهر، كما بشّر اللّه به الصحابةال المشركين. وقوله:

[**واللّه معكم**] تثبيت لهم على المضي في طاعته، ﴿فإنّ حزب اللّه هم الغالبون﴾.

[**﴿ولن يتركم أعمالكم﴾**] أي: لم ينقصكم جزاء أعمالكم، وهو تذكير لجزاء اللّه لهم أعمالهم في الآخرة، وبعث لهم بذلك على لزوم العمل.

في معنى الأنصار، قالوا: لمّا انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله

ومن كلام له عليه السلام

[في معنى الأنصار، قالوا: لمّا انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة] أي: أخبارها: [بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله] فإنّه لمّا قبض صلى الله عليه وآله اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فخطبهم سعدبن عبادة ومدحهم في خطبته وأغراهم بطلب الإمامة، وقال: إنّ لكم سابقة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمان، فما آمن به من قومه إلّا قليل، والله ماكانوا يقدرون أن يمنعوه ولايدفعوا عنه ضيماً حتّى أراد الله بكم خير الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، ورزقكم الإيمان به، والإقرار بدينه، فكنتم أشدّ الناس على مَن تخلّف عنه منكم، وأثقله على عدوّه من غيركم، حتّى استقاموا لأمره ودانت لأسيافكم العرب، وأنجز الله لنبيّكم الوعد، وتوفّي وهو عنكم راض، فشدّوا أيديكم بهذا الأمر فأنتم أحقّ الناس به.

فأجابوه جميعاً: إن وُفِّقتَ وأصبتَ ولن نعدوا أن نولّيك هذا الأمر، وأتى الخبر أبابكر وعمر، فجاءا مسرعين إلى السقيفة، فتكلّم أبوبكر فقال للأنصار: ألم تعلموا إنّا معاشر المهاجرين أوّل الناس إسلاماً، ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتم أنصار الدين ووزراء رسول الله صلى الله عليه وآله وإخواننا في كتاب الله، وأنتم المؤثرون على أنفسهم وأحقّ الناس بالرضا بقضاء الله والتسليم

. . . .

لما ساق اللّه إلى إخوانكم، وأن لايكون انتقاص هذا الدين على أيديكم، وأنا أدعوكم إلى بيعة أبي عبيدة أو عمر، فكلاهما قد رضيت لهذا الأمر.

فقال عمر وأبوعبيدة: ماينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك، أنت صاحب الغار وثاني اثنين، وأمرك اللّه بالصلاة، فأنت أحقّ بهذا الأمر،

فقالت الأنصار: نحن أصحاب الدار والإيمان، لم يُعبَد اللّه عانية إلاّ عندنا وفي بلادنا، ولا عُرِف الإيمان إلاّ من أسيافنا، ولاجمعت الصلاة إلاّ في مساجدنا، فنحن أولى بهذا الأمر، فإن أبيتم فمنّا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات لايجتمع سيفان في غمد، إنّ العرب لاترضى أن تؤمركم ونبيّها من غيركم.

فقال الحباب بن المنذر: نحن واللّه أحقّ بهذا الأمر، قد دان لهذا الزمر بأسيافنا من لم يكن يدين له، وإن لم ترضوا خليناكم عن بلادنا أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرحب لنعيد بها جذعة، واللّه لايردّ على أحد ماأقول إلاّ خطمت أنفر بسيفي هذا، فقام بشربن سعد الخزرجي وكان يحسد سعدبن عبادة أن يصل إليه هذا الأمر، وكان سيّداً في الخزرج فقال: إنّا لم نرد بجهادنا وإسلامنا إلاّ وجه ربّنا لاغرضاً من الدنيا، وأنّ محمّداً ﷺ رجل من قريش، وقومه أحقّ بميراث أمره، فاتّقوا اللّهَ ولاتنازعوهم معشر الأنصار.

فقام أبوبكر وقال: هذا عمر وأبوعبيدة بايعوا أيّهما شئتم، فقالا: لايتولّى هذا الأمر غيرك وأنت أحقّ به، أبسط يدك، فبسط يده فبايعاه وبايعه بشربن سعد، وبايعته الأوس كلّها، وحمل سعدبن عبادة وهو مريض فأُدخل منزله، وقيل: إنّه بقى ممتنعاً من البيعة حتّى مات بحوران في طريق

وقال: ما قالت الأنصار، قالوا: قالت منّا أمير ومنكم أمير، قال: فهلاّ احتججتم عليهم بأنّ رسول اللهﷺ وصّى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم، قال: لو كانت الأمارة فيهم لم تكن الوصيّة بهم ثمّ قال فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسولﷺ، فقال عليه السلام: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة

الشام، ثمّ سؤال أمير المؤمنين عليه السلام هذه الوقعة، إذ لم يكن فيها، وكان مشغولاً بتجهيز رسول اللهﷺ.

[**وقال: ما قالت الأنصار، قالوا: قالت منّا أمير ومنكم أمير، قال: فهلاّ احتججتم عليهم بأنّ رسول اللهﷺ وصّى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم، قال: لو كانت الأمارة فيهم لم تكن الوصيّة بهم**] فإنّ العرف قاض بأنّ الوصيّة والشفاعة ونحوها إنّما تكون إلى الرئيس في حقّ المرئوس من غير عكس.

[ثمّ قال] عليه السلام: [**فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسولﷺ، فقال عليه السلام: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة**] إشارة إلى نفسه عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، وإضاعتهم لها إهمالهم له من هذا الأمر، وجه الإحتجاج أنّهم إن كانوا أحقّ بهذا الأمر من الأنصار لكونهم شجرة الرسولﷺ فنحن أولى منهم لكوننا ثمرته، واختصاص الثمرة بالمثمر من وجهين:

أحدهما: القرب، ومزيّته ظاهرة.

وقد أردتُ تولية مصر هاشم بن عتبة ولو ولّيته إيّاها لما خلّى لهم العرصة ولا أنهز لهم الفرصة

والثاني: إنّ الثمرة هي المطلوبة بالذات من الشجرة وغرسها، فإن كانت الشجرة معتبرة فبالأولى اعتبار الثمرة، ويلزم من ذلك أحد أمرين: إمّا بقاء الأنصار على حجّتهم، أو كونه عليه السلام أحقّ بهذا الأمر، والخصم لايقول بكل منهما، وممّا ينسب إليه عليه السلام في هذا المعنى:

فإن كنتُ بالشورى حججتُ أُمورهم فكيف بهذا، والمشارون غُيَّب
وإن كنتُ بالقربى ملكتُ أُمورهم فغيرك أولى بالنبيّ وأقرب

ومن كلام له عليه السلام
لمّا قلّد محمّد بن أبي بكر مصر، فملكت عليه وقتل (رض)

وكان قتله رضي اللّه عنه بعد وقعة صفّين، واضطراب الأمر على عليّ عليه السلام وطمع معاوية في البلاد، وقتله عمرو بن العاص، وحشى جثّته في جوف حمار ميّت وأحرقه، فبلغه عليه السلام ذلك، فجزع له حتّى ظهر في وجهه وقال:

[**وقد أردتُ تولية مصر هاشم بن عتبة**] بن أبي وقّاص، وكان من شيعته عليه السلام والمخلصين في ولايته، وقتل معه بصفّين، وكان رجلاً مجرباً.

[**ولو ولّيته إيّاها لما خلّى لهم العرصة**] أي: عرصة الحرب.

[**ولا أنهز لهم الفرصة**] والنهز: النهوض لتناول الشيء والفرصة النهضة وهي ماأمكنك من نفسه.

بلا ذمّ لمحمّد فقد كان لي حبيباً وكان لي ربيباً

[بلا ذمّ لمحمّد فقد كان لي حبيباً وكان لي ربيباً].

ومجمل القصّة أنّه بعدما قوى أمر معاوية بعد وقعة صفّين طمع في مصر، وقد كان عمروبن العاص بايعه على أن يكون معه في قتال عليّ، وتكون مصر له طعمة، فبعثه إليها بعد صفّين في ستّةآلاف فارس، وقد كان فيها جماعة عظيمة ممّن يطلب بدم عثمان، وكانوا يزعمون أنّ محمّداً قتله، فانضافوا إلى عمرو، وكان معاوية كتب إلى وجوه أهل مصر: أمّا إلى شيعته فبالترغيب، وأمّا إلى أعدائه فبالترهيب، فكتب محمّدبن أبي بكر إلى عليّ عليه السلام بالقصّة يستنجده بالمال والرجال، فكتب إليه يعده بذلك، فجعل محمّد يدعو أهل عمر، فانتدب معه منهم أربعة آلاف رجل، فوجّه منهم ألفين عند كنانةبن بشر لاستقبال عمرو، وبقي هو في ألفين، فأبلى كنانة في ذلك اليوم بلاء حسناً، وقتل من عسكر عمرو خلقاً كثيراً، ولم يزل يقاتل حتّى قتل هو ومن معه، فلمّا قتل تفرّق الناس عن محمّد، وأقبل عمرو يطلب محمّداً، فهرب منه متخفّياً، فالتجى إلى خربة اختبى فيها، فدخل عمرو فسطاطه، وخرج معاويةبن خديج الكندي في طلب محمّد، فظفر به، وقد كاد يموت عطشاً، فقدّمه فضرب عنقه، ثمّ أخذ جثّت فحشاها في جوف حمار ميّت وأحرقه.

وقد كان عليّ عليه السلام وجّه لنصرته مع مالك بن كعب إلى مصر نحو من ألفي رجل، فسار بهم خمس ليالي.

وورد الخبر إلى عليّ عليه السلام بقتله وأخذ مصر فجزع عليه السلام جزعاً شديداً.

قال ابن أبي الحديد: أُمّ محمّدبن أبي بكر أسماء بنت عميس، كانت

كم أُداريكم كما تدارى البكار العَمدة

تحت جعفربن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبداللّه، ثمّ قتل عنها يوم مؤتة، فخلف عليها أبوبكر، فأولدها محمّداً، ثمّ مات عنها، فخلّف عليها عليّ بن أبي طالب، فكان محمّد ربيبه ومريحه وجارياً عنده مجرى أولاده، ورضيع الولاء والتشيّعن الصبا، فنشأ عليه فلم يكن يعرف أباً غير عليّ عليه السلام، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتّى قال عليّ عليه السلام: محمّد ابني من صُلب أبي بكر.

ثمّ قال ابن أبي الحديد: ولمّا بلغ قتله عايشة جزعت عليه جزعاً شديداً، وقنتت في دبر كلّ صلاة تدعو على معاوية وعمروبن العاص ومعاويةبن خديج، وكان ابن خديج معلوناً خبيثاً يسبّ عليّ بن أبي طالب.

ثمّ روى: إنّ أسماء رأت رؤياً وأبوبكر في غزاة فعبّرها النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّه يرجع أبوبكر صالحاً، فتلقى أسماء منه فتحمل منه بغلام يسمّيه محمّداً يجعله اللّه غيظاً على الكافرين والمنافقين.

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ أصحابه

لتقاعدهم عن الحرب [**كم أُداريكم كما تدارى البكار العَمدة**] البكار: جمع بكر، وهو الفتى من الإبل، والعمدة التي انشدخ باطن باطن أسنمتها لثقل الحمل وظاهرها صحيح، وذلك لكثرة ركوبها، أو ثقل حملها، ويسمّى ذلك العمد، ووجه الشبه قلّة صبرهم وشدّة إشفاقهم وفرارهم من

والثياب المتداعية كلّما حيصَتْ من جانب تهتّكت من آخر كلّما أطلّ منْسر من مناسر أهل الشام أغلق كلّ رجل منكم بابه، وانجحر انجحار الضَبَّة في جحرها والضبع في وجارها

التكلّف بالجهاد واستعانتهم كما يشتدّ جرجرة البكر العمد وفراره من مداومة الحمل، ووجه الذمّ حاجتهم إلى المداراة الكثيرة، وليس ذلك من شيم الرجال، بل من شأن البهائم ومن لاعقل له، وقوله:

[**والثياب المتداعية**] أي: الأسمال التي قد أُخلقت وسمّيت بذلك لأنّ بعضها ينخرق فيدعو بعضها إلى مثل حاله، تشبيه آخر لهم، وأشار إلى وجه الشبه بقوله:

[**كلّما حيصَتْ**] أي: خيطت [**من جانب تهتّكت**] أي: تخرّقت من] جانب [**آخر**] فكذا أصحابه كلّما أصلح حال بعضهم وجمعهم للحرب فس بعض آخر عليه.

[**كلّما أطلّ**] بالطاء المهملة أي: أشرف، ويروى بالظاء العجمة والمعنى واحد.

[**منْسِر**] بكسر الميم وفتح السين أو بالعكس، وهو القطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكثير [**من مناسر أهل الشام أغلق كلّ رجل منكم بابه، وانجحر**] أي: استتر [**انجحار الضبَّة**] أُنثى ضب [**في جحرها**] أي: بيتها [**والضبع في وجارها**] والوجار: بيت الضبع، إشارة إلى جبنهم، ومبالغة في خوفهم، وكنّى بإغلاق كلّ منهم بابه عند سماعهم بقرب جيوش الشام منهم عن فرارهم من القتال، وكراهية سماعهم للحرب، وشبّههم في الخوف والفرار بالضبّة والضبع حين يرى الصائد أوامراً يخافه، وإنّما خصّ الأنثى بالتشبيه

الذليل واللّه من نصرتموه ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق إنّكم لكثير في الباحات قليل تحت الرايات

مبالغة في جبنهم، لأنّ الأُنثى أجبن وأذلّ من الذكر، ثمّ وصفهم بالذلّة وقلّة الإنتفاع بهم، بقوله:

[**الذليل واللّه من نصرتموه**] فإنّه إنّما يكون ذليلاً لكونهم كذلك، ويحتمل أن يكون إشارة إلى سوء آرائهم في تفرّقهم واختلافهم تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى، وقوله عليه السلام:

[**ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق**] فأصل مبالغة في حصر الذلّ لكلّ مستنصر بهم فيمن نصروه، وإلّا فوق الناصل السهم لا فوق له ولانصل، والسهم الأفوق الناصل المكسور الفوق المتردع المنصل والفوق موضع الوتر من السهم، يقال: أنصل السهم إذا خرج منه المنصل والفوق، فاستعار لهم من أوصاف السهم أرداها، وكنّى بذلك عن عدم فائدتهم ونكايتهم في العدوّ، كما لافائدة في الرمي بالسهم الموصوف.

[**إنّكم لكثير في الباحات**] جمع باحة، وهي ساحة الدار [**قليل تحت الرايات**] ذمّهم عليه السلام بوصفهم في الكثرة في المجامع والأندية، مع قلّتهم في الحرب تحت الألوية، كما أنّ مقابل ذلك من الإجتماع والكثرة في الحرب مع القلّة في غيره مدح.

قال أبوالطيب:

ثقال إذا لاقوا، خفاف إذا دعوا ... قليل إذا عدّوا، كثير إذا شدّوا

وقال الآخر:

ألستم أقلّ الناس عند أدائهم ... وأكثرهم عند الذبيح والقدر

وإنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكنّي واللّه لاأرى إصلاحكم بفساد نفسي أضرع اللّه خدودكم وأتعس جدودكم

[**وإنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم**] أي: عوجكم من أود الشيء بكسر الواو ياوداداً أي: أعوج، وتاردّ أي: تعوّج، أراد أنّه لايصلحهم إلاّ الغشم والقتل، وأنّهم من القوم الّذين إن لم تظلمهم ظلموك، كما هو شأن الملوك الظلمة والرؤساء الخونة من بني أُميّة وبني العبّاس ونحوهم، فإنّ الحجّاج أرسل المهلب إلى الخوارج فنادى في الكوفة من تخلّف عن المهلب بعد ثلاث فقد أحلّ دمه، وقتل جماعة فخرج الناس إليه يهرعون، ثمّ اعتذر عليه السلام عن ذلك بأنّ إصلاحهم بالظلم الّذي فيه فساده، والعاقل لايقدم على إصلاح غيره بفساد نفسه، بل إصلاح النفس أولى، فقال:

[**ولكنّي واللّه لاأرى إصلاحكم بفساد نفسي**] كما يفعل ملوك الدنيا بأن يستحلّوا من رعيتهم ما حرّم اللّه من دمائهم وأموالهم وأذيّتهم بأنواع الأذي إذا أرادوا إثبات ملكهم، وقيام دولتهم، ولو بفساد دينهم وأخلاقهم.

ومن هذا الكلام أخذ المأمون لما أغلظ عليه غلامه في الكلام فقال: إنّ الرجل إذا صلحت أخلاقه فسدت أخلاق أهل بيته وخدمه، وإذا فسدت أخلاقه صلحت أخلاقهم، ونحن لانسيء أخلاقنا لتصلح أخلاق غيرنا، ثمّ دعى عليهم بقوله:

[أضرع الله خدودكم] دعاء بالذلّ ، أي : أذل وجوهكم : ضرع الرجل ذلّ وأضرعه غيره.

[واتعس جدردكم] أي : هلك حظوظكم ، والجدّ الحظّ ، والتعس الهلاك ،

أي : جعلها إدباراً وتعساً ، ثمّ نبّه عليه السلام على غلة استحقاقهم ذلك بقوله :

لاتعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل ولاتبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ ملكتْني عيني وأنا جالس فسنح لي رسول اللّه صلى الله عليه وآله

[**لاتعرفون الحقّ**] من أوامر اللّه ونواهيه [**كمعرفتكم الباطل**] من أحوال الدنيا وباطلها والإشتغال بذلك عن أوامر اللّه.

[**ولاتبطلون الباطل**] بإنكاركم المنكر من أنفسكم ومن غيركم [**كإبطالكم الحقّ**] بتعاميمكم عن طاعة اللّه، وتخاذلكم عن إجابة مناديه، وفيه تبكيت لهم بالجهل، وغلبة الباطل على عقائدهم وأفعالهم.

وقال عليه السلام:
في سحرة اليوم الّذي ضُرِب فيه

[**ملكتْني عيني وأنا جالس**] استعار لفظ ملك للشوم، ووجه الإستعارة دخول النائم في غلبة النوم وقهره ومنعه له أن يتصرّف في نفسه، كما يمنع الملك العبد من التصرّف في أمره، وتجوز في العين وفي الإسناد إليها، أمّا الأوّل فأطلق لفظ العين على النوم لما بينهما من الملابسة إطباق الجنون من عوارضهما.

وأمّا الثاني: فإسناد الملك إلى النوم المتجوّز فيه بلفظ العين، وجملة وأنا جالس حاليّة، والواو للحال.

[**فسنح لي رسول اللّه صلى الله عليه وآله**] قيل: أراد بالسنح حضور صورة رسول اللّه صلى الله عليه وآله في لوح خياله، وقيل: يريد مرّ بي كما يسنح الظبا، والطير يمرّ بك.

فـقلتُ يارسـول الله مـالقـيت من أُمّتك مـن الأود واللدد فـقـال رسـول اللهﷺ : ادع عليـهـم فـقلت : أبـدلني الله بهم خـيـراً لـي منهـم، وأبدلهم بي شراً لهم منّي

[**فقلتُ يارسول الله مالقيت**] ما استفهاميّة كأيّ، واستعملت هنا فيما يعظم أمره، كما في قوله تعالى: ﴿القارعة ماالقارعة﴾ أي: أيّ شيء لقيت [**من أُمّتك**] يارسول الله [**من الأود**] من اعوجاجهم عن الطريق [**واللدد**] أي: نزاعهم وخصامهم فيما لايعنيهم.

[**فقال رسول اللهﷺ: ادع عليهم**] قيل: إنّه يستلزم أمرين:

أحدهما: أنّه كان في غاية الكرب من تقصيرهم في إجابة ندائه ودعوته إلى الجهاد حتّى انتهت الحال إلى قتله.

الثاني: عدم رضائهعليه السلام عنهم.

[**فقلت: أبدلني الله بهم خيراً لي منهم، وأبدلهم بي شراً لهم منّي**] ولا دلالة فيه على أنّ فيهم خيراً وفيه شرّاً، بل هو على طريق قوله تعالى: ﴿قل ذلك خير أم جنّة الخلد﴾ لايدلّ على أنّ في النار خيراً، وقولهم المؤمن خير من الكافر.

قال السيّد (ره): يعني بالأود الإعوجاج، وباللدد الخصام، وهذا من أفصح الكلام.

أمّا بعد، يا أهل العراق أنتم كالمرأة الحامل حملت، فلمّا أتمّت أملصت ومات قيّمها وطال تأيُّمها وورثها أبعدها

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ أهل العراق

[**أمّا بعد، يا أهل العراق أنتم كالمرأة الحامل حملت، فلمّا أتمّت أملصت**] أي: أسقطت حملها [**ومات قيّمها**] أي: بعلها الّذي يقوم بأمورها.

[**وطال تأيُّمها**] أي: خلوّها عن الأزواج، والايم: الّتي لابعل لها.

[**وورثها أبعدها**] أي: البعيد عنها لفقد أولادها وزوجها ممّن هو أقرب منه وبّخهم عليه السلام على تركهم القتال بعد أن شارفوا النصر على أهل الشام وتخاذلهم إلى التحكيم في تشبيههم بالمرأة الحامل، وأشار إلى وجوه الشبه بخمسة أوصاف، فالحمل يشبه استعدادهم وبقيتهم للحرب والإتمام يشبه مشارفتهم على الظفر والإملاص يشبه رجوعهم عن عدوّهم بعد طمعهم في الظفر به، وذلك رجوع غيرطبيعيّ، ولامعتاد للعقلاء، كما أنّ الإملاص أمر غيرطبيعيّ للحامل، ولامعتاد لها، ثمّ موت القيّم بأمورها وهو زوجها وطول غربتها، وذلك يشبه عدم طاعتهم له الجاري مجرى موته عنهم، وطول ضعفهم لذلك، ودوام عجزهم وذلّتهم بعد رجوعهم لتفرّقهم وخروجهم عن الدين، فإنّ موت قيّم المرأة مستلزم لضعفها ودوام عجزها وذلّتها، ثمّ كونها قد استحقّ ميراثها البعيد عنها لعدم ولدها وزوجهذلك

أما واللّه ماأتيتكم اختياراً ولكن جئتُ إليكم سوقاً وقد بلغني أنّكم تقولون: عليٌّ يكذب قاتلكم اللّه

شبيه حالهم، حيث أخذ عدوّهم الّذي هو أبعد الناس عنهم مالهم من البلاد، واستحقاقه ذلك بسبب تقصيرم في مقاومته، وبهذه الوجوه من الشبه أشبهوا المرأة المذكورة، فاستحقّوا ذلك التوبيخ، ثمّ أبان عليه السلام تضجّره منهم فقال:

[**أما واللّه ماأتيتكم اختياراً**] وايثاراً للمقام بينهم [**ولكن جئتُ إليكم سوقاً**] قدرياً لأنّ الأحوال تحكم وتسوق الناس إلى مالايختارونه ابتداء، إذ لم يكن خروجه عليه السلام من المدينة الّتي هي دارالهجرة ومفارقة منزل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وقبره إلى الكوفة إلاّ لقتال أهل البصرة وحاجته إلى الإستنصار بأهل الكوفة عليهم، إذ لم يكن جيش الحجاز وافياً بمقاتلتهم، ثمّ انصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشام، فدانت حاجته إلى المقام بينهم.

وفي بعض النسخ: ولاجئتكم شوقاً بالشين المعجمة، أي: شوقاً إليكم.

[**وقد بلغني أنّكم تقولون: عليٌّ يكذب**] فإنّه عليه السلام كان يخبر عن الملاحكم والكائنات، ويومى إلى أُمور أخبره بها رسول اللّه صلى الله عليه وآله كإخباره عن قصّة الخوارج، ومايكون منهم، وعن ذي الشدية، وأنّه سيقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ونحو ذلك من الأُمور الغريبة، إلى الكذب، كما كان المنافقون الأوّلون في حياة رسول اللّه صلى الله عليه وآله ينسبونه إلى الكذب، فقال عليه السلام:

[**قاتلكم اللّه**] إنّ الّذي أُخبركم به من هذه الأُمور إنّما هو عن اللّه وعن رسوله.

فـعلى من أكـذب؟ أعلى اللّه؟ فـأنا أوّل من آمن به، أم على نبيّه صلى الله عليه وآله؟ فأنا أوّل من صدّقه، كلاّ! واللّه ولكنّها غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها ويل امّه كيلاً بغير ثمن، لو كان له وعاء

[**فعلى من أكذب؟ أعلى اللّه؟ فأنا أوّل من آمن به، أم على نبيّه صلى الله عليه وآله؟ فأنا أوّل من صدّقه**] واتّبع ملّته.

[**كلاّ واللّه**] ردّ لصدق دعواهم بعد الحجّة، كأنّه قال: فإذن دعواكم عليّ الكذب فيما أُخبركم به باطلة، ثمّ أشار عليه السلام إلى مجمل كلامه، وانه غيرما ادّعوه من الكذب، بقوله:

[**ولكنّها**] لهجة، واللهجة اللسان والقول الفصيح.

[**غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها**] أي: إنّها أسرار بعدت عقولكم وغابت عن إدراكها، أو المعنى أنّها أقوال صادقة أخبرني بها رسول اللّه صلى الله عليه وآله منفرداً حال غيبتكم عنها وعدم حضوركم.

وقوله عليه السلام: لم تكونوا من أهلها حتّى يخبركم بها كما أخبرني، فإنّ الأسرار لايحتملها كلّ أحد وإنّ علم آل محمّد عليهم السلام صعب مستصعب لايحتمله إلاّ ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أو مؤمن امتحن اللّه قلبه للإيمان، وقوله:

[**ويل امّه**] دعاء بالشرّ، أو إخبار به، والويل العذاب أو موضع في جهنّم، وإضافة إلى الأمّ دعاء عليها أن تصاب بأولادها، وقد تستعمل في مقام التعجّب واستعظام الأمر، وقد تستعمل في مقام الإسترحام للأُمّ بفقدها أولادها، وقوله:

[**كيلاً بغير ثمن، لو كان له وعاء**] إشارة إلى مايلقيه عليه السلام إليهم من

﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾ اللّهمّ داحي المدحوّات وداعم المسموكات

الحكم الجامعة والمواعظ النافعة البالغة، والحجج الدامغة، والأسرار الإلهيّة، والعلوم الربّانيّة، لايريد منهم بذلك جزاء ولاشكوراً، ولاثمناً وهم لايفقهونها ولايهذبون بها أنفسهم، لكونها غيرمستعدّة لقبولها، فليس لهذه المواعظ والحكم إذاً وعاء يقبلها، واستعار لفظ الكيل وكنّى به عن كثرة مايلقيه إليهم منها، وكيلاً مصدر، أي: أكيل لهم العلم والهداية كيلاً بغير ثمن، لو كان فيهم من يعيه ويفهمه، وقوله:

[**﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾**] اقتباس من القرآن، وفي معرض التهديد بثمرة الجهل والتثاقل عن المشارعة إلى دعوته، أي: لتعلمنّ نبأ جهلكم وإعراضكم عمّا أمركم به بعد الموت أو يوم القيامة ﴿أن تقول نفس ياحسرتا على مافرّطتُ في جنب اللّه﴾ حيث لاينفع الندم، أو المراد ستعلمون عاقبة فعلكم هذا من ابتلائكم بالحكّام الظلمة والولاة الخونة بعد مفارقتي لكم، فيشملكم القتل والذل والصفار.

ومن خطبة له عليه السلام
يعلّم فيها الناس الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله

[**اللّهمّ داحي المدحوّات**] دحوت الرغيف دحواً: بسطته، والمدحوات الأرضون، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾.

[**وداعم المسموكات**] المرفوعات، وداعمها حفظها بالدعامة، أي:

وجابل القلوب على فطرتها وشقيّها وسعيدها

حافظ السماوات المرفوعات، كما قال تعالى: ﴿رفع سمكها﴾.

[**وجابل القلوب**] أي: خالقها [**على فطرتها**] وفي بعض النسخ: فطراتها بكسر الفاء وفتح الطاء جمع فطرة، ويجوز كسر الطاء كما قالوا في سدرة وسدرات، والفطرة الحالة الّتي يفطر اللّه الإنسان أي: يخلقه عليها خالياً من الهوى، وهي مايقتضيه محض العقل، وإنّما يختار الإنسان بسوء نظره مايغضي به إلى الشقاء، كما أُشير إليه في النبويّ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه».

[**وشقيّها وسعيدها**] بالجرّ بلد من القلوب، أي: وحابل الشقي من القلوب والسعيد على مافطرت عليه، وقد اشتملت هذه الخطبة الشريفة على النظم الطبيعيّ، والنهج الشرعي من الإبتداء بصفات المدعوّ من تمجيد اللّه والثناء عليه، ثمّ في صفات المدعوّ، وهو النبيّ ﷺ، ثمّ في أنواع المدعوّ به، فوصفه تعالى بكونه داحي المدحوّات، أي: باسط الأرضين السبع، وصدق البنط على جملة الأرض حينئذ لاينافي كونها كرة لسعتها، كما قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ وقال: ﴿والأرض مددناها﴾.

وقد قيل: بصدق البسط عليها باعتبار سطحها البارز من الماء، فإنه في الأوهام سطح مبسوط، وإن كان في اعتبار العقل مجدماً، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الّذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ وبقوله: ﴿وجعل لكم الأرض بساطاً﴾ وبكونه داعم المسموكات، أي: حافظ السماوات أن تقع على الأرض، ولاينافي ذلك كونها بغير عمد، لأنّ المراد بالدعامة الّتي بها تقوم السماوات قدرته تعالى وبكونه خالق القلوب على فطرتها واستعدادها

اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمّد عبدك ورسولك الفاتح لما انغلق والمعلن الحقّ بالحقّ والدافع جيشات الأباطيل

لسلوك سبيل الخير والشرّ، كما قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ وقوله: ﴿وهديناه النجدين﴾، ثمّ قال عليه السلام:

[**اجعل شرائف صلواتك**] وأعظم رحماتك [**ونوامي بركاتك**] أي: مازاد منها [**على محمّد**] ﷺ وذكر له أحداً وعشرين وصفاً، وهي جهة استحقاق الرحمة من اللّه وزيادة البركة للمدعوّ بها.

[**عبدك**] وكون العبوديّة توجب استحقاق الرحمة أمر ظاهر.

[**ورسولك**] فإنّ الرسالة نوع خاص للعبوديّة.

[**الفاتح لما انغلق**] من سبل اللّه وطرق هدايته ومعرفته وطاعته باندراس الشرائع، وخفاء العدل، واستيلاء الجور على العدل.

[**والمعلن الحقّ**] أي: الدين والهدى [**بالحقّ**] أي: المعجزات الّتي بسببها تمكّن من إظهار الدين، أو بالحرب والخصومة من حاق فلان فلان، فحقّه أي: خاصمه فغلبه، أو بالبيان، أي: أظهر الدين بالبيان الواضح، والمراد أظهر الحقّ بعضه ببعض، وكلّ جزء من الحقّ حقّ، لأنّ الدين لم يظهر دفعة، وإنّما بني الدين على خمس، ثمّ كثرت فروعه وبالأصل يظهر الفرع، ثمّ قال:

[**والدافع جيشات الأباطيل**] أي: لثوران فتن المشركين وانبعاثهم لإطفاء نور اللّه أو لفتنتهم السابقة الّتي كانت معتادة لهم من الغارات وحروب بعض لبعض ونحو ذلك من الأمور الباطلة الّتي هي على غير القانون الشرعيّ، ثمّ قال:

والدامغ صولات الأضاليل كما حمل فاضطلع بها قوياً قائماً بأمرك مستوفراً في مرضاتك غير ناكل عن قدم ولا واه في عزم

[**والدامغ صولات الأضاليل**] استعار لفظ الدمغ لهلاك الضلال بالكلّية ببركة مقدمهﷺ، ووجه الإستعارة كون الدمغ مهلكاً للإنسان، فأشبهه ماأهلك الباطل ومحاه من أفعال النبيّﷺ، والضلال هنا الإنحراف عن طريق اللّه اللازم عن الجهل بها، واستعار لفظ الصولات له ملاحظة تشبيه المنحرفين عن سبيل اللّه إلى الفساد في قوّة انحرافهم وشدّة فسادهم بالفحل الصايل.

[**كما حمل**] أي: لأجل أنّه حمل أعباء الرسالة [**فاضطلع**] أي: نهض [**بها قوياً**] يقال: فرس ضليع أي: قوي.

وفي بعض النسخ: به أي بما حمل حال كونه [**قائماً بأمرك**] وكذا المنصوبات بعده من قوله: مستوفراً وغير ناكل، فإنّها أحوال، ويجوز جعل الكاف للتشبيه، أي: صلّ عليه صلاة مناسبة مشابهة لتحميلك له الرسالة، وقيامه بأمرها، لأنّ الجزاء من الحكيم العدل يكون مناسباً للعقل المجزي.

[**مستوفراً في مرضاتك**] والوفر العجلة والمستوفر المستعجل، أي: مبادراً إلى طاعة اللّه عجلاً في رضائه بامتثال أوامره.

[**غير ناكل عن قدم**] أي: غير متأخّر عمّا يتقدّم فيه من طاعة اللّه، يقال: مضى قدماً، أي: تقدّم وسار ولم يعرج.

[**ولا واه في عزم**] أي: غير ضعيف فيمايعزم عليه من القيام بأمر اللّه ولامتوان فيه، من وهي أي: ضعف، والواهي الضعيف.

واعياً لوحيك حافظاً لعهدك ماضياً على نفاذ أمرك حتّى أورى قبس القابس وأضاء الطريق للحابط وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام، وأقام موضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام

[واعياً لوحيك] ضابطاً له قوي النفس على قبوله، يقال: وعيت الحديث أي: فهمته.

[حافظاً لعهدك] المأخوذ عليه بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

[ماضياً على نفاذ أمرك] أي: ماضياً مصرّاً على نفاذ أمرك في العالم، وجذب الخلق إلى سلوك سبيل، ثمّ أشار إلى ماانتهى إليه من الغاية باجتهاده في إرضاء اللّه، فقال:

[حتّى أورى قبس القابس] أي: أشعل أنوار الدين، وقدح زناد الابكار، حتى أظهر أنواع العلوم منها للمقتبسين، يقال: ورى الزند يورى أي: خرج ناره، والقبس: شعلة من نار، والقابس الذي يطلب النار استعار لفظ القبس لنور العلم والحكمة، ولفظ أورى لإظهار النبيﷺ تلك الانوار في سبيل اللّه تعالى.

[وأضاء الطريق للحابط] أي: جعل طريق الهدى مضيئاً للحابط، وهو الذي يسير ليلاً على غير جادة واضحة، فإنّهﷺ علم الناس كيفيّة السلوك إلى جادة النجاة، وأرشد إليها من كان يخبط في ظلمات الجهل.

[وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام، وأقام موضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام] تقدير الكلام هديت به القلوب إلى موضحات الأعلام، أي: إلى الأدلّة الواضحة على الحقّ، ونيّرات الأحكام وهي المطالب الحقّة الواضحة اللازمة عن تلك الأدلّة بعدما كانت القلوب فيه من خوضات الفتن والآثام اللازمة عمّا اجترحته من السيّئات.

فهو أمينك المأمون وخازن علمك المخزون وشهيدك يوم الدين وبعيثك بالحقّ ورسولك إلى الخلق اللّهمّ افسح له مفسحاً في ظلّك

[**فهو أمينك**] على وحيك ورسالتك [**المأمون**] على أسرارك، والمأمون من الزيغ والضلال، أو المأمون من أرجاس الجاهليّة وأنجاس الشرك، أو المأمون من شرّ الناس، كما قال: ﴿والله يعصمك من الناس، والمأمون من جملة ألقاب رسول اللهﷺ.

[**وخازن علمك المخزون**] بالجرّ صفة العلم، وهوﷺ مخزن الأسرار الربّانيّة، والمعارف الإلهيّة، الّتي تقصر العقول البشريّة عن إدراكها ممّا لايحتمله ملك مقرّب، ولانبيّ مرسل، أو العلوم الغيبيّة الّتي لايتأهّل لحملها كلّ أحد، كما أُشير إليها بقوله: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾.

[**وشهيدك**] أي: شاهدك [**يوم الدين**] أي: الجزاء، وهو يوم القيامة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ أي: شاهداً يوم القيامة على أُمّته بما عملوا من خير وشرّ.

[**وبعيثك**] أي: مبعوثك [**بالحقّ**] أي: الدين الثابت الباقي نفعه وثمرته في الآخرة.

[**ورسولك إلى الخلق**] مبشّراً لهم ونذيراً.

ثمّ شرع في تفصيل المطلوب من هذا الدعاء، فقال:

[**اللّهمّ افسح له مفسحاً في ظلّك**] ومفسحاً مصدر، أي: وسّع له مفسحاً، والظلّ إمّا مجاز من قولهم فلان يشملني بظلّه، أي: ببرّه وإحسانه، أو حقيقة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وظلّ ممدود وماء مسكوب﴾

وأجره مضاعفات الخير من فضلك اللّهمّ اعل على بناء البانين بنانه وأكرم لديك منزله وأتمم له نوره واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة

وعلى الأوّل وجه المشابهة راحة المستظلّ بالظلّ، فأشبهها راحة الملتجي إلى جود اللّه المشمول ببرّه وإحسانه.

[**وأجره مضاعفات الخير من فضلك**] فإنّ مراتب نعم اللّه وإفضاله وكراماته غير متناهية.

[**اللّهمّ اعل على بناء البانين بنانه**] أي: ما شيّده من الدين حتّى تظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، ويحتمل أن يراد ماشيّده من الملكات، واستحقّه من مراتب الجنّة وقصورها.

[**وأكرم لديك منزله**] فأنزله المنزل المبارك الموعود ﴿وقل ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾.

[**وأتمم له نوره**] أي: النور الذي بعث به بأن تنشره في قلوب العالمين، أو النور الّذي في جوهر ذاته بأن تزيد كمالاته، أو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ربّنا أتمم لنا نورنا﴾.

وقد روي: إنّ نور محمّدﷺ يظفي سائر الأنوار، ثمّ يعطي المكلّفين أنواراً يسيرة يُبصرون بها مواطيء الأقدام، فيدعون اللّه تعالى بزيادة تلك الأنوار وإتمامها، فيستطيل نور محمّدﷺ حتّى يملأ الآفاق.

[**واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة**] أي: اجزه عوضً عن بعثته بالرسالة وتحمّل أعبائه أن يكون مقبول الشهادة في الآخرة، أي: مصدّقاً فيما يشهد به على أُمّته وعلى غيرهم من الأُمم ومقبول مفعول اجز.

وذامنطق عدل وخطبة فصل اللّهمّ اجمع بيننا وبينه في برد العيش وقرار النعمة ومني الشهوات وأهواء اللذّات ورخاء الدعة

[**وذامنطق عدل**] نصب على الحال، وهما كناية عن تمام الرضى عنه ﷺ، إذ من كان مقبول الشهادة مرضي القول فلابدّ وأن يكون برياً من جهات الرذائل المسخطة، أو كناية عن كون معتقداته ومشاهداته من أعمال أُمّته وغيرها بريّة عن شوائب المفاسد، وكذلك رضاء أقواله في شفاعته وغيرها، وكونه ذامنطق عدل أي: لاجور فيه عن الحقّ.

[**وخطبة فصل**] أي: يخطب خطبة فاصلة بين الحقّ والباطل يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إنّه لقول فصل وما هو بالهزل﴾هو المقام المحمود الموعود به في قوله: ﴿عسى ربّك أن يبعثك مقاماً محموداً﴾ وهو المشارإليه في الأدعية بقوله: اللّهمّ آت محمّداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود.

[**اللّهمّ اجمع بيننا وبينه في برد العيش**] أي: رفاهيته، والعرب تقول عيش بارد ومعيشة باردة، أي: لاحرب فيها ولانزاع ولاكلفة، لأنّ البرد والسكون متلازمان كتلازم الحرّ والحركة، وهو في الآخرة يعود إلى ثمرات الجنّة العريّة من كدرات الأتعاب.

[**وقرار النعمة**] أي: مستقرّها، وهو الجنّة وحضرة ربّ العالمين.

[**ومني الشهوات**] أي: مايتمنّاه النفس من المشتهيات، وتهواه من اللذّات بنعيم الأبد.

[**وأهواء اللذّات**] ماتهواه الأنفس وتستلذّه.

[**ورخاء الدعة**] أي: اتّساع سكن النفس بلذّة المعارف والرخاء المصدر

ومنتهى الطمأنينة وتحف الكرامة

قالوا: أُخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع بالحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلّماه فيه، فخلّى سبيله، فقالا له: يبايعك ياأمير المؤمنين؟ فقال: أو لم يبايعني بعد قتل عثمان، لاحاجة لي في بيعته، إنّها كفّ يهودية

من قوله رجل رخي البال، أي: واسع الحال، والدعة: السكون.

[**ومنتهى الطمأنينة**] من مزعجات الدنيا وراحتها من مراعاة آفاتها، ومنتهى الطمأنينة غايتها، أي: ليس بعدها غاية.

[**وتحف الكرامة**] جمع تحفة، وهي مايكرم به الإنسان من اللطف والبرّ، ويجوز فتح الحاء، والمقصود ثمرات الجنّة وقطوفها الدانية، وسائر ماأعدّ اللّه لأوليائه ممّا لاعين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومن كلام له عليه السلام

قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

[**قالوا: أُخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع بالحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلّماه فيه، فخلّى سبيله، فقالا له: يبايعك ياأمير المؤمنين؟ فقال: أو لم يبايعني بعد قتل عثمان، لاحاجة لي في بيعته، إنّها كفّ يهوديّة**].

ثمّ نبّه عليه السلام على سبب امتناعه من ذلك، وهو أنّه مظنّة الغدر، فقال: كفّ يهوديّة، إذ من شأن اليهود الخبث والمكر والغدر، ثمّ فسّر تلك الكناية

لو بايعني بيده لغدرني بسُبَّته أما إنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقى الأُمّة منه ومن ولده يوماً أحمر

بقوله:

[**لو بايعني بيده لغدرني بسُبَّته**] والسبّة: الاست، وذكرها إهانة له، لأنّ الغدر من أقبح الرذائل، ثمّ ذكر من حاله في المستقبل أُموراً ثلاثة فقال:

[**أما إنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه**] الآمرة بالكسر الولاية نبّه بذلك أنّه يكون له أمارة على المسلمين، ونبّه على قصر مدّة أمارته بتشبيهها بلقعة الكلب أنفه، ووجه الشبه القصر، فقد كانت مدّة أمارته عدّة المتوفّي عنها زوجها، وقيل ستّة أشهر، ونبّه على الأمر الثاني بقوله:

[**وهو أبو الأكبش الأربعة**] والأكبش جمع كبش، وكبش القوم رئيسهم، إشارة إلى أنّه يكون له أربعة أولاد، رؤساؤهم عبدالملك وولّي الخلافة، وعبدالعزيز وولّي مصر، وبشر وولّي العراق، ومحمّد وولي الجزيرة، ويحتمل أن يراد بالأربعة أولاد عبدالملك وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وكلّهم ولّي الخلافة ولم يلها أربعة إخوة إلاّ هم، وأشار إلى الأمر الثالث بقوله:

[**وستلقى الأُمّة منه ومن ولده يوماً أحمر**] أي: شديداً، وروي موتاً أحمراً، والعرب تصف الأمر الشديد بالحمرة، ولعلّه لكون الحمرة وصف الدم، وهو إشارة إلى مايصدر منه ومن ذرّيته من الفساد في الأرض ومايلقى الناس منهم من القتل وانتهاك الحرمة وسوء السيرة.

لقد علمتم أنّي أحقّ بها من غيري وواللّه لأُسلمَنَّ ما سلمت أُمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصّة التماساً لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرف الدنيا وزبرجها

ومن كلام له عليه السلام
لمّا عزموا على بيعة عثمان

[**لقد علمتم أنّي أحقّ بها من غيري**] الضمير للخلافة، ووجه أحقّيته استجماعه للفضائل النفسانيّة، والفواضل الداخليّة والخارجيّة، والكمالات الحسنة، والصفات المستحسنة، مضافاً إلى كونه معدن العلوم الربّانية، والأسرار الإلهيّة.

[**وواللّه لأُسلمَنَّ**] أي: لأتركنّ المناقشة والمنازعة في هذا الأمر.

[**ما سلمت أُمور المسلمين**] أي: مدّة سلامتها من الفتنة والفساد.

[**ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصّة**] من غصب حقّي، والإستيثار بموضعي ومقامي.

[**التماساً لأجر ذلك وفضله**] فإنّ الصابر على أذى الناس له وعلى غصب حقّه محمود عند الحقّ وعند الخلق مأجور، والتماساً مفول له، والعامل لأسلمنّ، وكذا قوله:

[**وزهداً فيما تنافستموه من زخرف الدنيا وزبرجها**] والزخرف: الزينة، ويقال الذهب. والزبرج: النقش والزينة بالحلية، إشارة إلى أنّ الخلافة ليست مطلوبة له عليه السلام من حيث الرياسة الدنيويّة والمرجعيّة، ولذّة الأمر

أو لم ينه أُميّة عملها بي عن قرفي أو ما وزع الجهّال سابقتي عن تهمتي

والنهي، بل لأجل إقامة العوج، وهداية الخلق وإرشادهم وانتظام أُمور معاشهم ومعادهم، فمادام ذلك له نوع استقامة في الجملة وإن كان من المحال أن يبلغ كمال الإستقامة إلّا بخلافته، فهو عليه السلام لاينازع في هذا الأمر خوفاً من إثارة الفتنة وشقّ عصى الإسلام، وطلباً للأجر والفضل فإذا كان الأمر بخلاف ذلك وجب عليه المنازعة، ولعلّ ذلك إشارة إلى ماظهر في زمن عثمان ومعاوية من استيلاء الجور على العدل بالنسبة إلى زمن الخلفاء في السابقين.

ومن كلام له عليه السلام
لمّا بلغه اتّهام بني أُميّة بالمشاركة في دم عثمان

[**أو لم ينه أُميّة عملها بي عن قرفي**] والقرف: التهمة، يقال: قرفي بكذا أي: اتّهمني ونسبه إليّ.

[**أو ما وزع**] أي: كفّ [**الجهّال سابقتي عن تهمتي**] استفهام توبيخيّ عن عدم انتهائهم عن نسبته إلى المشاركة بدم عثمان، مع علمهم بحاله وقوّته في الدين، وعصمته عن المعاصي، سيّما قتل النفس الّتي حرّم اللّه، وفيه إنكار عليهم أو تعجّب منهم ونسبته لهم إلى الجهل العظيم لجهلهم بمناسبة حاله وسابقته في الإسلام، فإن كان عثمان غيرمحقون الدم ومستحقّاً للقتل، فما هذا اللوم والإغراء للخلق بسفك الدماء والفتنة والفساد؟ وإن

ولما وعظهم اللّه به أبلغ من لساني أنا حجيج المارقين وخصيم المرتابين على كتاب اللّه تعرض الأمثال

كان محقون الدم فكيف ينسبون قتل النفس الّذي هو من أكبر المعاصي إليّ؟ مع علمهم بحالي.

ثمّ أشار إلى إعذار نفسه في ردعه إيّاهم عن غيبته ونسبة ذلك إليه بقوله:

[ولما] وعظهم أتى بلام الإبتداء للتأكيد، أي: للوعظ الّذي [**وعظهم اللّه به**] في القرآن الكريم والفرقان الحكيم، من النهي عن الغيبة والتهمة والإيذاء بقوله: ﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾ وقوله: ﴿ولايغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ ﴿والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير مااكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مُبيناً﴾ وأمثال ذلك.

[**أبلغ من لساني**] أي: وعظي وردعي وزجري لهم إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب، وقوله عليه السلام:

[**أنا حجيج المارقين**] أي: الخوارج الّذين مرقوا من الدين، أو كلّ من خرج عن دين اللّه.

[**وخصيم المرتابين**] أي: الناكثين في نسبة هذا الأمر إليّ، وقيل: المنافقين الشاكّين في صحّة الدين، وقوله:

[**على كتاب اللّه تعرض الأمثال**] قيل: هو إشارة إلى الحجّة الّتي يحجّ بها ويخاصم، وتقريرها: إنّ تعلّق هذا المنكر به إمّا من جهة أقواله وأفعاله أو اعتقاداته وإرادته، والثلاثة باطلة، فتعلّق هذا المنكر به، ونسبة إليه باطلة بيان الحصر إنّ هذه الجهات هي جهات صدور المنكر عن الإنسان وبيان بطلان الأوّل.

في نفـوس الجـهّال رحـم اللّه امـرء سـمع حكمـاً فـوعى ودعي إلى رشاد فدنى وأخذ بحجزة هاد فنجى

والثاني أنّه إن كـان قد حصل في أقواله وأفعـاله مايشبه الأمـر بالقتل أو فعله فأوقع في [**في نفوس الجهّال**] شبـهة القتل مـثل ماروي عنهعليه السلام لمّا سُئل عن قتل عثـمان، فقال: اللّه قـتله، وأنا معه، وكتخلّفـه في داره يوم قتل عن الخـروج، فـينبـغـي أن يُعـرض ذلك على كـتـاب اللّه فـإنّه تعـرض الأمـثـال والأشـبـاه، فـإن دلّ علـى كـون شيء من ذلك قـتـلاً فليـحكم به، وإلاّ فـلا، ولن يدلّ على ذلك أبداً، فليس لهـم أن يحكمـوا بالقـتل مـن جـهـة قـول أو فعل، وأمّا بطلان الثالث فلأنّ علم مافي القلوب إلى اللّه وهو المجازي بمافيها من خيـر أو شـرّ، ولـيـسـوا مطلعين علـى مـاهناك حتّى يحكمـوا بـالقـتل من جهتها، فإذاً حكم بتعلّق هذا المنكر بهعليه السلام باطل.

ومن خطبة له عليه السلام

[**رحم اللّه امرء**] وفي رواية عبداً [**سمع حكماً فوعى**] الحكم الحكمة، علميّة كـانت أو عمليّة، ووعائه لها فـهمهـا كما أُلقيت إليـه، ودعاؤهعليه السلام لمثل هذا الموصوف يستلزم الأمر بتعلّمها وتعليمها.

[**ودعي إلى رشاد**] إلى مايـهديه ويرشـده في طريق معـاشه ومعـاده من العلوم والأعمال الشرعية.

[**فدنى**] أي: قرب من الداعي إليه وأجاب دعاءه.

[**وأخذ بحجزة هاد فنجى**] الحجزة: معقد الإزار، أي: يكون في

راقب ربّه وخاف ذنبه قدم خالصاً وعمل صالحاً اكتسب مذخوراً واجتنب محذوراً

سلوكه لسبيل اللّه وسيره إلى اللّه متمسّكاً بأُستاذ مرشد هاد عالم، ليحصل به نجاته في الدارين، وفوزه في النشأتين، وهو يدلّ على عدم خلوّ الزمان منه، كما ذهب إليه الإماميّة من عدم جواز خلوّ الزمان من مرشد هاد معصوم من الزلل مفطوم من الخلل، وفي زمان ظهوره وتمكّنه يجب الرجوع إليه والتعويل عليه بواسطة أو بدونها، وفي زمان غيبته كزماننا هذا، فيجب الرجوع إلى نائبه، والقائم مقامه المتبع له في أقواله وأفعاله المدلول على أوصافه في أخبارهم عليهم السلام، ثمّ قال عليه السلام:

[**راقب ربّه**] والمراقبة المحافظة، وقيل: هي مراعاة القلب للرقيب، وهو اللّه سبحانه، إذ يقول: ﴿إنّ اللّه كان عليكم رقيباً﴾ واستغراق القلب بمراعاة جلاله ويلزمها الخوف منه وتعطيل الجوارح عن الإلتفات إليه إلى المباحات فضلاً عن المحظورات.

[**وخاف ذنبه**] لم يقل ربّه إشارة إلى أنّ العقاب ليس من الصفات الذاتية، بل لأمر خارجيّ، وهو أنّ الذنب يوجب السخط والعقاب، وحيث كان سبباً له نسب إليه، وفيه إشعار بتجسّم الأعمال.

[**قدم**] عملاً [**خالصاً**] بريأ من الرياء والسمعة [**وعمل**] عملاً [**صالحاً**] وصلاح العمل الإتيان به حسبما أُمر به، وهو نوع ممّا تقدّمه.

[**اكتسب مذخوراً**] وهو جميع ما أمرت الشريعة باكتسابه وتحصيله، فإنّه الذخر الباقي ليوم الفاقة إليه.

[**واجتنب محذوراً**] والمحذور الإثم الّذي يستلزم العقاب في الآخرة،

رمى غرضاً وأحرز عوضاً كابر هواه وكذّب مناه جعل الصبر مطيّة نجاته والتقوى عدّة وفاته ركب الطريقة الغرّاء

وهو جميع ماورد النهي عنه في الشريعة.

[**رمى غرضاً**] أي: حذف مقاصد الدنيا عن نفسه، وروي عرضاً بالعين المهملة، وهو متاع الدنيا.

[**وأحرز عوضاً**] من ذلك الغرض الدنيويّ وهو متاع الآخرة من العمل الصالح والملكات الفاضلة، فنعم العوض هي عن متاع الدنيا وإعراضها.

[**كابر هواه**] بتطويع نفسه الأمّارة للمطمئنّة والهوى للعقل وانقياد الغضب والشهوة إلى ميزان العقل والشرع.

[**وكذّب مناه**] فقابل مايلقيه الشيطان إليه من الأماني ويعده به بالتكذيب والقمع له بتجويز عدم نيلهما وتجسّم مادة ذلك بالمراقبة، فإنّ الوساوس الشيطانية تتبع بعضها بعضاً، ولذا قال عليه السلام: إيّاكم والمنى، فإنها بضائع النوكى أي: الحمقاء.

[**جعل الصبر مطيّة نجاته**] والصبر هو ثبات داعي الدين في مقابلة داعي الهوى واستعار له لفظ المطيّة لكون كلّ منهما سبباً للنجاة، لأنّ ركوب المطيّة والهرب عليها سبب النجاة من العدوّ.

[**والتقوى عدّة وفاته**] المراد بالتقوى إمّا الزهد أو الخوف من اللّه المستلزم له والعدّة ماستعدّ به الإنسان للقاء الحوادث، وحيث كان الموت أعظم حادث يسبق إلى الإنسان من أحوال الآخرة كانت التقوى عدّة للموت، فإنّ المتّقي لا عظم للموت عنده، كما مرّت الإشارة إليه.

[**ركب الطريقة الغرّاء**] أي: الواضحة بأن سلك في السير إلى اللّه

ولزم الحجّة البيضاء اغتنم المهل وبادر الأجل وتزوّد من العمل إنّ بني أُميّة ليفوقونني تراث محمّد صلى الله عليه وآله تفويقاً

تعالى الطريقة الواضحة المستقيمة، وهي الشريعة الّتي أتت بها الأنبياء والرسل.

[**ولزم الحجّة البيضاء**] وهي الشريعة أيضاً، والفرق بينهما أنّ الأوّل أمر بركوبها والثاني أمر بلزومها وعدم مفارقتها وإنّها وإن كانت واضحة، إلاّ أنّها طويلة كثيرة المخاوف، وسالكها أبداً محارب الشيطان، وهو في عرض أن يستزلّه عنها.

[**اغتنم المهل**] أي: أيّام مهلة العمل في الدنيا.

[**وبادر الأجل**] أي: سابقه بالعمل، لئلاّ ينقطع دونه.

[**وتزوّد من العمل**] أي: اتّخذ الأعمال الصالحة زاداً لطريق آخرته، قال المحقّق البحراني(ره): قد راعى عليه السلام في كلّ مرتبتين من هذا الكلام السجع المتوازي وجعل الصدر ثلاثاً، والآخر ثلاثاً، وعطف كلّ قرينة على مشاركتها في الحرف الأخير منها، وحذف حرف العطف من الباقي ليتميّز مايتناسب منها عن غيره، وكلّ ذلك بلاغة.

ومن كلام له عليه السلام

[**إنّ بني أُميّة ليفوقونني تراث محمّد صلى الله عليه وآله تفويقاً**] استعار لفظ التفويق لعطيّتهم له المال قليلاً، ووجه المشابهة قلّة مايعطونه منه مع كونه في دفعات كما يعطى الفصيل ضرع أُمّه لتدر، ثمّ يدفع عنها لتحلب، ثمّ يُعاد إليها

والله لئن بقيتُ لهم لأنفضنّهم نفض اللحام الوذام التربة اللّهمّ اغفر لي ما أنت زعلم به منّي فإن عدتُ فعد لي بالمغفرة عليّ

لتدر، وتراث محمّدﷺ إشارة إلى الفيء الحاصل ببركة محمّدﷺ وهو التراث اللغوي المكتسب عن الميّت بوجه ما.

[**والله لئن بقيتُ لهم لأنفضنّهم نفض اللحام الوذام التربة**] أقسمعليه السلام أنّه إنْ بقى لبني أُميّة ليحرمنّهم التقدّم في الأمور، واستعار لفظ النفض لإبعادهم عن ذلك، وشبّه نفضه لهم بنفض الحام وهو القصاب القطعة من الكبد أو الكرش من التراب إذا أصابته.

قال السيّد (ره): ليفوقونني يعطونني من المال قليلاً قليلاً، كفواق الناقة، وهي الحلبة الواحدة، والوذام: جمع وذمة، وهي الجزء من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض.

ومن كلمات يدعو بها عليه السلام

[**اللّهمّ اغفر لي ما أنت زعلم به منّي**] مغفرة الله للعبد تعود إلى ستره عليه أن يقع في مهاوي الهلكة في الآخرة، أو يكشف مقابحه لأهل الدنيا، وماالله أعلم به منه هو ماجاز أن يكون سيّئته من أفعاله، وهو لايعلم ذلك فيفعله.

[**فإن عدتُ**] في المعصية بعد المغفرة [**فعد لي بالمغفرة عليّ**] طلب تكرار المغفرة لما يعاوده ويتكرّر منه كذلك.

اللّهمّ اغفر لي ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاء عندي اللّهمّ اغفر لي ماتقرّبت به إليك ثمّ خالفه قلبي اللّهمّ اغفر لي رمزات الألحاظ وسقطات الألفاظ وشهوات الجنان وهفوات

[**اللّهمّ اغفر لي ما وأيت**] أي: وعدت [**من نفسي ولم تجد له وفاء عندي**] لأنّ مطال النفس بفعل الخير وعدم الوفاء به إنّما يكون عن خاطر شيطانيّ يجب الإستغفار منه، وسؤال ستره.

[**اللّهمّ اغفر لي ماتقرّبت به إليك ثمّ خالفه قلبي**] بشوبه بالرياء، أو مخالطته بالسمعة، وبمخالفة نيّة القربة بقصد غيراللّه بذلك، إذ كلّ ذلك شرك خفيّ، والرياء أمره عظيم، وخطره جسيم، وقد أُطلق عليه الشرك في الكتاب والسنّة، قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربّه أحداً﴾ . وفي الخبر: رياء شرك.

[**اللّهمّ اغفر لي رمزات الألحاظ**] الإشارة باللحظ وهو الإيماء الخارج عن حدود الشريعة، كما يفعل عند التنبيه على شخص ليعاب أو ليضحك منه، أو يظلم، وكلّ ذلك عن خواطر شيطانيّة، ينبغي أن يسأل اللّه رفع أسبابها، وستر النفس عن التدنّس بها، وكذا قوله:

[**وسقطات الألفاظ**] أي: الرديّ من القول، وماتجاوز حدود اللّه وخرج به الإنسان عن مستقيم صراطه.

[**وشهوات الجنان**] أي: القلوب، أي: جذب القوّة الشهويّة للنفس إلى مشتهياتها، وروي بالسين، ويكون المراد شهوات القلب وخواطره الّتي لايشعر بتفعيلها إذا خالفت أوامر اللّه.

[**وهفوات**] اللسان، أي: الزلل الحاصل من قبله.

أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي من سار فيها صُرِف عنه السوء؟ وتخوّف الساعة الّتي من سار فيها حاق به البلاء؟ فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن واستغنى عن الإستعانة باللّه في نيل المحبوب، ودفع المكروه وينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يولّيك الحمد دون ربّه

ومن كلام له عليه السلام
قاله لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج

فقال له ياأميرالمؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لاتظفر بمرادك من طريق علم النجوم.

روي: إنّ المشير عليه بذلك كان عفيف بن قيس أخا الأشعث بن قيس، وكان يتعاطى علم النجوم، فقال له عليه السلام:

[**أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي من سار فيها صُرِف عنه السوء؟ وتخوّف الساعة الّتي من سار فيها حاق به البلاء؟ فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن**] في صورة صغرى، وتقدير كبراه، وكلّ من كذّب القرآن كان كاذباً، وبيان تكذيبه: إنّ المنجّم إذا ادّعى أنّه سيقع كذا في وقت كذا، كان ذلك مكذباً لقوله تعالى: ﴿وماتدري نفس ماذا تكسب غداً وماتدري نفس بأيّ أرض تموت﴾، ثمّ قال عليه السلام:

[**واستغنى عن الإستعانة باللّه في نيل المحبوب، ودفع المكروه**] وذلك لأنّه يفزع إليه في ذلك دون اللّه تعالى.

[**وينبغي في قولك للعامل بأمرك أن يولّيك الحمد دون ربّه**] وعلّل هذا

لأنّك بزعمك أنت الّذي هديته إلى الساعة الّتي نال فيها النفع وأمن الضرّ ثمّ أقبل عليه السلام على الناس، فقال: أيّها الناس! إيّاكم وتعلّم النجوم إلّا مايهتدي به في برّ أو بحر

الإلزام بقوله:

[**لأنّك بزعمك أنت الّذي هديته إلى الساعة الّتي نال فيها النفع وأمن الضرّ**] وهذا الكلام في صورة صغرى، أي: إنّك تزعم أنّك تهدي إلى ساعة النفع والضر، وكلّ من زعم ذلك فقد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدّقه دون اللّه، فينتج أنّه قد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدّقه دون اللّه.

[**ثمّ أقبل عليه السلام على الناس، فقال: أيّها الناس! إيّاكم وتعلّم النجوم إلّا مايهتدي به في برّ أو بحر**] من معرفة قوانين أوضاع الكواكب وحركاتها يهتدى بقصدها وعلى سمتها المسافرون في برّ أو بحر، فإنّ ذلك القدر منها غيرمحرّم، قيل: ونحوها قسمة الزمان، وحركة الفلك بالنسبة إلى السنة والشهر واليوم مأخوذاً عنها حساب يبنى عليه مصالح إمّا دينيّة كمعرفة أوقات العبادات كالصوم والحجّ ونحوهما أو دنيويّة كآجال المداينات وسائر المعاملات، وكمعرفة الفصول الأربعة ليعمل في كلّ منها مايليق به من الحراثة والسفر وأسباب المعاش، لأنّ هذه مصالح خاليةعن المفاسد، ولذا أمتن اللّه على عباده بخلق الكواكب في قوله: ﴿وهو الّذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر﴾ إلى قوله: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾، وقوله عليه السلام:

فإنّها تدعو إلى الكهانة، المنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، سيروا على اسم اللّه

[فإنّها تدعو إلى الكهانة، المنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، سيروا على اسم اللّه] تعليل آخر للتحذير عن تعلّمها وتنفير عنها بقياس آخر موصول ينتج منه إنّ المنجّم في النار.

قال المحقّق البحراني: أمّا معنى الكاهن والساحر فاعلم إنّ من النفوس نفوساً تقوى على الإطّلاع على ماسيكون وعلى التصرّفات العجيبة في هذا العالم، فتلك النفس إن كانت كاملة خيرة مجذوبة من اللّه تعالى بدواعي السلوك إليه، فهي نفوس الأنبياء والأولياء ذوات المعجزات والكرامات، وإن كانت ناقصة شريرة منجذبة عن تلك الجهة وغير طالب لتلك المرتبة، بل مقتصرة على رذائل الأخلاق وخسايس الأمور، كالتكهّن ونحوه، فهي نفوس الكهنة والسحرة، وأكثر ماتظهر هذه النفوس القويّة في أوقات الأنبياء وقبل ظهورهم فإنّها تدعو إلى الكهانة، أي: تقصد قصدها، لأنّ المنجّم يتشبّه في إخباره بالكاهن.

ويتميّز الكاهن عن المنجّم بأن مايقوله عن قوّة نفسانيّة منه بخلاف المنجّم، وذلك ادّعى إلى فساد أذهان الخلق وإغوائهم لزيادة اعتقادهم فيه.

وأمّا الساحر فيتميّز عن الكاهن بأنّ له قوّة على التأثير في أمر خارج عن يديه آثاراً خارجة عن الشريعة مؤذية للخلق ونافعة كالتفريق بين الزوجين ونحوه، وتلك زيادة شرّ آخر على الكاهن، ادّعى إلى فساد أذهان الناس وزيادة اعتقادهم فيه وانفعالهم عنه خوفاً ورغبة.

....

والكافر يتميّز عن الساحر بالبُعد الأكبر من اللّه، وحينئذ صار الضلال والفساد مشتركاً بين الأربعة، إلاّ أنّه معقول عليهم بالأشدّ والأضعف، فالكافر أقوى فيه من الساحر، والساحر أقوى فيه من الكاهن، والكاهن أقوى من المنجّم، فلذلك جعل عليه السلام الكاهن أصلاً في تشبيه المنجّم به، والساحر في تشبيه الكاهن، والكافر أصلاً في تشبيه الساحر به، فظهر من ذلك أنّ وجه التشبيه في الكلّ هو ضلالهم وإضلالهم للخلق.

وروي أنّه عليه السلام سار في تلك الساعة إلى الخوارج وكان من ظفره بهم ماهو مشهور.

واعلم أنّه يُعقل من نهي الشريعة عن تعلّم النجوم أمران:

أحدهما: إنّ أكثر المشتغلين بها والطالبين لمعرفة أحكامها يعتمدون فيمايرجون ويخافون عليها ويفزعون إلى ملاحظة أوقاتها، فينقطعون بذلك من الإلتفات إلى اللّه والفزع إليه، وذلك ممّا يضاد مطلوب الشارع، إذ كان غرضه الأوّل ليس إلاّ دوام التفار الخلق إليه.

الثاني: إنّ الاخبار عمّا سيكون في المستقبل يشبه علم الغيب وأكثر الخلق من العوام لايميّزون بينهما، فيكون ذلك سبباً لضلال الخلق، وضعف اعتقادهم في المعجزات، إذ الإخبار من الأنبياء عمّا سيكون منها يستلزم تلكهم في مثل قوله تعالى: ﴿قل لايعلم من في السماوات والأرض الغيب إلاّ اللّه﴾ وكان ذلك هو السبب في تحريم الكهانة والسحر أيضاً، والعقل أيضاً يطابق الشرع في تكذيب المنجّم في كثير من أحكامه، فإنّه قد ثبت في القواعد العقليّة أنّ كلّ كائن فاسد في هذا العالم، فلابدّ له من أسباب أربعة

معاشر الناس! إنّ النساء نواقص الإيمان، نواقص العقول، نواقص الحظوظ، فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصلاة والصيام في أيّام حيضهنّ

فاعلي وغائي وقابلي وصوريّ.

ثمّ القابلي مشروط في قبول كلّ حادث بشرائط فلكيّة وعنصريّ، ممّا لايتناهى ويمتنع اطلاع العقول البشريّة عليها وإحاطتها بها، لأنّ حساب المنجّم مبني على قسمة الزمان بالشهر واليوم والساعة والدرجة والدقيقة وأجزائها، وتقسيم الحركة بأزائها ورفعه بينهما نسبة عددية، وكلّ ذلك أُمور غيرحقيقيّة، وإنّما توجد على سبيل التقريب أقصى ما في الباب أنّ التفاوت بينهما لايظهر في المدد المتقاربة، لكنّه يشبه أن يظهر في المدد المتباعدة، ومع تجويز التفاوت كيف يمكن كلّياً أو جزئيّاً.

ومن كلام له عليه السلام
بعد فراغه من حرب الجمل في ذمّ النساء

حيث إنّ وقعة الجمل من الوقائع العظيمة، والفتن الجسيمة، الواقعة في الإسلام، المشتملة على هلاك جمّ كثير، وجمع غفير من المسلمين، منسوبة إلى رأي امرأة، أراد أن ينبّه عليه السلام على وجه نقصان النساء وأسبابه لتجنّب متابعتهنّ، فقال عليه السلام:

[**معاشر الناس! إنّ النساء نواقص الإيمان، نواقص العقول، نواقص الحظوظ، فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصلاة والصيام في أيّام حيضهنّ**] ولاريب إنّ الصلاة والصوم من كمال الإيمان، فتركهما نقص فيه،

وأمّا نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين منهنّ كشهادة الرجل الواحد وأمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال فاتّقوا شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذر

وإنّما سقطتا عنهما لأنّهما في حال مستقذرة لايتأهّل صاحبها للوقوف بين يدي ربّه، مضافاً إلى أنّ الصوم يزيد الحائض إلى ضعفها ضعفاً.

[**وأمّا نقصان عقولهنّ فشهادة امرأتين منهنّ كشهادة الرجل الواحد**] لقصورهنّ عن قبول تصرّف العقل، كما يقبله مزاج الرجل، كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾ حيث نبّه على ضعف القوّة الذاكرة فيهنّ، ولقلّة معاشرتهنّ لأهل العقل والتصرّفات، ولذا كانت أحكام القوى الحيوانيّة فيهنّ أغلب على أحكام عقولهنّ، فكانت المرأة أرقّ وأبكى وأحسد وألح وأبغى وأجزع وأوقح وأكذب وأمكر، أو أقبل للمكر، وأذكر لمحقّرات الأمور، ولذلك اقتضت الحكمة أن يكون الرجل عليها حاكماً ومدبّراً، كما قال تعالى: ﴿رجال قوّامون على النساء بما فضّل اللّه بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ .

[**وأمّا نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال**] كما قال تعالى: ﴿يوصيكم اللّه في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين﴾ ، وحيث إنّ نقصانهنّ يستلزم الشرّ، قال عليه السلام:

[**فاتّقوا شرار النساء**] واهروا منهنّ، ولاتقربوهنّ.

[**وكونوا من خيارهنّ على حذر**] إذ الإنسان لايستغني عن معاشرتهنّ، فإذا عاشر فليعاشر خيارهنّ، وليكن على حذر وتحرّز وتثبّت في سياستها

ولاتطيعوهنّ في المعروف حتّى لايطمعن في المنكر أيّها الناس! الزهادة قصرة الأمل، والشكر عند النعم، والورع عن المحارم

وسياسة نفسه معها، إذ لم تكن الخيرة منهنّ خيرة إلاّ بالقياس إلى الشريرة.

[**ولاتطيعوهنّ في المعروف حتّى لايطمعن في المنكر**] وإن كان مايشرن ويأمرن به معروفاً وصواباً، وفيما يطلبه من زيادة المعروف والإحسان إليهنّ وإكرامهنّ بالزينة ونحوها، فإنّ طاعة آرائهنّ فيما يشرن به من معروف تدعوهنّ إلى الشور بما لاينبغي والتسلّط على الزمر به وزيادة إكرامهنّ من مقوّيات دواعي الشهوة والشرّ فيهنّ حتّى ينتهي بهنّ الطمع إلى الإقتراح وطلب الخروج إلى المواضع الّتي ترى فيها زينتهنّ ونحو ذلك، إذ العقل مغلوب فيهنّ بدواعي الشهوات.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أيّها الناس! الزهادة قصرة الأمل، والشكر عند النعم، والورع عن المحارم**] رسم عليه السلام الزهد بثلاثة لوازم له:

الأولى: قصر الأمل في الدنيا، لأنّ الزهد هو الإعراض عن متاع الدنيا وطيّباتها، وقطع الإلتفات إلى ماسوى اللّه، ومعلوم أنّ ذلك يستلزم قصر الأمل.

الثاني: الشكر على النعمة، لأنّ العبد بقدر إعراضه عن الدنيا يكون محبّاً للّه، كما أنّه بقدر بُعده من المغرب يكون قريباً من المشرق وبالعكس، والشكر حال للقلب يثمرها العلم بالمشكور، وهو في حقّ اللّه أن يعلم أنّه

فإن عزب ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولاتنسوا عند النعم شكركم فقد أعذر اللّه إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة

لامنعم سواه، وتلك الحال تتمّ العمل بالجوارح.

الثالث: الورع، وهو لزوم الاعمال الجميلة والوقوف على حدود اللّه عن التورّط في محارمه، وهو ملكة تحت العفّة، وذلك مستلزم للإلتفات عن لذّات الدنيا ومحابها، وقوله:

[**فإن عزب**] أي: ذهب وبعُد [**ذلك عنكم، فلا يغلب الحرام صبركم، ولاتنسوا عند النعم شكركم**] قيل يحتمل معنيين:

أحدهما: أنّه إن بعُد عليكم وشقّ اجتماع هذه الأُمور الثلاثة فالزموا منها الورع، وفسّره بالصبر، لأنّه من لوازمه ثمّ الشكر، وكأنّه رخّص لهم في طول الزمل لما يتصوّر فيه ممّا ينبغي لعمارة الأرض لعرض الآخرة، ولأنّ قصر الأمل أكثر مايعرض من غلبة الخوف على القلب والإلتفات عن الدنيا بالكليّة، وذلك غيرمراد للشارع من كلّ الناس.

الثاني: يحتمل أن يكون لما فسّر الزهد باللوازم الثلاثة في معرض الأمر بها قال بعدها إن صعبت عليكم هذه فاعدلوا إلى ما هو أسهل منها وهو الصبر عن المحارم عوضاً عن تمام الورع وو لزوم الأعمال الجميلة، والتذكّر لنعمة اللّه عند وقوعها لعرض شكرها بحيث لاينسى بالكليّة عوضاً من دوام الحمد والثناء، وقوله:

[**فقد أعذر اللّه إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة**] أعذر أي: أظهر عذره، ومسفرة: مشرفة، وهو تأكيد لماسبق من

الأمر بالزهد، وأشار بالحجج إلى الرسل، لقوله تعالى: ﴿رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل﴾ ولفظ الحجج مستعار، ووجه الشبه أنّه لما كان ظهور الرسل قاطعاً ألسنة حال الظالمين لأنفسهم في محصّل القيمة عن ﴿أن يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى﴾ أشبه الحجّة القاطعة، فاستعير لفظها لها، وأشار بأسفارها وظهورها إلى إشراق أنوار الدين عن نفوسهم الكاملة على نفوس الناقصين، وهو استعارة أيضاً.

وأشار ببروز عذر الكتب إلى ظهور أعذار اللّه إلى خلقه بتخويفهم وترغيبهم وإرشادهم إلى طريق النجاة وإسناد الأعذار إلى اللّه تعالى استعارة من الأقوال المخصوصة الّتي يبديها الإنسان عذراً لأفعال اللّه وأقواله الّتي عرف خلقه فيها صلاحهم.

ومن كلام له عليه السلام
في ذمّ الدنيا

[**ما أصف من دار أوّلها عناء**] أي: تعب ومشقّة [**وآخرها فناء**] لأنّ غايتها الموت، وماتستصحبه من فراق الزهل والأحبّة، والإشراف على الأهوال العظيمة، والإنسان فيها يتقلّب في العناء والمشقّة حالاً بعد حال إلى الموت، لأنّ مبدئه من نطفة، وإذا وقعت ف رحم المرأة اختلطت بمائها ودمها وغلظت، ثمّ الريح يمخض ذلك الماء الدم حتّى يتركه كالرائب الغليظ، ثمّ

. . . .

يقسمه في أعضائه لاناء أيّامه، فإن كان ذكراً فوجهه قبل ظهر أُمّه، وإن كان أُنثى فوجهها قبل بطن أُمّها، وذقنه على ركبتيه، ويداه على جنبيه، مقبض في المشيمة، كأنّه مصرور في صرّة، ويتنفّس من متنفّس شاق، وليس منه عضو إلّا كأنّه مقموط فوقه حرّ البطن، وتحته ماتحته، وهو منعوط بمعاء من سرّته إلى سرّة أُمّه، وقد حبس اللّه دم الحيض فجعله له غذاء، فسبحان من ساق له رزقه وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة، لاتراه عين، ولاتصل إليه يد، وهو في هذه الحالات في الغمّ والضيق والظلمات، حتّى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوى جلده على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء، هاج الطلق بأُمّه، فأزعجه أشدّ ازعاج، وزجره ملك فصار أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وصار رأسه قريب المخرج، فيجد من ضيق المخرج وعصره آلاماً عظيمة، وشدائد جسيمة، حتّى يولد ويسقط إلى الأرض، فإذا أصابته ريح أو مسّته يد وجد من ذلك من الألم ما لايجده من سلخ جلده.

وفي بكاء الأطفال منافع عظيمة، حيث أنّ في أدمغتهم رطوبة عظيمة إن بقيت فيها أحدثت عللاً عظيمة من ذهاب البصر وغيره.

وبعد ولادته يصرف ذلك الدم الّذي كان يغذوه في الرحم إلى ثدي أُمّه، وانقلب طعمه ولونه إلى ضرب آخر من الغذاء، فإذا جاع حرّك شفتيه، وأُلهم التقام ثدي أُمّه، الّذي خُلق عل ذلك النمط الغريب، والطرز العجيب، وجعل ينضح كلّما مصّه، ولو جرى لاختنق الصبيّ، وجعل متعدّداً ليكون واحد طعاماً، والآخر شراباً، ثمّ هو في هذه الأحوال في

. . . .

ألوان من العذاب والآلام من الجوع والعطش والوجع، وممّا يلقي من الدفع والوضع واللفّ والحلّ والدهن والتمريخ إذا أُنيم على ظهره لم يستطع الإنقلاب على أحد جنبيه، ولايزال في هذه الأصناف من العذاب مادام رضيعاً يغتذي باللبن، لكونه رطب البدن، رقيق الامعاء، ليّن الأعضاء، حتّى إذا قوى واحتاج إلى غذاء فيه صلابة طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس، ليمضغ بها الطعام فتلين عليه، ويسهل له إساغته، فلايزال كذلك وبعد خلاصه من آلام الرضاع يؤخذ بعذاب الأدب والدواء والأوجاع والأسقام.

ثمّ إذا أدرك كان همّه المال والأهل والولد، وابتلى بهم وبالشره والحرص ومخاطرة الطلب والسعي، ولايزال يتقلّب في هذه الآلام وأنواع الهموم والغموم والمصائب والأحزان، وفقد الأحباب والأهل والولدان، وهو مع ذلك لايملك لنفسه نفعاً ولاضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وله أعداء غلاظ شداد، يترصّدون الفرصة لإذهابه آناً فآناً، فأعدائه الخارجة من اللصوص وأهل المكر والخدعة والظلمة والحيّات والعقارب والحرّ والبرد والشياطين ونحوها، وأعداؤه الداخليّة كأخلاطه وعروق، فإنّ الصفراء والبلغم والسوداء والدم بمنزلة الافاعي ذوات السموم، إن غلب واحد منها قتله.

وإنّ في بدنه ثلاثمائة وستين عرقاً بعضها ساكن، وبعضها متحرّك، إذا تحرّك الساكن، أو سكن المتحرّك قتله، وهو في كلّ آن مستعدّ لذلك،

ثمّ يبتلى بعذاب الهرم والشيخوخة، كما هو مشاهد معلوم،

في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من استغنى فيها فُتِن ومن افتقر فيها حزن ومن صحّ فيها سقم

ولا يستريح من هذه الأُمور حتّى يموت، ثمّ الموت أمره شديد، ومابعد الموت أعظم وأدهى.

فالمستعان باللّه ولاحول ولاقوّة إلّا باللّه، ومن ذلك يعلم معنى قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾.

ثمّ قال عليه السلام في ذمّ الدنيا:

[**في حلالها حساب**] إشارة إلى مايظهر في صحفية الإنسان يوم القيامة من الآثار المكتوبة عليه ممّا خاض فيه من مباحات الدنيا وتوسّع فيه من المآكل والمشارب والمناكح والمراكب، فإنّ جميع ذلك يعوقه عن اللحوق بالمجرّدين الّذين جعلوا الدنيا بمنزلة الميتة، واقتصروا منها على قدر الضرورة، وإلى ذلك أُشير في النبويّ: إنّ الفقراء ليدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، وذلك لكثرة حساب الأغنياء وتعويقهم بثقل ماحملّوا من الدنيا.

[**وفي حرامها عقاب**] وأمره واضح، وكفى بذلك منفراً عن الدنيا، فإنّ الحساب نوع من العقاب أيضاً، ولا نجاة إلّا بالإقتصار على قدر الضرورة منها.

[**من استغنى فيها فُتِن**] إذ تكون محبّته لما استغنى به لفتنته وضلاله عن سبيل اللّه كما قال تعالى: ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾.

[**ومن افتقر فيها حزن**] لأنّ الفقر الغالب لها ولم يجدها في غاية الهمّ والغمّ ونهاية الحزن على مايفوته منها، سيّما مايفوته بعد حصوله له.

[**ومن صحّ فيها سقم**] كما هو معلوم بالوجدان والعيان، يغني عن البيان.

ومن ساعاها فـاتته) ومن قعد عنها واتتـه ومن أبصر بها بصّرته ومن أبصر إليها أعمته

[**ومن ساعاها**] شدّد السعي لها وحرص في تحصيلها [**فاتته**) ومساعاتها استعارة كأنّها مع حرص طالبها عليها وتعسّرها عليه كالهاربة منه سعياً وهو ساع في طلبها، وأقوى أسباب فواتها لطالبها أنّ تحصيلها أكثر مايكون بمنازعة أهلها عليها ومجاذبتهم إيّاها، فتثور الشهوة والغضب والحرص عند المجاذبة للشيء وقوّة منع الإنسان له، وتجاذب الخلق للشيء وعزّته عندهم سبب لتفويت بعضهم له على بعض، وفيه تنبيه على وجوب ترك الحرص عليها والإعراض عنها، إذ كان فواتها اللازم من شدّة السعي لها مكروهاً للسامعين.

[**ومن قعد عنها واتته**] وهو أيضاً جذب إلى القعود عنها وتركها، وإن كان لغرض مواتاتها كما يفعله أهل الزهد الظاهريّ المشوب بالرياء والسمعة، وكذا الزهد الحقيقي، ففي الحديث القدسي: أوحى اللّه إلى الدنيا: أن اخدمي من خدمني، ونغّصي وكدّري عيش من خدمك.

[**ومن أبصر بها بصّرته**] أي: من جعلها سبب هدايته ومحلّ إبصاره بعين عقله استفاد منها البصيرة والهداية، فيعتبر بكلّ شيء، ويتّعظ بكلّ شيء، فإنّ في أحوالها وتقلّبها عبرة لأُولى الأبصار وتذكرة لذوي الإستبصار.

[**ومن أبصر إليها أعمته**] أي: مدّ إليها بصر بصيرته، وتطلّع إليها بعين قلبه محبّة لها وعشقاً أعمت عين بصيرته عن إدراك أنوار الهداية، وكيفيّة سلوك الطريق القويم، والصراط المستقيم، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

الحمد للّه الّذي علا بحوله ودنى، مانح كلّ غنيمة وفضل

﴿ولاتمدّنّ عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربّك خير وأبقى﴾ .

قال السيّد (ره) : وإذا تأمّل المتأمّل قوله عليه السلام ومن أبصر بها بصّرته وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لاتبلغ غايته، ولايُدرك غوره، ولاسيّما إذا قرن إليه قوله : ومن أبصر إليها أعمته، فإنّه يجد الفرق بين أبصر بها وأبصر إليها واضحاً نيّراً وعجباً باهراً.

ومن خطبة له عليه السلام
وهي من الخطب العجيبة وتسمّى الغرّاء

[**الحمد للّه الّذي علا بحوله**] الحول: القوّة، وليس المراد العلوّ المكانيّ، لتنزّهه عن الجسميّة، بل العلوّ العقليّ باعتبار كونه مبدأ كلّ وجود ومرجعه، فهو العليّ المطلق، الّذي لا أعلا منه في وجوده، ولمّا كان ذلك اعتباراً يلحقه بالقياس إلى كلّ موجود صدر عن قدرته وقوّته، لاجرم جعل للحوقه له مبدأ، وهو حول.

[**ودنى ؤ**] كما أنّ علوّه ليس مكانيّاً، فكذا دنوّه، بل هو اعتبار يحدثه العقل بسبب قرب إفاضة نعمه على قوابلها، وقربه من أبصار البصائر في صورة نعمة نعمة منها، ولذا جعل طوله مبدأ لدنوّه، والطول: الفضل.

[**مانح كلّ غنيمة وفضل**] المنحة: العطيّة، ومعلوم أنّ كلّ غنم وفضل فهو مصدره ومبدؤه.

وكاشف كلّ عظيمة وأزْل أحمده على عواطف كرمه وسوابغ نعمه وأؤمن به أوّلاً وبادياً وأستهديه قريباً هادياً قريباً هادياً

[**وكاشف كلّ عظيمة وأزْل**] أي: شدّة، وهما إشارة إلى كلّ نعمة صدرت منه على قابلها، فمبدؤها جوده ورحمته، سواء كانت وجوديّة كالصحّة والمال والعقل وغيرها، أو عدميّة، كدفع البأساء والضرّاء، كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿ومابكم من نعمة فمن اللّه ثمّ إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون ثمّ إذا كشف الضرّ عنكم﴾ الآية وبقوله: ﴿أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾، ثمّ نبّه عليه السلام على مبدأ استحقاقه للحمد، وهو كرمه فقال:

[**أحمده على عواطف كرمه**] وهي نعمه وآثاره الخيريّة الّتي تعود على عباده مرّة بعد أُخرى، وكرّة غبّ أولى.

[**وسوابغ نعمه**] أي: نعمه السابغة الّتي لاقصور فيها عن قبول قابلها.

[**وأؤمن به أوّلاً وبادياً**] منصوبان على الحال، إشارة إلى الجهة الّتي هي مبدأ الإيمان، إذ كان باعتبار كونه أوّلاً مبدأ لجميع الموجودات، أو كونه بادياً هو كونه ظاهراً للعقل في جميع آثاره، فباعتبار ظهوره مع كونه مبدأ لكلّ موجود وأوّلاً له يجب الإيمان به، والتصديق بآلهيّته.

[**وأستهديه قريباً هادياً**] أطلب الهداية منه حال كونه [**قريباً**] قرباً عقلياً، أقرب إليّ من حبل الوريد، يسمع طلبي ودعائي، كما قال: ﴿فإنّي قريب أُجيبُ دعوة الداعي﴾.

[**هادياً**] لمن استهداه، مرشداً لمن استرشده، مجيباً لمن دعا، وأشار بأنه باعتبار الوصفين مبدأ لطلب الهداية منه.

وأستعينه قادراً قاهراً وأتوكّل عليه كافياً وناصراً ولايؤده حفظهما، وهو العليّ العظيم وأشهد أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله عبده المنتجب

[وأستعينه] أطلب المعونة منه، حال كونه [قادراً] على كلّ شيء، لايعجزه شيء، فلايعجز عن إعانتي.

[قاهراً] كلّ موجود، مسخّر تحت حكمته وقدرته وحقير في قبضته، وباعتبار الوصفين كان مبدء للإستعانة.

[وأتوكّل عليه كافياً وناصراً] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾ والتوكّل الإعتماد في جميع الأمور على اللّه والعلم بأنّه هو الضارّ النافع دون من سواه، ولاينافيه الإتيان بالأسباب إذا لم يكن اعتماده عليها، ويجوز أن تكون الثمرة من غيرها، ولذا ورد: كن لما لاترجو أقرب من أن ترجو، ذهب موسى عليه السلام ليقتبس ناراً فنودي بالنبوّة، وكافياً إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أليس اللّه بكاف عبده﴾ باعتبار كونه معطياً لكلّ قابل من خلقه مايكفيه، والناصر باعتبار إعطائه النصر لعباده، ﴿وماالنصر إلّا من عند اللّه﴾ وباعتبار هذين الوصفين كان تعالى مبدء لتوكّل عباده عليه، وإلقاء مقاليد أُمورهم إليه، وأشهد أن لاإله إلّا اللّه الّذي رفع السماء فبناها، وسطح الأرض فطحاها، قد مرّ تفسيرهما.

[ولايؤده] لايثقله ولايشقّ عليه [حفظهما، وهو العليّ العظيم] أعلا وأعظم من أن يصعب عليه شيء أو يمتنع عليه شيء.

[وأشهد أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله عبده المنتجب] والعبوديّة من المقامات العالية، قال تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

وقال عليه السلام: كفاني عزّاً أن أكون لكَ عبداً.

ورسوله أرسله لإنفاذ أمره وإنهاء عذره وتقديم نُـذُره أُوصيكم عبادَ اللّه بتقوى اللّه الّذي ضرب لكم الأمثال

[**ورسوله**] المرتضى [**أرسله**] بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه [**لإنفاذ أمره**] أي: إجراء أحكامه على الخلق ليقرّوا له بالعبوديّة، ويعترفوا له بالربوبيّة.

[**وإنهاء عذره**] أي: ينهي إليهم ويبلغهم النصائح النافعة والمواعظ الجامعة الّتي تشبه الأعذار.

[**وتقديم نُـذُره**] وهو التخويفات والتهديدات الواردة على ألسنة الرُسُل إلى الخلق حتّى يستعدّوا للقاء اللّه يوم ﴿لاينفع مال ولابنون إلاّ من أتى اللّهَ بقلب سليم﴾ وظاهر كون الثلاثة أغراضاً للبعثة والضمائر الثلاثة راجعة للّه.

[**أُوصيكم عبادَ اللّه**] تنبيهاً لهم بهذه الكلمة أنّهم عباد مربوبون، وتحت حكمه مسخّرون، لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

[**بتقوى اللّه**] وخشيته، وقد مرّ معناها.

[**الّذي ضرب لكم الأمثال**] في كتابه العزيز وعلى ألسنة رسله، تقريباً للإفهام، فضرب مثل للمؤمن والكافر، ومثل الدنيا والآخرة وهكذا، قال تعالى: ﴿مثل الّذين حُمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ وقال تعالى في المؤمنين والكفّار: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع﴾ وقال تعالى: ﴿مثال الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح، إلى غير

ووقّتَ لكم الآجال وألبسكم الرياش وأرفع لكم المعاش وأحاط بكم وأحصاه وأرصد لكم الجزاء

ذلك من الأمثال.

[ووقّتَ لكم الآجال] وكتبها بقلم القضاء في اللوح المحفوظ، فقضى لكلّ أجلاً وأمداً ﴿فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون﴾ فتزوّدوا العمل قبل مجيء الأجل.

[وألبسكم الرياش] إشارة إلى قوله تعالى في مقام الإمتنان على عباده: ﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ ليذكروا أنواع نعمه فيستحيوا من مجاهرته بالمعصية، والرياش اللباس الفاخر، وقيل: الغنى بالمال.

[وأرفع] أي: أوسع **[لكم المعاش]** أي: أطاب معائشكم في الدنيا، كما قال: ﴿ورزقكم من الطيّبات﴾ .

[وأحاط بكم] علمه ونفذت فيكم قدرته، كما قال: ﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط إنّه على كلّ شيء شهيد﴾ .

[وأحصاه] منصوب على المصدر من غير لفظ فعله، إذ الإحاطة تتضمّن الإحصاء، كما قال تعالى: ﴿لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾ أو على التميز وحصول الترهيب والإنذار بذلك ظاهر، إذ علم العباد بأنّه لايشذّ أحد منهم عن إحاطة علمه بجذبهم إلى طاعته ويحذّرهم عن معصيته.

[وأرصد] أي: أعدّ **[لكم الجزاء]** جزاء أعمالكم إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، فقال: ﴿ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ وقال: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن

وآثركم بالنعم السوابغ والرفد الروافع وأنذركم بالحجج البوالغ وأحصاكم عدداً ووظّف لكم مدداً في قرار خبرة ودار عبرة

جاء بالسيّئة فكبّتْ وجوههم على النار هل يُجْزَوْن إلاّ ما كانوا يعملون﴾ .

[**وآثركم بالنعم السوابغ**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ .

[**والرفد**] جمع رفدة، وهي العطيّة.

[**الروافع**] الواسعة الطيّبة، بالغين المعجمة.

[**وأنذركم بالحجج البوالغ**] من كتبه ورسله وحججه، ﴿ولله الحجّة البالغة﴾ لئلاّ يقولوا يوم القيامة ﴿إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ .

[**وأحصاكم عدداً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ .

[**ووظّف لكم مدداً**] وهو كتوقيته لهم الآجال، وإنّما كرّر وصف الإحصاد والعدّ وهذين الوصفين أيضاً لأنّ الوهم كثيراًما ينكر إحاطته تعالى بالجزئيّات مع عدم تناهيها، فيكون ذلك مشتبهاً على النفس ويقدح في أمر المعاد والعقوبات اللازمة لكلّ آحاد الخلق بحسب كلّ ذرّة من الأعمال الصالحة فكرّرهما طرداً للوهم، ولأنّ ذكر توقيت الآجال من أشدّ المنغصات من الدنيا والدواعي إلى الآخرة، فناسب تكراره.

[**في قرار خبرة**] أي: محلّ اختبار الله خلقه وامتحانهم.

[**ودار عبرة**] ومحلّ عبرتم، أي: انتقال أذهانهم فيما يجري فيها من آيات العبرة، وآثار القدرة، والإستدلال على وجود الصانع ومايليق به ويمتنع عليه، وأكّد ذلك بقوله:

أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها فإنّ الدنيا رنق مشربها ردغ مشرعها يونق منظرها، ويوبق مخبرها غَرور حائل

[**أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها**] قيل: وفي هذين القرينتين مع السجع المتوازي نوع من التجنيس بين خبره وغيره، والإختلاف بالحرف الأوّل.

[**فإنّ الدنيا رنق**] أي: كدر [**مشربها**] كناية عن كدر لذّاتها بشوائب المصائب والأحزان، وشوب شهوات بالهموم والغموم والأشجان وواردات الأعراض وآلام الأمراض.

[**ردغ مشرعها**] والردغ: الوحل والتراب المختلط بالماء، ومشرعها محلّ الشروع في تناولها والورود في استعمالها، واستعار لفظ الردغ بالغين المعجمة لمشرعها باعتبار أنّ موارد تناولها والشروع فيها مزالق أقدام العقول عن سواء الصراط إلى طْرفي التفريط والإفراط، كما أنّ الطريق ذات الوحل كذلك.

[**يونق**] بالنون، أي: يعجب [**منظرها، ويوبق**] بالباء الموحّدة أي: يهلك [**مخبرها**] إشارة إلى إعجابها لذوي الغفلة بزينتها الحاضرة مع هلاكهم باختبارها وذوقهم لحلاوتها لغرض الإلتذاذ بها.

[**غَرور**] بفتح الغين، أي: ذات غرور، أي: تغرّ الخلائق بزخارفها، فيتوهّمون بقاها، ثمّ تنتقل عنهم وتحول، وهو المراد بقوله:

[**حائل**] وبضمّ الغين، أي: هي في نفسها غرور، والغرور عرفاً مايغترّ به، والحائل المنتقلة المتحوّلة، إذ هي تنتقل من شخص إلى آخر، لابقاء لها ولا ثبات ولا دوام.

وضوء آفل وسناد مائل حتّى إذا آنس نافرها، واطمأنّ فاكرها وقمصت بأرجلها وقنصت بأحبلها وأقصدتْ بأسهمها

[**وضوء آفل**] استعار لفظ الضوء لما يظهر منها من الحسن في عيون الغافلين، أو لما ظهر لهم من وجوه مسالكها فاهتدوا به إلى تحصيلها ومداخلها ومخارجها، وعلى التقديرين فهي ضوء آفل لايدوم.

[**وسناد مائل**] استعار السناد لما يعتمد الغافلون عليها من خيراتها الّتي لاأصل لها ولاثبات، بل هي ﴿كشجرة خبيثة اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ ، وذكر الميل ترشيح للإستعارة.

[**حتّى إذا آنس نافرها، واطمأنّ فاكرها**] أي: هي تغرّ الناس بضوئها وظلّها وبهجة منظرها إلى غاية أن يستأنس بها من كان بعقله نافراً عنها، ويطمئنّ إليها من كان بمقتضى فكرته ناكراً لها، حتّى إذا كان ذلك منه طوعاً لها فعلت به أفعال العدوّ.

[**وقمصت بأرجلها**] يقال: قمصت الدابّة رفعت يديها وطرحتهما، استعار لفظ القمص لامتناعها على الإنسان عند حضور أجله، كأنّها تدفعه برجليها مولّية عنه، كما تفعل الدابّة، ورشّح بذكر الأرجل وإنّما جمع لاعتبار اليدين مع الرجلين، وغلّب الرجلين دون اليدين، لأنّ القمص بالرجلين أنسب.

[**وقنصت**] أي: صادت [**بأحبلها**] كناية عن تمكّن حبائل محبّتها والهيئات الرديّة المكتسبة منها في عنق نفسه، فاستعار القنص بالأحبل لتمكّن محبّتها في أعناق النفوس، كما يقنص الصائد عنق الصيد بحبل شراكه.

[**وأقصدتْ**] أي: أصابت القصد [**بأسهمها**] جمع سهم، استعار

وأعلقت المرء أوهاق المنيّة قـائدة لـه إلى ضنك المضـجع ووحـشـة المرجع ومعـاينة المحل وثواب العمل وكذلك الخلف يـعقب السلف لاتقلع المنيّة اختراماً، ولايرعوي الباقون اجتراماً

الأسـهم للأمـراض وأسـبـاب الموت، وإقـصـادها كناية عن إصـابتـهـا، كناية بالمستعار لأوصاف الرأي تنزيلاً للدنيا منزلته.

[**وأعلقت المرء أوهاق المنيّة**] الأوهاق جمع وهق بالفتح: الحبل، أي: أعلقته أحبال المنيّة، وهي استعارة لمايجذب به إلى الموت من سائر أصحابه أيضاً، وكذا لفظ القائد في قوله:

[**قائدة له إلى ضنك المضجع**] كناية عن انسياق المريض في حبال مرضه الحاصل فيها إلى الأُمور المذكورة من ضنك المضجع، أي: ضيق القبر.

[**ووحشة المرجع**] إشارة إلى ماتجده النفوس الجاهلة عند رجوعها إلى مبدئها من وحشة فراق ماكان محبوباً لها في الدنيا، وماكان ألقته من مال وأهل وولد، وهي استعارات لوصف الصائد تنزيلاً للدنيا منزلته.

[**ومعاينة المحل**] أي: مشاهدة الآخرة الّتي هي محلّ الجزاء.

[**وثواب العمل**] أي: جزائه من خير أو شرّ.

[**وكذلك الخلف يعقب السلف**] أي: على الأحوال المذكورة للدنيا مضى الخلق يتبع خلفهم من سلف منهم، لا المنيّة تقصر عن اخترام نفوسهم، ولا قون منهم يرجعون عمّا هم عليه من ارتكاب الجرائم فيها والغرور بها، وهذا معنى قوله:

[**لاتقلع المنيّة اختراماً، ولايرعوي الباقون اجتراماً**] أقلع عن الشيء: امتنع منه، والإجترام: الموت دون المدّة الطبيعيّة، وارعوى: كفّ ورجع.

يحتذون مثالاً ويمضون إرسالاً إلى غاية الإنتهاء وصيّور الفناء حتّى إذا تصرّمت الأُمور وتقضّت الدهور وأزف النشور أخرجهم من ضرائح القبور

[**يحتذون مثالاً**] يقال: حذا حذو فلان، أي: فعل فعله، أي: بل هم يقتدون بأمثالهم الماضين في ذلك.

[**ويمضون**] عليه [**إرسالاً**] جمع رسل بالفتح، وهو القطيع من الغنم تتبع القطيع.

[**إلى غاية الإنتهاء وصيّور الفناء**] صيّور: الأمر مايرجع إليه منه، أي: يمضون عليه اتّباعاً إلى غاية مسيرهم بمطايا الأبدان، ومصير أمرهم، وهو الفناء والعرض على الملك الديّان، وقد راعى أيضاً مع السجع التجنيس في قوله: يونق ويوبق، ونافرها وناكرها، وقمصت وقنصت، والإختلاف بحرف أوسط.

ثمّ أشار عليه السلام إلى مايلحق الناس بعد الموت بقوله:

[**حتّى إذا تصرّمت**] أي: تقضت [**الأُمور**] أي: أحوال كلّ واحد واحد من الخلق في الدنيا.

[**وتقضّت**] أي: انقضت [**الدهور**] أي: مدّة كلّ شخص منهم.

[**وأزف**] أي: دنى [**النشور**] انتشار الأموات من قبورهم.

[**أخرجهم من ضرائح القبور**] والضرائح: جمع ضريح، وهو الشقّ في وسط القبر، استعار لفظ القبور للأبدان وضرائحها ترشيح للإستعارة، ووجه الشبه أنّ النفس تكون منغمسة في ظلمة البدن، وكدر الحواس متوحّشة عن عالمها، كما أنّ المقبور متوهّم لظلمة القبر ووحشته، منقطع عن

وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك وسراعاً إلى أمره مهطعين إلى معاده ورعيلاً صموتاً

الأهل والمال، وضمير المخرج يود إلى الله في صدر الخطبة.

[**وأوكار الطيور**] كأنّه استعير للنفس الناطقة، ووجه الشبه ماتشترك فيه النفس والطير من سرعة التصرّف والإنتقال، فالنفس بانتقال عقليّ، والطير بانتقال حسّي، وإذا استعير لفظ الطير للنفس فبالحريّ أن يُستعار لفظ الوكر للبدن، لما بينهما من المشاركة، وهو كونهما مسكناً لايسهل مفارقته.

[**وأوجرة السباع**] الأوجرة: جمع وجار، وهو بيت السبع، استعارة للأبدان أيضاً، والسباع إشارة إلى النفوس المطيعة لقواها الغضبيّة الّتي من شأنها محبّة الغلبة والإنتقام، كما أنّ السبع كذلك، وقوله:

[**ومطارح المهالك**] إشارة إلى الأبدان أيضاً، فإنّها مطارح مهالك الغافلين، الّذين اتّبعوا الشهوات أعني أبدانهم.

[**وسراعاً إلى أمره**] نصب على الحال بقوله: أخرجهم، وكذا مابعده من المنصوبات، وأمره هو حكم قضائه الأزليّ عليهم بالرجوع إليه، وعودهم إلى مبدئهم وسرعتهم إليه إشارة إلى قرب وصولهم، وهو في آن انقطاع علاقة النفس مع البدن، وهو على غاية من السرعة.

[**مهطعين إلى معاده**] أي: مقبلين إلى محلّ العود وماأعدّ لهم فيه من خير أو شرّ.

[**ورعيلاً**] أي: مجتمعين، إشارة إلى اجتماعهم في المحشر تحت حكم الله وقبضته.

[**صموتاً**] لايتكلّمون إلاّ من أذن له الرحمن، أو لأنّه يختم على أفواههم، أو للصمت، كناية عن خضوعهم وانقيادهم.

قياماً صفوفاً ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي عليهم لبوس الإستكانة وضرع الإستسلام والذلّة قد ضلّت الحيَل وانقطع الأمل وهو الأفئدة كاظمة

[**قياماً صفوفاً**] على ظاهره، أو قيامهم استعارة لاستشعار النفوس هيبة اللّه وعظمته، فتقوم على ساق العبوديّة وذلّ الإمكان، وصفوفاً استعارة لانتظامهم حينئذ في سلك علمه تعالى، إذ الكلّ بالنسبة إلى علمه على السواء، كما يستوي الصفّ المحسوس، أو استعار الصفّ لتربتهم في القُرب المعنويّ إلى اللّه، وقوله:

[**ينفذهم البصر**] إشارة إلى إحاطة علمه تعالى بهم.

[**ويسمعهم الداعي**] أي: داعي اللّه ومناديه من ملك أو غيره، وقيل: هو كناية عن حكم القضاء عليهم بالعود، وإسماعهم عموم ذلك الحكم لهم، بحيث لايمكن أن يخرج عنه منهم أحد.

[**عليهم لبوس الإستكانة وضرع الإستسلام والذلّة**] اللبوس: مايلبس، والضرع: الخضوع والإنكسار، إشارة إلى حالتهم الّتي يخرجون من قبورهم عليها، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم يدع الداعي إلى شيء نكر خشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث﴾ .

[**قد ضلّت الحيَل**] أي: حيل الدنيا، فلا حيلة لهم في الخلاص ممّا هم فيه، كما كانوا يخلصون بحيَل الدنيا من بعض شرورها.

[**وانقطع الأمل**] أي: أملهم فيها لامتناع عودهم إليها، وانقطاع طمعهم في ذلك.

[**وهو الأفئدة كاظمة**] ساكنة، أي: سقطت النفوس في حضيض الذلّ

وخشعت الأصوات مُهَيْنِمَة وألجم العرق وعظم الشفق وأُرعِدَت الأسماع لزبرة الداعي إلى فصل الخطاب ومقايضة الجزاء ونكال العقاب

والفاقة إلى رضاء اللّه وعفوه.

[**وخشعت الأصوات مُهَيْنِمَة**] الهينمة: صوت خفيّ، إشارة إلى سؤالهم بلسان حالهم عفو اللّه ورحمته على وجه الذلّة والضعف، ورقّ العبوديّة في ملاحظة جلال اللّه، كما في قوله تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلّا همساً﴾.

[**وألجم العرق**] أي: بلغ العرق إلى أفواههم، فصار لهم كاللجام.

[**وعظم الشفق**] أي: الإشفاق وهو الخوف، وقيل: كنّى بذلك عن غاية ماتجده النفس من كرب ألم الفراق، وهيبة اللّه وعدم الأُنس بالموت، إذ غاية الخائف التاعب أن يعرق ويشفق من نزول العقاب به، ونسبة الإلجام إلى العرق نسبة مجازيّة.

[**وأُرعِدَت الأسماع لزبرة الداعي**] أي: لانتهاره [**إلى فصل الخطاب**] إشارة إلى ماتجده النفس عند تيقّنها المفارقة، واستعار لفظ الزبرة لقهر حكم القضاء للأنفس على مرادها قهراً، لاتتمكّن معه من الجواب بالإمتناع وفصل الخطاب إمضاء أحكام اللّه على نفوس عباده عند الرجوع إليه.

[**ومقايضة الجزاء**] معارضتها بما أتت به خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، وإليه الإشارة بقوله:

[**ونكال العقاب**] والمقايضة: المعاوضة، والنكال: تنويع العقوبة، ثمّ أشار عليه السلام إلى تنبيه الخلق على حالهم المنافية لليقين بالمعاد، فقال:

عباد مخلوقون اقتداراً ومربوبون اقتساراً ومقبوضون احتضاراً ومضمّنون أجداثاً وكائنون رفاتاً ومبعوثون أفراداً ومدينون جزاء ومميّزون حساباً قد أمهلوا في طلب المخرج

[**عباد**] أي: هم عباد [**مخلوقون اقتداراً**] أي: لم يخلقوا لذاتهم، بل خلقوا بقدرة قادر جبّار، وذلك مناف لعصيانهم له.

[**ومربوبون اقتساراً**] القسر: القهر والجبر، أي: لم يملكهم مالكهم باختيار منهم حتّى تكون لهم الخيرة في طاعته ومعصيته، بل ملكهم قهراً.

[**ومقبوضون احتضاراً**] أي: مستحضرون بالموت أو بملك الموت، مرتحلون إلى معادم.

[**ومضمّنون أجداثاً**] أي: من شأنهم أن يضمّنوا الأجداث جمع جدث، وهو القبر.

[**وكائنون رفاتاً**] أي: من شأنهم أن يصيروا رفاتاً، والرفات: الفتات من العظم ونحوه.

[**ومبعوثون أفراداً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وكلّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ أي: مجرّداً عن استصحاب غيره معه من أهل أو مال، وقال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة﴾ .

[**ومدينون جزاء**] أي: مجزيّون بأعمالكم جزاء، وجزاء مصدر نصب بغير فعله.

[**ومميّزون حساباً**] أي: من شأنهم أن يميّزوا حساباً، أي: يحصون غداً، كما قال تعالى: ﴿ولقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾ وحساباً أيضاً.

[**قد أمهلوا في طلب المخرج**] أي: إنّما أمهلوا في الدنيا لطلب خلاصهم

وهدوا سبيل المنهج وعمّروا مهل المستعتب وكشفت عنهم سدف الريب وخلّوا لمضمار الجياد و رويّة الإرتياد أناة المقتبس

وخروجهم من ظلمات الجهل وورطات المعاصي إلى نور الحقّ ومتّسع الجود.

[**وهدوا سبيل المنهج**] أي: أُلهموا بأصل فطرهم ودلّوا بالأعلام الواضحة من الرسل والكتب والحجج على الطريق المستقيم والمنهج القويم.

[**وعمّروا مهل المستعتب**] أي: المسترضي، ولما كان من يطلب استعتابه ويقصد رجوعه عن غيّه يمهل ويدارى طويلاً كانت مهلة اللّه سبحانه خلقه مدّة أعمارهم ليرجعوا إلى طاعة ويعمل صالحاً، يشبه ذلك فنزلت منزلته، ومهل نصب على المصدر، لأنّ التعيّر إمهال.

[**وكشفت عنهم سدف الريب**] السدف: جمع سدفة، وهي ظلمة الليل، والريب: الشبه والشكوك، أي: أزال عن أبصار بصائرهم ظلم الشكوك والشبهات والجهالات بما وهبه لهم من العقول، وأيّدهم من بعثة الرسل.

[**وخلّوا لمضمار الجياد**] أي: تركوا في الدنيا ليضمروا أنفسهم بزاد التقوى، ولما استعار لفظ المضمار شحّه بذكر الجياد، إذ شرف المضمار ارتحل به جياد الخيل، وفيه تنبيه لهم على أن يكونوا من جياد مضمارهم.

[و] كذلك خلّوا [**رويّة الإرتياد**] أي: ليتفكّروا في طلب مايتخلّصون به إلى اللّه تعالى من سائر طاعاته، والرويّة: التأمّل، والإرتياد: الطلب، وكذا قوله:

[**أناة**] أي: ليتأنّوا أناة [**المقتبس**] للأنوار الإلهيّة، الطالب للإستنارة بها

في مدّة الأجل ومضطرب الأمل فيا لها أمثالاً صائبة ومواعظ شافية لو صادفت قلوباً زاكية وأسماعاً واعية وآراء عازمة وألباباً حازمة فاتّقوا اللّه من سمع فخشع واقترف فاغترف بها

[**في مدّة الأجل ومضطرب الأمل**] أي: في مدّة آجالهم، ومحلّ اضطرابهم في مهلتهم وتحصيلهم لماينبغي لهم من الكمالات، ومن ملك من عبيده هذه الحالات وأفاض عليهم ضروب هذه الإنعامات، فكيف يليق بأحدهم أن يجاهره بالعصيان أو يتحاسر أن يقابله بالكفران ﴿إنّ الإنسان لكفور مبين﴾.

ثمّ أشار ﷺ إلى التنبيه على فضل موعظته والتعريض بعدم القلوب الحاملة لها، ثمّ الحثّ على التقوى فقال:

[**فيا لها أمثالاً صائبة**] مطابقة للميل به [**ومواعظ شافية**] من أمراض الجهل [**لو صادفت قلوباً زاكية**] مستعدّة لقبول الهداية.

[**وأسماعاً واعية**] وعي الإستماع فهم القلوب عنها، وإنّما وصفها بالوعي لأنّها أيضاً قابلة لقشور المعاني مؤدّية لها إلى قوّة الحسّ ثمّ الخيال.

[**وآراء عازمة**] وعزم الآراء وتوجيه الهمّة إلى ماينبغي، والثبات على ذلك.

وألباباً حازمة] وحزامة الألباب جودة رأي العقول فيماتختاره، وظاهر أنّ هذه الثلاثة هي أسباب نفع الموعظة وتأثيرها.

[**فاتّقوا اللّه من سمع فخشع**] أي: تقوى من استعدّ قلبه لسماع الموعظة فخشع عنها للّه.

[**واقترف**] أي: تقوى من اكتسب الذنوب والسيّئات.

[**فاعترف بها**] وأناب إلى اللّه.

و من وجل فعمل وحاذر فبادر و من أيقن فأحسن و عُبِّر فاعتبر بها وحُذِّر فازدجر وأجاب فأناب و راجع فتاب واقتدى فاحتذى و أرى فرأى فأسرع طالباً ونجى هارباً فأفاد ذخيرة

[و] تقوى [**من وجل**] أي: خاف مقام ربّه، وأقلقه خوف.

[**فعمل**] أي: التجأ إلى الأعمال الصالحة.

[**وحاذر**] عقاب ربّه.

[**فبادر**] إلى طاعته ورضاه.

[و] تقوى [**من أيقن**] بالموت ولقاء ربّه.

[**فأحسن**] العمل وأخلصه للّه.

[و] تقوى من [**عُبِّر**] أي: رمي بالعبرة وذكّر بها [**فاعتبر بها**] وجعلها سُلّماً يعبر فيها ذهنه السليم إلى العلم بمصالحه.

[**وحُذِّر**] من سخط اللّه وعقابه [**فازدجر**] أي: فرجع عن معصيته.

[**وأجاب**] داعي اللّه [**فأناب**] ورجع إليه بسرّه وعلانيته.

[و] تقوى من [**راجع**] فكره وعقله [**فتاب**] أي: فاستعان به على شياطينه وقهر نفسه الأمّار فتاب من متابعتها.

[**واقتدى**] بأنبياء اللّه وأوليائه، وهداهم الّذي أتوا به.

[**فاحتذى**] أي: حذى حذوهم في أحوالهم وأفعالهم.

[و] تقوى من [**أرى**] الحقّ وأظهر لعين بصيرته طرق اللّه وسبله.

[**فرأى**] أي: فعرفها [**فأسرع طالباً**] لما تسلك له وينتهي إليه [**ونجى**] فيها [**هارباً**] من ظلمات الجهل.

[**فأفاد ذخيرة**] أي: فاستفاد في سلوكه لها وطاعة لربّه في ذلك ذخيرة

وأطاب سريرة وعمّر معاداً واستظهر زاداً ليوم رحيله و وجه سبيله وحال حاجته وموطن فاقته وقدّم أمامه لدار مقامه فاتّقوا اللّه عباد اللّه جهة ماخلقكم له واحذروا منه كنه ماحذّركم من نفسه

لمعاده.

[**وأطاب**] بسلوكها [**سريرة**] أي: سريرته عن نجاسات الدنيا.

[**وعمّر**] بما يكتسبه في سلوكها من الكمالات المستعدّة.

[**معاداً**] أي: معاده.

[**واستظهر**] به [**زاداً ليوم رحيله**] من دنياه إلى آخرته.

[و] استعدّ به إلى [**وجه سبيله**] الّتي هو سالكها ومسافر فيها.

[**وحال حاجته وموطن فاقته**] فإنّ كلّ مرتبة من الكمال حصلت للإنسان فهي تعدّ مرتبة أعلى منها لو لم يحصلها لظهرت له حاجته في الآخرة إلى أقلّ منها، حيث لايجد إليها سبيلاً، وكذا قوله:

[**وقدّم أمامه**] أي: قدّم مااستظهر به زاداً أمامه، أي: تلقّى حجّته التي هو مستقبلها.

[**لدار مقامه**] أي: الآخرة.

[**فاتّقوا اللّه عباد اللّه جهة ماخلقكم له**] أي: باعتبار ماخلقكم له، وهو معرفته والتقرّب إليه، أي: اجعلوا تقواكم للّه نظراً إلى تلك الجهة، لا لجهة الرياء والسمعة، وجهة منصوب على الظرف، أو مفعول به لفعل مقدّر، أي: واقصدوا بتقواكم جهة ماخلقكم له.

[**واحذروا منه كنه ماحذّركم من نفسه**] أي: اسلكوا في حذركم منه حقيقة تحذيره لكم من نفسه بما توعّد به، وذلك الحذر إنّما يحصل بالبحث

واستحقّوا منه ماأعدّ لكم بالتنجّز لصدق ميعاده والحذر من هول معاده جعل لكم أسماعاً لتعي ماعناها وأبصاراً لتجلو عن غشاها

عن حقيقة المحذور منه، والسالكون إلى اللّه في تصوّر ذلك على مراتب متفاوتة.

[واستحقّوا منه ماأعدّ لكم بالتنجّز لصدق ميعاده] استحقاق ماوعد اللّه به من جزيل الثواب إنّما يحصل بالإستعداد له فهو لأمر بالإستعداد له، والإستعداد يحتاج أسباب ذكرها في أمرين:

أحدهما: التنجّز، أي: طلب انجاز الوعد وقضائه، وذلك إنّما هو بالإقبال على اللّه وطاعته كما قال تعالى: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ .

وثانيهما: ما أشار إليه بقوله:

[والحذر من هول معاده] وذلك باجتناب مناهيه والإرتداع بزواجره ونواهيه.

ومنها: مايشتمل على تذكير اللّه عباده ضروب نعمه، والتنبيه على تذكّر حال الماضين والإعتبار بهم، فقال:

[جعل لكم أسماعاً لتعي ماعناها] أي: ماأهمّها، إذ فائدة الإستماع أن تعي ماخلقت لأجل.

[وأبصاراً لتجلو عن غشاها] إذ فائدة الإبصار أن يدرك بها الإنسان عجائب مصنوعات اللّه وغرائب مخلوقاته، فيحصل له منها عبرة، والغشا مستعار لظلمة الجهل العارض لأبصار القلوب، فيكون التقدير ليجلو غشاء قلوبها، وحينئذ فإدراك البصير المحصّل برة يحصل للقلب به جلاء لذلك

وأشلاء جامعة لأعضائها ملائمة لأحنائها بأبدان قائمة بأرفاقها وقلوب رائدة لأرزاقها في مجلِّلات نعمه

الغشاء، فصحّ إذاً إسناد الجلاء إلى الأبصار.

ويحتمل أن يكون مستعاراً لعدم إدراكها، إدراكاً تحصل منه عبرة، إذ كانت فائدتها ذلك، فإذا لم يحصل منها ذلك الإدراك كانت كبصر أصابه الفساد، ووجه الشبه عدم الفائدة ونسبة الجلاء إليها موجود الإدراك المفيد عبرة منها، وهو استعارة أيضاً، وعن ليست بزائدة، لأنّ الجلاء يستدعي مجلوداً، ومجلواً عنه، فذكر ﷺ المجلوّ وأقامه مقام المجلوّ عنه، فكأنّه قال لتجلو عن قواها غشاها.

[**وأشلاء**] جمع شلو، وهو العضو أو القطعة من اللحم، وكنّى به عن الجسد.

[**جامعة لأعضائها ملائمة لأحنائها**] والحنو الجانب، أي: متناهية الجوانب والأقطار في تراكيب صورها ومدد عمرها.

[**بأبدان قائمة بأرفاقها**] أي: منافعها، ويروى بأرماقها، والرمق بقيّة الروح، إنّ كلّ بدن قائم في الوجود بحسب ماهيّء له من ضروب المنافع.

[**وقلوب رائدة لأرزاقها**] بأن هدى نفوسهم لارتياد أرزاقهم الّتي بها قوام حياتهم، والتمكّن من إصلاح معاشهم ومعادهم.

[**في مجلِّلات نعمه**] وسوابعها، ومن جملتها ستره عليهم قبائح أعمالهم أن تظهر، وهواجس خواطرهم بعضهم لبعض، بحيث لواطّلع كلّ على حاله في ضمير صاحبه من الغلّ والحسد وتمنّى زوال نعمته لأفنى بعضهم بعضاً وخرب نظام وجودهم.

وموجبات مننه وحواجز عافيته وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم من مستمتع خلاقهم ومستفتح خناقهم أرهقتهم المنايا دون الآمال

[**وموجبات مننه**] نعمه الّتي يستوجب أن يمنّ بها، وروي بفتح الجيم فالمراد بالمنن إذاً النعم وموجباتها، فأسقط منها وافيض على العباد.

[**وحواجز عافيته**] أي: ماصنع منها غوائل الأمراض المضارّ المندفعة بها.

[**وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم**] وإنّما ذكر ستريّة الأعمار ف معرض المنّة لأنّه من النعم العظيمة على العبد، إذ كان اطّلاع الإنسان على كمّية عمره ممّا يوجب اشتغال خاطره بخوفه من الموت عن عمارة الأرض ويبطل بسببه نظام هذا العالم.

[**وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم**] والقرون السالفين أمامكم، فإنّ في النظر في أحوالهم والتدبّر فيماجرى عليهم عبرة للمعتبرين، وتبصرة للمستبصرين.

[**من مستمتع خلاقهم**] أي: محلّ مااستمتعوا به ممّا كان نصيباً لكلّ منهم في مدّة بقائه من متاع الدنيا.

[**ومستفتح خناقهم**] والخناق بالكسر حبل يخنق به، والمراد محلّ الفسحة لأعناقهم من ضيق حبائل الموت وأغلال الجحيم، وذلك المستفتح هو مدّة حياتهم أيضاً، ثمّ شرع عليه السلام في حال وصف الماضين فقال:

[**أرهقتهم المنايا دون الآمال**] الإرهاق: الإعجال، أي: أعجلهم الموت عن بلوغ آمالهم.

وشذّبهم عنها تخرّم الآجال لم يمهّدوا في سلامة الأبدان ولم يعتبروا في أُنُف الأوان فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلّا حوالي الهرم وأهل غضارة الصحّة إلّا نوازل السقم أهل مدّة البقاء إلّا آونة الفناء؟ مع قرب الزيال وأزوف الإنتقال

[**وشذّبهم**] والتشذّب: التفريق، أي: فرّقهم [**عنها**] أي: عن آمالهم، وحال بينهم وبينها [**تخرّم الآجال**] وفي تنبيه على وجوب قصر الأمل والإستعداد للموت قبل الفوت، وأشار إلى تقصيرهم في ذلك بقوله:

[**لم يمهّدوا في سلامة الأبدان**] مهد الأمر مخففاً ومشدّداً، أي: هيّاه.

[**ولم يعتبروا في أُنُف الأوان**] وأنف الأوان: أوّله. نبّهﷺ على تقصير الماضين في إصلاح معادهم حيث أمكنهم ذلك في سلامة أبدانهم، وأوّل زمانهم ليحصل لهم بذلك التذكّر التنفّر عن حال السابقين وانزعاج عن المغرو بزينة الحياة الدنيا، والإستعداد للموت بالتقوى والأعمال الصالحة، فماذا ينتظرون وإلى متى يمهلون.

[**فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلّا حوالي الهرم**] البضاضة: امتلاء البدن وقوّته، والإستفهام إنكاريّ، أي: بمَ ينتظر الشباب بشبابهم غير حواني الهرم.

[**وأهل غضارة الصحّة**] غضارة العيش: طيبه، أي: هل ينتظر أهل الصحّة بصحّتهم [**إلّا نوازل السقم**] وهل ينتظر [**أهل مدّة البقاء**] المعمّرون بطول أعمارهم [**إلّا آونة الفناء؟**] أي: زمان الموت وحلول الأجل، والآونة: جمع أوان كأزمنة جمع زمان.

[**مع قرب الزيال**] أي: المزايلة [**وأزوف الإنتقال**] أي: قربه من أزف

وعلز القلق وألم المضض وغصص الحرض وتلفت الإستغاثة بنصرة الحفدة والأقرباء والأعزّة والقرناء فهل دفعت الأقارب أو نفعت النواحب وقد غودر في محلّة الأموات رهيناً

أي: قرب [**وعلز القلق**] والعلز: كالرعدة تأخذ المريض والقلق والإضطراب.

[**وألم المضض وغصص الحرض**] والحرض أن يبتلع ريقه على همّ وحزن.

[**وتلفت الإستغاثة**] إشارة إلى التفات المريض إلى من حوله كالمستغيث.

[**بنصرة الحفدة**] أي: الأعوان.

[**والأقرباء والأعزّة والقرناء**] شبّههم في تركهم العمل والإستعداد للقاء اللّه والتزوّد للدار الآخرة حتّى انتهوا إلى هذه الغايات بالمنظر لها كأنّهم ينتظرون هذه الغايات، فاستعير لذلك الإنتظار، ثمّ كنّى عن شدّة حال من غرق في سكرات الموت وأحاطت به شدائده بأوصاف تعرض له كالرعدة والقلق والغمّ والخوف والغصص بالريق والتلفت للإستغاثة بالأعوان والأقرباء والأعزّة، ثمّ نبّه بقوله:

[**فهل دفعت الأقارب أو نفعت النواحب**] أي: البواكي على مار إنّ مايقع عند نزول الموت من تلك الأحوال لاينفعه في دفعه قريب ولاحبيب على طريق الإستفهام الإنكاري.

[**وقد غودر**] الواو للحال، والجملة حاليّة، والعامل نفعت، أي: لم ينفعه البكاء والحال أنّه قد غودر أي: ترك [**في محلّة الأموات رهيناً**] أي:

وفي ضيق المضجع وحيداً قد هتكت الهوام جلدته وأبلت النواهك جدته وعصفت العواصف آثاره ومحى الحدثان معالمه وصارت الأجساد شحبة بعد بضّتها والعظام نخرة بعد فوتها والأرواح بثقل أعبائها

مقيماً أو مرتهناً بذنوبه، وموثوقاً بها، ونفيه على الحال، وكذا وحيداً في قوله:

[**وفي ضيق المضجع وحيداً**] لاأنيس معه ولاجليس ولاناصر له ولامعين.

[**قد هتكت الهوام جلدته**] هو وباقي الأفعال المعطوفة عليه جمل عالية حسبما مرّ، والهوام: الديدان المتولّدة من جيفة أو غيرها.

[**وأبلت النواهك جدته**] يقال: أنهكه أي: أخلقه وأبداه

[**وعصفت**] في بعض النسخ: وعفت الرياح [**العواصف آثاره ومحى الحدثان**] والحوادث [**معالمه**] أي: آثاره.

[**وصارت الأجساد**] من الأموات [**شحبة**] أي: هالكة ناحلة [**بعد بضّتها**] طراوتها نضارتها.

[**والعظام نخرة**] أي: يابسة متفتّتة [**بعد فوتها**] والغرض من ذكر هذه الأوصاف الكريهة تنفير الخلق عن أن يصيروا إلى ماصاروا إليه، والترغيب إلى الخلاص من أمثال هذه الأحوال والمصير إلى هذه الأهوال بالعمل والإخلاص وتزوّد التقوى، وكذا قوله:

[**والأرواح بثقل أعبائها**] والأعباء: الأثقال، إشارة إلى اشتغال النفوس وانحطاطها عن مراتبها الأصليّة العالية بثقل ماحملته من الأوزار، واكتسبته من الأخلاق الرديّة. وقوله:

موقنة بغيب أنبائها لايستزاد من صالح عملها ولاتستعتب من شيء زللها أو لستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء

[**موقنة بغيب أنبائها**] جمع نبأ وهو الخبر، إشارة إلى معاينة ومشاهدة ماكان غائباً عنها من أخبار مايلحقها بعد الموت من خير أو شرّ، فإنّه ينكشف لها حقيقة الحال، كما قال تعالى: ﴿لقد كنتَ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد﴾ .

ويمكن أن يكون المعنى أنّها توقن بأنباء ماخلّفته من اللواحق الدنيويّة، فإنّها تتيقّن بعد الموت غيبتها وانقطاعها عنها، ولايخلو من بُعد، والأوّل أولى. وقوله:

[**لايستزاد من صالح عملها**] أي: لايطلب منها زيادة من العمل الصالح.

[**ولاتستعتب من شيء زللها**] أي: لاتقال من أعمالها السيّئة، ولايرضى عنها، كقوله تعالى: ﴿وإن يُستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ وذلك لعدم آلة العمل وامتناع الرجوع إليه وعدم تمكّنها من نزع ماصار في صفتها، كما حكى اللّه عنهم من قولهم: ﴿ربّ ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركتُ﴾ وأُجيبوا بقوله: ﴿كلاّ إنّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعَثون﴾ . وفي آية أُخرى: ﴿ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه﴾ .

ثمّ التفت عليه السلام إلى وجه العبرة بحالهم وأنّهم أمثالهم في جميع ماذكر من أحوالهم، فقال:

[**أو لستم أبناء القوم والآباء وإخوانهم والأقرباء**] فما أقرب أن ينزل بكم مانزل بهم.

تحتذون أمثلتهم وتركبون قدتهم وتطؤن جادّتهم فالقلوب قاسية عن حظّها سالكة في غير مضمارها كان المعنى سواها وكان الرشد في إحراز دنياها

[**تحتذون أمثلتهم وتركبون قدتهم**] والقدة بكسر القاف والدال المهملة: الطريقة، وروي بضمّ القاف والذال المعجمة، أي: تقتدون بهم في أفعالهم وتسلكون مسالكهم في غرورهم ونحوه، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾، وكذا قوله:

[**وتطؤن جادّتهم**] أي: تسلكون مسالكهم.

[**فالقلوب قاسية عن حظّها**] أي: غافلة عن طلب هدايتها.

[**سالكة في غير مضمارها**] المضمار هنا هو الشريعة وأوامر اللّه تعالى وسلوكها لغيره ارتكابها لمناهي اللّه ورياضتها بالأعمال الصالحة.

[**كان المعنى**] والمقصود بهذه الأمور [**سواها**] مبالغة في إعراض القلوب وغفلتها عن المواعظ، وانهماكهما في تحصيل الدنيا إلى غاية أن أشبهت من لم يكن معيناً بالخطاب بها.

[**وكان الرشد**] الّذي أُمرت به ودعيت إليه [**في إحراز دنياها**] وتحصيلها وجمعها الّذي وجدت منه.

ثمّ شرع عليه السلام في التذكّر بأمر الصراط والتحذير من أهواله، وقد أجمع المسلمون عليه وتظافرت به الآيات وتواترت ب الروايات.

والصراط في الدنيا الإمام المعصوم عليه السلام، فمن سلك طريقه في الدنيا وأخذ بأقواله واقتدى بأفعاله وأحواله سلك الصراط الأُخرويّ ونجى، وإلاّ هلك وهوى.

واعلموا أنّ مجازكم على الصراط ومزالق دحضه وأهاويل ذلله وثارات أهواله

وسئل الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فقال: أرشدنا للزوم الطريق المؤدّي إلى محبّتك والمبلغ دينك والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك، ومرجع ذلك إلى تحصيل الأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة، الّتي هي الوسط بين الإفراط والتفريط المشار إليها بقوله صلى الله عليه وآله: خير الأمور أوسطها، كالحكمة بين الجهل والجربزة، والسخاوة بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهوّر والجبن، والعدالة بين الظلم والإنظلام.

وبالجملة: الوسط الحقّ بين كلّ طرفي إفراط وتفريط من أطراف الفضائل المأخوذة من الشارع، وهي الطريق إلى اللّه المطلوب سلوكه، ومزالق الصراط في الدنيا هي مظان الخطأ من العقل والشهوة والغضب، والعبور عن فضائلها إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط منها، وأهاويل ذلله هو مايلزم ذلك العبور من عذاب اللّه، وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله:

[**واعلموا أنّ مجازكم على الصراط ومزالق دحضه**] والمزلق: الموضع الّذي لايثبت عليه قدم، والدحض: الزلق.

[**وأهاويل ذلله**] إشارة إلى مايستلزمه العبور إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط من العذاب العظيم في الآخرة.

[**وثارات أهواله**] تكرار ذلك مرّة بعد أخرى، وكرّة غبّ أولى.

عن الحسن العسكري عليه السلام قال: الصراط صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط المستقيم في الدنيا فهو ماقصر عن الغلوّ،

فاتّقوا اللّه تقيّة ذي لبّ شغل التفكّر قلبه وأنصب الخوف بدنه وأسهر التهجّد غرار نومه وأظمأ الرجاء هواجر يومه وظلف الزهد شهوته

وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، والصراط الآخر هو: طريق المؤمنين إلى الجنّة، لا يعدلون عن الجنّة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنّة.

والناس في ذلك متفاوتون، فمن استقام على هذا الصراط وتعوّد سلوكه مرّ على صراط الآخرة مستوياً، ودخل الجنّة امناً.

ثمّ عاد عليه السلام إلى الأمر بتقوى اللّه الّتي هي أُصول النجاة، فقال:

[**فاتّقوا اللّه تقيّة ذي لبّ**] سليم، وعقل مستقيم.

[**شغل التفكّر**] في أمر معاده [**قلبه**] عن محبّة الدنيا وزخارفها ولذّاتها الفانية.

[**وأنصب الخوف بدنه**] أي: أتعبه ونحله خوف اللّه تعالى وما أعدّ للعصاة من العقاب الأليم والعذاب الجسيم.

[**وأسهر التهجّد غرار نومه**] أي: أسهرته العبادة ولم تترك له نوماً، والتهجّد: العبادة بالليل، والغرار: النوم القليل.

[**وأظمأ الرجاء هواجر يومه**] أي: أظمأه رجاء ما أعدّ اللّه لأوليائه الأبرار عوضاً عن طيّبات هذه الدار، كنّى بذلك عن كثرة صيامه في أشدّ أوقاته حرارة، وإنّما جعل الهواجر مفعولاً إقامة للظرف مقام المظروف، وهو من وجوه المجاز.

[**وظلف**] بالتخفيف أي: منع أو أطفأ [**الزهد شهوته**] استعار الإطفاء

وأوجف الذكر بلسانه وقدّم الخوف لأمانه وتنكّب المخالج عن وضح السبيل وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب ولم تفتله فاتلات الغرور ولم تعم عليه مشبهات الأمور

للزهد وهو من أوصاف الماء، ونسبته إلى النار نسبة الزهد إلى الشهوات، فلاحظ الشبه بين الشهوات والنار في تأثيرهما المؤذي وبين الزهد والماء، لما يستلزمانه من كون الإعراض عن الدنيا يستتبع قهر الشهوات ودفع مضارّها، كما يفعله الماء بالنار [**وأوجف**] أي: أسرع [**الذكر بلسانه**] ليتعوّده إياه وإدمانه فيه فلايزال لسانه للّه ذاكراً وقلبه لربّه حامداً شاكراً.

[**وقدّم الخوف**] أي خوف ربّه فعمل مخلصاً له [**لأمانه**] لأجل أن يأمَنْ عذابه ولايخفى لطف جعل الخوف سبب الأمن.

[**وتنكّب المخالج**] وهي الأمور المشغلة القاطعة للإنسان [**عن وضح السبيل**] وتنكّبها أي: عدل منها إلى الحق وواضح سبيل اللّه.

[**وسلك أقصد المسالك**] أي أعدلها وأولاها بالقصد [**إلى النهج المطلوب**] للّه من خلقه وهو صراطه المستقيم وطريقه القويم، وفيه إشعار بأنّ للوصول إلى اللّه ورضوانه طرقاً كثيرة وأحبّها إليها أولاها بالقصد إلى طريقه الموصل إليه.

[**ولم تفتله**] بالفاء أي لم تصرفه أو بالقاف أي لم تهلكه، وكذا:

[**فاتلات الغرور**] وكنّى بها عن الغفلات الدنيويّة الصارفة عن اللّه الموجبة للإنهماك في الدنيا لم تهلكه أو لم تصرفه عن ربّه، إذ لم يغفل عن طاعته.

[**ولم تعم عليه مشبهات الأمور**] أي: لم تظلم في وجهه وقلبه شبهة

ظافراً بفرحة البشرى وراحة النعمى في أنعم نومة وأمن يومه قد عبر معبر العاجلة وقدّم زاد الآجلة سعيداً وبادر من وجل وأكثر في مهل ورغب في طلب

على حق فينسد عليه وجه تخليصه منها كما مرّت الإشارة إليه فإنّ أولياء اللّه ضياؤهم في الشبهات اليقين

[**ظافراً**] قد ظفر [**بفرحة البشرى**] أي بشرى الملائكة يومئذ ﴿بُشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ .

[**وراحة النعمى**] أي الراحة من مشاق الدنيا ومتاعبها بنعيم الآخرة في جنان اللّه ورضوانه [**في أنعم نومة**] أي في أطيب راحة، وأطلق لفظ النوم على الراحة في الجنة مجازاً من إطلاق الملزوم على اللازم.

[**وأمن يومه**] أي أمن أوقاته، وأطلق اليوم على مطلق الوقت مجازا إطلاق الجزء على الكل.

[**قد عبر معبر العاجلة**] أي الدنيا اقتباس من قوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة﴾ حميداً أي محمود الطريقة [**وقدّم زاد الآجلة**] أي الدار الآخرة [**سعيداً**] حيث جعل عمله خالصاً للآخرة وسعى لها سعيها وقع على السعادة الأبديّة وحميداً وسعيداً حالان.

[**وبادر**] إلى الأعمال الصالحة وتحصيل الملكات الفاضلة [**من وجل**] خوف اللّه.

[**وأكثر**] أي أمضى عزمه وأسرع إلى طاعة ربّه [**في مهل**] أي في أيام مهلته وهي حياته الدنيا [**ورغب في طلب**] أي كانت رغبته فيما عند اللّه مقرونة بطلبه له أي كان في طلبه اللّه عن رغبة للّه.

وذهب عن هرب وراقب في يومِ غده ونظر قدماً أمامه فكفى بالجنّة ثواباً ونوالاً وكفى بالنار عقاباً ووبالاً وكفى باللّه منتقماً ونصيراً وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً أُوصيكم بتقوى اللّه الذي أعذر بما أنذر به

[**وذهب عن هرب**] أي كان ذهابه عما يبعد عن اللّه عن هرب من خوف اللّه، وفي كلّ قرينتين من هذه العشر السجع المتوازي.

[**وراقب في يوم غده**] أي: توقّع في أيّام حياته هجوم آخرته.

[**ونظر قدماً أمامه**] أي لم يلتفت في نظره عن قصد اللّه إلى غيره، ثمّ نبّه عليه السلام على وجوب السعي للآخرة دون غيرها بقوله:

[**فكفى بالجنّة ثواباً ونوالاً**] أي: عطاء على وجوب السعي لها.

[**وكفى بالنار عقاباً ووبالاً**] على وجوب الهرب منها دون غيرها.

[**وكفى باللّه منتقماً ونصيراً**] تنبيه على وجوب الاقتصار على خشيته والاستعانة به.

[**وكفى بالكتاب حجيجاً**] أي محتجاً [**وخصيماً**] وفيه تنبيه على وجوب الانفعال عنه، ونسب الاحتجاج والخصام إلى الكتاب مجازاً، والمنصوبات بكفى على التميز، وباللّه التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم عاد عليه السلام إلى الأمر بالتقوى والحث عليها باعتبار أُمور ثلاثة:

أحدها: اعذاره إلى الخلق بما أنذرهم به من العقوبات.

الثاني: احتجاجه عليهم بما أوضحه بالدلائل والبيّنات.

الثالث: تحذيره لهم إبليس وعداوته، فقال:

[**أُوصيكم**] عباد اللّه [**بتقوى اللّه الذي أعذر**] الخلق وقطع اعذارهم [**بما أنذر به**] من الرسل والكتب لئلا يقولوا ﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ .

واحتجّ بما نهج وحذّركم عدواً نفذ في الصدور خفيّاً ونفث في الآذان نجيّاً فأضلّ فأردى ووعد ومنى وزيّن سيّئات الجرائم وهوّن موبقات العظائم حتّى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينة

[**واحتجّ**] عليكم [**بما نهج**] لكم من المنهاج الواضح والسبيل اللائح.

[**وحذّركم عدوّاً**] وهو الشيطان الرجيم ﴿إنّ الشيطان لكم عدوّ فاحذروه﴾، ﴿إنّ الشيطان للإنسان عدوّ مبين﴾.

[**نفذ في الصدور خفيّاً**] هو على ظاهره، وربّما جعل إشارة إلى النفس الأمّارة بالسوء، وتجوز بلفظ الصدور في القلوب إطلاقاً لاسم المكان على المتمكّن، وقال تعالى: ﴿الخنّاس الّذي يوسوس في صدور الناس﴾.

[**ونفث في الآذان نجيّاً**] قيل: هو إشارة إلى مايلقيه شياطين الإنس بعضهم إلى بعض من زخرف القول وغروره.

[**فأضلّ**] قوم ومن أتبعه وجذبهم عن طريق اللّه ومنهجه القويّ.

[**فأردى**] فأرداهم في قرار الجحيم والعذاب الأليم.

[**ووعد**] قومه [**ومنى**] ببلوغ الآمال الطوال الكاذبة.

[**وزيّن**] لهم [**سيّئات الجرائم**] أي: قبائح المعاصي.

[**وهوّن**] عليهم [**موبقات العظائم**] أي: المهلكات من عظائم الذنوب بأنّ مناهم التوبة وغرّهم بأنّ اللّه غفور رحيم واسع كريم، ورحمته وسعت كلّ شيء، وأين تقع معاصيكم من رحمته.

[**حتّى إذا استدرج قرينته**] إشارة إلى النفس الناطقة باعتبار موافقته.

[**واستغلق رهينة**] إشارة إليها أيضاً باعتبار إحاطة الذنوب بها من قبله، كما يستعلق الرهن بماعليه من المال ولفظ الرهينة مستعار، واستدراجه لا

أنكر مازيّن، واستعظم ماهوّن وحذّر ما أمّن أم هذا الّذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشُغُف الأستار

بزينته حالاً بعد حال وتعويدها بطاعته.

[**أنكر مازيّن، واستعظم ماهوّن وحذّر ما أمّن**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك إنّي أخاف اللّهَ ربّ العالمين﴾ وقوله تعالى: ﴿نكص على عقبيه وقال إنّي بريء منكم﴾ .

ومنها
في صفة خلق الإنسان

وبيان حاله من مبدأ عمره إلى آخره، وبيعان نعم اللّه عليه ترديده في أطوار الخلقة وتبكيته بمقابلة نعمه بالكفران والغفلة بمتابعة الشيطان وتذكيره بالموت ومابعده، فقال عليه السلام:

[**أم هذا الّذي أنشأه في ظلمات الأرحام**] أم للإستفهام في معرض التقريع للإنسان، وكان «أم» معادلة لهمزة الإستفهام قبلها، والتقدير أليس فيما أظهر اللّه لكم من عجائب مصنوعاته عبرة أم هذا الإنسان وتقلّبه في أطوار خلقته وحالاته إلى يوم بعثه ونشوره، قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ .

وفي بعض النسخ: أو هذا الّذي والمعنى واحد.

[**وشُغُف الأستار**] بالغين المعجمة، جمع شغاف بالفتح، وهو غلاف

نطفة دفاقاً وعلقة محاقاً وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً ثمّ منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً وبصراً لاحظاً ليفهم معتبراً

القلب، إشارة إلى مافي ذلك من الدلالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، حيث أوجد وربّاه ونماه، وهو في الظلمات ظلمة البطن وظلمة المشيمة وظلمة الرحم، مستور بالأستار العظيمة محجوب بالحجب الجسيمة، لاتراه عين ولاتصل إليه يد، ولايدخل إليه داخل، ولايخرج منه خارج، فسبحان من أكلمه وربّاه وساق إليه رزقه وهو بهذه المكانة.

[**نطفة دفاقاً**] الدفاق المفرعة.

[**وعلقة محاقاً**] والمحاق: الناقصة، ووصفت بذلك لأجل أنّها لم يغض عليها بعد الصورة الإنسانيّة.

[**وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً**] هو مادام في بطن أُمّه جنين لاجتنابه واستتاره في بطنها، ثمّ هو رضيع مادام يرضع وبعده وليد، فإذا ارتفع قيل يافع فإذا طرّ شاربه فهو غلام، فإذا أدرك فهو رجل، وللرجوليّة ثلاثة حدود: الشباب، وهو إلى تمام النموّ، وبعده الكهولة، وبعدها الشيخوخة.

[**ثمّ منحه**] أي: أعطاه [**قلباً حافظاً**] للأشياء معتبراً بها مستدلاً بها على صانعها.

[**ولساناً لافظاً**] معبراً عن مراده مفهماً مقصوده.

[**وبصراً لاحظاً**] لماينفعه ويضرّه، ثمّ أشار إلى ذكر فوائدها وغاياتها الّتي خلقت لأجلها، فقال:

[**ليفهم**] بقلبه الأشياء [**معتبراً**] بها مستنبطاً من شواهدها معرفة صانعه، ويعبّر بها إلى استكمال الفضائل النفسانيّة.

ويقصر مزدجراً حتّى إذا قام اعتداله واستوِ مثاله نفر مستكبراً وخبط سادراً، ماتحاً في غرب هواه كادحاً سعيه لدنياه في لذّات طربه، وبدوات أربه لايحتسب رزيّة

[**ويقصّر مزدجراً**] أي: يكفّ عمّا لاينبغي من موبقات الآثام، ومن الخوض فيما لايعنيه من فضول الكلام.

[**حتّى إذا قام اعتداله واستوِ مثاله**] وقويت جثّته وكملت قوّته.

[**نفر مستكبراً**] عن طاعة مولا متبعاً لشيطانه وهواه، ﴿أفرأيت مَن اتّخذ إلهه هواه﴾ .

[**وخبط سادراً، ماتحاً**] والسادر: اللاهي الذي لايهتمّ بشيء، والماتح: المستقي الجاذب للدلو من البئر.

[**في غرب هواه**] استعار لفظ الغرب لهواه الّذي به تملأ صحائف الأعمال من المآثم، كما يملأ ذوالغرب غربه من الماء، ورشح تلك الإستعارة بلفظ المتح.

[**كادحاً سعيه لدنياه**] الكدح: السعي وهو وسائر المنصوبات العشرون نطفة، وعلقة، وجنيناً، وراضعاً، ووليداً، ويافعاً، ومزدجراً، ومستكبراً، وماتحاً، وكادحاً إلى آخرها كلّها أحوال، والعامل في كلّ حال مايليه من الأفعال، وسعياً إمّا مفعول به والعامل كدحاً، أو مصدر استغنى عن ذكر فيه.

[**في لذّات طربه، وبدوات أربه**] البدوات: الخطرات الّتي تبدو له من الخواطر، وتظهر للخاطر جمع بدوه، والأرب المطالب والحاجات.

[**لايحتسب رزيّة**] أي: مصيبة تصيبه.

ولا يخشع تقيّة، فمات في فتنته وعاش في هفواته يسيراً لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً دهمته فجعات المنيّة في غُبّر جماحه وسنن مراحه فظلّ سادراً وبات ساهراً في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع، بين أخ شقيق، ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادة للصدر قلقاً والمرء في سكرة ملهية

[**ولا يخشع تقيّة، فمات في فتنته**] أي: مات وهو متلبّس بفتنة الأهل والمال والولد والدنيا وزينتها غريراً مغروراً بها، غافلاً عن عواقبها.

[**وعاش في هفواته يسيراً**] صفة ظرف محذوف، أي: زماناً يسيراً، وفي رواية أسيراً، فيكون حالاً، واستعار الأسير للعاصي، ووجه الشبه أنّ العاصي وصاحب الزلّة يقوده هواه إلى هوائه كما يقاد الأسير إلى مايكرهه.

[**لم يفد عوضاً**] أي: لم يستفد في الدنيا عوضاً عمّا يفوته منها في الآخرة.

[**ولم يقض مفترضاً**] عليه من العلوم والفرائض والأخلاق.

[**دهمته**] بكسر الهاء أي: غشيته [**فجعات المنيّة في غُبّر جماحه**] غبر الشيء بقيّته، وجماحه سعيه في ركوب هواه.

[**وسنن مراحه**] أي: طرق سعيه الّتي هي على غير القانون الشرعيّ.

[**فظلّ سادراً**] أي: متحيّراً [**وبات ساهراً في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع، بين أخ شقيق، ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادة للصدر قلقاً**] واللدم: ضرب الصدر.

[**والمرء في سكرة ملهية**] الواو للحال، والعامل لادمة، أي: والحال أنّ المرء في سكرة من سكرات الموت، ملهية له عن جميع ذلك.

وغمرة كارثة وأنّه موجعة وجذبة مكربة وسَوْقَة متعبة ثمّ أُدرج في أكفانه مبلساً وجذب منقاداً سلساً ثمّ أُلقي على الأعواد رجيع وصب ونضو سقم تحمله حفدة الولدان وحشدة الإخوان

[و] في [**غمرة**] من غمرات الموت [**كارثة**] أي: موجبة لشدّة الغم.

[**وأنّه موجعة**] منه لقلوب الواجدين عليه.

[**وجذبة**] من الملائكة لروحه [**مكربة**] موجبة للكرث، قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم﴾ الآية.

[**وسَوْقَة متعبة**] إشارة إلى الملائكة تسوق الروح، كما قال: ﴿إلى ربّك يومئذ المساق﴾.

[**ثمّ أُدرج في أكفانه مبلساً**] والإبلاس: اليأس أي: آيساً من الرجوع إلى الدناي.

[**وجذب**] من الدنيا إلى الدار الآخرة [**منقاداً سلساً**] سريع الإنقياد.

[**ثمّ أُلقي على الأعواد**] الّتي يحمل عليها إلى قبره.

كلّ ابن انثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة الجذباء محمول

[**رجيع وصب**] أي: يترد في التعب مرّة بعد أُخرى.

[**ونضو**] أي: مهزول [**سقم**] استعار وصفي الجمل الرجيع وهو الجمل المردّد في الأسفار البالي فيها للمريض باعتبار تردّده في أطوار المرض المبتلى به، ولفظ النضو وهو الجمل الناحل من السير له، باعتبار نحوله من الأسقام.

[**تحمله حفدة الولدان**] أي: أعوانهم [**وحشدة الإخوان**] الحشدة بفتح

إلى دار غربته، ومنقطع وذرته حتّى إذا انصراف المشيّع، ورجع المنفجع، أُقعد في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال، وعثرة الإمتحان

الحاء والشين: المجتمعون.

[**إلى دار غربته، ومنقطع وذرته**] أي: مكان ينقطع عنه زوّاره.

[**حتّى إذا انصراف المشيّع، ورجع المنفجع، أُقعد في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال، وعثرة الإمتحان**] هذا إشارة إلى عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، ويجب الإقرار به، لأنّه ممّاأجمع عليه المسلمون، وجاء في الكتاب والسنّة، وماتستبعده العقول القاصرة، والأذهان الخاسرة من إنّا إذا جلسنا مع الميّت ولم تفارقه لم نر عذاباً ولا سؤالاً، ومن إنّا نختم فاه أو نجعل فيه دخناً ثمّ نأتي بعد أيّام فنجده على حاله، وهذا ينافي إقعاده وسؤاله وعذابه، مع أنّ بدنه وكفنه على حالته الّتي ترك عليها، فهو خيال فاسد، ووهم كاسد، فإنّ العالم البرزخي من عالم الملكوت، وهذه العين والحواسّ من عالم الملك والشهادة، فلا تشعر هذه بتلك، فإنّ الصحابة كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وتلاوة القرآن عليه، والنبيّ يشاهده ويراه ويكلّمه وهم لايشاهدونه ولايسمعون كلامه، فكذا منكر ونكير وفعلهما، والحيّات والعقارب في القبر يجب الإيمان بها وإن لم نرها، لأنّها ليست من جنس هذا العالم، وإن أردت مثالاً لذلك دفعاً لاستبعاد وهمك فتذكّر مايراه النائم من صورة شخص هائل يضربه أو يقتله أو حيّة تلدغه وهو يتألّم بذلك ويستغيث فلايغاث، حتّى ربما سمع صياحه في نومه ويعرق جبينه وينزعج من مكانه، وكلّ ذلك يدركه من نفسه، ويشاهده ويتأذّى به، كما يتأذّى اليقظان، وأنت معه ترى ظاهره ساكناً، ولا ترى حوله شيئاً، ثمّ قال عليه السلام:

وأعظم ما هنالك بليّة نزول الجحيم وفورات السعير، لافترة مريحة، ولا دعة مزيحة ولا قوّة حاجزة ولا موتة ناجزة ولا سنة مسلّية بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات إنّا باللّه عائذون

[**وأعظم ما هنالك بليّة نزول الجحيم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾.

[**وفورات السعير، لافترة مريحة، ولا دعة مزيحة**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون لايفتر عنهم العذاب وهم فيه مبلسون﴾.

[**ولا قوّة حاجزة**] بينهم وبين العذاب.

[**ولا موتة ناجزة**] لانقطاع الموت عنهم، فإنّه يؤتى به في صورة كبش، ويذبح بين الجنّة والنار، ويقال: هذا الموت قد ذبح، فلا موت، بل هو الخلود أبداً.

[**ولا سنة**] وهي مقدّمة النوم من النعاس [**مسلّية بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات**] إشارة إلى شدّة آلامهم ومايلقونه من أليم العذاب، المستلزم لعدم النوم، فلا سلوة إذاً بين حالات سكرات العذاب، وإطلاق لفظ الموتات مجازي في شدّة العذاب، إطلاقاً لذي الغاية على مايصلح غاية له.

[**إنّا باللّه عائذون**] من عذابه، وبه مستجيرون من عقابه، وإليه متضرّعون، بأن يرحم هذه النفس الجزوعة، والرمة الهلوعة، الّتي لاتستطيع حرّ شمسه، فكيف تستطيع حرّ ناره، والّتي لاتستطيع صوت رعده، فكيف تستطيع صوت غضبه، فارحمني اللّهمّ فإنّي امرؤ حقير، وخطري يسير،

عباد اللّه! أين الّذين عُمِّروا فنعموا وعلموا وانظروا فلهوا أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحُذّروا أليماً ووعدوا جسيماً احذروا الذنوب المورطة والعيوب المسخطة ياأولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع هل من مناص

وليس عذابي ممّا يزيد في ملكك مثقال ذرّة، ولو أنّ عذابي ممّا يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه، وأحببت أن يكون ذلك لك، ولكن سلطانك اللّهم أعظم، وملكك أدوم من أن تزيده طاعة المطيعين، أو تنقصه معصية المذنبين، فارحمنا ياأرحم الراحمين.

[**عباد اللّه! أين الّذين عُمِّروا**] العمر الطويل [**فنعموا**] بالعيش الرغيد الجزيل [**وعلموا**] ما فيه صلاحهم وفسادهم، ففهموا ذلك.

[**وانظروا**] ماأمهلوا [**فلهوا**] بشهوات الدنيا الفانية، وغفلوا عن الآخرة الباقية.

[**أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحُذّروا أليماً**] من العذاب [**ووعدوا جسيماً**] من الثواب، فكفروا بتلك النعم، واشتغلوا بلذّات الدنيا عن أوامر اللّه ونواهيه وطاعاته ومراضيه، ونسوا ماذكّروا به ودعوا إليه.

[**احذروا الذنوب المورطة**] أي: الّتي توقعكم في الورطة والهلاك.

[**والعيوب المسخطة**] لربّ الأرباب وقاصم الرقاب، المطّلع على السرائر العالم بما في الضمائر.

[**ياأُولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع**]:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

[**هل من مناص**] أي: ملجا من أمر اللّه.

أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو مجار أم لا شيء فأنّى تؤفكون؟ أم أين تصرفون أم بماذا تفترون وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قِيَد قدّه متعفّراً على خدّه الآن

[**أو**] هل من [**خلاص**] من عقاب اللّه.

[**أو معاذ**] تعوذون به من الحساب.

[**أو ملاذ**] تلوذون به من العقاب.

[**أو فرار**] يفرّ إليه.

[**أو مجار**] أي: مرجع يجيركم منه.

[**أم لا شيء**] من ذلك، فما هذه الغفلة العظيمة؟

[**فأنّى تؤفكون؟ أم أين تصرفون**] عن غوايتكم.

[**أم بماذا تفترون**] وإنّما خص أُولي السماع والأبصار بالعافية لكونهم أهل التكاليف التامّة والعقول داخلة في إشارته إمّا بالأبصار والأسماع مجازاً، أو في العافية، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى فقد عقولهم، لأنّ العقل ماعُبِد به الرحمن، واكتُسب به الجنان، وإنّما خصّ أُولي المتاع لأنّ أهل الإستمتاع بالدنيا هم المجذوبون عنها من جهة اشتغالهم بمتاعها عن سلوك سبيل اللّه، والإستفهام إنكاريّ، وأم معادلة لهل الإستفهاميّة، ثمّ شرع عليه السلام في تذكّرهم بالقبر، فقال:

[**وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قِيَد قدّه**] أي: قدر قامة، إشارة إلى قبره الّذي تمدّ قامته فيه.

[**متعفّراً على خدّه**] المنعفر المترب، والعفر: التراب.

[**الآن**] أي: فاغتنموا الفرصة الآن، كنّى به عن مدّة الحياة.

عباد اللّه والخناق مهمل والروح مرسل في فينة الإرتياد وراحة الأجساد ومهل البقيّة وأنف المشية وأنظار التوبة وانفساح الحوبة

[**عباد اللّه والخناق مهمل**] كنّى بالخناق عن الموت الّذي يؤخذ به أعناق النفوس إلى بارئها، كناية بالمستعار، ووجه الشبه أنّ كلاً منهما مكروه يقاربه إلى مكروه، ورشح الإستعارة بذكر الإهمال، وكنّى به عن مدّة الإمهال في الحياة الدنيا، وكذا قوله:

[**والروح مرسل**] أراد بإرسالها إمهالها [**في فينة**] أي: حين [**الإرتياد**] أي: زمان طلب النفوس لما يستعدّ به من الكمال للقاء اللّه.

وفي رواية الإرشاد: أي: إرشاد النفوس إلى سبيل اللّه.

[**وراحة الأجساد ومهل البقيّة**] أي: بقيّة الأعمال [**وأنف المشية**] أنف الشيء: أوّله، والمشيّة الإرادة، أي: أوّل الإرادات للنفوس، ولعلّه لما قيل أنّه ينبغي أن يكون أوّل زمان الإنسان وأوائل ميول قلب إلى طاعة اللّه والإنقياد لأوامره، ليكون مايرد على لوح نفسه من الكمالات المستعدّة في الآخرة وارداً على لوح صاف عن كدر الباطل، وأنّه متى عكس ذلك فجعل أوّل ميل إلى المعاصي اسودّ وجه نفسه بملكات السوء، فلم يكد يقبل بعد ذلك الإستضاءة بنور الحقّ، فكان من الأخسرين أعمالاً، وقوله:

[**وأنظار التوبة**] أي: امهال اللّه العصاة لأجلها.

[**وانفساح الحوبة**] أي: اتّساع زمان العمل للحاجة في الآخرة، والإضافة لادنى ملابسة، لأنّ كلّ حاجة فرضها الإنسان في الدنيا قد لاتكون في محلّ الضرورة، ولو فرض كونها في محلّ ضرورة فهو معارض بكونها مرجوّة الزوال بخلاف الحاجة والضرورة في الآخرة إلى الأعمال

قبل الضنك والمضيق والروع والزهوق قبل قدوم الغائب المنتظر وأخذة العزيز المقتدر عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دُعابة، وأنّي امرؤ تلعابة أُعافس وأُمارس

الصالحة، فإنّه لايمكن زوالها بعد المفارقة، ولامتّسع للعمل لها إلاّ في الدنيا، فكان أهلها منها في أشدّ ضرورة، وقوله:

[**قبل الضنك والمضيق**] إشارة إلى انحصار الإنسان في أغلال الهيئات البدنيّة.

[**والروع والزهوق**] إشارة إلى الفزع الأكبر من أهوال الموت ومابعده، وقوله:

[**قبل قدوم الغائب المنتظر**] كناية عن الموت وقدومه هجومه، ولما استعار له لفظ الغائب مراعاة لشبهه بمسافر ينتظر رشح تلك الإستعارة بلفظ القدوم.

[**وأخذة العزيز المقتدر**] كناية عن جذب الأرواح وأخذها بحكم قدرة اللّه العزيز الّذي لايذل، والقادر الّذي لايمتنع منه.

وفي الخبر: أنّه عليه السلام لّما خطب هذه الخطبة اقشعرّت لها الجلود وبكت لها العيون ورجفت القلوب، ومن الناس من يسمّي هذه الخطبة الغرّاء.

ومن كلام له عليه السلام
في ذكر عمرو بن العاص

[**عجباً لابن النابغة**] نبغ الشيء ظهر، وسمّيت أُمّ عمرو بذلك لما قيل من شهرتها بالفجور وتظاهرها به، وكنّى عنه بأُمّه لأنّ عادة العرب النسبة إلى الأمّ إذا كانت مشهورة بشرف أو صفة.

[**يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دُعابة، وأنّي امرؤ تلعابة أُعافس وأُمارس**]

وأعظم ماهنالك بلية نزل الحميم وتصلة الجحيم وفورات السعير، لا فترة مريحة، ولا دعة مزيحة

الدعابة: المزاح، والتلعابة: كثرة اللعب، والتاء للمبالغة، والمعافسة: المداعبة، والممارسة: المعالجة بالمصارعة والفرض ونحوه.

وروي أنّ ابن العاص كان يقول لأهل الشام: إنّما أخّرنا عليّاً لأنّ فيه هزلاً لا جدّ معه، وقد كان أبوه العاص يقول: إنّ رسول الله ساحر، فنجده على حاله.

وهذا ينافي إقعاده وسؤاله وعذابه، مع انّ بدنه وكفنه على حالته الّتي ترك عليها فهو خيال فاسد، ووهم كاسد، فإنّ العالم البرزخي من عالم الملكوت، وهذه العين والحواسّ من عالم الملك والشهادة، فلا تشعر هذه بتلك، فإنّ الصحابة كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل على النبيّ ﷺ وتلاوة القرآن عليه، والنبيّ يشاهده ويراه ويكلّمه، وهم لا يشاهدونه ولا يسمعون كلامه، فكذا منكر ونكير وفعلهما والحيّات والعقارب في القبر يجب الإيمان بها، وإن لم نرها ليست من جنس هذا العالم، وإن أردت مثالاً لذلك دفعاً لاستبعاد وهمك فتذكر مايراه النائم من صورة شخص هائل يضربه أو يقتله أو حيّة تلدغه وهو يتألّم بذلك، ويستغيث فلا يغاث، حتّى ربما سمع صياحه في نومه ويعرق جبينه وينزعج من مكانه، وكلّ ذلك يدرك من نفسه ويشاهده ويتأذّى به، كما يتأذّى اليقظان، وأنت معه ترى ظاهره ساكناً، ولا ترى حوله شيئاً. ثمّ قال عليه السلام:

[**وأعظم ماهنالك بلية نزل الحميم وتصلة الجحيم**] إشارة إلى قوله تعالى:

﴿وأمّا من كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾.

[**وفورات السعير، لا فترة مريحة، ولا دعة مزيحة**] إشارة إلى قوله

ولا قوّة حاجزة ولا موتة ناجزة ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات ﴿إنّا باللّه عائذون عباد اللّه أين الّذين عمّروا فنعّموا

تعالى: ﴿إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون لايفتّر عنهم العذاب هم فيه مبلسون﴾.

[**ولا قوّة حاجزة**] بينهم وبين العذاب.

[**ولا موتة ناجزة**] لانقطاع الموت عنهم، فإنّه يؤتى به في صورة كبش ويذبح بين الجنّة والنار، ويقال: هذا الموت قد ذبح، فلا موت، بل هو الخلود أبداً.

[**ولا سنة**] وهي مقدّمة النوم من النعاس [**مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات**] إشارة إلى شدّة آلامهم ومايلقونه من أليم العذاب المستلزم لعدم النوم، فلا سلوة إذاً بين حالات سكرات الموت العذاب، وإطلاق لفظ الموتات مجازي في شدّة العذاب إطلاقاً لذي الغاية على مايصلح غاية له.

﴿**إنّا باللّه عائذون**] من عذابه، وبه مستجيرون من عقابه، وإليه متضرّعون بأن يرحم هذه النفس الجزوعة، والرمية الهلوعة، الّتي لاتستطيع حقّ شمسه، فكيف تستطيع حرّ ناره، والّتي لاتستطيع صوت رعده، فكيف تستطيع صوت غضبه، فارحمني اللّهمّ فإنّي امرؤ حقير، وخطري يسير، وليس عذابي ممّا يزيد في ملكك مثقال ذرّة، ولو أنّ عذابي ممّا يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه، وأحببت أن يكون ذلك لك، ولكن سلطانك اللّهمّ أعظم وملكك أدوم من أن تزيده طاعة المطيعين، أو تنقصه معصية المذنبين، فارحمنا ياأرحم الراحمين.

[**عباد اللّه أين الّذين عمّروا**] العمر الطويل [**فنعّموا**] بالعيش الرغيد

وعملوا ففهموا وانظروا فلهوا أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحذروا أليماً ووعدوا جسيماً احذروا الذنوب المورطة والعيوب المسخطة يا أُولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع هل من مناص خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو مجار أم لا فأنّى تؤفكون، أم أين تصرفون أم بماذا تفترون

الجزيل [**وعملوا**] ما فيه صلاحهم وفسادهم [**ففهموا**] ذلك.

[**وانظروا**] ما أمهلوا [**فلهوا**] بشهوات الدنيا الفانية وغفلوا عن الآخرة الباقية.

[**أُمهلوا طويلاً، ومنحوا جميلاً، وحذروا أليماً**] من العذاب [**ووعدوا جسيماً**] من الثواب، فكفروا بتلك النعم واشتغلوا بلذّات الدنيا عن أوامر اللّه ونواهيه وطاعاته ومراضيه، نسوا ما ذكّروا به ودعوا إليه.

[**احذروا الذنوب المورطة**] أي: الّتي توقعكم في الورطة والهلاك.

[**والعيوب المسخطة**] لربّ الأرباب، وقاصم الرقاب، المطّلع على السرائر، العالم بما في الضمائر.

[**يا أُولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع**] لقد اسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي.

[**هل من مناص**] أي: ملجأ من أمر اللّه، أو هل م [**خلاص**] من عقاب اللّه [**أو معاذ**] تعوذون به من الحساب.

[**أو ملاذ**] تلوذون به من العقاب. [**أو فرار**] يفرّ إليه. [**أو مجار**] أي: مرجع يجيركم منه. [**أم لا**] شيء من ذلك، فما هذه الغفلة العظيمة.

[**فأنّى تؤفكون، أم أين تصرفون**] عن غوايتكم.

[**أم بماذا تفترون**] وإنّما خصّ أُولي الأسماع والأبصار بالعافية لكونهم

وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قيد قدّه متعفّراً على خدّه الآن عباد اللّه والخناق مهمل والروح مرسل في فينه الإرتياد وراحة الأجساد، ومهل البقيّة وأنف المشية

أهل التكاليف التامّة، والعقول داخلة في إشارته إمّا بالأبصار والأسماع مجازاً أو في العافية، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى نقد عقولهم، لأنّ العقل ماعُبد به الرحمن واكتسب به الجنان. وإنّما خصّ أُولي المتاع لأنّ أهل الإستمتاع بالدنيا هم المجذوبون عنها من جهة اشتغالهم بمتاعها عن سلوك سبيل اللّه، والإستفهام إنكاريّ، وأم معادلة لهل الإستفهاميّة.

ثمّ شرع عليه السلام في تذكّرهم بالقبر، فقال:

[**وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطول والعرض قيد قدّه**] أي: قدر قامته، إشارة إلى قبره الّذي تمدّ قامته فيه.

[**متعفّراً على خدّه**] المعفر المترب، والعفر التراب [**الآن**] أي: فاغتنموا الفرصة الآن، كنّى به عن مدّة الحياة.

[**عباد اللّه والخناق مهمل**] كنّى بالخناق عن الموت الّذي يؤخذ به أعناق النفوس إلى بارئها، كناية بالمستعار، ووجه الشبه أنّ كلاً منهما مكروه يقاربه إلى مكروه، ورشح الإستعارة بذكر الإهمال، وكنّى به عن مدّة الإمهال في الحياة الدنيا.

وكذا قوله: [**والروح مرسل**] أراد بإرسالها إمهالها [**في فينه**] أي: حين [**الإرتياد**] أي زمان طلب النفوس لما يستعدّ به من الكمال للقاء اللّه.

وفي رواية الإرشاد: أي إرشاد النفوس إلى سبيل اللّه.

[**وراحة الأجساد، ومهل البقيّة**] أي: بقيّة الأعمار [**وأنف المشية**] أنف

وأنظار التوبة وانفساح الحوبة قبل الضنك والمضيق والروع الزهوق وقبل قدوم الغائب المنتظر

الشيء: أوّله، والمشيئة الإرادة، أي: أوّل الإرادات للنفوس، ولعلّه لما قيل أنّه ينبغي أن يكون أوّل زمان الإنسان وأوائل ميول قلبه إلى طاعة اللّه والإنقياد لأوامره ليكون مايرد على لوح نفسه من الكمالات المستعدّة في الآخرة وارداً على لوح صاف عن كدر الباطل، وأنّه متى عكس ذلك فجعل أوّل ميله إلى المعاصي اسودّ وجه نفسه بملكات السوء، فلم يكد يقبل بعد ذلك الإستضاءة بنور الحقّ، فكان من الأخسرين أعمالاً.

وقوله: [وأنظار التوبة] أي: إمهال اللّه العصاة لأجلها.

[وانفساح الحوبة] أي: اتّساع زمان العمل للحاجة في الآخرة، والإضافة لأدنى ملابسة، لأنّ كلّ حاجة فرضها الإنسان في الدنيا قد لاتكون في محلّ الضرورة، ولو فرض كونها في محلّ ضرورة فهو معارض بكونها مرجوّة الزوال، بخلاف الحاجة والضرورة في الآخرة إلى الأعمال الصالحة، فإنّه لايمكن زوالها بعد المفارقة، ولا متّسع للعمل لها إلاّ في الدنيا، فكان أهلها منها في أشدّ ضرورة.

وقوله: [قبل الضنك والمضيق] إشارة إلى انحصار الإنسان في أغلال الهيئات البدنيّة [والروع الزهوق] إشارة إلى الفزع الأكبر من أهوال الموت ومابعده.

وقوله: [وقبل قدوم الغائب المنتظر] كناية عن الموت وقدومه هجومه، ولما استعار له لفظ الغائب مراعاة لشبهه بمسافر ينتظر رشح تلك الإستعارة بلفظ القدوم.

وأخذة العزيز المقتدر عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دعابة، وإنّي امرؤ تلعابه اعافيس وامارس

[**وأخذة العزيز المقتدر**] كناية عن جذب الأرواح وأخذها بحكم قدرة اللّه العزيز الّذي لايذلّ، والقادر الّذي لايمتنع منه.
وفي الخبر أنّه عليه السلام لمّا خطب هذه الخطبة اقشعرّت لها الجلود، وبكت لها العيون، ورجفت القلوب، ومن الناس من يسمّي هذه الخطبة الغرّاء.

ومن كلام له عليه السلام
في ذكر عمروبن العاص

[**عجباً لابن النابغة**] نبغ الشيء ظهر، وسمّيت أمّ عمرو بذلك لما قيل من شهرتها بالفجور وتظاهرها به، وكنّى عنه بأمّه لأنّ عادة العرب النسبة إلى الأمّ إذا كانت مشهورة بشرف أو منعة.
[**يزعم لأهل الشام أنّ فيَّ دعابة، وإنّي امرؤ تلعابه اعافيس وامارس**] الدعابة: المزاح، والتلعابة كثرة اللّعب، والتاء للمبالغة، والمعافسة المداعبة والممارسة المعالجة بالمصارعة والفرض ونحوه.
وروي انّ ابن العاص كان يقول لأهل الشام: إنّما أخّرنا عليّاً لأنّ فيه هزلاً لا جدّ معه، وقد كان أبوه العاص يقول: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله ساحر.

وانتفعوا بالذكر والمواعظ فكان قد علقتكم مخالب المنيّة وانقطعت عنكم علائق الأُمنيّة ودهمتكم مفظعات الأمور والسياقة إلى الورد المورود ﴿وكلّ نفس معها سائق وشهيد﴾

بسببه والنذر جمع نذير، وهو المخوّف، أو نفس الإنذارات، أي: وعيداته البالغة حدّ الكمال في التخويف والزجر عند اعتبارها.

[**وانتفعوا بالذكر والمواعظ**] أمر بتحصيل ثمرة الذكر والموعظة عنهما، وختم هذه الأوامر بذكر الإنتفاع ترغيباً وجذباً للنفوس إلى الذكر وقبول المواعظ.

[**فكان**] مخفّفه واسمها ضمير الشأن، أي: فكأنّه [**قد علقتكم مخالب المنيّة**] استعار المخالب للمنيّة، استعارة بالكناية، وشحّ بذكر العلائق ملاحظاً في ذلك تشبيه المنيّة بالسبع الّذي يهجم ويتوقّع أفراسه.

[**وانقطعت عنكم علائق الأُمنيّة**] إشارة إلى ماينقطع عن الميّت انقطاع أمله من مال وجاه وسائر ماكانت تتعلّق به آماله من علائق الدنيا ومتاعها.

[**ودهمتكم مفظعات الأُمور**] أي: شدائدها الشنيعة أفظع الأمر فهو مفظع، ويجوز فظع الأمر بالضمّ فظاعة فهو فظيع، وأفظع الرجل بالبناء للمجهول، أي: نزل به ذلك، وهي إشارة إلى مايهجم على الميّت من سكرات الموت وعذاب القبر وأهوال الآخرة.

[**والسياقة**] أي: ودهمتكم السياقة، أي: السوقة المتعبة الّتي مرّ ذكرها.

[**إلى الورد المورود**] أي: المحشر [**﴿وكلّ نفس معها سائق وشهيد﴾**] اقتباس من قوله تعالى: ﴿وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد﴾، ثمّ فسّر

سائق يسوقنا إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها في صفة الجنّة: درجات متفاضلات ومنازل متفاوتات لاينقطع نعيمها ولايظعن مقيمها ولايهرم خالدها، ولاييأس ساكنها

ذلك بقوله عليه السلام:

[**سائق يسوقنا إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها**] أي: ملكان يسوقانها، وقيل ملك واحد جامع بين الأمرين، وقال تعالى: ﴿وسيق الّذي كفروا إلى جهنّم زُمراً حتّى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ إلى أن قال: ﴿وسيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زُمراً حتّى إذاجاءوها وفتحت أبوابها﴾ الخ.

ومنها:

[**في صفة الجنّة: درجات متفاضلات ومنازل متفاوتات**] تفاضلت وتفاوتت بحسب أعمال المكلّفين، قال تعالى: ﴿هم درجات عند اللّه﴾ وقال: ﴿يرفع اللّه الّذين آمنوا منكم والّذين أُوتوا العلم درجات﴾ وقال تعالى: ﴿غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار﴾.

[**لاينقطع نعيمها**] كما قال تعالى: ﴿وأمّا الّذين سُعدوا ففي الجنّة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ماشاء ربّك عطاء غيرمجذود﴾ وقال: ﴿إنّ هذا لرزقنا ماله من نفاد﴾ وقال: ﴿أُكُلُها دائم﴾.

[**ولايظعن**] أي: لايرتحل عنها [**مقيمها**] قال تعالى: ﴿أُولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون﴾ وقال تعالى: ﴿لايبغون عنها حولاً﴾.

[**ولايهرم خالدها، ولاييأس ساكنها**] أي: لايصيبه بؤس، لأنّ الهرم مستلزم للتعب والنصب، وكذلك البؤس عن الضعف، وهذه اللوازم منتفية عن أهل الجنّة لقوله تعالى: ﴿الحمد للّه الّذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور

....

شكور الّذي أحلّنا دارالمقامة فمن فضله لايمسّنا فيها نَصَب ولا لغوب﴾ وبانتفاء هذه اللوازم ينتفي ملزومها من الهرم ونحوه.

واعلم إنّه يجب الإيمان بالجنّة والنار الجسمانيّتين، كما استفاضت به الآيات وتواترت به الروايات، وأنّهما مخلوقتان الآن كما عليه جمهو المسلمين، خلافاً لجملة من المعتزلة، قالوا إنّهما سيخلقان.

وقال الصادق عليه السلام: «ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء: المعراج، والمساءلة في القبر، وخلق الجنّة والنار، والشفاعة».

وقال الرضا عليه السلام: «من أنكر خلق الجنّة والنار فقد كذّب النبيّ صلى الله عليه وآله وكذبنا وليس من ولايتنا على شيء وخُلّد في نار جهنّم، قال اللّه عزّوجلّ: ﴿هذه جهنّم الّتي يكذّب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن﴾».

وقال الصدوق (ره): اعتقادنا في الجنّة والنار أنّهما مخلوقتان، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد دخل الجنّة ورأى النار حين عرج به، واعتقادنا أنّه لايخرج أحد من الدنيا حتّى يرى مكانه من الجنّة أو من النار، انتهى.

والجنّة دار البقاء ودار السلامة، لاموت فيها، ولا هرم، ولاسقم، ولا مرض، ولا آفة، ولا زمانه، ولا غمّ، ولا همّ، ولا حاجة، ولا فقر، بل هي دارالفناء والسعادة والمقامة والكرامة لايمسّ أهلها فيها نصب ولا لغوب فيها ماتشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهي دار الطيّبين، ليس بين أهلها بغض ولا حسد ولا عداوة، ولا نزاع، ولا جدال، لايتمنّى أحد مرتبة غيره، وقد استقصينا أوصاف الجنّة والنار ف كتابنا حقّ اليقين.

قد علم السرائر وخبر الضمائر له الإحاطة بكلّ شيء والغلبة لكلّ شيء، والقوّة على كلّ شيء فليعمل العامل منكم في أيّام مهله قبل إرهاق أجله

ومن خطبة له عليه السلام
في الثناء على اللّه تعالى

[**قد علم السرائر**] كما قال تعالى: ﴿يعلم سرّكم ونجواكم﴾ وقال: ﴿يعلم السرّ والنجوى﴾ والسرائر جمع سريرة، وهي مايكتم من السرّ.

[**وخبر الضمائر**] امتحنها وابتلاها، ومن رواها بكسر الياء أراد علم والخبر بضمّ الخاء العلم، والضمائر جمع ضمير، والفقرتان متقاربتان أو مترادفتان.

[**له الإحاطة بكلّ شيء**] علماً، قال تعالى: ﴿أحاط بكلّ شيء علماً﴾ وقال: ﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ وقال: ﴿لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾.

[**والغلبة لكلّ شيء، والقوّة على كلّ شيء**] إشارتان إلى كمال قدرته، ولعلّ الغالب فيه زيادة على القوّة ترجع إلى القهر، ﴿إنّ اللّه على كلّ شيء قدير﴾.

[**فليعمل العامل منكم في أيّام مهله**] المهل المهلة والتؤدة [**قبل إرهاق أجله**] وإرهاق الأجل سرعة لحوقه مصدر رهق أمرهم بالأعمال الصالحة لتكون زاداً لهم في الآخرة، ثمّ تلطّف في جذبهم إليها بتذكيرهم بأنّهم في

وفراغه قبل أجله وشغله، وفي متنفّسه قبل أن يؤخذ بكظمه وليتزوّدوا من دار ظعنه لدار إقامته فاللّه اللّه فيما استحفظكم من كتابه وأستودعكم من حقوقه فإنّه لم يخلقكم عبثاً

أيّام مهلة وفراغ، فليغتنم الإنسان الفرصة في مهله.

[**وفراغه قبل أجله وشغله، وفي متنفّسه**] أي: في سعة وقته، يقال: أنت في نفس من أمرك أي: سعة.

[**قبل أن يؤخذ بكظمه**] بفتح الأولين مخرج النفس، والجمع كظام كناية عن الموت الّذي لايتمكّن بعده من العمل، إذ لم تكن الآخرة دار عمل.

[**وليتزوّدوا**] من التقوى والأعمال الصالحة ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**من دار ظعنه**] بتحريك العين وتسكينها، أي: الدار الفانية الّتي يرتحل منها [**لدار إقامته**] الآخرة الباقية، ثمّ التفت إلى تحذير الناس وتخويفهم مخالفة ربّهم، فقال:

[**فاللّه اللّه**] نصب على الإغراء، أي: اتّقوا اللّه، وكرّر ثانياً بدل الفعل المقدّر.

[**فيما استحفظكم من كتابه**] أي: أمركم بحفظه وتدبّر مافيه والمحافظة على العمل بأوامره ونواهيه المشار إليها، بقوله:

[**وأستودعكم من حقوقه**] وقال: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، ثمّ نبّه عليه السلام على وجوب الحذر وعلّته بقوله:

[**فإنّه لم يخلقكم عبثاً**] خالياً عن الحكمة، بل لتعرفوه وتعبدوه حتّى تفوزوا بالنعيم المقيم والثواب الجسيم، كما قال: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس

ولم يترككم سُدى ولم يدعكم في جهالة ولا عمى قد سمّى آثاركم وعلم أعمالكم وكتب آجالكم وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء وعمر فيكم نبيّه أزماناً

إلاّ ليعبدون﴾.

[**ولم يترككم سُدى**] بضمّ السين، أي: هملاً، وبفتحها من أسدت الإبل أهملتها، قال تعالى: ﴿أفحسب الإنسان أن يُترك سُدى﴾.

[**ولم يدعكم في جهالة ولا عمى**] بل أوضح لهم السبيل، وأبان لهم طرق الهداية، وأرسل إليهم رسلاً مبشّرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ وقال تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ وقال تعالى: ﴿وما كان اللّه ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتّى يتبيّن لهم مايتّقون﴾ وأشار إلى ذلك بقوله:

[**قد سمّى آثاركم**] أي: بيّن لكم أعمالكم خيرها وشرّها، أو أعلا مآثركم، أي: رفع منازلكم إن أطعتم قسماً على الأوّل بمعنى أبان وأوضح، وعلى الثاني بمعنى أسمى.

[**وعلم أعمالكم**] خيرها وشرّها ﴿وإن تبدوا شيئاً أو تخفوه يعلمه اللّه يعلم سرّكم وجهركم﴾.

[**وكتب آجالكم**] في كتابه المبين ولوحه المحفوظ.

[**وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء**] من طرق المعاش والمعاد ونظام العباد ووجوه المصالح والفساد.

[**وعمر فيكم نبيّه**] ورسوله [**أزماناً**] حتّى أرشدكم إلى مصالح دينكم ودنياكم ومنافع آخرتكم وأولاكم.

حتّى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه الّذي رضى لنفسه,وأنهى إليكم على لسانه محابه ومكارهه ونواهيه وأوامره فألقى عليكم المعذرة واتّخذ عليكم الحجّة وقدم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذاب شديد

[**حتّى أكمل له ولكم**] دينكم [**فيما أنزل من كتابه**] كما قال تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾.

[**الّذي رضى لنفسه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذن من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم﴾ وإذا ارضاه لهم فقد ارتضاه لنفسه.

[**وأنهى إليكم**] أي: عرّفكم وأعلمكم [**على لسانه**] الضمير للنبيّ ﷺ [**محابه**] جمع محسبه من الأعمال [**ومكارهه**] مكرهه وي مايكرهه [**ونواهيه وأوامره**] أي: عرّفهم ماأحبّ لهم من الخيرات الباقية وكرهه لهم من الشرور المهلكة في الآخرة، كما اشتملت عليه أوامره ونواهيه، وفيه دلالة أنّ اللّه يحبّ الطاعة، ويكره المعصية، خلافاً للمجبّرة والأشاعرة.

[**فألقى عليكم المعذرة**] أبان لكم فيه الأعذار.

[**واتّخذ عليكم الحجّة**] وأوضح لكم فيه المحجّة وقطع أعذاركم لئلاّ تقولوا: ﴿لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى﴾.

[**وقدم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذاب شديد**] واستعار لفظة اليدين للعذاب، وكنّى بقوله: بين يديه عن الوقت المتقدّم على عذاب

فاستدركوا بقيّة أيّامكم واصبروا لها أنفسكم فإنّها قليل في كثير الأيّام الّتي تكون منهكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة ولا ترخّصوا لأنفسكم

الآخرة المشارف له، ووجه الشبه إنّ الإنذار بالخوف يكون من ذي سطوة وبأس شديد، فكأنّه نزّل العذاب الشديد بمنزلة المعذب، فاستعار له يدين وجعل الإنذار به والتخويف منه متقدّماً له بين يديه، وذلك من الجالبات اللطيفة إلى الخير، ثمّ عاد إلى أمرهم بما يصلحهم، فقال:

[**فاستدركوا بقيّة أيّامكم**] في الحياة الدنيا.

[**واصبروا لها أنفسكم**] أي: ألزموها الصبر على الأعمال الصالحة، وفي لفظ الإستدراك إشعار منهم بتقديم تفريط منهم بحيث ينادي لسان حالهم ومقالهم: ﴿ياحسرتا على مافرّطتُ في جَنْب اللّه﴾ ولذا قال:

[**فإنّها قليل في كثير الأيّام الّتي تكون منهكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة**] أي: إنّ هذه الأيّام الّتي بقيت من أعماركم قليلة بالنسبة إلى الأيّام الّتي أنتم فيها غافلون، ولم يقل قليلة لأنّ المعنى شيء قليل، وإنّما قال لها لأنّ كلّ وقت يستحقّ أن يوقع فيه ماينبغي من الأفعال يصدق عليها أنّ ذلك الفعل لها.

[**ولا ترخّصوا لأنفسكم**] كناية عمّا يتساهل الإنسان فيه مع نفسه من تنويع المآكل والمشارب والمناكح والخروج فيها إلى ما لاينبغي في نفس الأمر ويتأوّل له تأويلاً وحيلة تخيل له أنّها جايزة فيتبع هواه ومن ذلك توسّع الإنسان في المباحات فيشارف المكروهات ثمّ يلاحظ أنّه لاعقاب فيها، فينهمل فيها حتّى يشرف على المحظورات، ومن ذلك الدخول في الصغيرة

فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية إنّ أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربّه

بتسويل أنّها مكفرة بترك الكبائر حتّى يندرج إلى الإصرار عليها وإلى الكبائر، ومن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

[**فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة**] أي: مسالكها وطرقها العادلة عن العدل، فتعقوا في المعاصي والمحرّمات من حيث لاتشعرون.

روي أنّ إبليس ظهر ليحيى فرأى عليه معاليق من كلّ شيء، فقال: ماهذه؟ قال: ي الشهوات أُصيب بهنّ قلوب بني آدم، فقال هل لي فيها شيء؟ قال: نعم، ربّما شبعت فشغلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: هل غير ذلك؟ قال: لا، قال: للّه عليّ أن لاأملأ بطني من طعام أبداً، فقال إبليس: للّه عليّ أن لاأنصح مسلماً أبداً. وقوله:

[**ولا تداهنوا**] أي: لاتسالموا الظلمة وتساهلوا معهم في السكون عمّا ترونه من منكراتهم.

[**فيهجم بكم الإدهان على المعصية**] أي: إذا آنستم بمشاهدة المعاصي وألفتم تكرارها كنتم بذلك عصاة، فإنّ الراضي بشيء كفاعله، وربّما ساقكم ذلك إلى فعل المنكر، ومشاركتهم في أفعالهم، والمداهنة: النفاق والمصانعة، والادهان مثله، قال تعالى: ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾.

[**إنّ أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربّه**] إذ الغرض من النصح جلب الخير والمنفعة إلى المنصوح وأجلّ سعادة الآخرة، وإنّما تنال بالطاعة، فكلّ من كانت طاعته أتمّ فسعادته أتمّ، فكان أنصح الناس لنفسه بمبالغته في الطاعة، ومن ذلك يبيّن معنى قوله:

وإن أغشّهم لنفسه أعصاهم لربّه والمغبون من غبن نفسه والمغبوط من سلم له دينه

[**وإن أغشّهم لنفسه أعصاهم لربّه**] إذ غاية الغشّ جلب الشرّ والمضرّة إلى المغشوش، وأعظم شرّ وضرر يلحق العبد الشقاوة الأُخرويّة الحاصلة من المعاصي، وفي الفقرتين مبالغة في الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية.

[**والمغبون من غبن نفسه**] بالمعاصي المستلزمة لدخول النار وغضب الجبّار، والإنسان بمتابعة النفس الأمّارة والشيطان خادع لها قد يجنبها ثواب اللّه والسعادة الدائمة الّتي هي أعظم مايتنافس فيه، فكان أعظم مغبون، ولذا حصر المغبون فيه مبالغة وهو خبر بمعنى النهي، وغبن الرجل رأيه بالكسر غبناً بالتحريك إذا نقص فهو غبين، أي: ضعيف الرأي، وغبنته في البيع غبناً بالتسكين، أي: خدعته وقد غبن فهو مغبون، وفي قوله مغبون إشارة إلى أنّه من هذا الباب لأنّه أشبه بالمعاوضة، كما قال: ﴿ومن الناس مَن يشري نفسَه ابتغاء مرضاة اللّه﴾ وقال: ﴿هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ وقال: ﴿تجارة لن تبور﴾.

[**والمغبوط من سلم له دينه**] فإنّ من سلم دينه فاز بالسعادة الكبرى، وهي أجل مايتنافس فيه ويغبط به، فكان أعظم مغبوط ولذا حُصر به مبالغةً، والمغبوط الذي يتمنّى مثل حاله والحسود الذي يتمنّى زوال حاله وانتقالها إلى الحاسد، والحسد مذموم والغبطة غير مذمومة بل ممدوحة إذا كانت في الأمور الأُخرويّة، قال تعالى في ذلك: ﴿فليتنافس المتنافسون﴾، يقال: غبطته أغبطه غبطاً فاغتبط.

والسعيد من وعظ بغيره والشقيّ من انخدع لهواه وغروره واعلموا إنّ يسير الرياء شرك ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ومحضرة للشيطان جانبوا الكذب فإنّه مجانب للإيمان

[**والسعيد من وعظ بغيره**]، أي: السعيد في الآخرة من اعتبر حال غيره فشاهد بعين بصيرته مصير الظالمين فخاف عاقبتهم فعدل عن طريقهم وتذكّر حال الصالحين وما آلوا إليه من النعيم فسلك جادّتهم.

[**والشقيّ**] في الآخرة [**من انخدع لهواه وغروره**] وفيه تنفير عن اتّباع الهوى بذكر الخداع والغرور وفي سابقه ترغيب في الاتعاظ بالغير بذكر استلزامه للسعادة.

[**واعلموا إنّ يسير الرياء شرك**] كما مرّ سابقاً، قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾.

وقوله: [**ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان**] أي: داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله. والإيمان: الاعتقاد والعمل لأنّ أهل الهوى مشغولون بذكر ماهم فيه من لهو ولعب خائضون في أصناف الباطل منهمكون في الشهوات فمجالستهم عن رغبة تؤل إلى إنمحاء الإيمان عن لوح الخيال والذكر ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِر اللّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.

[**ومحضرة للشيطان**] أي: موضع حضوره كما يقال أرض مسبعة أي: موضع السباع وكلّ محلّ عصي اللّه فيه فهو محضر للشيطان وموطن له.

[**جانبوا الكذب فإنّه مجانب للإيمان**] كما في النبوي ﷺ أي: كلّ

الصادق على شفا منجاة وكرامة والكاذب على شرف مهواة ومهانة

منهما في جانب مغاير للآخر وهو على تقدير دخول العمل الصالح في حقيقة الإيمان واضح إذ الصدق من جملتها ومضاد الصدق مضاد للإيمان وأحد الضدّين مجانب للآخر وعلى تقدير عدم دخوله فالكذب من أعظم الرذائل المهلكة والإيمان أعظم الفضائل المنجية، وبين الفضائل والرذائل منافاة ذاتية، فالكذب مناف للإيمان ومجانب له.

ثم أردف ذلك بالترغيب في الصدق فقال:

[الصادق على شفا منجاة وكرامة]، شفا الشيء: جرفه، قال تعالى: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ والصادق مشارف للنجاة والكرامة أو لمحلّهما وهو الجنّة إذ الصدق باب من أبوابها.

[والكاذب على شرف مهواة ومهانة] والشرف بفتح الشين: المكان العالي، وأشرفت عليه أي: اطلعت من فوق، والمهواة موضع السقوط، والمهانة: الحقارة، وأشفى وأشرف بمعنى إلاّ أنّ أكثر ما يستعمل الثاني في المكروه، يقال: أشفى المريض على الموت واستعمل هنا في غير المكروه.

والكذب باب من أبواب الجحيم يهوى بصاحبه فيها ومن انتهى إلى الباب فقد شارف الدخول وكفى بما قال عليه السلام ترغيباً في الصدق وتنفيراً عن الكذب.

وعن النبي صلى الله عليه وآله «إيّاكم والكذب فإنّه يهدي إلى الفجور وإنّ الفجور يهدي إلى النار وإنّ الرجل ليكذب حتّى يكتب عند اللّه كذّاباً وعليكم بالصدق فإنّ الصدق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة وإنّ الرجل ليتحرّى الصدق حتّى يكتب عند اللّه مصداقاً».

ولا تحاسدوا فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب ولا تباغضوا فإنّها الحالقة

وقال ﷺ: «الكذب رأس النفاق»، ووجهه ظاهر؛ لأنّ مدار النفاق على المصانعة بالقول الغير المطابق لما في النفس وهو حقيقة الكذب.

ثمّ شرع ﷺ في ذمّ الحسد والنهي عنه فقال: [**ولا تحاسدوا**] فإنّ الحسد من الصفات المهلكة ومن الرذايل النفسانية ويتولّد من اجتماع البخل والشرية في النفس والأخبار في ذمه متواترة [**فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب**] فإنّه مضرّ بالنفس لأنّه يذهلها ويفرّق فكرها بالاهتمام بأمر المسحود حتّى لا يفرغ للتصرّف فيما يعود نفعه عليها ولايزال الحاسد مشغول الفكر طويل الحزن والهمّ لأنّ نِعَم اللّه على عباده أكثر من أن تحصى وكلّما رأى الحاسد نعمة اشتغل فكره بتمنّي زوالها وكما أنّ نِعم اللّه لا انقطاع لها ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾ فاشتغاله بالهموم والأحزان متّصل لا انقطاع له ومضرّ بالجسد لأنّ الهموم والغموم والأحزان تنحل البدن وتنهكه سيّما ما يعرض له من طول السهر وسوء الاغتذاء ويعقب ذلك رداءة اللون وفساد المزاج.

وقد استعار ﷺ لفظ الأكل لأنّ الحسد يمحو ما في النفس من خواطر الخير التي هي الحسنات ويمنع من صيرورتها ملكات باستغراقها في حال المحسود واشتغلاها به، وشبّه ذلك بأكل النار الحطب، ووجه الشبه ما يشترك فيه الحسد والنار من إفناء الحسنات والحطب واستهلاكهما.

[**ولا تباغضوا فإنّها**] هي البغضة المدلول عليها بالمعنى [**الحالقة**] للدين أي: المستأصلة التي تأتي على القوم كالحلق للشعر إذا مرّ العالم لا ينتظم إلاّ

واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل وينسي الذكر فأكذبوا الأمل

بالتعاون وهو إنّما يتمّ بالالفة وأقوى أسبابها المودة والمؤاخاة، فكانت المودّة من أعظم المطالب الشرعيّة ولذا آخى رسول اللّه صلى الله عليه وآله بين أصحابه وقال تعالى: ﴿هو الذي ألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾، وقال تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم﴾.

والمباغضة ضدّها فلذا كانت مكروهة، واستعار لفظ الحالقة مما يحلق الشعر كالموسى للبغضة ووجه الشبه أنّها سبب لاستئصال الحلق بعضهم بعضاً كما انّ الموسى سبب لحلق الشعر واستئصاله.

ثمّ نبّه عليه السلام على التنفير عن طول الأمل وتكذيبه بما يترتب عليه من المضار الدنيوية والاخروية فقال:

[واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل] عمّا هو أولى بالإنسان في معاشه ومعاده لأنّ صاحبه أبداً مشغول الفكر بما يأمله ويرجوه وذلك مستلزم للغفلة عن المصالح الدنيوية والاخروية إذ ﴿ما جعل اللّه لرجل من قلبين في جوفه﴾،

[وينسي الذكر] أي: ذكر اللّه تعالى وأحوال الآخرة بسبب استغراقه فيما يأمله **[فأكذبوا الأمل]** بذكر الموت ودوام إخطاره بالبال وملاحظة المرجع والمعاد فإنّ ذلك يردّ الأمل وإنّما سُمّي تكذيباً له لأنّ النفس حال توقّعها للمأمول يكون حاكمة حكماً وهمياً ببلوغه ونيله فإذا رجعت إلى صرف العقل وملاحظة الموت وجواز الانقطاع به عن بلوغ ما رجته كان تجويزها ذلك مكذباً لما جزم به الوهم من الأحكام ورادّاً له.

فإنّه غَرور وصاحبه مغرور في صفات المتّقين وهو قوله عباد اللّه انّ من أحبّ عباد اللّه إليه عبداً أعانه اللّه على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف

وقوله: [**فإنّه غَرور**] بفتح الغين لأنّه ليس نفس الغفلة عن الذكر وغيره بل مستلزم لها، وبالضم مجاز من إطلاق اللازم على الملزوم.

[**وصاحبه مغرور**] مخدوع به كما عرفت.

ومن خطبة له عليه السلام وفيها فصول:

الفصل الأول

[**في صفات المتّقين وهو قوله عباد اللّه انّ من أحبّ عباد اللّه إليه**] محبّة اللّه تعالى للعبد تعود إلى إفاضة الكمالات النفسانية على نفسه بحسب قربه بالاستعداد فمن كان استعداده أتم كان استحقاقه أوفى فكانت محبّة اللّه له أكمل.

ثمّ ذكر عليه السلام من الصفات التي هي سبب محبّة اللّه للعبد أربعين وصفاً أشار إلى الأوّل منها بقوله: [**عبداً أعانه اللّه على نفسه**] وإعانته على نفسه بإفاضة قوّة على استعداده يقوي بها عقله على قهر نفسه الأمّارة بالسوء.

وأشار إلى الثاني بقوله: [**فاستشعر الحزن**] على ما فرّط فيه من المآثم واكتسبه من الجرائم اتّخذ ذلك شعاراً له بمنزلة الثوب الملاصق بشعر البدن لإحاطته به واشتماله عليه.

وأشار إلى الثالث بقوله: [**وتجلبب الخوف**] من اللّه على سيّئات أعماله وقبايح أقواله فاتخذ الخوف جلباباً وهو الملحفة استعارة للخوف من

فزهر مصباح الهدى في قلبه وأعدّ القِرى ليومه النازل به فقرّب على نفسه البعيد وهوّن الشديد

اللّه والخشية من عقابه، ووجه الشبه ما يشتركان في كون كلّ منهما متلبّساً به.

وإلى الرابع بقوله: [**فزهر مصباح الهدى في قلبه**] إشارة إلى إشراق أنوار المعارف الإلهية والعلوم الربّانيّة على مرآة سرّه وصفحة قلبه وهو ثمرة الاستعداد بالخوف والحزن ولذا عطفه بالفاء واستعار لفظ المصباح لنور المعرفة لما يشتركان فيه من كون كلّ منهما سبباً للهدى استعار المحسوس للمعقول.

وإلى الخامس بقوله: [**وأعدّ القِرى ليومه النازل به**] استعار لفظ القِرى للأعمال الصالحة وأراد باليوم النازل به يوم القيامة واستلزمت الاستعارة تشبيهه لذلك اليوم بالضيف أو يوم القري للضيف المتوقع نزوله ووجه الشبه انّ القري كما يبيض به وجه القاري عند ضيفه ويخلص به من ذمّه ويكسبه المحمدة والثناء منه كذلك الأعمال الصالحة في ذلك اليوم يكون سبباً لخلاص العبد من أهواله ويكسبه رضا الحق والثواب الجزيل منه.

وأشار إلى السادس بقوله: [**فقرّب على نفسه البعيد**] وهو تقصيره لأمله الطويل في الدنيا بذكر الموت أو تقريبه ما بُعد عنه من أحوال الآخرة بدوام إخطارها بباله حتّى كأنّها حاضرة له أو ما بعُد عنه من رحمة اللّه فإنّها بعيدة من غير مستحقّها فقربها منه بأعماله الصالحة الحسنة ﴿فإنّ رحمة اللّه قريب من المحسنين﴾.

وأشار إلى السابع بقوله: [**وهوّن الشديد**] أي: هوّن شدائد الآخرة

نظر فأبصر وَذَكَرَ فاستكثر وارتوى من عذب فرات سُهِّلَتْ له موارِدُهُ فشرب نهلاً

وعقوباتها بأعماله الصالحة أو شدائد الدنيا من الفقر والفاقة والظلم والمصائب والأحزان بالصبر وتهوين ذلك على النفس بما أعدّ اللّه للصابرين كما قال: ﴿وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنّا إليه راجعون أُولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأُولئك هم المهتدون﴾.

وإلى الثامن بقوله: [**نظر فأبصر**] أي: تتكّر في ملكوت السموات والأرض وما خلق اللّه من شيء فأبصر الحق وعرفه وشاهده بعين بصيرته في عجائب مصنوعاته كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾.

وإلى التاسع بقوله: [**وَذَكَرَ فاستكثر**] أي: ذكر ربّه فاستكثر من ذكره أو ذكر معاده فاستكثر من عمله.

وإلى العاشر بقوله: [**وارتوى من عذب فرات**] كناية عن امتلائه من العلوم والمعارف الحقّة، شبّه العلوم والكمالات النفسانية التي تفاض على العلماء العارفين بالماء الزلال فاستعار له لفظ العذوبة والفرات ورشح تلك الاستعارة بذكر الارتواء.

وإلى الحادي عشر بقوله: [**سُهِّلَتْ له مواردِهُ**] أي: موارد العلم والمعارف ومظانّها من العبر والأُمور التي تحصّل نفوس المتقين منها العلوم وسهولة تلك الموارد لهم سرعة قبولهم لأخذ الكمالات عنها بسهولة بأذهان صافية هيّئتها العناية الإلهيّة لقبولها ويسّرتها لذلك.

وإلى الثاني عشر بقوله: [**فشرب نهلاً**] والنهل: الشرب في أوّل

وسلك سبيلاً جدداً قد خلع سرابيل الشهوات وتخلّى من الهموم، إلّا همّاً واحداً انفرد به فخرج عن صفة العمى فصار من مفاتيح أبواب الهدى

الورد، واستعار لفظه لسبقهم إلى أخذ الكمالات عن مظانّها كما تسبق سوابق الإبل إلى شرب الماء.

وإلى الثالث عشر بقوله: [**وسلك سبيلاً جدداً**] أي: سبيل اللّه الواضح المستقيم العدل بين طرفي التفريط والإفراط.

وإلى الرابع عشر بقوله: [**قد خلع سرابيل الشهوات**] إشارة إلى الزهد كما أنّ ما قبله إشارة إلى تحصيل العلم والاستعداد له واستعار لفظ السرابيل للشهوات ووجه الشبه تلبّس صاحبها كما يتلبّس بالقميص ورشح بلفظ الخلع وكنّى به عن طرحه لاتّباع الشهوة والتفاته عنها فيما يخرج به عن حدّ العدل.

وأشار إلى الخامس عشر بقوله: [**وتخلّى من الهموم، إلّا همّاً واحداً**] أي: تخلّى من هموم الدنيا وعلائق أحوالها وطرح كلّ مقصود عن قصده إلّا همّاً واحداً [**انفرد به**] وهو همّه بمولاه الذي لذّته وسروره الاهتمام به والتفرّد بمناجاته ومطالعة أنوار عزّته.

وإلى السادس عشر بقوله: [**فخرج عن صفة العمى**] أي: عمى الجهل بما حصل عليه من فضيلة العلم والحكمة وعن مشاركة أهل الهوى في إفراطهم وفجورهم إذ هو على حاق الوسط من فضيلة العفّة.

وإلى السابع عشر بقوله: [**فصار من مفاتيح أبواب الهدى**] أي: طرقه وسبله التي انغلقت على أذهان الناقصين استعار المفتاح للعارف ووجه الشبه ظاهر.

ومغاليق أبواب الردى قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها

وإلى الثامن عشر بقوله: [**ومغاليق أبواب الردى**] وهي أطراف التفريط والإفراط الخارجة عن حدود اللّه التي تردي سالكها في الجحيم ووجه الشبه بالمغاليق أنّ العارف لمّا سدّ أبواب المنكرات التي سلكها الجاهلون الضالّون ولزم طريق العدل أشبه المغلاق الذي يكون سبباً لسدّ الطريق أن يُسلك، فاستعير لفظه له وفي الفقرتين مطابقة فالمغاليق بأزاء المفاتيح والردى بأزاء الهدى.

وإلى التاسع عشر بقوله: [**قد أبصر**] بنور بصيرته [**طريقه**] المأمور بسلوكه الموصل له إلى رضوان ربّه وجنانه.

وإلى العشرين بقوله: [**وسلك سبيله**] أي: لما أبصر السبيل سلكها إذ كان السلوك هو المقصد الأول.

وإلى الحادي والعشرين بقوله: [**وعرف مناره**] وهي أعلام طريق اللّه وهي البراهين والأدلّة التي يهتدى بها.

وإلى الثاني والعشرين بقوله: [**وقطع غماره**] أي: ما كان مغموراً فيه من مشاقّ الدنيا وهمومها والتألّم بسبب فقدها ومجاذبة أهلها لها فإنّ العارف بمعزل عن ذلك والتألّم بسببه.

وإلى الثالث والعشرين بقوله: [**واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها**] أي: بسبيل اللّه وأوامره استعارة، ووجه المشابهة أنّ العروة كما تكون سبباً لنجاة من تمسّك بها وكذا الحبل وكان أجودهما ما كان أثبت وأمتن ولم ينفصم كذلك طريق اللّه المؤدّي إلى رضوانه يكون لزوم سُبُله

فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس قد نصب نفسه للّه سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كلّ وارد عليه وتَصْيير كلّ فرع إلى أصله مصباح ظلمات كشّافُ عشواتٍ

والتمسّك بأوامره سبباً للنجاة من أهوال الآخرة وهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها والحبل المتين الذي لا انقطاع له قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن باللّه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

وإلى الرابع والعشرين بقوله: [**فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس**] أي: فكان تمسّكه بأوامر اللّه ومجاهدته في سبيله قد استشرق بأتمّ أنوار اليقين فصار مشاهداً بعين بصيرته عالم الملكوت والجنّة والنار عين اليقين كما يرى بصره الظاهر نور الشمس في الوضوح والجلاء.

وإلى الخامس والعشرين بقوله: [**قد نصب نفسه للّه سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كلّ وارد عليه وتَصْيير كلّ فرع إلى أصله**] أي: المأكل في ذاته وصفاته نصب نفسه لأرفع الأمور وأعلاها وأشرف المراتب وأغلاها من هداية الخلق وقودهم إلى طريق الحقّ وإرشادهم إلى الهدى وزجرهم عن الردى فصار كالمصباح تقتبس منه أنوار العلم فهو لكونه ملبياً بها قام بإصدار الأجوبة عن كل ما ورد عليه من الأسئلة التي اشتبه أمرها على الأذهان وصار يردّ كلّ فرع من فروع العلم إلى أصله المتشعّب منه.

وإلى السادس والعشرين بقوله: [**مصباح ظلمات**] أي: يهتدي به التائهون في ظلمات الجهل إلى الحق ولفظ المصباح مستعار كما مرّ.

وإلى السابع والعشرين بقوله: [**كشّافُ عشواتٍ**] بالعين المهملة جمع عشوة: وهي ركوب الأمر على جهل به والغشوة بالغين المعجمة هي الغطاء

مفتاح مبهمات دفّاع معضلات دليل فلوات يقول فيفهم

أي: موضع لما أشكل أمره وركب فيه الجهل من الأحكام المتلبّسة بتمييز وجه الحق عنها وعلى تقدير الغين المعجمة فالمراد كشّاف أغطية الجهالات عن أبصار ــــ.

وإلى الثامن والعشرين بقوله: **[مفتاح مبهمات]** جمع مبهمة وهي الأمر الملتبس أي: فاتح لما انغلق على أذهان الخلق واشتبه عليهم وجه الحقّ فيه من الأحكام.

وإلى التاسع والعشرين بقوله: **[دفّاع معضلات]** أي: الشدائد أي: يدفع كل حيرة في المسائل المعضلة التي صعب على الطالبين تمييز وجه الحق فيها ويحميهم ببيانه عن التردّي في مهاوي الجهل.

وإلى الثلاثين بقوله: **[دليل فلوات]** استعار لفظ الفلوات لموارد السلوك وهي الأُمور المعقولة ووجه الشبه أنّ الفلوات كما لا يهتدي لمسالكها إلّا الأدلاء الذين اعتادوا سلوكها وضبطوا مراحلها ومنازلها حتّى كان من لا قائد له منهم فيها تائها هالكاً لجهله بالطريق كذلك الأُمور المتصوّرة المعقولة لا يهتدي لطريق الحقّ فيها إلّا من أخذت العناية الإلهية بيده فألقت زمام عقله إلى هاد يهديه سُبل الحق ومن لم يكن كذلك حاد عن طريق الحق فخبط في ظلمات الجهل خبط عشواء وسلك به شياطينه أبواب جهنم والعلماء الربانيون هم أدلاّء هذا الطريق والواقفون على أخطاره ومنازل السلامة فيه بعيون بصائرهم.

وإلى الحادي والثلاثين بقوله: **[يقول فيفهم]** لمشاهدته الحق من غير شكّ فيه ولا شبهة تعتريه.

ويسكت فيسلم قد أخلص للّه عمله فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه

وإلى الثاني والثلاثين بقوله: [**ويسكت**] عمّا لا يعلم وعن فضول الكلام [**فيسلم**] من خطر الكلام فإنّ اللسان صغير جرمه كبير اثمه وجرمه إذ ما من موجود ولا معدوم ولا خالق ولا مخلوق إلّا ويتناوله اللسان وبه يحصل الكفر والإيمان وربّ كلمة تكلّم بها سقط أبعد ما بين السماء والأرض فإن كان الكلام من فقيه فإنّ السكوت من ذهب ولايزال المرء يُكتَب محسناً ما سكت فإذا تكلّم كُتب إمّا محسن أو مسيء وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم والمقصود انّ العارف يسعمل كلاً من الكلام والسكوت في موضعه ويضعه في محلّه.

وإلى الثالث والثلاثين بقوله: [**قد أخلص للّه عمله**] وحذف كلّ خاطر سواه عن درجة الاعتبار فاستخلصه بأن ـــــ من بين أبناء نوعه بالرضا عنه وإفاضة أنواع الكمال عليه وأدناه إلى جواره وأفرده بمناجاته فالاخلاص سبب الاستخلاص كما قال ﴿واذكر في الكتاب موسى انّه كان مخلصاً وكان رسولاص نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيّاً﴾.

وإلى الرابع والثلاثين بقوله: [**فهو من معادن دينه**] استعار لفظ المعدن له ووجه الشبه اشتراكهما في كون كلّ منهما أصلاً للجواهر فمن المعادن الجواهر المحسوسة الفانية ومن قلوب العارفين ونفوس المقربين جواهر العلوم والأخلاق المعقولة الباقية.

وإلى الخامس والثلاثين بقوله: [**وأوتاد أرضه**] استعار له لفظ الوتد ووجه الشبه كون كلّ منهما سبباً لحفظ ما يحفظ به فبالوتد يحفظ الموتود وبالعارف يحفظ نظام الأرض واستقامة أُمور العالم.

قد ألزم نفسه العدل فكان أوّل عدله نفي الهوى عن نفسه يصف الحقّ ويعمل به لا يدع للخير غاية إلاّ أمّها ولا مظنّة إلاّ قصدها

وإلى السادس والثلاثين بقوله: [**قد ألزم نفسه العدل فكان أوّل عدله نفي الهوى عن نفسه**] لـمّا كان العدل ملكة ينشأ عن الملكات الثلاث وهي الحكمة والعفّة والشجاعة والعارفون راضوا أنفسهم بالعبادة حتى ظفروا بهذه الملكات لا جرم كان بسعيه في حصولها قد ألزم نفسه العدل ولمّا كان العدل في القوة الشهويّة وهو أن يصير عفيفاً لا خامد الشهوة ولا فاجراً أصعب من العدل على سائر القوى لكثرة موارد الشهوة وميلها بالإنسان إلى طرف الإفراط ولذا كان أكثر المناهي الواردة في الشريعة هي موارد الشهوة لا جرم كان مقتضى المدح أن يبدأ بذكر نفي الهوى عن نفسه ولأنّ السالك أوّل ما يبدأ في تكميل القوّة العمليّة بأضلاع القوّة الشهويّة فيقف عند حدود اللّه ولا يتجاوزها في مأكول أو منكوح أو كسب ونحوه.

وإلى السابع والثلاثين بقوله: [**يصف الحقّ ويعمل به**] أي: يتبع قول الحق بعمله فإنّ الخلف في القول مع الخلق قبح ومع اللّه أقبح ولذا خصّ اللّه العتاب بالمؤمنين في قوله ﴿يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

وإلى الثامن والثلاثين بقوله: [**لا يدع للخير غاية إلاّ أمّها**] أي: أنّه طالب لكل غاية خيريّة حسنة أي: لا يقنع ببعض الحق ويقف عنده بل يتناهى فيه ويستقصي غاياته.

وإلى التاسع والثلاثين بقوله: [**ولا مظنّة إلاّ قصدها**] أي: هو قاصد لكلّ محل أمكنه أن ينتزع الخير والفضل منه ويستفيده كمجالس العلم

قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده وإمامه يحلّ حيث حلّ نقله وينزل حيث كان منزله وآخر قد تسمّى عالماً وليس به

والذكر ونحوهما.

وإلى الأربعين بقوله: [**قد أمكن الكتاب**] أي: القرآن الكريم [**من زمامه**] فانقاد لأوامره ونواهيه [**فهو قائده وإمامه**] واستعار لفظ الزمام لعقله ووجه الشبه ما يشتركان فيه من كون كلّ منهما آلة للانقياد وهي استعارة لفظ المحسوس للمعقول كذلك استعار لفظ القائد للكتاب لكونه جاذباً بزمام عقله إلى جهة واحدة مانعاً له من الانحراف عنها وكذا لفظ الإمام لكونه مقتدى به وقوله [**يحلّ حيث حلّ نقله وينزل حيث كان منزله**] استعار وصف الحلول والنزول اللذين هما من صفات المسافر وكنّى بحلوله حيث حلّ عن لزوم أثره والعمل بمقتضاه ومتابعته له في طريق سفره إلى الله بحيث لا ينفكّ عنه وجوداً وعدماً.

الفصل الثاني

في صفات بعض الفسّاق في مقابلة الموصوف السابق ووصفه بأوصاف عشرة وإنّما خصّ من تسمّى عالماً وليس بعالم بالذمّ لأنّه أشدّ فتنة وأقوى فساداً للدين لتعدّي فتنته من نفسه إلى غيره فقال:

[**وآخر قد تسمّى عالماً وليس به**] طلباً للرئاسة وجعل دينه فخّاً لصيد الدنيا الدنية الفانية وهذا الصنف كثير وفي زماننا منه جمّ غفير فاقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلال والجهائل جمع جمع جهالة كما قالوا علاقة وعلائق قيل أراد بها الجهل المركب وهو الاعتقاد الغير المطابق لما في نفس الأمر ونسبة الاقتباس إلى الجهل نسبة مجازية حيث أنّ الجهل يشبه

ونصب للناس أشراكاً من حبال غرور وقول زور قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحق على أهوائه يؤمّن من العظائم ويهوّن كبير الجرائم

العلم في كونه مستفاداً على وجه التعلّم والتعليم والأضاليل الضلال جمع لا واحد له من لفظه وهي من لوازم الجهالة والانحراف عن الطريق السوي وإنّما قال من جهّال وضلال ليكون إثبات الجهل والضلال له آكد ويكون حينئذ أرسخ في النفس من سائر الجهالات.

[**ونصب للناس أشراكاً من حبال غرور وقول زور**] استعارث الأشراك والحبال لما يغرّ به علماء السوء المخلوق من الأقوال الباطلة والأفعال المزخرفة العاطلة ووجه الشبه ما يشترك فيه الشرك من الحبال وغيرها وسائر ما يغرّون به الخلق من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم في كونها محصّلة للغرض فالشرك للعبد وغرور هؤلاء لقلوب الخلق ووشّح تلك الاستعارة بذكر النصب.

[**قد حمل الكتاب على آرائه**] وتأوّله على مقتضى استحسان نفسه.

[**وعطف الحق على أهوائه**] الفاسدة وآرائه الكاسدة أي: جعل كلّ هوى له حقّاً ويؤّل القرآن على وفق هواه ﴿ولو اتّبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض﴾.

[**يؤمّن من العظائم ويهوّن كبير الجرائم**] قال ابن أبي الحديد هو تصنيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظائم الذنون ويمنّونهم العفو مع الاضرار وترك التوبة وأقول الظاهر انّ المراد به هو الذي يضع الرجاء في محلّ الخوف لأجل استجلاب قلوب الناس واستمالة نفوسهم إليه فإذا رأى الولاة والظلمة قد انغمروا في الظلم والفجور وشرب الخمور والجهّال قد انهمكوا في المعاصي وحضروا مجلس هذا العالم ووعظه ذكر

يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع ويقول اعتزل البدع وبينها اضطجع

لهم ما يهون عليهم خطبهم مثل ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة اللّه إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعاً﴾.

ومثّل ﴿إنّ رحمة اللّه وسعت كلّ شيء﴾ وأين تقع معاصي العباد من رحمته ونحو ذلك مما يجلب به قلوبهم لأجل أغراضه الفاسدة وكان ينبغي له أن لا يذكر في هذا المقام إلاّ آيات الخوف ويكون كالطبيب الحاذق ويعالج الحار بالبارد والبارد بالحار فمن غلب عليه الرجاء يضرب بسياط الخوف ومن غلب عليه الخوف وأنحله يعالج بالرجاء.

ولذا ورد في الأخبار انّ في قلب المؤمن نورين نور خيفه ونور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولا هذا على هذا وقال لقمان لابنه: يا بني خف اللّه خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لخفت أن يعذّبك وارج اللّه رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرجوت أن يرحمك والخوف والرجاء جناحان يطير بهما الإنسان إلى عالم الملكوت ويستمتع بهما في عالم الجبروت ولا يغني أحدهما عن الآخر بل أحدهما بمنزلة الطعام والآخر بمنزلة الشراب فكما لا غناء بالطعام عن الشراب ولا العكس وكما انّ جناحي الطائر إذا تفاوتا اختلّ طيرانه كذا الخوف والرجاء إذا تفاوتا اختلّ السير إلى اللّه.

[**يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع**] إمّا لأنّه يقول ما لا يفعل وإمّا لجهله بمواقع الشبهة واشتباه الشبهة عليه ولأنّ جهله مركّب كما مرّ.

[**ويقول اعتزل البدع**] وما خالف كتاب اللّه وسنّة نبيّه.

[**وبينها اضطجع**] كناية عن تورّطه فيها لجهله بأُصول الشريعة وكيفية استخراج الفروع منها أو لاشتباه البدعة عليه يطبق الكتاب والسنّة على رأيه

فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان لا يعرف باب الهدى فيتّبعه ولا باب العمى فذلك ميّت الأحياء فأين تذهبون وأنّى تؤفكون

الفاسد وظنّه الكاسد قد خالف مولاه واتخذ آلهه هواه وقد زيّن له سوء عمله فرآه حسناً فهو ﴿من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

[**فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان**] وهو في العرف يطلق على الحمار ونحوه والمناسبة بينهما عدم الاستقلال لقبول العلوم الإلهيّة وعدم الصلاحيّة لإدراك المعارف الربّانية حفظ الألفاظ وصيغ المعاني كلامه أحلى من الشهد وقلبه أمرّ من الحنظل فمثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

[**لا يعرف باب الهدى فيتّبعه ولا باب العمى**] والردى فيصدّ عنه لجهله بقانون الهداية إلى طريق الحقّ حتّى يسلكه وبالمسلك الباطل حتّى يتركه وذلك لتقصير منه بإتباع الحقّ لهواه وإعراضه عن دلالة مولاه.

[**فذلك ميّت الأحياء**] لموت قلبه بالجهل فإنّ العلوم والمعارف الحقّة غذاء العقل والنفس كما أنّ الطعام والشراب غذاء البدن، فكما أنّ البدن يموت بفقد الطعام والشراب فكذا النفس تموت بفقد العلم بل بالجهل سيّما المركّب منه فهو ميّت في صورة حي.

الفصل الثالث

قوله [**فأين تذهبون**]

تنبيه على كونهم في ضلال وعمى عن الحق [**وأنّى تؤفكون**] أي: تصرفون ومناسبة هذا الكلام لما قبله أنّه لمّا ذكر المتّقين والفاسقين بصفاتهم وكان في ذكرهما تنبيه على وصفي طريق الحق والباطل ولوازمهما أردف

والاعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمّة الحقّة وألسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن

ذلك بالتنبيه على كونهم في ضلال عن الحق يسئلهم عمّا يذهبون إليه وعن وقت صرفهم عن ذلك الغي على سبيل الاتكال لما هم عليه من الطريق الجائرة والجادة البائرة والاعلام في قوله:

[**والاعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة**] للحال وأشار بالأعلام إلى أئمّة الدين ووضوحها ظهورها بينهم وكذا المناير ونصبها كناية عن قيام الأئمة عليهم السلام بينهم ووجودهم فيهم مما أبان ذلك وفسّره بقوله:

[**فأين يتاه بكم**] والتيه الضلال [**بل كيف تعمهون**] والعمه الحيرة والتردّد وهو في القلب كالعمى في البصر وبان منه أنّ قوله وأنّى تؤفكون معناه متى تصرفون عن تيهكم وانسحابكم في الضلال.

[**وبينكم عترة نبيّكم**] الواو للحال والحجّة حالية والعاملون يعمهون ويتهاه بكم وكذا الواو في قوله:

[**وهم أزمّة الحقّة**] إشارة إلى النبوي المتواتر بين الفريقين: «إنّي خلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض» واستعار لهم لفظ الأزمّة لكونهم قادة الخلق إلى الحقّ كما يقود الزمام الناقة إلى الطريق وكذا قوله:

[**وألسنة الصدق**] لكونهم من أجمة الوحي كما أنّ اللسان ترجمان النفس والمراد أنّهم لا يقولون إلّا صدقاً.

[**فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن**] قيل للقرآن منازل أحدهما القلب وله

وردوهم ورود الهيم العطاش أيّها الناس خذوها عن خاتم النبيين صلّى الله عليه وآله انّه يموت من مات منّا وليس بميّت ويبلى من بلى منّا وليس ببال

فيه منزلتان منزلة الإكرام والتعظيم ومنزلة التصوّر فقط ثمّ منزلته في الوجود اللساني ثمّ في الكتب والدفاتر وأحسن منازله هي الأُولى، فالمراد الوصيّة بإكرامهم ومحبّتهم كما يكرم القرآن بذلك.

[**وردوهم ورود الهيم العطاش**] الهيم: الإبل العطاش، وهو إشارة إلى إرشادهم إلى اقتباس العلوم والأخلاق منهم إذ كانوا معادنها فشبّه العلماء بالمتبع والعلم بالماء العذب وعاومه بالعطشان فلذا أحسن الأمر بورودهم مشبّهاً بورود الإبل العطاش.

[**أيّها الناس خذوها**] أي: هذه الفائدة وإن لم يتقدّم ذكرها لأنّه في معرض ذكر الفائدة [**عن خاتم النبيين صلّى الله عليه وآله انّه يموت من مات منّا**] أهل البيت.

[**وليس بميّت ويبلى من بلى منّا وليس ببال**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

فإنَّ المراد حياة النفوس كما ذكره المفسّرون، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لـمّا اصيبت اخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر تردانها الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظلّ العرش فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقبلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنّا انّا في الجنّة نُرزق لئلاّ يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله عزّ وجلّ أنا أُبلغهم عنكم فنزلت ﴿ولا تحسبنّ﴾ الآية.

فلا تقولوا بما لا تعرفون فإنّ أكثر الحق فيما تنكرون واعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر

وقوله: [**فلا تقولوا بما لا تعرفون**] تنبيه على الرجوع إلى العترة العارفين بما ينبغي أن يقال وأكّده بقوله:

[**فإنّ أكثر الحق فيما تنكرون**] والمقصود النهي عن التسرّع إليها، والجاهل قد يستكبر الحق إذا خالف طبعه أو نبا عنه فهمه أو سبق اعتقاد ضدّه إليه لشبهة أو تقليد فنبّه عليه السلام على أنّ أكثر الحقّ فيما ينكرونه لئلاّ يتسرّعون إلى القول بغير علم ولذا ذكر هذه القصة مرتبة بفاء التعليل.

[**واعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا**] طلب عليه السلام العذر منهم فيما يلحقهم من عذاب اللّه بسبب تصيرهم فإنّ الضرر اللاحق لهم قد انذروا به وتوعّدوا فلو قصر هو عليه السلام في تذكيرهم بتلك الوعيدات والانذارات مع كون ذلك مأخوذاً عليه من اللّه لكانت حجّتهم عليه قائمة ولم يكن له عليه السلام عذر مع أنّه قد بلّغ وحذّر وقد أعذر من أنذر فإنّما ذكرهم بسلب الحجّة عنه في ذلك ليتذكّروا خطأهم ولعلّهم يرجعون.

وقوله عليه السلام: [**ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر**] استفهام على سبيل التبكيت والتقريع والثقل الأكبر كتاب اللّه كما في النبوي، ولعلّه وصفه بالأكبر ووصفهم عليهم السلام بالأصغر كما في قوله.

[**وأترك فيكم الثقل الأصغر**] من حيث أنّ الكتاب هو الأصل المنبع وهم عليهم السلام تراجمته أو من حيث أنّه هو الدال على إمامتهم ووجوب اتّباعهم أو من حيث اقتضاء الحكمة الإلهية ظهور الكتاب وعدم خفائه في كل زمان

ووكزت فيكم راية الإيمان ووقفتكم على حدود الحلال والحرام وألبستكم العافية من عدلي وفرشتكم المعروف من قولي وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره النظر ولا يتغلغل إليه الفكر

بخلاف العترة.

[**ووكزت فيكم راية الإيمان**] كناية عن سنّته المتّبعة وطريقته الواضحة في العمل بكتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ كناية بالمستعار ووجه الشبه كون طريقته يهتدي بها إلى سلوك سبيل اللّه كما يهتدي بالأعلام والرايات أمام الجيش وغيره، ولفظ الركز ترسيخ للاستعارة كنّى به عن إيضاحها لهم. وقوله:

[**ووقفتكم على حدود الحلال والحرام**] يريد تعريفهم إياها وبيانها لهم، [**وألبستكم العافية من عدلي**] أراد بالعافية السلامة من الأذى الحاصل من أيدي الظالمين، واستعار لفظ اللباس لها ووجه الاستعارة انّ العافية تشمل المعافى كالقميص وكذا استعار لفظ الفرش في قوله:

[**وفرشتكم المعروف من قولي**] للمعروف لكونه إذا وطئت قواعده يستراح به كالفراش وقوله:

[**وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي**] أي: أوضحتهالكم وشاهدتموها منّي مرّة بعد أُخرى وكرّة عقب أُولى وقوله عليه السلام.

[**فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره النظر ولا يتغلغل إليه الفكر**] قعر الشيء أقصاه والمراد بالبصر بصر العقل والتغلغل الدخول في الأعمال والمقصود النهي عن اتباع الآراء والاستبداد بالأهواء في الاصول والفروع

حتّى يظنّ الظانّ أنّ الدنيا معقولة على بنّي أُميّة

والخروج عن الكتاب والسنة والقول بغير علم ولا يقين والتعويل على الظنّ والتخمين فإنّ ذلك يوجب اختلاف الكلمة وافتراق الامّة ووقوع الهرج والمرج واختلال نظام الدنيا والدين كما هو معلوم بالوجدان والعيان يغني عن البيان والله المستعان.

ومنها في الملاحم

وهي خطبة طويلة قد حذف السيّد الرضي منها كثير ومن جملتها:

أما والذي فلق الحبّة وبرئ النسمة لا يرون الذي ينتظرون حتّى يهلك المتمنون ويضمحل المحلّون ويثبت المؤمنون وقليل يكون والله لا ترون الذي تنتظرون حتّى لا تدعون إلّا إشارة بأيديكم وإيماء بحواجبكم وحتى لا تملكون من الأرض إلّا مواضع أقدامكم وحتّى يكون موضع سلاحكم على ظهوركم فيومئذ ينصرني الله بملائكته ومن كتب على قلبه الإيمان.

والذي نفس عليٍّ بيده لا تقوم عصابة تطلب لي أو لغير حقّاً أو تدفع عنّي ضيماً إلّا صرعتهم البليّة حتّى تقوم عصابة شهدت مع محمد صلى الله عليه وآله بدر إلّا نودي بقتلهم ولا يداوى جريحهم ولا ينعش صريعهم.

ومنها: لقد دعوتكم إلى الحق فتوليتم وضربتكم بالدرّة فما استقمتم ويليكم ولاة يعذّبونكم بالسياط والحديد وسيأتيكم غلام ثقيف أخفش ويعيوب يقتلان ويظلمان وقليل ما يمكنان.

ومنها: [**حتّى يظنّ الظانّ أنّ الدنيا معقولة**] أي محبوسة [**على بنّي أُميّة**] ذكر غاية من غايات طول عناء الناس معهم واستعار للدنيا لفظ معقولة

تمنحهم درّها ولا ترفع عن هذه الامة سوطها ولا سيفها وكذب الظانُّ لذلك بل هي مجّة فعله من مجّ الشراب إذا قذفه من فيه من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثمّ يلفظونها جملة

مشبّهاً لها بالناقة في كونها محبوسة في أيديهم كما تحبس الناقة بالعقال.

[**تمنحهم درّها**] المنح: العطاء منح يمنح بالفتح والاسم المنحة بالكسر واستمنحت زيداً طلبت منحته والدرّ في الأصل اللّبن ووجه الاستعارة تشبيهها بالناقة في كون ما فيها من فوائدها وخيرها مهيّئة لهم ومصوبة عليهم كما تبذل الناقة درّها لحالبها وتوردهم صفوها ونسبة الإيراد إليها مجاز، وقوله:

[**ولا ترفع عن هذه الامة سوطها ولا سيفها**] كنّى بالسوط والسيف عمّا فيه الامّة معهم من العذاب والقتل ونحوه استعمالاً للفظ السبب في المسبب.

[**وكذب الظانُّ لذلك بل هي مجّة**] **فعله من مجّ الشراب إذا قذفه من فيه**]**من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثمّ يلفظونها جملة**] تكذيب في تحقير ما حصلوا عليه من الأمر ولذّتهم به وتحقير مدّته واستعار لذلك لفظ المجّة وكنّى بكونها مطعومة لهم عن تلذذهم لها مدّة أمرتهم وبكونها ملفوظة عن زوال الامرة عنهم وأكّد ذلك الزوال بقوله: جملة، أي: بكليتها وهي كناية بالمستعار وتشبيهاً لها باللقمة التي لا يمكن اساغتها.

أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه لم يقصم جباري دهر قط إلاّ بعد تمهيل ورخاء ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلاّ بعد أزل وبلاء

ومن خطبة له عليه السلام

ومقتضاها أنّه عليه السلام فهم من المخاطبين أنّهم إنّما يستندون بآرائهم من دون مراجعة عن كبر منهم على التعلّم والاستفادة ومحبّة الراحة من تحمّل كلفة التحرّي في الدين والتحرّز من الغلط فيه ومشقّة الطلب، فلذا خوّفهم من حال الجبابرة فقال:

[**أمّا بعد فإنّ اللّه سبحانه لم يقصم جباري دهر قط**] والقصم بالقاف والصاد المهملة الكسر.

[**إلاّ بعد تمهيل**] أي: تأخير [**ورخاء**] وسعة في الحبس أي: لم يقصم ظهرهم إلاّ بعد إمهالهم ورخائهم فإنّهم إذا أُمهلوا وانغمسوا فيما هم فيه من الرخاء، وأعرضوا عن الآخرة ونسوا ذكر اللّه فاستعدوا بتركهم قوانين الدين التي بها نظام العالم للهلاك كما قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً﴾، وكذا قوله:

[**ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلاّ بعد أزل وبلاء**] الجبر ضدّ الكسر وجبر العظم كناية عن التقوية بعد الضعف والأزل بفتح الهمزة: الضيق والشدّة والفرض بيان أنّ أحداً من الأمم المتبعين لأنبيهم أو لملوكهم في إظهار دين أو طلب ملك لن يصلوا إلى مطلوبهم إلاّ بعد قوتهم وتضاعفهم وتظاهر بعضهم ببعض ومعافاة بلا أثر بلاء بحيث يستعدون بذلك للفزع إلى اللّه

وفي دون ما استقبلتم من عتب واستدبرتم من خطب معتبر

تعالى فيهيئ قلوبهم للالفة واجتماع العزايم حتى ينصروا على أعدائهم وفيه تنبيه على وجوب الاتحاد في الدين وعدم تشتت الآراء فيه فإنّ ذلك يدعوا إلى التفرّق ويدخل عليهم الوهن والضعف وكلّ ذلك ضدّ مطلوب الشارع.

ويحتمل أن يكنّى بقوله: لم يقصم جباري دهر عن جباري دهره ووقته كمعاوية وأصحابه وبقوله ولم يجبر أحد... إلخ، عن أصحابه ــــ بالكلمة الأُولى على أنّ أُولئك الجبارين وإن طالت مدتهم وقويت شوكتهم فزنّما ذلك إملاء من اللّه لهم ليستعدوا به للهلاك وبالكلمة الثانية على أنكم وإن ضعفتم وابتليتم فذلك عادة اللّه فيمن يريد أن ينصره ثمّ عقب ذلك بتوبيخهم على الاختلاف وتشتت الآراء والمذاهب في الدين لأنّه يؤدّي إلى طول محنتهم وضعفهم عن مقاومة عدوهم وفساد نظام دينهم ودنياهم فقال:

[وفي دون ما استقبلتم من عتب] أي: من عتابي لكم.

[واستدبرتم من خطب] أي: من الأهوال التي كنتم ترونها من المشركين في مبدء الإسلام حيث كنتم قليلين وأُمرتم أن يثبت الواحد منكم لعشرة منهم ثم أيّدكم اللّه بنصره وبالتأليف بين قلوبكم وجبر عظيمكم بمن أسلم ودخل في دينكم [معتبر] رأي معتبر وفيه لكم اعتبار فإنّكم لو لم تتّحدوا في الدين وتاقسوا مرارة ذلك الصبر واختلفت آرائكم في ذلك كاختلافها الآن وكنتم إذا على غاية من الكثرة لم تغن عنكم كثرتكم شيئاً فكأنّه قال فيجب من ذلك الاعتبار أن لا تفترقوا في الرأي وأن تتحدوا في الدين وتراجعوا إمامكم في جميع أحكامكم في الأُصول والفروع.

فهرس الجزء الأوّل